الجامعـــــة الإســـــلامية - غـــــزة
عمـــــادة الدراســـــــات العليـــــا
كليـــــــــــــــــــة الآداب
قـــــــسم التـــــــاريخ والآثـــــــار

السياسة الداخلية لنور الدين محمود زنكي

541 - 569 هـ / 1146 - 1174 م

إعـداد الطـالب

محمد نجيب/ عبد الوهاب محمد حمد

إشـراف

الأستاذ الدكتور/ رياض مصطفى شاهين

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في التاريخ الإسلامي

1430هـ - 2009م

((الإهـــــــــداء))

إلى من جعلهما الله سبباً في وجودي، والديّ رحمهما الله وأسكنهما فسيح جناته.

إلى زوجي التي لم تدخر وسعاً في مساعدتي، وتشجيعي نحو مواصلة درب العلم، وإلى أبنائي وبناتي عصافير الحب، والأمل.

إلى الشعب الفلسطيني المجاهد الصامد.

إلى أسرانا البواسل القابعين خلف القضبان، نسأل الله لهم الفرج القريب.
وإلى كل من يقاوم صنوف الشر والطغيان في كل زمان ومكان.

شـــكر و تقديـــر

يسعدني أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان والتقدير– بعد شكر الله والثناء عليه– إلى كل من قدم لي المساعدة، إلى كل من كان لهم الفضل في توجيهي، ومنحوني الرعاية، وأســدوا لـــي النـــصيحة، وأعطوني من خبرتهم وإرشاداتهم وتوجيهاتهم ونصائحهم ما كان لي زاداً ونبراساً أضاء لي طريـــق البحث، وأخص بالذكر أستاذي ومشرفي الأستاذ الدكتور "رياض مصطفى شاهين"، الذي تجشم العناء والمتاعب في سبيل إخراج هذا البحث إلى النور، ولم يبخل على بوقته وجهده وتوجيهاتـــه ومكتبتـــه ليخرج البحث بالصورة التي بين أيدينا.

وشكري وعرفاني إلى زوجتي أم عز الدين على صبرها وتجشمها معي عناء البحث والدراسة و العناية والتشجيع، فجزاها الله عني كل خير.

كما وأشكر الأستاذ عبد الحميد جمال الفراني لمساهمته الفعالة في مساعدتي وتقديم المراجـــع والمصادر اللازمة.

وأقدم شكري إلى ابن أخي عبد الوهاب الكتري.

ويسعدني أن أقدم الشكر لكل من أسهم بإمدادي بالمعلومات القيمة لإتمام بحثي، وأخص بالذكر مكتبة: الجامعة الإسلامية والعاملين فيها.

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة
الإهـــــداء	أ
شكر و تقدير	ب
الفهـــرس	ج
قائمة المختصرات والرموز	ح
ملخص الدراسة	ط
المقدمة	ي
دراسة تحليلة لأهم المصادر والمراجع	ل
الفصل الأول: حياة نور الدين محمود وجهاده .	1
أولاً: حياة ونشأة نور الدين محمود:	2
1- مولد نور الدين محمود ونسبه:	2
2- نشأة نور الدين محمود:	5
3- صفات نور الدين محمود:	6
4- ثقافة نور الدين محمود:	10
5- وفاة نور الدين محمود:	11
ثانيا: جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين الفرنجة.	12
1- جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين الفرنجة في مملكة بيت المقدس اللاتينية.	13
2- جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين الفرنجة في الإمارات الصليبية.	18
ثالثا: حرص نور الدين محمود على وحدة وتماسك الدولة الإسلامية.	24
1- الموصل.	25
2- دمشق.	28
3- مصر.	32
رابعا: موقف نور الدين محمود من الباطنية الإسماعيلية (الحشاشين).	39
خامسا:علاقة نور الدين محمود بصلاح الدين الأيوبي.	41
الفصل الثاني: منهج نور الدين محمود في إدارة الدولة.	47
أولا: تقسيمات نور الدين محمود الإدارية للدولة.	48
ثانياً: التزام نور الدين محمود بالشريعة الإسلامية.	**55**

ثالثاً: الأنظمة والوظائف الإدارية في عهد نور الدين محمود.	59
1- الوزارة.	60
2- النائب.	61
3- المستوفي.	62
4- الأمير الحاجب.	64
5- الوإلى أو متولي الولاية.	65
6- الشحنة.	66
7- رئيس المدينة أو البلد.	69
8- وإلى القلعة (الدزدار).	69
9- كاتب الحكم.	70
10- المحتسب.	70
11- ناظر النظار.	72
12- الأسكدار.	72
13- أطباء الخاصة.	72
14- أمير الحج.	73
15- الخطيب.	73
16- عامل الخراج (البندار).	74
رابعاً: الشروط الواجب توافرها في الموظفين الإداريين في عهد نور الدين محمود.	74
خامسا: اهتمام نور الدين بشئون القضاء.	79
سادسا: الدواوين في عهد نور الدين محمود.	85
1- ديوان الإنشاء.	86
2- ديوان البريد.	86
3- ديوان الضرب.	88
4- ديوان الإشراف.	88
الفصل الثالث: الجيش النوري ونظمه العسكرية.	89
أولا: عناصر الجيش وحجمه.	90
ثانيا: تنظيمات الجيش.	93
ثانيا: التعبئة وأساليب القتال.	101
ثالثاً: الإنجازات العسكرية.	116

رابعاً: الأسلحة والمؤن والعتاد:-	117
خامساً: الإقطاع الحربي:-	121
1- معنى الإقطاع في اللغة.	121
2- أقسام الإقطاع.	122
أ- إقطاع تمليك.	122
ب- إقطاع الاستغلال.	122
3- الإقطاع في الدولة النورية.	124
الفصل الرابع:- النظام المإلى والاقتصادي للدولة.	129
أولاً: النظام المإلى.	130
1- الموارد الشرعية الرئيسة .	130
أ- الزكاة .	130
ب- الجزية.	130
ج- الغنائم.	131
د- الخراج.	132
2- الموارد الفرعية: إلغاء الضرائب والمكوس.	132
ثانياً: النفقات:-	137
1- الإنفاق على المصالح العامة.	137
ثالثاً: النظام الاقتصادي:-	137
1- الزراعة وملكية الأراضي.	137
2- المجال الصناعي.	143
3- المجال التجاري.	150
الفصل الخامس:- المؤسسات العلمية والثقافية في عهد نور الدين	157
أولاً: المؤسسات الدينية والتعليمية.	158
1- المساجد.	158
2- المدارس.	162
3- البيمارستان.	166
أ- البيمارستان النوري في حلب.	166
ب- البيمارستان النوري في دمشق .	167

4- الربط .	170
5- الخوانق.	171
6- الزوايا .	172
7- دور الحديث .	174
ثانياً : تشجيع نور الدين محمود للعلم والعلماء .	174
ثالثاً : ميادين العلوم في عهد نور الدين محمود .	181
1- العلوم الشرعية .	181
أ- علم القرآن .	182
ب- علم التفسير .	183
ج- علم الحديث .	184
د- الفقه وأصوله .	186
1- المذهب الشافعي .	186
2- المذهب الحنفي .	187
3- المذهب الحنبلي .	188
2- علوم اللغة العربية .	189
3- العلوم التاريخية والجغرافية .	191
أ- التاريخ	192
1- التراجم والطبقات .	192
2- التاريخ المحلي (الخاص) .	193
3-التاريخ العالمي (العام) .	193
4- التاريخ المعاصر (المذكرات)	194
ب- الجغرافيا والرحلات .	195
رابعاً: علوم الرياضيات والفلك	196
أ- الرياضيات	196
ب- الفلك	197
خامساً: علوم الطب والصيدلة	197
أ- الطب	197
ب- الصيدلة	200
الخاتمة	202

الملاحق(1) : بلاد الشام ومصر في عهد نور الدين .	**203**
المصادر والمراجع	**204**
الملخص باللغة الانجليزية	**223**

قائمة المختصرات والرموز:

1- ت: توفي.
2- ج: جزء.
3- خ: مخطوط .
4- د.ت: دون تاريخ .
5- د.ط : دون طبعه .
6- د.ن : دون ناشر .
7- ص : صفحة .
8- ط : طبعة أو مطبوع .
9- ع : عدد .
10- ق : قسم .
11- م : ميلادي .
12- مج : مجلد .
13- هـ : هجري .

14- Vol: Volume.
15- P: Page.
16- R. H. C. H. Occ. Recueil des Historiens des Croisades, Historiesns Occidentaux.
17- R. H.E. Revue d,Hist Ecclesiastique.
18- R.H.G.F. Recuiel des Historiens des Gaules et di la France.
19- R.O.L. Revue de Lorient Latin.

ملخص الدراسة:

تناولت الدراسة نشأة نور الدين، وجهاده، وثقافته، وعمله المتواصل لتوحيد الأمة، حيث أدار دولته بحنكة واهتمام، ونشر العدل بين الناس، وعمل على تطوير جيشه بكل ما يلزم من معدات، وعتاد، وهزم الصليبيين في معارك شتى.

وقد نظم الأمور المالية والاقتصادية بطريقة حسنة في كل من :

التجارة، والصناعة، والزراعة، واهتم بالجانب التربوي، والعلمي، والثقافي، والصحي، فبنى المساجد ، والمستشفيات، وبنى الربط للمجاهدين في البلاد.

وقد قسمت الدراسة إلى خمسة فصول، تناول فيها الباحث ما يلي :

الفصل الأول : حياة نور الدين محمود، وجهاده .

الفصل الثاني : منهج نور الدين في إدارة الدولة .

الفصل الثالث : الجيش النوري ونظمه العسكرية ، حيث رتبه إلى تنظيمات، ووظائف، واهتم بالتسليح، والتدريب، وأساليب التعبئة، والقتال، وزود الجيش بكل ما يحتاج من مؤن، وسلاح، وعتاد، ووزع الإقطاع على قادة الجند .

الفصل الرابع : النظام المإلى والاقتصادي للدولة .

أولاً : النظام المالى :

1- الموارد المالية، وما تحتوي من أموال و موارد رئيسة من : زكاة، وجزية، وغنائم .

2- الموارد الفرعية مثل : الضرائب، والمكوس، واستثماره لكثير من المناطق الاقتصادية ذات القيمة الاقتصادية عند سيطرته عليه .

ثانياً : النظام الاقتصادي : وما شمل من : زراعة، وصناعة، وحرف، وتجارة، وما يحصل من وراء ذلك من الأموال .

الفصل الخامس: تناول الباحث بالدراسة والتحليل للمؤسسات العلمية، والثقافية في زمن نور الدين من : مساجد، ومدارس، وبيمارستانات، والأربطة، والخوانق، ودور الحديث .

و أنهى الباحث دراسته بخاتمة أورد فيها ما توصل إليه من نتائج، ويأمل الباحث من خلال هذه الدراسة التفصيلية أن يكون قد أوفى نور الدين محمود بن زنكي حقه، وأن يكون قد أحاط بالموضوع من كل جوانبه بشكل موضوعي، وأعطى فكرة واضحة عن جهود نور الدين محمود في توحيد الدولة الإسلامية في مصر والشام وشمال العراق، وبناء دولة فتية استطاعت أن تحقق العديد من الانجازات العسكرية ضد المحتل الصليبي، وأن تكون هذه الدراسة بداية لدراسات لاحقة عن شخصيات إسلامية كان لها دور في بناء الدولة الإسلامية، والجهاد ضد أعداء الأمة.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه واستن بسنته إلى يوم الدين.

تناولت هذه الدراسة حقبة زمنية هامة في التاريخ الإسلامي، وهذه الحقبة الزمنية تمتد ما بين (541هـ- 1146م) = (569هـ- 1174م)، حيث تعد من أهم الحقب التاريخية التي تولى فيها نور الدين محمود بن زنكي الحكم، حيث نشر العدل، وقام بالجهاد ضد الأعداء، وأعاد للأمة وحدتها.

فقد عمل على تنظيم البلاد في جميع نواحي حياتها، العسكرية والإدارية والاقتصادية، فحارب معظم الأوقات وهادن في بعض الأحيان، وبذل جهده لتنظيم الجيش وتقويته، ورفع المظالم عن الناس، وكذلك الضرائب وغيرها، وهادن الصليبيين في بعض الأوقات فكان مشغولاً ليلاً ونهاراً، لإقامة دولة إسلامية واحدة، ونجح في ذلك، حيث وحد بلاد المسلمين من الفرات حتى النيل.

مبررات الدراسة :

لعل مبررات اختيارنا لهذا الموضوع دون سواه عديدة ، نذكر منها :

1- كانت نتيجة ظروف ألمت بواقعنا الفلسطيني، وما نراه من تمزق الأمة وتحالفات مع الأعداء، وإعطاء الطاعة لهم على حساب وطننا وشعبنا ، فكان لزاماً البحث عن فترة تاريخية مشابه لها، وما هي أسباب خلاص الأمة في تلك الفترة، وماذا فعلت في مواجه هذه الشرذمة.

2- وجود شخصية مثل : نور الدين محمود بن زنكي ، وقدرته على محاربة الصليبيين، وبذله الجهد في توحيد الأمة، والتعامل مع الأمراء، والحكام، حتى نتخذه نبراساً، وقدوة للخلاص من واقعنا الحالي.

تساؤلات تجيب عنها الدراسة :

- من هو نور الدين محمود ، ومتى ولد ، وأين نشأ ، وما هي صفاته، وما هو مستواه العلمي ؟ .
- ما هي أبز المحطات الجهادية في حياة نور الدين محمود ؟ .
- ما مدى حرص نور الدين على وحدة وتماسك الدولة الإسلامية ؟ .
- ما هي أبرز الدلائل على التزام نور الدين بالشريعة الإسلامية ؟ .
- ما هي أهم الأنظمة والوظائف الإدارية في دولة نور الدين ؟.
- كيف كانت الأحوال العسكرية في دولة نور الدين محمود ؟.
- ماهي أهم الأنظمة المالية والاقتصادية في دولة نور الدين ؟.
- ما هي أهم المؤسسات العلمية والثقافية ، وأبرز العلماء في دولة نور الدين ؟ .

تقسيمات الدراسة :

وقد قسمت الدراسة إلى خمسة فصول، وخاتمة ، ثم المصادر والمراجع، تناول فيها الباحث ما يلي :

-**الفصل الأول :** حياة نور الدين محمود، وجهاده .

-**الفصل الثاني :** منهج نور الدين في إدارة الدولة .

-**الفصل الثالث :** الجيش النوري ونظمه العسكرية ، حيث رتبه إلى تنظيمات، ووظائف، واهتم بالتسليح، والتدريب، وأسإلىب التعبئة، والقتال، وزود الجيش بكل ما يحتاج من مؤن، وسلاح، وعتاد، ووزع الإقطاع على قادة الجند .

-**الفصل الرابع :** النظام المالي والاقتصادي للدولة .

أولاً : النظام المالي :

1- الموارد المالية، وما تحتوي من أموال موارد رئيسة من : زكاة، وجزية، وغنائم .

2- الموارد الفرعية مثل : الضرائب، والمكوس، واستثماره لكثير من المناطق الاقتصادية ذات القيمة الاقتصادية عند سيطرته عليه .

ثانياً : النظام الاقتصادي : وما شمل من : زراعة، وصناعة، وحرف، وتجارة، وما يحصل من وراء ذلك من الأموال .

-**الفصل الخامس:** تناول الباحث بالدراسة والتحليل للمؤسسات العلمية، والثقافية في زمن نور الدين من : مساجد، ومدارس، وبيمارستانات، والأربطة، والخوانق، ودور الحديث .

- وقد ذيلت الدراسة بخاتمة أظهرت فيها النتائج، والتوصيات، إضافة إلى ذلك: أوردت المصادر والمراجع، التي استقيت منها معلوماتي .

مشكلات واجهت الباحث، وكيف تغلب عليها :

واجه الباحث مشكلات عدة، منها : البحث عن مراجع للدراسة، وترجمة بعض المصادر والمراجع الأجنبية .

وقد استطاع الباحث بحمد الله وتوفيقه التغلب عليها، حتى أصبحت الدراسة كاملة، ومستوفاه .

منهجية الدراسة :

شرع الباحث في استخدام المنهج الوصفي التحليلي للتاريخ، وذلك لإبراز أهم الموضوعات في الدراسة مثل : حياة نور الدين محمود، وجهاده، ومنهجه في إدارة دولته، ووصف وتحليل لجيشه، ونظمه العسكرية، والنظام المالي، والاقتصادي في الدولة، والمؤسسات العلمية والثقافية في عهده .

دراسة تحليلية لأهم المصادر والمراجع:

تتطلب دراسة الدولة النورية الرجوع إلى عدد كبير من المصادر والمراجع العربية، وحتى الأجنبية، ويعود ذلك إلى طبيعة هذا الموضوع، الذي يتناول مرحلة دقيقة من مراحل حياة الأمة في ظل حكم الدولة النورية، التي نشأت في ظل أزمتين خانقتين كانت تعيشهما الأمة الإسلامية، الأولى: هي أزمة التفكك والضياع، والثانية: أزمة الاحتلال الصليبي الجاثم على الأرض العربية الإسلامية؛ فكان لزاماً علينا تغطية تلك المرحلة من خلال المصادر المعاصرة واللاحقة.

ولعل نظرة تحليلية سريعة لأهم مصادر البحث، تعطينا فكرة مهمة عن المصادر التي زودت موضوع الدراسة بكثير من المعلومات القيمة، التي لولاها لما قدر لهذا البحث أن يخرج بالصورة التي هو عليها الآن.

أولاً المصادر العربية:

1-كتب التاريخ العام:

أ- ابن القلانسي: أبو يعلى حمزة بن أسد بن على بن محمد التميمي (ت 555هـ/1160م) هو ابن أسرة دمشقية، وكانت رئاسة دمشق لبعض رجالها، وفي ظل هذه الأسرة ترعرع ابن القلانسي، وقد تولى رئاسة ديوانها مرتين، وجمع بين كتابة الإنشاء، (ديوان الرسائل)، وكتابة الحساب (ديوان الخراج)، فأتيح له أن يطلع على محفوظات الدولة في دمشق، وأن يتعرف على الكثير من الأمور السياسية خلال حكم الأتابكة من أبناء طغتكين([1]) لدمشق[2]، ويعد كتابه "المذيل في تاريخ دمشق" المشهور خطأ باسم "ذيل تاريخ دمشق" لأن مؤلفه قد جعله تذييلاً على تاريخ هلال الصابئ[3]؛ الوحيد

---

(1) طغتكين: (ظهير الدين، أبو منصور) كان في بداية أمره غلاماً لتاج الدولة تتش، فأعتقه وأضحى من كبار قادته العسكريين، ثم أسند له منصب الإسفهسلارية (مقدم العسكر. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص483. الباشا، الألقاب، ص156-157.) ثم أسند إليه ولاية حلب خلال انشغاله في الحرب، وسلمه ابنه دقاق ليكون مربياً له، وعندما سار تتش إلى الري سنة 487هـ/1094م وانهزم هناك وقتل ، تم أسر طغتكين في يد السلطان بركياروق الذي أطلق صراحة سنة 488هـ/1095م مقابل إطلاق رضوان صاحب حلب القائد كربوقا صنيع السلطان بركياروق والذى أصبح أميرا للموصل، وعندما توفي دقاق قام طغتكين بإدارة ولاية دمشق وتخلص من بقايا أسرة تتش وأقام أسرة حاكمة جديدة دعيت الأسرة البورية. انظر: ابن القلانسي، ذيل، ص130-131. ابن عساكر، تاريخ، ج25، ص3. ابن الأثير، الكامل، ج8ص496،ج9، ص4-248،74،5. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص120-121، 150. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص164. الصفدي، الوافي، ج16، ص451. مصطفى، طغتكين، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت،عدد(2)1972م.

(2) اليافعي، مرآة الجنان، ج3، ص308. ياقوت، معجم، ج10، ص278. العريني، مؤرخو الحروب، ص192. بروكلمان، تاريخ الأدب، ج6، ص68-69. مصطفى، التاريخ، ج2، ص226-237. عمار، التاريخ، ص203. محمد، مقدمة، ص159.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص86. مصطفى، التاريخ، ج2، ص238. عمار، التاريخ، ص203-204. Gibb,The Damascus, P.9

الذي وصلنا كاملاً عن المرحلة الواقعة بين قدوم السلاجقة إلى بلاد الشام، ثم حكم نور الدين محمود لهذه البلاد[1].

وقد أمد هذا المصدر الدراسة بقدر وافر من المعلومات شكلت مادة مهمة في معظم فصول الدراسة، وبشكل خاص في الفصلين الأول والثاني.

ب- ابن عساكر: أبي القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله (ت571هـ/1176م):

المؤرخ الحافظ الرحالة، كان محدث الديار الشامية، ولد هذا العالم الجليل في دمشق سنة 499 هـ/1105م، وشب ونما في أحضان مدارسها وحلقات الإقراء والحديث الحافلة التي كانت تعقد في مسجد بني أمية، وفي منارات أخرى للعلم والحديث والفقه كالمدرسة الغزالية(2)، التي كان يتردد عليها ويأخذ عن أرباب العلم الذين كانوا يدرسون فيها، فكان لكل ذلك أثرٌ كبيرٌ في توجهه نحو العلم ونبوغه فيه، ولكن بعد وفاة أبيه، عقد العزم على الرحلة إلى طلب العلم، فاتجه نحو العراق أولاً، ثم عاد إلى دمشق بعد سنة قاصداً الحج، وفي مكة والمدينة سمع ممن لقي من العلماء وحدث بمكة، ثم عاد من مكة ميمماً شطر العراق ثانيةً فأقام في العراق خمس سنين في بغداد، وسائر مدن العراق، وكانت حافلة بشيوخ العلم كالموصل والرحبة والجزيرة وماردين والكوفة، متنقلاً بينها شمالاً وجنوباً.

وقد أنهى رحلته العلمية هذه، وعاد إلى بغداد ومنها إلى دمشق بعد أن استنفذ ما عند علماء بغداد وشيوخها، وضمنه صدره وصحائفه، وفي دمشق أخذ يستعد لرحلة جديدة في طلب الحديث، ولكن هذه المرة إلى ما وراء بغداد إلى خراسان، ثم عاد إلى دمشق، ثم كان دخول نور الدين زنكي إلى دمشق، ورقي خبر ابن عساكر إلى نور الدين.

وقد بنى له نور الدين داراً لتعليم الحديث سميت فيما بعد دار الحديث النورية، وهي أول مدرسة أنشئت في الإسلام لتعلىم الحديث، وتولى التدريس فيها الحافظ ابن عساكر نفسه وابنه، ثم بنو عساكر من بعدهما، وكان نور الدين يحضر حلقات تدريس له فيها كما كان السلطان صلاح الدين يحضر مجلسه ودروسه أيضا(3).

ويعد كتابه تاريخ دمشق مرجعاً مهماً تناول فيه أحداث المدينة منذ نشأتها وحتى افتتاح نور الدين محمود لها، وهو يحتوي على عددٍ كبيرٍ من تراجم العلماء والأدباء الذين عاشوا في كنف الدولة النورية، فضلاً عن أنه يترجم ترجمة وافية عن حياة نور الدين محمود وفتوحاته، ويقدم معلومات قيمة عن مختلف جوانب الحياة في المدينة الثانية في الدولة النورية.

([1]) العريني، مؤرخو، ص192. الحناوي، ص7.

(2) وهي زواية الشيخ نصر المقدسي أصلا وصارت تعرف فيما بعد بالغزالية نسبة إلى الإمام الغزالي. السبكي، طبقات، ج3، ص112.

(3) ابن خلكان، وفيات، ج3، ص309. ابن كثير، البداية، ج12، ص294. السبكي، طبقات الشافعية، ج4، ص 273. ابن الوردي، تتمة، ج2، ص87. الذهبي، سير، ج20، ص567.

وتكمن أهمية تاريخ دمشق لابن عساكر في أن مؤلفه كان معاصراً لنور الدين، بل وشاهداً على الأحداث التي سبقت، وأعقبت ضم نور الدين لمدينة دمشق.

وقد أفاد الباحث من هذا الكتاب في جميع فصول البحث، وبشكل خاص في الفصلين الأول والخامس.

ج- العماد الأصفهاني: أبو عبد الله محمد بن محمد (ت 579هـ/1200):

العماد الأصفهاني: (519- 597هـ) الكاتب، أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن نفيس الدين أبي الرجا حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله المعروف بابن أخي العزيز، الملقب عماد الدين الكاتب الأصبهاني، كان فقيهاً، شافعي المذهب، تفقه بالمدرسة النظامية زماناً، وأتقن الخلاف وفنون الأدب، وله من الشعر والرسائل ما يغني عن الإطالة في شرحه، وكان قد نشأ بأصبهان، وقدم بغداد في حداثته وتفقه على الشيخ أبي منصور سعيد بن محمد بن الرزاز مدرس النظامية، وسمع بها الحديث، وأتقن الخلاف وفنون الأدب، وله من الشعر والرسائل الكثير، ولما تخرج ومهر، تعلق بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ببغداد، فولاه النظر بالبصرة، ثم بواسط، ثم انتقل إلى مدينة دمشق، فوصلها في شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة وسلطانها يومئذ الملك العادل نور الدين، وحصل بينه وبين صلاح الدين في تلك المدة مودة، وعلت منزلته عند نور الدين، وصار صاحب سره وسيره إلى بغداد رسولاً في أيام الإمام المستنجد، ولما عاد فوض إليه تدريس المدرسة المعروفة به في دمشق في شهر رجب سنة سبعٍ وستين وخمسمائة، ثم رتبه في إشراف الديوان في سنة ثمانٍ وستين، ولم يزل مستقيم الحال إلى أن توفي نور الدين، ثم عمل في خدمة السلطان صلاح الدين، و كان من كتاب عصره المشهورين، ولم يزل العماد الكاتب على مكانته ورفعة منزلته إلى أن توفي السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى، فاختلت أحواله وتعطلت أوصاله ولم يجد في وجهه بابا مفتوحا فلزم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصانيف والتي منها: الخريدة، والبرق الشامي، والفتح القدسي، وتاريخ الدولة السلجوقية وغيرها[1].

وقد تميز أسلوبه بالإسراف في المحسنات اللفظية، والصياغة البديعية، غير أن تأليفه كان يحوي الكثير من الروايات التاريخية الممتازة التي تستحق العناية، لأن مؤلفها شاهد وعاصر الأحداث بنفسه، ثم سجلها بأسلوبه الأدبي[2].

وقد ألف الأصفهاني خمسة كتب في التاريخ، والذي يعنينا منها ما كان له علاقة بمادة الدراسة وهي:

([1]) الأصفهاني، الفتح القسي، ص 88-89، 142، 209. سعداوي، المؤرخون، ص19-28.

([2]) عبد القادر، سياسة صلاح الدين، ص17.

1- كتاب البرق الشامي: ويغلب على هذا الكتاب طابع المذكرات الشخصية، حيث وصف فيه ما شاهده بنفسه أثناء مصاحبته لصلاح الدين[1]، ويقع هذا الكتاب في سبعة مجلدات لا يوجد منها سوى الجزء الثالث والخامس، والذي حققه فالح حسين، وقد اعتمدنا عليهما، أما باقي الأجزاء فقد اعتمدنا على مادتها فيما نقله إلينا أبو شامة في الروضتين، بالإضافة إلى المختصر الذي ألفه الفتح البنداري، والذي أطلق عليه اسم "سنا البرق الشامي".

2- كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي: وهو المصدر الثاني للعماد، الذي اعتمدنا عليه. وترجع أهمية المصدرين السابقين إلى كون صاحبهما من رجال الإدارة في عهد صلاح الدين، وأحد كتابه المقربين، والقائمين على الأمور بديوان إنشائه والمطلعين على مراسلاته ووثائقه.

ولقد أفاد الأصفهاني بهذين المؤلفين الدراسة بما قدمه من معلومات مهمة خاصة حول علاقة صلاح الدين بنور الدين واتصاله بالبيت الأيوبي.

3- خريدة القصر وجريدة العصر: وهو كتاب أدبي جمع الكثير من القصائد الشعرية وأسماء الشعراء الذين عاصروا حكام تلك الحقبة من تاريخ بلاد الشام، وقد استفاد الباحث من ذلك المصدر في التعرف على طبيعة الحياة الأدبية زمن نور الدين محمود.

د- ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (630هـ/1234م):

ولد سنة 555هـ/1160م في جزيرة ابن عمر، وهاجر مع أسرته سنة 576هـ/1180م إلى الموصل([2])، وشاهد حروب الصليبيين مع جيش الموصل بعد سنة (584هـ/1188م)، ولهذا اعتمد على ما سمعه ونقله في الحوادث الواقعة قبل سنة 584هـ/1188م[3]، أما بعدها فيعد ابن الأثير مصدراً معاصراً لها[4]، ولكون ابن الأثير معاصراً لأحداث الغزو الصليبي، فقد امتاز بحسن الاطلاع والنظرة الشاملة للأحداث التاريخية المتعلقة بهذا الغزو، وقد جاءت معرفته وإطلاعه على شكل تفصيلات وقائعية على مستوى عالٍ، اقتربت بالتسلسل الزمني الذي امتاز بالدقة في تصوير الغزو ونتائجه[5].

([1]) الأصفهاني، البرق الشامي، ج1، ص236-238.

(2) سميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق وقيل وصلت بين دجلة والفرات وقيل لأنها وصلت بين بلد سنجار والحديثة وقيل بل الملك الذي أحدثها كان يسمى الموصل، وهي مدينة قديمة الأس على طرف دجلة ومقابلها من الجانب الشرقي نينوى. ياقوت، معجم، ج5، ص223.

(3) عمار، التاريخ، ص60.

(4) سعداوي، المؤرخون، ص9. عمار، التاريخ، ص61-63.

([5]) محمد، مقدمة، ص136.

وقد أفدت بالدرجة الأولى من كتابه "التاريخ الباهر" الذي يعد مصدراً مهماً، بل وتأريخاً لحكم الأسرة الزنكية لبلاد الشام والجزيرة الفراتية([1])، وبشكل خاص حول الدولة النورية، والتي كان يدين لها ابن الأثير بالولاء والود[2]. وأثرى هذا الكتاب معظم فصول الدراسة وبشكل خاص الفصلين الأول والثاني.

وأفدت بالدرجة الثانية من كتابه "الكامل في التاريخ"، وبدرجةٍ كبيرةٍ في معظم فصول الدراسة، وخاصة الفصل الأول والثاني، حيث أمدنا بالكثير من المعلومات حول أحوال بلاد الشام قبيل حكم نور الدين، كما دون العديد من الحوادث المهمة والتي لم يكن ابن القلانسي المعاصر لها والأكثر قرباً منها قد دونها.

هـ- سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر بن قزاوغلي بن عبد الله (ت654هـ/1256م):

وهو حفيد أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، وقد ولد سنة 582هـ/1186م في بغداد، ونشأ في كنف جده لأمه المؤرخ ابن الجوزي مؤلف كتاب المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تنقل بين بغداد ودمشق ومصر، وعمل كاتباً ومدرساً ومحدثاً، حيث تلقى علومه على يد العديد من الشيوخ والعلماء[3].

ويعد كتاب "مرآة الزمان في تاريخ الأعيان" من أهم المصادر لموضوع البحث، ومن أشهر الكتب التي وصلتنا خلال مرحلة الدراسة وهو تاريخ عام يبدأ من بدء الخليقة وينتهي بعد نهاية سنة 654هـ/1256م، أي نفس السنة التي توفي فيها المؤلف[4].

وقد اعتمد الباحث خلال الدراسة على الجزء الثامن الذي اشتمل على القسمين الأول والثاني اللذان أصدرتهما مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، واعتمدنا على الجزء الأول والثاني حتى سنة 571هـ، واللذان حققهما محمد مسفر الغامدى.

وقد استفاد الباحث من هذا المصدر في مواضع كثيرة من الدراسة، منها الفصل الأول الذي تناول أوضاع بلاد الشام السياسية قبيل الحكم النوري، مع العلم أن معلوماته لم تكن تختلف كثيراً عن تلك التي أوردها ابن القلانسي و ابن الأثير في ذلك الموضوع[5].

ومن المعلومات التي استفاد منها الباحث في هذا المصدر ما يتعلق بتراجم بعض العلماء والفقهاء الذين شاركوا في الحياة العلمية زمن نور الدين محمود.

---

(1) الجزيرة الفراتية: هي التي بين دجلة والفرات مجاورة الشام تشتمل على ديار مضر وديار بكر سميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات وهما يقبلان من بلاد الروم وينحطان متسامتين حتى يلتقيا قرب البصرة ثم يصبان في البحر(الخليج العربي). ياقوت، معجم، ج2، ص134.

([2]) مصطفى، التاريخ، ج2، ص114.

([3]) سالم، التاريخ، ص103. الغامدى، بلاد الشام، ص15.

([4]) مصطفى، التاريخ، ج2،ص544ـ545.

([5]) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص544-545.

ونظراً لأهمية هذا الكتاب، فقد ذيّل عليه قطب الدين موسى بن محمد بن أبي الحسن اليونيني المتوفى سنة 726هـ/1326م كتاباً مهماً سماه "ذيل مرآة الزمان في تاريخ الفضلاء والأعيان"، ورتبه على أساس حولي، وقد أفاد البحث من هذا الكتاب في الكثير من الأحداث التي سبقت عهده والتي دوّن معلوماته عنها نقلاً عن مؤرخين آخرين أمثال ابن واصل، وابن شداد الحلبي وغيرهما[1].

و-ابن العديم: كمال الدين ابن القاسم عمر بن أحمد بن وهبة الله (ت660هـ-1261م):

ولد ابن العديم سنة 588هـ/1192م. وهو من أسرة عريقة في حلب، نشأ ابن العديم في حلب وتعلم في مدارسها على يد العديد من العلماء ورافق أباه في بعض رحلاته إلى دمشق وبيت المقدس والعراق والحجاز، وجالس العلماء وأخذ عنهم[2]، ومن هنا جاءت أهمية كتبه، ومن هذه الكتب:

1- "بغية الطلب في تاريخ حلب":

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه من أوثق المصادر وأصدقها عن تاريخ بلاد الشام وخاصة في الفترة موضوع الدراسة، نظراً؛ لأن ابن العديم اعتمد على مصادر أصلية ومعاصرة معظمها مفقود. ومن تلك المصادر التي نقل عنها ابن العديم كتاب في التاريخ لمؤلفه ابن هلال الصابئي (ت 480هـ)، ومن مصادره أيضاً ما نقله ابن العديم من خط المؤرخ يحيي ابن زريق، كما نقل ابن العديم بعض الروايات عن العماد الأصفهاني، يبدو أنها من كتب العماد المفقودة، إذ لا توجد هذه المعلومات في مؤلفات العماد التي بين أيدينا، واعتمد أيضاً على والده فيما يرويه عن أسلافه، كما قابل ابن الأثير ونقل عنه مشافهة، هذا عدا مصادر أخرى كثيرة نقل عنها ابن العديم، ولا يتسع المجال لذكرها[3].

2- "زبدة الحلب في تاريخ حلب" :

وهو في ثلاثة أجزاء استله ابن العديم من كتابه الكبير بغية الطلب، وأفرده للتاريخ السياسي لحلب ومتعلقاتها على طريقة الحوليات، وهو يبدأ من العصر البيزنطي حتى سنة 641هـ[4].

وقد أفاد الباحث كثيراً من هذين المصدرين كمصدرين أساسيين لتاريخ بلاد الشام في تلك الحقبة، وخاصة في الفصل الأول عند دراسة أوضاع بلاد الشام قبيل الاحتلال الصليبي، وعند حديثه عن أحوال حلب زمن نور الدين.

وكان لهذين الكتابين أهمية كبيرة في المادة المتعلقة بالفصل الرابع.

ز- ابن واصل: جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله (ت 697هـ/1298م):

([1]) المصدر نفسه، ج2، ص114، 115، 161.

([2]) ابن الأتابكي، النجوم، ج7، ص208-209. مصطفى، التاريخ، ج2، ص263. الغامدى، بلاد الشام، ص26-27.

([3]) الغامدى، بلاد الشام، ص27-28.

([4]) المرجع نفسه، ص29.

ولد بحماة سنة 604هـ/1208م، وتلقى بها علومه الأولى، ثم رحل في طلب العلم إلى دمشق وحلب وبيت المقدس والكرك والقاهرة، وبغداد ومكة والمدينة، ونبغ في علوم كثيرة وله مصنفات عدة ، وأقام بمصر مدةً طويلةً، وعاصر الحملات الصليبية المتأخرة وسقوط الدولة الأيوبية[1].

وقد اعتمد ابن واصل على من سبقه من المؤرخين المعاصرين، فنقل العديد من روايات القاضي الفاضل وابن شداد وابن الأثير، وكان كثيراً ما يقول: "ذكر عماد الدين الكاتب"[2]، قال ابن الأثير ما ذكره العماد في البرق[3]، وحكى القاضي بهاء الدين ابن شداد[4].

ومما يؤخذ على ابن واصل أنه لم يميز بين "الفتح" و "الاستيلاء"، فكان يصف دخول نور الدين لبعض المدن الإسلامية التي احتلها الصليبيون، بأنه "استيلاء"[5].

وقد استفاد الباحث من هذا المصدر في الفصل الأول.

ح- أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي (ت665هـ/1267م):

ولد بدمشق 599هـ/1203م، وعرف بأبي شامة لوجود شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر، تفقه على المذهب الشافعي[6].

وهو مؤلف كتاب "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية"، الذي حفظ فيه أبو شامة كثيراً من روايات البرق الشامي للعماد الأصفهاني، المفقود أغلب أجزائه، وروايات المؤرخ ابن أبي طيء الشيعي، والكتب والمناشير التي كان يصدرها القاضي الفاضل بتوقيع نور الدين[7]. وما نقله عن ابن الأثير في باهره، وابن القلانسي في ذيله.

والكتاب يعد بحق من أهم ما كتبه المؤرخون حول الدولتين النورية والصلاحية، وقد ركزنا في استفادتنا منه على ما أورده من معلوماتٍ كثيرةٍ عن نور الدين ووالده وأخوته، والحقيقة أنها كلها معلومات صرح أبو شامة، إلى أنه قد نقلها عن المؤرخين السابق ذكرهم، وإذا انفرد عنهم بمعلومة كان يؤكد ذلك بقوله: "قلت".

كما امتاز كتابه بكثرة الشواهد الشعرية لكبار الشعراء المعاصرين لنور الدين والتي أرخت للحقبة النورية.

([1]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، مقدمة المحقق، ص4، ج4، ص248.

([2]) المصدر نفسه، ج2، ص9، 43.

([3]) المصدر نفسه، ج2، ص40.

([4]) المصدر نفسه، ج2، ص59.

([5]) المصدر نفسه، ج2، ص93، 105.

([6]) السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص165-167. مصطفى، التاريخ، ج2، ص266.

([7]) عبد القادر، سياسة صلاح الدين، ص35.

وقد أفاد الباحث من هذا المصدر إفادة كبيرة في كل فصول الدراسة، دون استثناء وخاصة أنه يؤرخ للدولة النورية في كل جوانبها.

كما واستفاد الباحث من مصدرٍ آخرٍ لأبي شامة ألا وهو"الذيل على الروضتين"، الذي تحدث فيه عن الفترة من 590هـ حتى وفاته سنة 665هـ، وأكثر فيه من التراجم للعلماء والفقهاء الذين عاشوا في بلاد الشام خلال تلك الحقبة.

ط – الأسدي: (بدر الدين، أبو الفضل) محمد بن أحمد بن قاضي شهبة (ت 874هـ/1469م) الدمشقي، الشافعي، المعروف بابن قاضي شهبة، الفقيه، والمؤرخ. من آثاره: الكواكب الدرية في السيرة النورية، تطريف المجالس بذكر الفوائد والنفائس، بداية المحتاج في شرح المنهاج للنووي، المسائل المعلمات بالاعتراضات على المهمات، وكفاية المحتاج إلى توجيه المنهاج وكلها في فروع الفقه الشافعي([1]).

وما يهمنا من كتب الأسدي هو كتاب الكواكب الدرية الذي يبحث في تاريخ الدولة النورية، ويحذو حذو ابن الأثير وأبو شامة في تأريخهما للدولة النورية، بل أن جل كتابه هو تكرار لما ورد في الكتابين السابقين، إضافة إلى كل ما كتبه المؤرخون الذين سبقوه حول نور الدين محمود، والأحداث التي سبقت مولده وتوليه الحكم.

وتكمن أهمية الكتاب في أنه جمع شتات كل ما تم كتابته عن نور الدين ابتداءً من ابن القلانسي وحتى عهده، ويمتاز الكتاب بحسن ترتيبه، ويسير على الترتيب الحولي للأحداث، ويتقصى كل صغيرة وكبيرة عن نور الدين محمود.

وقد أفدنا من هذا المصدر إفادةً كبيرةً، إلى جانب ما كتبته المصادر الأخرى، وكان محور الاستفادة في جميع فصول الدراسة، ولكن بدرجاتٍ متفاوتةٍ.

(1) خليفة: كشف الظنون، ص 1521، 1522. البغدادي: إيضاح المكنون، ج1، ص 169، ج2، ص 373، 475.

2- كتب التراجم:

قدمت هذه الكتب، خلال ترجمتها للأشخاص الكثير من المعلومات المهمة حول طبيعة الحياة العلمية زمن نور الدين محمود، فضلاً عن استفادة الباحث من هذه المصادر في التراجم الموجودة في هوامش البحث.

وأهم كتب التراجم التي اعتمدت عليها الدراسة، كتاب "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" لابن خلكان (ت681هـ/1282م)، و"طبقات الشافعية الكبرى" للسبكي (ت 771هـ/1369م)، إضافة إلى كتب الطبقات الأخرى .

ومن كتب التراجم أيضاً كتاب "سير أعلام النبلاء"، و"تاريخ الإسلام"،و"العبر" لشمس الدين الذهبي (ت 748هـ/1347م)، وكتاب "الوافي بالوفيات" لابن أيبك الصفدي (ت 764هـ/1363م)، وكتاب "المنهل الصافي" لابن تغري بردي (ت 874هـ/1464م)، وكتاب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" لابن عماد الحنبلي (ت 1089هـ/1678م).

3- كتب الجغرافية والرحلات:

قدمت هذه المجموعة من الكتب معلومات قيمة عن الناحية الجغرافية لبلاد الشام موضوع الدراسة وخاصة في الفصل الأول، واستفاد الباحث من هذه المصادر خلال تعريفه للكثير من المناطق الإسلامية في بلاد الشام ومن هذه المصادر:

أ- **الإدريسي:** أبو عبد الله محمد بن محمد ابن عبد الله بن إدريس الصقلي (ت560هـ/1166م)

أحد كبار الجغرافيين في التاريخ ومؤسس علم الجغرافيا، كما أنه كتب في التاريخ ، والأدب ، والشعر، والنبات ودرس الفلسفة، والطب، والنجوم، في قرطبة.

ولد في مدينة سبتة جنوب الأندلس عام (493هـ/1100م)، تعلم و طاف البلاد فزار الحجاز و مصر. وصل سواحل فرنسا و إنكلترا . سافر إلى القسطنطينية وسواحل آسيا الصغرى، وعاش فترة في صقلية، ونزل فيها ضيفاً على ملكها روجر الثاني، وتركها في أواخر أيامه، ليعود إلى بلدته سبتة حيث توفي.

وقد ألف الإدريسي كتابه المشهور (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، والمسمى أيضاً (كتاب رجار)، أو (الكتاب الرجاري)، وذلك لأن الملك رجار ملك صقلية هو الذي طلب منه تأليفه، ويعد من أشهر الآثار الجغرافية العربية، التي أفاد منه الأوروبيون معلومات جمة عن بلاد المشرق، كما أفاد منه الشرقيون، فأخذ عنه الفريقان ونقلوا خرائطه، وترجموا بعض أقسامه إلى مختلف لغاتهم([1]).

(1) عوض، الجغرافيون، ص17-23.

والكتاب بحق من المصادر المهمة في مرحلة الدراسة، لأن كاتبه الإدريسي كان معاصراً للأحداث، وقد اعتمد على مشاهداته الشخصية، حيث تناول جوانب مختلفة للحياة في المدن الشامية خلال مرحلة الدراسة.

وعليه فقد أفدنا من هذا المصدر في الفصل الرابع عند الحديث عن الجوانب الاقتصادية في الدولة النورية.

ب- **ابن منقذ:** مؤيد الدين أسامة بن مرشد بن على بن منقذ الكناني (ت 584هـ/1188م):

ولد في قلعة شيزر سنة 488هـ/1095م، ثم سكن دمشق زمن نور الدين محمود، وانتقل بعدها إلى القاهرة، وعندما دخل صلاح الدين دمشق استدعاه وغمره بعطفه وإحسانه وقربه إليه فمدحه أسامة، وكان قد جاوز الثمانين عاماً من عمره، ويعد أسامة بن منقذ من الرجال المشهورين والشعراء البارزين، وكان له علاقات شخصية مع الصليبيين في أوقات السلم([1]).

وكتابه "الاعتبار": من أهم المصادر، وتكمن أهميته في أن واضعه كان معاصراً للأحداث التي أرخ لها، فضلاً عن أن كل ما تعرض له كان خلاصة تجاربه ومشاهداته في البلاد التي زارها، وخاصة أنه كان من مرافقي نور الدين، وكان قد كلفه ببعض المهمات العسكرية، إلى جانب مشاركته في بعض المعارك التي خاضها نور الدين، وانفرد عن غيره بذكر الأحداث التي أمدنا بها والخاصة بموضوع البحث[2].

ج- ابن جبير: محمد بن أحمد الأندلسي (ت614هـ/1217م):

ولد في مدينة بلنسية 540هـ/1145م، وتلقى العلم على شيوخ عصره في غرناطة، وسبتة، وقام ابن جبير بثلاث رحلات إلى المشرق الإسلامي، الأولى 578هـ، وانتهى منها بعودته إلى نابلس

([1]) الأصفهاني، خريدة القصر، (قسم شعراء العراق)ج1، ص498- 547. و (قسم شعراء الشام) ج1، ص 499. البرق الشامي، ج3،ص 104. .ياقوت، إرشاد، ج5، ص188- 193. ابن الأثير، الباهر، ص 112-116. الكامل، ج9، ص 389، 394، 413-415، 457. البنداري، سنا البرق، ص227. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8 ق1، ص 241. ابن العديم، بغية الطلب، ج3، ص 1358- 1370. أبو شامة، الروضتين، ص335- 338، ص 352-255، 369، ج2، ص 435، ص374- 375، ج4،ص 59. الذيل على الروضتين، ص 93. ابن خلكان، وفيات، ج1،ص 195- 198. ج2، ص 526. ج 5، ص 303. ج7، ص 142، 144. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج40، ص 170- 177. العبر، ج4،ص 252. سير أعلام النبلاء، ج21،ص 165-167،اليافعي ، مرآة الجنان، ج3، ص323- 333. ابن كثير، البداية، ج12، ص313. الصفدي، الوافي، ج8، ص378. الغساني، العسجد، ج2، ص205-206. الأتابكي، ج6، ص 107. المقريزي، المقفى، ج2، ص41-49. النعيمي، الدارس، ج1، ص 291. الحنبلي، شذرات، ج2، ص279. الزركلي، الأعلام، ج1، ص291. كحالة، معجم، ج2، ص184. عوض، الجغرافيون، 245-247.

([2]) البيشاوي، نابلس، ص26. محمد، مقدمة، ص160.

581هـ، والثانية في 585هـ،أي بعد أن استرد السلطان صلاح الدين بيت المقدس، أما الثالثة فكانت في 614هـ، ولكن لم يطل به العمر حيث توفي في الإسكندرية في العام نفسه[1].

وقد سجل ابن جبير كل ما شاهده في بلاد الشام في كتاب " تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار" المعروف برحلة ابن جبير، من خلال زيارته لتلك البلاد، وخاصة حول منشآت نور الدين محمود العمرانية، ونظام الوقف الإسلامي في عهده، وبعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية؛ وبالطبع فإن تلك المعلومات قد استفاد منها الباحث في معظم فصول الدراسة وبشكل خاص الفصلين الرابع والخامس.

د- ياقوت الحموي: ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ/1228م):

ولد في الفترة الواقعة بين سنتي 574-575هـ/1178-1179م ببلاد الروم، ولكنه وقع في الأسر وهو صغير، فاشتراه أحد تجار بغداد كي يعتمد علىه في تجارته، وتنقل ياقوت بين كثيرٍ من الأمصار، وتوفي بظاهر مدينة حلب[2].

ومن أهم مؤلفاته "معجم البلدان"، وهو بمثابة موسوعة جغرافية قائمة بذاتها، نظراً لوفرة المادة التي أوردها، وتحدث فيها عن البلدان والأقإليم والمدن والجبال والأنهار.

وكتاب معجم البلدان مرتب وفق الحروف الأبجدية، ولا غنى عنه للباحث في التاريخ والجغرافيا والأدب وتاريخ البلدان، خاصة في تحقيق أسماء المدن والبلدان والمعالم الجغرافية[3].

وقد أفاد منه الباحث من حيث كونه المصدر الأول للتعريف بالبلدان والقلاع والقرى والحصون التي تناولتها الدراسة، إضافةً إلى أن ياقوت كان يورد أثناء تعريفه بالبلدان والمدن معلوماتٍ اقتصاديةً مهمةً.

ومن المصادر الجغرافية الأخرى التي استفاد منها الباحث -وخاصة الفصل الأول من الدراسة والذي تناول الجزء الأول منه جغرافية بلاد الشام- كتاب "البلدان " لليعقوبي (ت 192هـ/905م)،وكتاب "مسالك الممالك" لابن خرداذبة (توفي في حدود 300هـ)، وكتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، (ت387هـ/997م)، وكتاب "المسالك والممالك" للإصطخري (توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي)، و"صورة الأرض" لابن حوقل (عاش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، و"المسالك والممالك" لأبي عبيد البكري (ت487هـ/1094م). وغيرها من المصادر الجغرافية وكتب الرحالة.

([1]) سالم، التاريخ، ص220-221. عوض، الجغرافيون، ص283-287.

([2]) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج6، ص127-129. اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص59. فراج، معجم، ص78. سالم، التاريخ، 196. الفاخوري، تاريخ، ص774. عوض، ص73، 75.

([3]) البيشاوي، نابلس، ص26.

4- كتب ومصادر أخرى:

بالإضافة إلى المصادر سالفة الذكر فقد استفاد الباحث خلال دراسته من عدد من المصادر الأخرى المخطوطة والمطبوعة ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر: " الرتبة في طلب الحسبة" للشيزري (ت589هـ/1194م)، و "المنتظم في تاريخ الأمم والملوك" لابن الجوزي (ت597هـ/1202م)، وكتاب "الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة" لابن شداد الحلبي (ت 684هـ/1285م)، و"تاريخ مختصر الدول" لابن العبري (ت 685هـ/1286م)، وكتاب "المختصر في أخبار البشر" لأبي الفداء (ت 732هـ/1331م)، وكتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري (ت 732هـ/1331م)، ومصادر عديدة أخرى.

ويحضرني هنا أن أنوه إلى أهمية المصادر الأدبية للدراسة التي بين أيدينا حيث استفاد الباحث من بعض الدواوين الشعرية فيما يتعلق بالفصل الأول، والثالث عندما تناول الباحث دور الشعراء والأدباء حيث تم الرجوع إلى عدد من الدواوين، ديوان ابن منقذ، وديوان الأصفهاني، وديوان ابن منير الطرابلسي (ت548هـ/1153م)([1]).

أضف إلى ذلك ما قدمته لنا المصادر اللغوية من فائدة عظيمة في شرح وتفسير بعض المصطلحات العربية.

ونخص بالذكر هنا المصدرين اللغويين الأساسيين اللذين لا غنى للباحثين والدارسين عنهما ألا وهما: كتاب "لسان العرب" لابن منظور (ت 711هـ/1311م) ، و"مختار الصحاح" للرازي (ت 721هـ/1321م).

---

(1) ابن منير الطرابلسي (473 – 548 هـ = 1080 – 1153م) أحمد بن منير بن أحمد، أبو الحسين مهذب الدين الملقب بالرفاء عين النهار: شاعر مشهور من أهل طرابلس الشام. ولد بها، وسكن دمشق، ومدح السلطان الملك العادل (محمود بن زنكي) بأبلغ قصائده. وكان رافضيا خبيثا يعتقد مذهب الإمامية، وكان هجاءاً مراً حبسه صاحب دمشق على الهجاء، وهم بقطع لسانه، ثم اكتفى بنفيه منها، فرحل إلى حلب وتوفي بها. له (ديوان شعر – ط). ابن عساكر، تاريخ، ج6، ص32–33. ابن خلكان، وفيات، ج1، ص156. ابن العديم، بغية، ج3، ص1154. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص299. ابن العماد، شذرات، ج2، ص146.

الفصل الأول

((حياة نور الدين محمود وجهاده))

أولا: حياة ونشأة نور الدين محمود :

1- مولد نور الدين محمود ونسبه:-

يعود نور الدين محمود في أصوله إلى قبائل ساب يو التركمانية، فوالده عماد الدين زنكي ابن آق سنقر بن عبد الله أل ترقان([1]). وقد حظي بمكانة كبيرة لدي سلاطين السلاجقة، وتقديراً لدوره السياسي والعسكري الداعم لدولتهم، إذ عاون السلطان السلجوقي ملكشاه في السيطرة على الموصل، وطرد العقيليين([2]) منها، كما ساعدهم على استعادة حلب من قبضة نوابهم عام 477هـ/1084م(3).

---

(1) عماد الدين زنكي: (478 ؟ - 541 هـ = 1085 - 1146م) زنكي (عماد الدين) بن قسيم الدولة الحاجب آق سنقر: أبو غازي ومودود ومحمود. كان من كبار الشجعان عرفه ابن الأثير (في الباهر) بالملك الشهيد. ونوه بأن والده آق سنقر هو أول ملوك الدولة الأتابكية في الموصل. وكان تركيا من أصحاب ملكشاه بن ألب أرسلان. مات وابنه زنكي صغير، فتواصى به أصحاب أبيه إلى أن شب وتولى مدينة واسط إقطاعا. وقاد ميمنة الجيش في حرب ليفة المسترشد بالله مع دبيس ابن صدقة (في محرم 517هـ) فظفر. وأقطع البصرة فحماها من الأعراب. وتتابعت الأحداث فتولى الموصل وسائر بلاد الجزيرة (521هـ)، وسلم إليه السلطان محمود ولده (فرخشاه) ليربيه، ولهذا قيل له (أتابك)، وتملك حلب، واستفحل أمر الفرنج في الشام والعراق، فتصدى لهم وأجلاهم عن حلب وحماة (524هـ)، وأخذ منهم حصن الأثارب بعد معارك، وتوغل في ديار بكر (528هـ)، ثم عاد إلى شيزر، وسير جيشاً إلى دمشق أدخلها في طاعته، وأظهر دهاء مع الفرنج (534هـ)، واستعاد منهم الرها (539هـ)، وبينما كان يحاصر قعلة جعبر ويقاتل من فيها دخل عليه بعض مماليكه، وهو نائم فقتلوه غيلة ودفن بصفين. ابن الأثير، الباهر،ص 3، 26، 55، 56، 66، 74 - 84. ابن خلكان، وفيات، ج2، ص327. ابن العديم، بغية، ج8، ص3845-3855. ابن كثير، البداية، ج12، ص221. ابن العماد، شذرات، ج 4، ص 128.

(2) العقيليون: ينتمي العقيليون إلى قبيلة عامر بن صعصعة، وكانت مضاربهم في شمال الجزيرة العربية .بعد سقوط دولة الحمدانيين (ثم بنو لؤلؤ) في الموصل، تولى محمد بن المسود حكم المدينة من قبل البويهيين. توفي محمد، وبدأ أبناؤه الصراع على الحكم، استطاع أحد أقربائهم (من أبناء عمومتهم) أن يحسم الصراع لصالحه، استولى على الحكم في الموصل والجزيرة. قام قرواش بن المقلد بالاستقلال بحكمه مع تراجع دور البويهيين في المنطقة. تحالف مع بني مزيد، أصحاب الحلة (وسط العراق) عندما بدا الأتراك السلاجقة يتدفقون إلى المنطقة. بلغت الدولة أوجها في عهد مسلم بن قرواش (غير قرواش الأول)، وامتدت أطراف مملكته من بغداد شرقا حتى حلب غربا. رغم كونه شيعي المذهب قام مسلم بالتخلي عن مساندته للفاطميين، وتحالف مع السلطان السلجوقي ألب أرسلان. انقلب" مسلم" مرة أخرى وتحول إلى مناصرة الفاطميين، مما استعدى السلاجقة عليه، فاقتحموا الموصل، بعد أن فر منها. انتهى أمره بأن قتل في إحدى المعارك معهم. استمر العقيليون في حكم الموصل من قبل السلاجقة، إلى أن قام هؤلاء بخلعهم نهائيا عام 1093م/485هـ. انتقلوا بعدها إلى الجزيرة، كما قامت لهم فروع أخرى حكمت في العراق وديار مضر، استمر فرعهم في الرقة وقلعة جعبر حتى سنة 1169م/564هـ، تاريخ مقدم الزنكيين. بعد أن فقدوا كل أملاكهم في العراق والشام، نزح العقيليون إلى الجنوب، ثم استقروا في اليمامة، ومن نسلهم كان بنو = =عصفور (حكام البحرين). انظر: السلالات الإسلامية، الطبعة الجديدة (The New Islamic dynasties) لـ" كليفورد إدموند بوزورث" (Clifford Edmund Bosworth)، على الرابط التالي:
http://www.hukam.net/family.php?fam=89.

(3)ابن الأثير، الباهر(ت630ه)، ص38 ابن العديم(ت660ه). أبو شامة(ت665ه) الروضتين، ج1، ص32. ابن عساكر(ت571ه). ، تاريخ، ج 57، ص118. ابن خلكان(ت681ه)، وفيات، ج2، ص327.. بغية، ج8، ص3845-3855 وفيه تفاصيل كثيرة عن زنكي وفتوحاته. الذهبي(ت748ه)، تاريخ، ج 39، ص 371.

ومكافأة لعماد الدين أمر السلطان له بحلب وأعمالها، وحماه([1]) ومنبج([2])، واللاذقية([3]).

وقد ساهم عماد الدين زنكي بدور مهم في الجهاد ضد الصليبيين في الجزيرة الفراتية، واستطاع بسط نفوذه عليها([4])، حيث تمكن جيشه من طرد الصليبيين من الرها([5]) عام 539هـ / 1144م[6]، وظل عماد الدين يواصل جهاده حتي تم اغتياله على يد أحد حراسه خلال حصاره لقلعة جعبر في 6 ربيع الآخر عام 541هـ/سبتمر1146م[7]. أنجب زنكي أربعة من الأبناء(8)، وهم: سيف الدين غازي([9])، ونور الدين محمود،و قطب الدين مودود([10])، ونصرة الدين أمير أميران([11]).

---

(1) حماة: تقع مدينة حماة في وسط دولة سورية، مرتفعة عن سطح البحر بقدر 270 متراً، يمر فيها نهر العاصي فيقسمها إلى نصفين، هواؤها معتدل رطوبته قليلة. ياقوت، معجم، ج2، ص300.

(2) منبج: مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة في فضاء من الأرض كان عليها سور مبني بالحجارة محكم بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. ياقوت، معجم، ج5، ص206.

(3) اللاذقية: مدينة في ساحل بحر الشام تعد في أعمال حمص وهي غربي جبلة بينهما ستة فراسخ وهي زمن ياقوت من أعمال حلب. ياقوت، معجم، ج5، ص5. وانظر أيضاً: ابن الأثير، الباهر، ص 35–38. الذهبي ، تاريخ، ج 39، ص 371.

(4) ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص118. ابن الأثير، الباهر، ص36.

(5) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ سميت باسم الذي استحدثها وهو الرهاء بن البلندى بن مالك بن دعر. ياقوت، معجم، ج3، ص106.

(6) ابن القلانسي، ذيل، ص 248 – 285. ابن الأثير، الباهر، ص 66. الكامل، ج9، ص331. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص32، 164. الجنزوري، إمارة ، ص 316 – 317.

(7)ابن القلانسي(ت555ه)، ذيل، ص 284 – 285. ابن عساكر(ت571ه)، تاريخ، ج57، ص118. ابن الأثير، الباهر(ت630ه)، ص 75–76. ابن العديم(ت660ه)، بغية، ج8، ص3854–3855. أبو شامة(ت665ه)، الروضتين، ج1، ص155. الذهبي(ت748ه)، تاريخ، ج 39، ص 371.

(8) ابن الأثير، الباهر، ص76. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص155.

(9) غازي بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر سيف الدين، صاحب الموصل وما والاها من ديار ربيعة. خلف أباه بعد اغتياله بقلعة جعبر سنة 541هـ. كان خيرا، صالحا، محبا للعلم مكرما لأهله، كريما، شجاعا، عاقلا. بنى بالموصل مدرسة (الأتابكية) ووقفها على فقهاء الحنفية والشافعية، وبنى رباطا للصوفية. لم تطل أيامه فقد أصيب بمرض حاد، لم ينفع فيه العلاج فتوفي عن 44 عاما وكانت ولايته ثلاث سنين، وخلف ولدا توفي في عنفوان شبابه فانقرض عقبه. خلفه في إمارة الموصل أخوه قطب الدين مودود توفي في 544هـ/ 1150م، وخلّف ولداً توفي شاباً، ولم يُعقب. ابن الأثير، الباهر، ص 92 – 93. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 161. ابن خلكان، وفيات، ج4، ص3. سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق1، ص 203 – 204. ابن واصل، مفرج، ج1، ص 116. ابن كثير البداية، ج12، ص 227 – 228. الذهبي، تاريخ، ج37، ص20. الأتابكي، النجوم، ج 5، ص 286.

(10) مودود بن زنكي بن آق سنقر التركي، قطب الدين، المعروف بالأعرج. صاحب الموصل وأخو نور الدين محمود، صاحب الشام.تولى سلطنة الموصل بعد موت ابنه الأكبر سيف الدين غازي. كان مودود من أحسن الملوك سيرة محسنا لرعيته،كثير الإنعام عليهم،محبوبا إلى كبيرهم وصغيرهم. توفي عن أربعين عاما.ابن الأثير،الباهر،ص146، 148–149. ابن خلكان، وفيات، ج5، ص302. سبط الجوزي، ج 8ق 1 ص281. ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص117. 188–190.ابن كثير،البداية،ج12،ص261.الذهبي،العبر،ج4،ص191.الأتابكي،النجوم،ج5،ص 383.الزركلي،الأعلام،ج7، ص318.

(11) أمير أميران: نصرة الدين محمد بن زنكي بن آق سنقر التركي أخو الملك العادل نور الدين، فقد عينه في فتح بانياس وكان أميرا شجاعا مقداما عزيزا على أخيه نور الدين محمود وعظم مصابه عليه عند وفاته في سنة 560هـ/1164م. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 437. ابن العديم، بغية، ج4، ص2024. الأتابكي، النجوم، ج5، ص367.

وقد ولد نور الدين محمود ثاني أبناء عماد زنكي في يوم الأحد، سابع عشر من شوال سنة 511هـ/العاشر من فبراير (شباط) 1118م[1]، وهو نور الدين أبو القاسم بن قسيم الدولة بن آق سنقر التركي، ويلقب زنكي أيضاً بلقب والده قسيم الدولة، ويقال له (ابن القسيم)([2]).

وقد حمل عدة ألقاب، منها لقب الملك العادل نور الدين[3]، ويلقب بالشهيد كما ورد في بعض المصادر[4]. ولا يعلم السبب الحقيقي وراء تسميته بالشهيد، فبعض المصادر ترجع ذلك إلى موته بعلة وانيق[5].

وأشارت مصادر أخرى إلى القول بأن: لقب الشهيد هو لعماد الدين والد نور الدين محمود، ولقد لقب بذلك بعد اغتياله أثناء حصار جعبر([6])، ولما كان نور الدين محمود هو ابن الشهيد فإن تكرار الاستعمال أدى إلى حذف كلمة ابن اختصاراً[7].

والواقع أن لقب الشهيد كان جديراً بنور الدين حتى وإن اختلف حول كونه أحد ألقابه أم لا، فنور الدين قد أمضي زهرة شبابه في مقاومة الصليبيين، وجاهد في الله حق جهاده طلباً للشهادة، لكن الله عز وجل لم يرزقه إياها[8].

وقد ورد عدد من الألقاب الأخرى التي حملها نور الدين منها: الأمير، الأجل، السيد الكبير، العالم، المجاهد، المؤيد، المنصور، الزاهد، الهمام، المظفر، ناصر أمير المؤمنين، وجميع هذه الألقاب

---

(1) ابن عساكر، تاريخ، ج1، ص30. ج57، ص118. ابن الأثير، الباهر، ص 20. أبو شامة الروضتين ج1، ص 69 – 70. ابن خلكان، وفيات، ج5، ص184. الكتبي، عيون، ج12، ص 72. ابن خلكان وفيات، ج5، ص 187. ابن كثير، البداية، ج12، ص283.

(2) ابن عساكر، تاريخ، ج 57، ص118. أبو شامة الروضتين، ج1، ص31– 32. ابن كثير، البداية، ج12، ص283. الذهبي ، تاريخ، ج 39، ص 370.

(3) ابن عساكر، ج2، ص295، 308، 311، 318، 319، 378، 381، 384، 408، ج6، ص33، ج7، ص299، ج27، ص82، ج32، ص235، ج36، ص412. ج37، ص342، ج57، ص118. أبو شامة الروضتين، ج1، ص 32. الذهبي، تاريخ، ج39، ص13، 371.

(4) الذهبي، تاريخ، ج 39، ص 384. ابن تغري يردي، النجوم، ج 5، ص 278، 279، ج6، ص 71، ابن إياس، بدائع ج1، ص 240 العليمي،الدارس، ج1 ص 315.

(5) الذهبي ، تاريخ، ج 39، ص 384. النعيمي الدارس، ج1، ص 615.

(6) جعبر: قلعة على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين وكانت قديما تسمى دوسر نسبة لى دوسر غلام النعمان بن المنذر ملك الحيرة وكان قد تركه على أفواه الشام فبنى هذه القلعة فنسبت إليه، ثم ملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له جعبر بن مالك، والجعبر في اللغة القصير الغليظ وهو بفتح الجيم وسكون العين المهملة وبعدها باء موحدة مفتوحة ثم راء. ياقوت، معجم، ج2، ص141. ابن خلكان، وفيات، ج1، ص364.

(7) الذهبي، تاريخ، ج 39، ص 384.

(8) ابن عساكر، تاريخ، ج 57، ص120. ابن الأثير، الكامل، ج11، ص 404، الباهر ص 169. الذهبي ، تاريخ، ج 39، ص 373، 384.

وغيرها تحمل دلالات مهمة على المكانة والمنزلة الكبيرة التي يتمتع بها نور الدين كأحد أبرز الشخصيات الإسلامية التي ظهرت على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية في مرحلة الصراع الإسلامي الصليبي[1]. غير أن تواضعه منعه من قبول الدعاء له بهذه الألقاب على المنابر، فأمر بإسقاطها[2].

2- نشأة نور الدين محمود :

وحول نشأة نور الدين محمود فالحقيقة أن المصادر لم تفصح عن ذلك كثيراً، ولم ترد إلا إشارات قليلة تذكر بأن نور الدين بدأ ملازمة والده في حروبه وهو في سن المراهقة[3].

وقد نشأ على الخير والصلاح، ودرس القرآن الكريم، كبقية أبناء الأمراء والقادة، وتعلم الفروسية والرمي[4]؛ ولما كان والده يرى فيه النجابة قدمه على بقية أبنائه[5]، وكان يرافقه في جميع تحركاته، وخلال فتوحاته، وحضر لحظة استشهاده عند أسوار قلعة جعبر عام 541هـ / 1146 م، واجتمعت كلمة جميع قادة والده على اختياره خليفةً له على مدينة حلب[6].

ومن بين هؤلاء القادة الذين قرروا تقديم العون السياسي لنور الدين، صلاح الدين الياغيسياني(7)، ومجد الدين بن الداية(8)، وسيف الدين أو الدولة سوار(9)، وكان أبرزهم أسد الدين

---

(1) ابن عساكر، تاريخ، ج1،ص30.57،ص118.الأتابكي، النجوم، ج5، ص356، ج6، ص63. السرطاوي، نور الدين ص 48.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص28.

(3) ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص118. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص168.

(4) ابن كثير البداية، ج12، ص 277، الأسدي الكواكب، ص 15.

(5) الأسدي، الكواكب ، ص 15.

(6) ابن عساكر، تاريخ، ج 57، ص119. ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 112. أبو شامة الروضتين، ج1، ص 168. ابن الأتابكي، النجوم، ج5، ص 279، الأسدي، الكواكب، ص 122.

(7) صلاح الدين الياغيسياني: محمد ين أيوب صاحب حماة، أمير حاجب زنكي و قد كان أمير حاجب عز الدين مسعود بن البرسقي صاحب الموصل قبل زنكي، و يخمن أبو شامة أنه كان في مقدمة الجيش النوري لما قصد دمشق في المرتين الأوليين أو في إحداهما أو في زمن حصار زنكي لها غير أن ابن الأثير لم يذكر ذلك. ابن الأثير، الباهر، ص35، 58. الكامل، ج9، ص242. أبو شامة، الروضتين ، ج1، ص 168، ص302.

(8) مجد الدين بن الداية : الأمير أبو بكر، كان أميرا حسنا يرجع إلى دين وخير وأمه داية نور الدين محمود بن زنكي فلذلك عرف بابن الداية، واسمه محمد بن محمد بن نشتكين وقد قدمنا ذكره في بابه وكان خصيصا بنور الدين وجيها عنده وكان يعتمد عليه واستنابه في الملك بحلب حين غاب عنها، وكان أعظم الأمراء منزلة عنده وله في إقطاعه حلب وحارم وقلعة جعبر فلما توفي رد نور الدين ما كان له إلى أخيه شمس الدين على بن الداية، وحدث بحلب عن جماعة من الشيوخ الذين أجازوا له. ابن الأثير، الباهر، ص137. الكامل، ج10، ص27. ابن العديم، بغية، ج10، ص4368.

(9) لم يعثر الباحث على ترجمة له. إلا ما ذكره أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 169. .

شيركوه([1])، الذي عرض على نور الدين " أن يسيره إلى حلب ويجعلها كرسي ملكه، ويجتمع في خدمته عساكر الشام، وقال له: أنا أعلم أن الأمر يصير جميعه إليك، لأن ملك الشام بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق"[(2)].

ومهما يكن من أمر فإن هذا التأييد يحمل دلالات واَضحة على الثقة الواسعة بنور الدين محمود، والإيمان العميق بقدرته على إدارة دفة الحكم خلفاً لوالده.

3- صفات نور الدين محمود :

وقد اتصف نور الدين بمجموعة من الصفات والخلال التي أهلته لحمل مثل هذه الأمانة، وعده المؤرخون شبيهاً بالعمرين، عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز في عدله وحبه للجهاد، ورغبته الجموحة في إعزاز دين الله " حسن السيرة وجميل السريرة"[(3)].

وقد أوجز ابن الأثير مؤرخ البيت الزنكي مجمل الصفات التي تمتع بها نور الدين ووصل إلى حقيقة مفادها: أنه لم يرَ " بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه، وقد قصر ليله ونهاره على عدلٍ ينشره وجهادٍ يتجهز له، ومظلمةٍ يزيلها، وعبادةٍ يقوم بها، وإحسانٍ يوليه، وإنعامٍ يسديه" [(4)]، إضافةً إلى أنه كان كثير العبادة، عميق الإيمان " يصلي كثيراً في الليل، وله فيه أوراد حسنة، وكان ملازماً للصلاة في جماعة، كثير التلاوة والصيام، والتسبيح "[(5)]. تأثر وضعه الصحي كثيراً نتيجة زهده الشديد،

---

(1) أسد الدين شيركوه: (...- 564 هـ/...- 1169م) شيركوه بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدويني، أبو الحارث، أسد الدين، الملقب بالملك المنصور: أول من ولي مصر من الأكراد الأيوبيين، وهو أخو نجم الدين أيوب، وعم السلطان صلاح الدين. كان من كبار القواد في جيش نور الدين (محمود ابن زنكي) بدمشق، وأرسله نور الدين على رأس جيش إلى مصر (سنة 558 هـ) نجدة لشاور بن مجير السعدي، وعاد وذهب إليها ثانية (سنة 562هـ) لنجدة ابن أخيه (صلاح الدين) وقد حاصره (شاور) في الإسكندرية، فأصلح ما بينهما، وقويت صلته بالمصريين، وعاد، وهاجم الفرنج بلدة (بلبيس) بمصر، وملكوها، فكتب إليه أهلها يستنجدونه. فأقبل للمرة الثالثة، وطرد الفرنج. وعلم بأن شاور بن مجير يأتمر به لقتله هو ومن معه من كبار القواد، فتعاون مع صلاح الدين على قتل شاور. وأرسل رأسه إلى ليفة (العاضد) فدعاه العاضد، وخلع عليه ولقبه بالملك المنصور، وولاه الوزارة. ولم يقم غير شهرين وخمسة أيام، وتوفي فجأة. ودفن بالقاهرة ثم نقل إلى المدينة، بوصية منه. وكان، كما يصفه الأتابكي: " عاقلا شجاعا مدبرا وقورا". ابن الأثير، الكامل، ج10، ص5. ابن خلكان، وفيات، ج2، ص479. الذهبي، سير، ج20، ص 587. الأتابكي، النجوم الزاهرة، ج5، ص387.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 169.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص 26.

(4) ابن الأثير، الباهر، ص 163. أبو شامة الروضتين، ج1، ص 33.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 57. الباهر، ص 165. وانظر: ابن عساكر، تاريخ، ج 57، ص123. أبو شامة الروضتين، ج1، ص 14 ابن كثير ، البداية ، ج 12، ص 286.

وعبادته الكثيرة، وصيامه المستمر؛ بحيث " تحشف([1]) من كثرة الصوم و الصلاة"([2]). كما كان حريصاً على تطبيق الشريعة الإسلامية وأحكامها، ويقول: " نحن شحن[3] لها نمضي أوامرها"[4].

ولقد عد نور الدين أن المحافظة على الدين وتخليصه من الشوائب شأناً مهماً لا يقل أهمية عن مهمة الحفاظ على الأمن والسلامة المجتمعية(5).

فقد اتصف بالتواضع، بالرغم من هيبته وسلطاته الواسعة، بحيث إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير، كان يقوم له ويمشي بين يديه ويجلسه إلى جانبه، ويقبل عليه بحديثه، كأنه أقرب الناس إليه(6)، " وكل من رآه شاهد من جلالة السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، وإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه مايحيره"(7).

كما أنه كان يتحلي بالتقوى ويتخذها شعاراً له يسير وفقاً لمقتضاها(8). وتمتع بصفات عديدة قلما تجتمع في شخصٍ واحدٍ، فهو كما ينعته العماد الأصفهاني:

الغزير الإفضال والفضل والنا ئل والعلم والتقى والسداد(9).

وفي موضعٍ آخرٍ يقول الأصفهاني بأن نور الدين: أعف الملوك وأتقاهم، " وأصلحهم عملاً، وأنجحهم أملاً، وأرجحهم رأياً، وأوضحهم آياً "(10)، وفضلاً عن ذلك، فقد كان زاهداً في الدنيا راغباً عن مفاتنها، لا يسعي لتشبث بها، وإنما كان يرجو لقاء ربه شهيداً، وينال نعيم الآخرة. ومن مظاهر زهده في الدنيا أنه كان لا يأكل، ولا يلبس، ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، وقد أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك، فأخذ ما أفتوه بحله، ولم يتعهده إلى غيره(11).

بل أن بعض المصادر تذكر بأنه كان " يأكل من عمل يده، وينسج تارة، ويعمل علاباً "(12)، و" إنه كان له عجائز بدمشق وحلب، فكان يخيط الكوافي ويعمل الكساكير ويبيعها له العجائز سراً،

---

(1) التحشف هو:الضعف والنحول، يقال: تحشفت أوبار الإبل طارت عنها وتفرقت، ويقال: رأيت فلانا متحشفا أي رأيته سيء الحال، متقهلا رث الهيئة، والمتحشف اللابس الحشيف وهو الخلق، وقيل المتحشف المبتئس المتقبض، ابن منظور، ج9، 47-48.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص468. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص417.

(3) الشحن: من فيهم الكفاية لضبط البلد. ينظر ابن منظور لسان العرب.

(4) ابن الأثير، الباهر، ص 163. الأسدي، الكواكب، ص 20

(5) ابن الأثير، الباهر، ص 173 – 174، أبو شامة ، الروضتين، ج1، ص 24.

(6) ابن الأثير، الباهر، ص 172. أبو شامة الروضتين، ج1، ص 33. الأسدي، الكواكب، ص 31.

(7) الذهبي، سير، ج20، ص533. النعيمي ، الدارس، ج1 ص 608.

(8) أبو شامة الروضتين، ج 1، ص 45. الأسدي، الكواكب، ص 76.

(9) الأصفهاني، ديوان، ص 125. ريدة، قسم الشام، ج1، ص 48.

(10) الأصفهاني البرق، ج1، ص 55 – 56.

(11) ابن الأثير، الباهر، ص 164 الكامل ج403/11 أبو شامة، الروضتين، ج1ص 34. الأسدي، الكواكب، ص 54.

(12) النعيمي، الدارس، ج1، ص 609.

فكان يوماً يصوم ويفطر على أثمانها"([1]). كان يلبس الصوف ولم يلبس ما حرمه الله من حرير، أو ذهب أو فضة، ومنع شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده، ومن إدخالها إلى بلد ما، وكان يحد شاربها الحد الشرعي دون تحيز لأحد(2) .

وقد كان لزهد نور الدين في أموال المسلمين أبلغ الأثر على سير حياته الأسرية، فقد كان يفضل مصالح المسلمين العامة على مصالحة اصة ومتطلبات أسرته، حيث ذكر ابن الأثير(3):

أن " زوجة نور الدين قلت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قرره لها فأرسلت إليه تطلب زيادة، فلما قيل له، ذلك تنكر واحمر وجهه: ثم قال: " من أين أعطيها، أما يكفيها مالها؟، والله لا أخوض نار جهنم في هواها، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هو لي فبئس الظن، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم، ومعده لفتق إن كان من عدو الإسلام، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكاً، وقد وهبتها إياها فلتأخذها، قال وكان يحصل منها قدر قليل" .

والواضح أن نور الدين مع زهده وحرصه الشديد على مصلحة المسلمين، فقد كان كريماً على أهل بيته، ويصوره ابن منير في شعره على أنه من الصالحين والأبرار الذين يزهدون فيما يتنازع عليه الناس من عرض الدنيا الزائل[4]، كما يصفه بالرجل الذي يسهر على مصالح الأمة، لا ينام في سبيل أن يحيوا بطمأنينة وأمن[5].

وقد مدحه ابن منقذ موضحاً أن نور الدين كان دائماً سباقاً للخير، بحيث لا يشغله شيء عن فعله[6]؛ لأن ذلك من خلقه وطبعه، لا يفعله عن تكلف أو تصنع[7].

ولعل أبرز الصفات التي غلبت على نور الدين صفة العدالة، فهو يتحري العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم

---

(1) الذهبي، تاريخ، ج39، ص385.

(2) ابن الأثير، الباهر، ص 164. أبو شامة، الروضتين ج1، 34. الذهبي، تاريخ، ج39، ص378. الأسدي الكواكب ص 54. النعيمي الدارس، ج1، ص 610.

(3) الباهر، ص 164. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 34-35.

(4) ابن منير، شعر، ص 86. ديوان ص 192. أبو شامة، الروضتين،ج1، ص 88. السرطاوي، نور الدين ص65

(5) ابن منير، شعر، ص 186. ديوان، ص 194. أبو شامة الروضتين، ج1 ص 91. السرطاوي نور الدين ص 65،

(6) ابن منقذ، ديوان، ص 189. أبو شامة ،الروضتين ، ج1، ص 117.

(7) الأصفهاني، ديوان، ص 380، أبو شامة الروضتين، ج1، ص 143.

ويتولي كشف حاله بنفسه[1]، وبنى دور العدل في بلاده، وكان يجلس هو والقاضي فيها[2] مابين مرتين إلى أربع مرات، أو خمسة أيام أسبوعياً[3].

ولم يكن نور الدين " يعاقب على الظنة والشبهة، بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت البينة الشرعية، عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته من شدة السياسة، والمبالغة في العقوبة، والأخذ بالظنة، وأمنت البلاد سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل، واتباع الشرع المطهر"[4].

فنور الدين هو الذي أحيا العدل ونشره بين الناس، فأصبحت البلاد آمنةً، وفي ظله وعدله لا يستطيع القوي أن يظلم الضعيف[5].

وإضافةً إلى ما أكده المؤرخون حول صفة العدل في نور الدين، فإن مصادر أدبية متعددة قد أثنت على عدل نور الدين[6].

وثمة صفاتٍ أخرى كثيرةٍ، وُصِفَ بها نور الدين كالطهر، والصدق، والإخلاص[7]، والرأفة والشهامة، والعفاف، والحياء[8]، وعدم الغدر[9]، والسماحة[10]، الحلم عند الغضب[11]، والأناة، وعدم التسرع في اتخاذ القرارات[12].

وبذلك تكون صفات نور الدين ممثلة لصفات البطل المسلم الصادق، الذي يجب على جميع قادة الأمة الاحتذاء به، والسير على خطاه، للعمل على نهضة الأمة من جديد.

كما امتلك نور الدين صفات عسكرية، أهلته ليكون قائداً محنكاً، فقد كان شجاعاً، حازماً، حسن الرأي، بحيث كانت النهاية إليه فيهما، فإنه كان " أصبر الناس في الحرب، وأحسنهم مكيدةً ورأياً،

---

(1) ابن عساكر، تاريخ، ج 57، ص120. ابن الأثير، الباهر، ص 166. أبو شامة ، الروضتين ، ج1، ص38. الأسدي ، الكواكب، ص 19.

(2) ابن عساكر، تاريخ، ج 57، ص120. ابن الأثير، الباهر، ص168. الكامل،ج 11، ص 404، أبو شامة، الروضتين، ج1، ص41. ابن كثير، البداية ج12، ص280. ابن العماد، شذرات، ج2، ص229.

(3) ابن الأثير، الباهر، ص 168. أبو شامة الروضتين، ج1، ص 42، 62. ابن كثير، البداية ج12، ص280. الذهبي، سير، ج20، ص536. الأسدي الكواكب، ص 24. ابن العماد، شذرات، ج2، ص229.

(4) ابن الأثير، الباهر، ص 167. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص38، الأسدي ،الكواكب ص 21.

(5) أبو شامة. الروضتين. ج1، ص 84. السرطاوي، نور الدين، ص 72.

(6) ابن منقذ، ديوان ص 189، ابن منير شعر ص 88 – 89. ديوان 224،187، 229، 251. الأصفهاني، ديوان، ص 380

(7) ابن الدهان، ديوان. ص 74. أبو شامة. الروضتين. ج1، ص 401.

(8) أبو شامة. الروضتين. ج1، ص79.

(9) أبو شامة. الروضتين. ج1، ص92.

(10) ابن منير، شعر، ص 87. ديوان، ص 224. أبو شامة. الروضتين. ج1، ص253.

(11) أبو شامة. الروضتين. ج1، ص 35.

(12) ابن منقذ، ديوان، ص 189. أبو شامة. الروضتين. ج1، ص367.

وأجودهم معرفةً بأمور الأجناد وأحوالهم"[1]. وكان في الحرب " ثابت القدم، حسن الرمي، صائب الضرب يتقدم أصحابه"[2].

وقد كان نور الدين حازماً في اتخاذ قراراته، ضد من تظهر خيانته مهما كان منصبه[3].

وبالإضافة إلى ذلك كان نور الدين مهيباً، وقوراً، شديداً، في غير عنف، رقيقا في غير ضعف واجتمع له ما لم يجتمع لغيره، فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غاية لا مزيد عليها ، وكان يلزمهم بوظائف الخدمة[4]، وكان قوي الشخصية ذا هيبةٍ، وتجربةٍ وبأس[5].

4- ثقافة نور الدين محمود :

أما ثقافته فإنه كان يميل بشكلٍ خاص إلى العلوم الدينية، فقد كان " عارفاً بفقه مذهب الإمام أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصب، بل الإنصاف سجيته في كل شيء"[6]، وقد " سمع الحديث الشريف وأسمعه، طلباً للأجر والثواب من عند الله عزوجل"[7]، وقام بجمعه حرصاً منه على نشر السنة ومحاربة التشيع بالأداء والتحديث[8]، وقد حدَّثَ نور الدين عن جماعةٍ من العلماء بحلب ودمشق وأجازوا له[9]، وبهذا بلغت عناية نور الدين بالحديث الشريف أقصى درجاتها فهو كما تذكر المصادر " كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعاً للآثار النبوية، كل هذا مضافاً إلى أنه كان عاكفاً على تلاوة القرآن"[10].

ويبدو أن اهتمامه الزائد بقراءة القرآن، والعناية بالحديث الشريف، والسنة النبوية المطهرة، قد أضعف لغته التركية، فأصبح يتكلم العربية كما يتكلمها أهل عصره، بل إنه كتبها، ولكن بأسلوبٍ بسيط[11]، وبخطٍ حسن[12].

---

(1) ابن الأثير، الباهر، ص 168. وينظر: الكامل، ج11، ص 404. أبو شامة الروضتين ج1 ص 42-43، 160. ابن كثير، ج 12، ص 280. الذهبي، تاريخ، ج39، ص377.

(2) ابن عساكر، تاريخ، ج 57، ص120. ابن الأثير، الباهر، ص 165. أبو شامة. الروضتين، ج1، ص 37. النعيمي ، الدارس ،ج1، ص 607.

(3) ابن القلانسي ، ذيل، ص 336.

(4) ابن الأثير ،الباهر، ص 172. وينظر: أبو شامة، الروضتين ج1، ص 48. ابن كثير، البداية ج12، ص، 281

(5) أبو شامة. الروضتين. ج1، ص 57، السرطاوي ، نور الدين ، ص 70.

(6) ابن عساكر، تاريخ، ج 57، ص123. ابن الأثير، الباهر، ص 165. الكامل، ج11، ص 404، أبو شامة الروضتين، ج1، ص 14. أبو الفداء، ج1، ص 75. الذهبي، تاريخ، ج39، ص377.

(7) نفس المصادر السابقة.

(8) الأسدي، الكواكب ، ص 57، السرطاوي ، نور الدين ،ص 21.

(9) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 29، 30.

(10) ابن عساكر، تاريخ، ج 57، ص123. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 33. ابن كثير . البداية، ج12، ص 278. النعيمي الدارس ، ج1، ص 608.

(11) أبو شامة. الروضتين. ج1، ص 33.

(12) المصدر نفسه، ج1، ص33. ابن كثير، البداية، ج12، ص 278. النعيمي الدارس، ج1، ص 608.

ومع اهتمامه بالعلم والثقافة، وتدينه الواضح، فإن ذلك لم يمنعه من ممارسة هواياته وممارسة الرياضة؛ لأنه كان يعلم أن المؤمن القوي خيرٌ من المؤمن الضعيف، فكان يهتم بالفروسية، ومن أهم مظاهرها عند المسلمين زمن الحروب الصليبية الصولج[1]. وكان يلعبها نور الدين ومعه رجال دولته وكبار قواده، وكانوا كلهم يحذقون هذا اللعب، ويظهرون فيه من المهارة ما يدعو إلى الإعجاب[2].

ومن الرياضات التي كان نور الدين يمارسها، ويظهر براعة فيها، رياضة الصيد، وقد برز ذلك من خلال الروايات التي أوردها أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار حول ممارسة الصيد هو ونور الدين محمود[3].

وكان نور الدين حتى في لعبه يبتغي مصلحة المسلمين، ويظهر ذلك من رد نور الدين على أحد الصالحين الذي اعترض على ممارسة نور الدين للعبة الصولج والذي قال فيه: " ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية "، فرد عليه نور الدين قائلاً: والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، إنما نحن في ثغر ، والعدو قريبٌ منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت، فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً، شتاءً وصيفاً، إذ لابد من الراحة للجند ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً([4])، لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب جمامها، وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب ، فهذا والله الذي بعثني على اللعب في الكرة[5].

5- وفاة نور الدين محمود :

وقد تعرض نور الدين محمود للمرض أكثر من مرة خلال حياته مما كان يستدعي قلق المسلمين، وعند شفائه يفرح المسلمون، ويظهر هذا الفرح جلياً على ألسنة الشعراء[6].

ففي عام 552هـ/1157م، ابتُلِيَ نور الدين محمود بمرضٍ حادٍ " حتى يئس الأطباء من برئه وحياته، فاستبشر الصليبيون خيراً، وعدواً حالته نعمة إلهية خصتهم بها السماء حتى تنجح حملتهم، ذلك لأنه طالما كان نور الدين متمتعاً بعافيته وبأسه كعادته، كان من الصعب على الجيش الصليبي أن يتمكن من العمل بحرية في تلك الناحية الخاضعة له"([7]).

---

(1) الصوالج: مفردها الصولج والصولجانة ، معناها العود المعوج، تعريب جوكان. معجم الألفاظ الفارسية ص 109أو عصا يعطف طرفها ، يضرب بها الكرة على الدواب . ابن منظور ، لسان ، مادة صلج.

(2) ابن الأثير، الباهر ص 164. أبو شامة. الروضتين. ج1، ص 37، 43.

(3) ابن منقذ، الاعتبار، ص 198.

(4) الجمام بالفتح الراحة، و جم الفرس يجم و يجم جما و جماما و أجم، ترك فلم يركب؛ فعفا من تعبه وذهب إعياؤه. ابن منظور، لسان، ج12، ص106.

(5) ابن الأثير، الباهر ص 164 – 165. أبو شامة الروضتين ج1، ص35.

(6) أبو شامة الروضتين ، ج1، ص 349، 351. السرطاوي نور الدين ، ص 54 – 55.

(7) الصوري، الأعمال المنجزة، ج3، ص422.

وقد أدرك نور الدين صعوبة وضعه الصحي وظن أنه مرض الوفاة، لدرجة أنه أوصى" ما اقتضاه رأيه واستصوبه"[1]، ولكن إرادة الله عزوجل كانت عكس ما كان يرجو العدو، وشفي نور الدين وعاد للممارسة نشاطه بكل جوانبه، وخاصةً على الصعيد العسكري.

وفي سنة 554هـ/1159م، مرض نور الدين مرضاً شديداً، أرجف بموته بقلعة حلب[2]، أما في سنة 569هـ/1174م، كان مرض الوفاة، وكان ابتداء مرضه أنه ختن ولده إسماعيل يوم عيد الفطر وكثرت التهاني، وغلقت محال دمشق أياماً[3]، واستمر مرض نور الدين حتي توفي بعلة الخوانيق، يوم الثلاثاء 11 شوال عام 569هـ/ مايو (حزيران) 1174م (4)، وقد أحدث موت نور الدين فاجعةً أصابت المسلمين جميعاً[5].

والحقيقة أن الصفحات السابقة والتي من خلالها استعرضنا سيرة نور الدين، لا تفي الرجل حقه، فهو في الحقيقة من الرجال العظام الذين قلما تجد الأمة في زماننا شبيهاً له، ولعل الصفات والخلال التي تمتع بها هذا الرجل كان لها أكبر الأثر في الجيل القيادي الذي ظهر بعده، كأمثال صلاح الدين، الذي تربى في ظل الدولة النورية واقتفى أثر سيده، واستطاع إكمال المسيرة الجهادية التي بدأها نور الدين محمود.

وهكذا يظهر لنا كيف أن القيادة المتدينة المتمسكة بشرع الله والمطبقة لحكمه، تستطيع بإذن الله وتقديره أن تحقق النصر الأكيد الذي لا يهديه الله سبحانه وتعالى إلا لمن كان على هدى وتقوى.

ولما كان نور الدين قد اتصف بالعديد من الصفات الخلقية الطيبة، فإن ذلك كان من العوامل التي ساهمت في انتصاره بمشيئة الله على الصليبيين.

ثانيا: جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين الفرنجة:

احتلت الدوافع الدينية مكانةً بارزةً من بين الدوافع المحركة لنور الدين في جهاده ضد الفرنجة الصليبيين، فقد كان يميل شخصياً للجهاد[6]، ورأى في نفسه خير مدافعٍ عن الإسلام[7]، وعلى الرغم من ذلك، فإننا نجد من يشكك في دوافع نور الدين الجهادية ، وتزعم هذا الرأي مجموعة من الباحثين الغربيين ضمن توجيهات استشراقية تحمل تعصباً محموماً لا يمكن إخفاؤه، وأبرز هؤلاء المستشرقين

---

(1) ابن القلانسي ، ذيل، ص 349. أبو شامة الروضتين ، ج1، ص347. ابن كثير ، البداية ج12، ص 336.

(2) أبو الفداء المختصر، ج1،ص 49.

(3) الأصفهاني، ديوان، ص 173 ريدة ، قسم الشام، ج1، ص66 أبو شامة الروضتين، ج1، ص 305.

(4) ينظر خبر وفاته في الأصفهاني ، البرق، ج1، ص 153 – 154 ابن الأثير، الباهر، ص 161 – 162. الكامل، ج11، ص 402 – 403. ابن جبير، تذكرة، ص 232. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 305–311. ابن العديم، زبدة، ج2، ص 340 – 341.. الذهبي، تاريخ، ج 39، ص 384. النعيمي الدارس، ج1، ص 615.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 309. السرطاوي، نور الدين، ص58–59.

(6) عوض، السياسة، ص 138. سالم طرابلس، ص 249. حبشي، نور الدين ص 100.

(7) The Stevenson, The Crusoaders, p. 155.

المؤرخ الأمريكي لامونت الذي أنكر الطابع الديني لحروب نور الدين، وأنها لا تمت للجهاد بصلة، وفضل الأخذ بالدوافع الدينية ، والقول بأن نور الدين لم يتجه لحرب الصليبيين الفرنجة إلا في إطار العمل على توسيع مملكته[1].

والحقيقة أن هذا الرأي يجافي الواقع، لأن المصادر التاريخية المعاصرة أكدت على الطابع الديني لشخصية نور الدين محمود حتى عده البعض من المتصوفين[2]، ولا خلاف في أن شخصاً بهذه الصفات الدينية لا يمكن أن تدفعه دوافع الجهاد لحماية البلاد والعباد ، وطرد العدو من البلاد.

أما ما ذكره لامونت وغيره، فإنه يعبر عن رغبة واضحة في القضاء على فكرة الجهاد الإسلامي التي ازدهرت في مرحلة الصراع الصليبي- الإسلامي، من خلال إلغاء الصبغة الدينية التي اصطبغت بها حروب نور الدين محمود ، وذلك من أجل القضاء على النماذج التاريخية للفكرة ذاتها، واقتلاعها من أساسها ، خاصة أنها فكرة محورية في الإسلام[3].

وقد أفاض عوض[4] في الحديث حول الدوافع النورية التي حركته لحرب الصليبيين، لتشمل دوافع سياسية، واقتصادية، وعسكرية، لا مجال للتوسع فيها في هذا المقام؛ وإنما ركزنا حديثنا في هذا الفصل على الدافع الديني؛ لما له من دورٍ مهم في حياة نور الدين، وقد مَثَّلَ جانباً مهماً من جوانب شخصيته الجهادية. ونظراً لما حام حوله من شكوك قمنا بالرد عليها ودحضها.

ومهما يكن من أمرٍ، فإنَّ الحديثَ عن جهاد نور الدين ضد الصليبيين الفرنجة حديثٌ طويلٌ، يدلل على الدور الفعال الذي مارسه نور الدين في العملِ على مواجهة الوجود الصليبي في بلاد الشام، وسيتم خلال هذا المبحث تقسيم الجهاد النوري ضد الصليبيين الفرنجة إلى قسمين: الأول جهاده ضد الفرنجة الصليبيين لمملكة بيت المقدس اللاتينية، والقسم الثاني: جهاده ضد الإمارات الصليبية.

1- جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين الفرنجة في مملكة بيت المقدس اللاتينية: ــ

مثلت مملكة بيت المقدس اللاتينية العدو الرئيسي لدولة نور الدين محمود، لأنها تمثل كياناً مصطنعاً على الأرض العربية الإسلامية في بلاد الشام ، ولذلك فإن نور الدين حرص على العمل على مواجهة هذه المملكة بكافة الوسائل الممكنة، من أجل القضاء عليها في نهاية الأمر.

---

(1) لامونت، الحروب، ص 114. عوض، السياسة، ص 139.

(2) عن المواصفات الدينية لشخصية نور الدين ينظر: ابن عساكر، تاريخ، ج 57، ص120-124. ابن الأثير، الباهر، ص164. الهروي، الإشارات، ص 10. ابن العديم، زبدة، ج2، ص 315. البنداري، سنا البرق، ص 32. الديار بكري، ميس، ج، 2، ص 365. اليافعي، مرآة ج 3، ص 387. ابن واصل، مفرج، ج،1، ص114.

(3) عوض، السياسة، ص 139.

(4) السياسة، ص 138 – 140.

ولقد مثلت منطقة حوران([1]) المسرح الرئيسي للصراع بين القوات النورية، والجيش الصليبي، ويبدو أن الموقع الجغرافي، والأهمية الاقتصادية لهذه المنطقة، كانا المحركين في إدارة الصراع بين الطرفين، فموقع إقليم حوران هو الأقرب إلى دمشق بالنسبة للصليبيين، وهذا يعني أن استيلاء الصليبيين على هذا الإقليم يهيئ لهم السبيل لممارسة نوع من الضغط العسكري، والسياسي على دمشق، ومن ثم الاستيلاء عليها بسهولة، وتحقيق مرادهم الذي طالما سعوا من أجله[(2)].

ومن الناحية الاقتصادية فهناك أهميةٌ زراعيةٌ، وتجاريةٌ لإقليم حوران، حيث يتميز بخصوبة أرضه، ووفرةِ محاصيله ، كما سيطر على الطرق التجارية بين دمشق وشمال فلسطين، وكذلك القادمة من شبه الجزيرة العربية إلى دمشق، التي يسلكها حجاج الشام إلى الحجاز[(3)].

ولقد بدأ نور الدين محمود بالاتجاه نحو حوران بعد أن استنجد به معين الدين أنر أتابك دمشق على إثر تمرد الأمير الأرمني الأصل التونتاش غلام أمين الدولة كمشتكين([4]) التركي، والذي تولى حكم بصرى([5])، وصرخد([6]) باسم معين الدين أنر([7])، والأكثر من ذلك أن التونتاش قام بالتحالف مع الصليبيين الفرنج عام 542هـ/1147م، لمعاونته ضد سيده في مقابل منحهم السلطة الكاملة على بصرى، وصرخد في حالة تدخلهم العسكري، ويكون هو سيداً على إقليم حوران[(8)].

وقد استجاب نور الدين لطلب صهره معين الدين أنر، وتقدم بقواته حتى بلغ دمشق، وقبل وصول القوات الصليبية نجحت القوات النورية – قدرت بنحو أربعة آلاف– بالسيطرة على بصرى،

---

(1) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرى كثيرة ومزارع، وقصبتها بصرى. ياقوت، معجم، ج2، ص317.

(2) العريني، الشرق، ص 540، ابن موسى، غزوات، ص 127. عوض السياسة، ص 142.

(3) ياقوت، معجم، ج2، ص317. مالكي طريق، ص 9.

(4) أمين الدولة كمشتكين: الأتابكي الطغتكيني، واقف المدرسة الأمينية، متولي بصرى وصرخد، أمير جليل، كثير الحُرمة. ولاه على القلعتين الأتابك طُغتكين. فامتدت أيامه إلى أن توفي في ربيع الآخر سنة 541هـ، وهو واقف المدرسة الأمينية بدمشق. الذهبي، تاريخ، ج37، ص57.

(5) بصرى: من أعمال دمشق وهي قصبة كورة حوران. ياقوت، معجم، ج1، ص441.

(6) صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة. ياقوت، معجم، ج3، ص401.

(7) معين الدين أنر: هو أتابك "مربي" حاكم دمشق مجير الدين أبق 534هـ/1139–1154م والحاكم الفعلي في عهده، ووالد خاتون زوجة السلطان نور الدين محمود زنكي، توفي بدمشق عام 544هـ/1158م. قال الذهبي: " كان عادلاً، عاقلاً، خيّراً" وقال أبو شامة: " كان الحاكم والمدبر للبلد و العسكر و كان عاقلا دينا خيرا حسن السيرة". انظر: ابن القلانسي، ذيل، ص278،ص289. ابن الأثير، الباهر، ص88. الكامل، ج9ص353. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8ق1، ص 202. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص189. ابن كثير، البداية، ج12، ص226. الذهبي، تاريخ، ج37، ص13، 23، سير أعلام النبلاء، ج20، ص229. الأسدي، الكواكب الدرية،ص126.وانظر: ابن واصل مفرج، ص 129.

(8) ابن القلانسي، ذيل ص 289. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص181. الذهبي، تاريخ، ج37، ص58.

وقطعت الطريق على الصليبيين للاستيلاء عليها، وما أن وصلت هذه القوات حتى وقعت فريسة سهلة لقوات نور الدين وتم هزيمتها[1]، والقبض على التونتاش وعقابه([2]).

وبذلك نجح نور الدين في تخطي أولَ مرحلةٍ من مراحل جهاده ضد مملكة بيت المقدس رغم حداثة حكمه في حلب، وقد أثبت نجاحه في هزيمة الصليبيين في حوران مدى أهمية الدعم العسكري والسياسي الذي قدمه لأتابكية دمشق، إذ لم تكن لتستطيع كبح جماح التمرد الذي قاده التونتاش مستعيناً بالصليبيين[3].

وهذا الدعم يؤكد فيما لا يدع مجالاً للشك على الحس الديني الجهادي الذي تمتع به نور الدين من خلال استجابته لنداء الجهاد والمقاومة.

وقد عاد معين أنر ليستنجد بنور الدين مرة أخري عام 543هـ/1145م، ويطلب منه العون لمواجهة الحملة الصليبية الثانية على مدينة دمشق، وقد استجاب نور الدين مرةً أخرى حيث أرسل إمدادات ضخمة لمساعدته[4].

ويبدو أن نور الدين اتخذ منحى مختلف في جهاده ضد الصليبيين في الجنوب- مملكة بيت المقدس- إذ اتجه إلى حربهم عن طريق دعم دمشق، ولعل سبب ذلك هو السيطرة البورية([5]) على المدينة، والتي حالت دون خوض صراع أكبر مع المملكة؛ كما أنه لم يرغب في حصر توجهاته الجهادية في المنطقة الجنوبية من بلاد الشام، في الوقت الذي تواجه عاصمته حلب خطراً جسيماً يتمثل في: مواجهة إمارة أنطاكية الصليبية في الشمال، وهذا يعني عدم المغامرة بقذف جميع قواته بين شقي الرحي، عدو صليبي في شمال والجنوب[6].

وبعد ضم نور الدين محمود لدمشق([7])، صار بإمكانه أن يواجه مملكة بيت المقدس بشكل مباشر، وقد تجلى ذلك واضحاً في عام 552هـ/1157م، حيث نشبت بين الفريقين معركة بانياس رغم الهدنة التي تم توقيعها بين الجانبين، إلا أن الملك بلدوين الثاني خرقها بعد مهاجمته لعدد من الرعاة

---

(1) ابن الأثير، الباهر، ص88. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص181. سبط ابن الجوزي مرآة، ج 8، ق 1. ص 209-210.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص181.

(3) عوض، السياسة، ص 144.

(4) ابن الأثير، الباهر، ص88-89. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص189. ابن واصل، مفرج، ج1،ص 112، الذهبي، العبر، ج4، ص 117، سير، ج20، ص405. ابن الوردي، تتمة، ص 47 الحريري، الإعلام ص 76، ابن العماد، شذرات، ج4 ص134. الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص759. دويل، رحلة لويس، ج1، ص298 وما بعدها. رنسيمان، تاريخ الحروب، ج2ص453. وانظر: بردج، تاريخ الحروب، ص155.

(5) كانت دمشق تحت حكم البوريين، وحاكمها يدعى جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين و كان محكوما عليه و الغالب على أمره معين الدين أنر مملوك جده طغتكين، ثم تولى الحكم فيها ابنه مجير الدين أبق وكان طفلا صغيرا فتحكم به أنر. ابن الأثير، الباهر، ص88. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص128.

(6) عوض، السياسة، ص 147.

(7) ابن الأثير، الباهر، ص106-107.

والفلاحين المسلمين، الذين كانوا يمارسون نشاطهم الاعتيادي، وقد ارتكنوا إلى وجود معاهدة سلمية مع الصليبيين ، بينما هم في عملهم هاجمت القوات الصليبية المنطقة، وقد استشهد عدد منهم، وأصيب آخرون، إضافةً إلى وقوع عمليات أسر بحق بعضهم ، وتم سلب قطعان الماشية وتدمير المحصول[1].

وأمام هذا الصلف والغرور الصليبي، أمر نور الدين قواته بتعقب الصليبيين، ونصب كمين لهم، وقد نجح هذا الكمين في إلحاق الهزيمة بالصليبيين، وصاروا بأجمعهم بين قتيلٍ، وجريحٍ، ومسلوبٍ، وأسيرٍ، وطريح[2].

وقد تمكنت القوات النورية بعدها من إعادة السيطرة على بانياس[3]، وعاد بلدوين الثالث([4])، وتمكن من إعادة احتلالها[5]، وفي عام 560هـ/1164م، تمكن نور الدين من فتح المدينة[6].

وفي إطار جهاده ضد الصليبيين الفرنجة، اتجه نور الدين إلى استخدام وسائل أخري متعددة ، كسياسة التخريب الاقتصادي في موارد المملكة، وعمل على مهاجمة، وإسقاط العديد من الحصون والقلاع التابعة لها، بهدف حرمانها من مصادر القوة اللازمة لصمودها في محيط إسلامي يتحين الفرص لإسقاطها[7].

وقد اتجهت القوات النورية يقودها أسد الدين شيركوه إلى مهاجمة بارونية صيدا([8]) في عام 553هـ/ 1158م، في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يعملون على إعادة بناء ما هدمته الزلازل ،وتمكنت من غنم الكثير[9].

---

(1) ابن القلانسي، ذيل ص 339. ابن الأثير، الباهر، ص 130–131. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص341.

(2) ابن القلانسي، ذيل ص 339.

(3) ابن الأثير، الباهر، ص 130–131. عاشور، الحركة، ج2، ص 668. عوض، السياسة، ص 152.

(4) بلدوين الثالث: هو الابن الأول للملك فولك الأنجوي (ت 1143م/537هـ)، كان يبلغ من العمر عند وفاة والده ثلاثة عشر عاماً، ولما كان السن القانوني لاعتلاء عرش المملكة خمسة عشر عاماً، فقد وافق سادة المملكة والمحكمة العليا (The Haulte Court of the Assises de Jerusaem)على تنصيب زوجة الملك ميليسند وصية على بلدوين الثالث حتى يبلغ السن القانونية لتولى عرش المملكة غير أن ميليسند لم تتنازل لابنها عن الحكم حتى بعدما بلغ السن القانونية، فنشأ بينها وبين ابنها صراعاً بعد أن بلغ من العمر عشرون عاماً في عام 1150م، لدرجة أنه قد تم تقسيم المملكة إلى قسمين شمالي يضم عكا وصور وتوابعها تحت حكم بلدوين الثالث، وجنوبي يشمل بيت المقدس ونابلس تحت حكم أمه ميليسند، إلى أن استطاع إجبارها على التنازل عن الحكم فلم يبق بيدها إلا نابلس وتوابعها . عن ذلك الصراع انظر: الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص644، 655، 734، 796؛ Archer and kingsford. The Crusaders. P 113, 224 . بلدوين، الدويلات اللاتينية، ص191، 194–195. البيشاوي، نابلس، ص88–89.

(5) عوض، السياسة، ص 152.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 356. النويري، نهاية ، ج27ص 158، ابن العماد شذرات ج4، ص 188.

(7) عوض، السياسة، ص 152.

(8) صيدا: مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط من أعمال دمشق شرقي صور بينهما ستة فراسخ، ياقوت، معجم البلدان، ج3ص437. ابن شداد الحلبي، الأعلاق طيرة، ج2ق2ص98. ابن بطوطة، الرحلة، ج1ص81.

(9) ابن القلانسي، ذيل ص 352، زكي صيدا، ص 150 – 151.

وفي عام 561هـ/1165م، تمكنت القوات النورية من فتح حصن مهم على حدود بلاد العرب فيما وراء نهر الأردن، وقد حاول الملك عموري الأول إعادة احتلاله دون جدوى[1].

وبالعودة إلى صور([2])، نجد أن الجيش النوري تمكن من فتح حصن كهف صور في العام نفسه[3]، الذي شهد أيضاً غزو مناطق هونين([4])، وتخريبها[5].

وعلى صعيدٍ آخر، فإن نور الدين قد اتجه إلى أسلوبٍ آخرٍ في حربه ضد مملكة بيت المقدس ، وهو عقد الهدن معها، ليتفرغ للجهاد على الجبهة الشمالية حيث إمارة أنطاكية([6])، فهو لم يشأ الوقوع بين فكي الكماشة، وحتى يضمن حياد الصليبيين في الجبهة الجنوبية.

فقد اتجه نور الدين إلى مهادنة الصليبيين في المملكة عام 550هـ/1155م لمدة عام[7]، ثم تجددت عام 551هـ/1156م، مقابل أن تقوم دمشق بإرسال قطيعة للصليبين قدرها ثمانية آلاف دينار صوري[8]، وقد أعيد تجديد هذه الهدنة لمدة عامٍ آخرٍ مع استمرار دفع القطيعة السابقة[9]، وفي عام 556هـ/ 1160م، عقدت هدنة لمدة عامين بين الجانبين[10].

وفي عام 556هـ/1170م، وعلى أثر الزلازل التي أصابت البلاد، قرر نور الدين عقد هدنة مع الملك عموري الأول بهدف إعادة إعمار البلاد[11]، وبالإضافة إلى الهدن السابقة عقد نور الدين مع الصليبيين هدنة في عام 568هـ/1173م لمدة ثلاث أشهر، يتم بمقتضاها دفع أربعة آلاف من الدنانير[12].

---

(1) عوض، السياسة ص 153.

(2) صور: مدينة مشهورة وهي مشرفة على بحر الشام داخلة في البحر مثل: الكف على الساعد يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الرابع الذي منه شروع بابها، وهي حصينة جداً ركينة لا سبيل إليها، انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1ص365. ابن جبير، تذكرة، ص212. ياقوت، معجم البلدان، ج3ص433. ابن شداد الحلبي، الأعلاق طيرة، ج2ق2، ص163.

(3) زكي، صيدا 152.

(4) هونين: بلد في جبال عاملة قريب من بانياس غرب النهر. ياقوت، معجم، ج5، ص420.

(5) ابن القلانسي، ذيل، ص340-341. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص340-341، ج2، ص 16. ابن العديم، زبدة، ج2 ص 324

(6) أنطاكية: تقع في الركن الجنوبي لسهل العمق الواقع في القسم الشمالي الغربي لبلاد الشام، عند النقطة التي يدخل فيها نهر العاصي على الشاطئ الأيسر منه، ويحيط بها سور قوي مزود بأربعمائة(400) برج، وأربعة وعشرون ألفَ(24.000) شرفةٍ، بناها الإمبراطور جوستنيان، مما جعلها مدينة حصينة من الناحية العملية، انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص154. ياقوت، معجم، ج3ص741. العمري، مسالك الأبصار، ص23.

(7) ابن القلانسي، ذيل ص 331

(8) المصدر نفسه، ص 336، أبو شامة، الروضتين ، ج1، ص 328.

(9) عوض، السياسة ، ص 157.

(10) المرجع نفسه.

(11) المرجع نفسه.

(12) المرجع نفسه.

والحقيقة أننا لا نسلم بكل ما جاء به الصوري – مؤرخ مملكة بيت المقدس الرسمي– وخاصة في الشق المالي من الهدن التي تم عقدها بين نور الدين، ومملكة بيت المقدس، إذ يلاحظ أنه لم تصل إلينا أي وثيقة تؤكد على ما أورده الصوري، كما أن أي من المصادر العربية والإسلامية المعاصرة لم تشر من بعيد، أو قريبٍ إلى أن نور الدين أوقف القتال مع الصليبيين، وقام بتقديم المال للصليبيين مقابل ذلك[1].

وإن سلمنا بما قاله الصوري حول تقديم نور الدين قطيعة مالية للصليبيين لوقف القتال معهم، فإننا لا نرى في ذلك طعناً في توجهات نور الدين، الذي كان حريصاً كل الحرص على مصلحة المسلمين، فهو ربما دفع المال ليس تنازلاً منه، وإنما " شراء " المسالمة مع أعدائه، وهذا دليلٌ على أنه فعل ذلك في سبيل مصلحة دولته، لتنظيم أوضاعها الداخلية.

ومهما يكن من أمر فإنه على الرغم من الجهاد الحثيث ضد مملكة بيت المقدس، فإن نور الدين لم يتمكن من إسقاطها، غير أن ذلك ليس معناه كما نظر بعض الباحثين الغربيين– إلى مجهوداته بشيء من الاحتقار واتهامه بعدم الطموح[2].

بل يجب علينا أن نحترم الجهود التي قام بها نور الدين تجاه مملكة بيت المقدس لإسقاطها، واعتبارها الممهدة للإنجازات التي حققها المسلمون في عهد صلاح الدين، وتمكنه من إسقاط المملكة عام 583هـ/ 1187م.

لقد استطاع نور الدين خلال مدة حكمه، أن يفتح ما ينوف على خمسين حصناً، ومعقلاً صليبياً[3]، وخاض غمار المعركة مع جبهتين شمالية، وجنوبية في آنٍ واحدٍ، وتمكن من توحيد الجبهة الإسلامية؛ مما أدى إلى حصر المملكة الصليبية في نطاق ساحلي ضيق دون أن يؤثر ذلك كله على الإنجازات الداخلية التي حققها في الدولة، مما يدلل على مقدار الحكمة والذكاء اللذان كان يتمتع بهما، وهو الرجل المتدين المتوكل على الله.

2– جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين الفرنجة في الإمارات الصليبية :ـ

لقد شكلت مواقع الإمارات الصليبية ذات الأهمية الإستراتيجية، أنطاكية – طرابلس([4])، تهديداً خطيراً لحدود الدولة النورية، كما أنها مثلت الوجود غير الشرعي على الأرض العربية الإسلامية

---

(1) عوض، السياسة ، ص 157.

(2) سمايل، الحروب، ص 72

(3) ابن خلكان، وفيات، ج4، ص272، ابن كثير، البداية، ج12، ص286. الذهبي، تاريخ، ج39، ص 371–372. ابن العماد، شذرات ج4، ص 528.

(4) طرابلس: Tripolis يتألف اسم المدينة من مقطعين " Tri" بمعنى ثلاث أو مثلث، و "Polis" بمعنى مدينة، ومن هنا فإن اسم المدينة يعنى المدينة المثلثة، وهي إحدى المدن الساحلية الواقعة على ساحل البحر المتوسط. ناصر خسرو، سفر نامه، ص47. ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص25. ابن شداد، الأعلاق طيرة، ج2، ق2، ص104. ابن بطوطة، الرحلة، ج1ص83–84.

الشامية، مما دفع نور الدين محمود للعمل على محاربة هذه الإمارات جهاداً في سبيل الله، وحمايةً لحدود دولته.

أما بالنسبة لإمارة الرها، فقد عمل نور الدين على تأكيد السيادة الإسلامية عليها بعد أن فتحها والده عام 539هـ/ 1144م[1].

فقد حاول جوسلين الثاني إعادة احتلالها مرة أخري عام 542هـ/1147م، بعد استشهاد عماد الدين زنكي مستعيناً بالأرمن داخلها[2]، وبمجرد وصول القوات الصليبية قام الأرمن بفتح أبواب المدينة، ونجح جوسلين الثاني بإعادة احتلالها[3] دون قلعتها[4]، وصلت أخبار التطورات العسكرية والسياسية الحاصلة في الرها، فهب لينقذ المدينة من براثن الصليب، وما أن وصلت القوات النورية حتى لاذ جوسلين بالفرار[5]، وتمت ملاحقته من قبل الجيش النوري الذي ألحق الهزيمة بجيشه، وإصابة جولسين نفسه بجروح[6].

وعلى الصعيد نفسه عاد نور الدين إلى المدينة ليبسط سيطرته عليها، وقامت القوات النورية بالسيطرة على موارد المدينة، وما فيها من ممتلكات، عقاباً لأهلها على تمردهم، وتواطؤهم مع جوسلين[7]؛ ويبدو أن جوسلين قد قرر رد اعتباره، فأعد جيشاً كبيراً تمكن من خلاله من إلحاق الهزيمة بالقوات النورية، وأسر عددٍ من قادة الجيش النوري، وذلك في عام 545هـ/1150م[8].

وأمام ذلك أدرك نور الدين حجم الخطر الذي يمثله جوسلين الثاني، وأنه لابد من أسره ليضع حداً لتعدياته المستمرة، وهذا ما حدث بالفعل حين أمر نور الدين بمراقبة جوسلين الثاني، ومعرفة تحركاته، وفي نهاية المطاف قامت القوات النورية بنصب كمين، تمكنت من خلاله من أسره في العام

---

(1) ابن القلانسي، ذيل ص 279. ابن الأثير ،الباهر، ص 66. الجنزوري، إمارة الرها، ص 316، 317.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص125. سبط ابن الجوزي، ذيل، ج8ق1،ص191. ابن العديم، زبدة، ج2، ص290، ابن خلدون، العبرج5، ص238. النويري ، نهاية ج27، ص 152.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص125.

(4) العديم، زبدة ، ج2، ص 290.

(5) ابن القلانسي، ذيل، ص 288. ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص 118. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص125.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص125. ابن كثير، البداية، ج12، ص221.

(7) ابن القلانسي، ذيل، ص 288، ابن الأثير ، الكامل ج11، ص 46.

(8) ابن الأثير، الباهر، ص 101. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص246. ابن العبري، تاريخ، ص 217. ابن العديم، زبدة ، ج2، ص 301 ابن واصل، مفرج1، ص 123. النويري نهاية ، ج 27، ص 156 – 157.

نفسه حيث تم سمل[1] عينيه، وسجنه، وقد بقي هكذا حتى وافته المنية بعد تسعة أعوام، وذلك في عام 554هـ/ 1159م[2].

وقد كان لأسره نتائجٌ إيجابيةٌ، وبارقةُ أملٍ حيث سقطت جميع أملاكه، مثل: تل باشر[3]، عين تاب[4]، وعزاز[5]، وتل خالد[6]، وقورس[7]، وبرج الرصاص[8]، ودلوك[9]، ومرعش[10]، وغيرها من المناطق المحتلة في قبضة الجيش النوري في مدة وجيزة امتدت في الفترة مابين عامي 545هـ/1150م إلى 550هـ/1155م[11].

وبهلاك جوسلين وفتح ممتلكاته، تمكن نور الدين من حسم صراعه مع أسرة جوسلين والمحافظة على إنجاز والده عماد الدين زنكي.

أما بالنسبة لجهاد نور الدين ضد أنطاكية، فإن أميرها ريموندي بواتيه (531ـ544هـ/1136ـ1149م)، قد أدرك أن فتح إمارة الرها في أيدي المسلمين زمن عماد الدين زنكي، وتثبيت السيادة الإسلامية عليها في عهد نور الدين، يشكل خطراً جسيماً على إمارته، لذلك عمل على انتهاز الفرص لمهاجمة عاصمة نور الدين– حلب– بل أنه طالب بتوجيه الحملة الصليبية الثانية نحوها بدلاً من دمشق[12]، في إطار أن الهجوم خير وسيلة للدفاع، غير أن ذلك لم يحدث، إذ أن الحملة الثانية اتجهت صوب دمشق، لتترك أنطاكية تواجه مصيرها مع نور الدين[13].

---

(1) سمل العين: فقؤها يقال سملت عينه تسمل إذا فقئت بحديدة محماة. ابن منظور، لسان، ج11، ص347.

(2) ابن القلانسي، ذيل ص 310، الأصفهاني، تاريخ 207. ابن الأثير، الباهر، ص102. الكامل ج8 ص 62 – 63. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص246. ابن العديم . زبدة ج2، ص 302. الذهبي، سير، ج20، ص407. الأسدي الكواكب، ص 136 – 137.

(3) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب. ياقوت، معجم، ج2، ص40.

(4) عين تاب: قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية. ياقوت، معجم، ج4، ص176.

(5) عزاز: بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب. ياقوت، معجم، ج4، ص118.

(6) تل خالد: قلعة من نواحي حلب. ياقوت، معجم، ج4، ص41.

(7) قورس: مدينة أزلية بها آثار قديمة وكورة من نواحي حلب. ياقوت، معجم، ج4، ص412.

(8) برج الرصاص: قلعة ولها رساتيق من أعمال حلب قرب أنطاكية. ياقوت، معجم، ج1، ص373.

(9) دلوك: بليدة من نواحي حلب بالعواصم. ياقوت، معجم، ج2، ص461.

(10) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني. ياقوت، معجم، ج5، ص107.

(11) ابن القلانسي، ذيل ص 310. الأصفهاني، تاريخ ، ص207. ابن العبري، تاريخ، ص 208. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص247. ابن العديم، زبده ج2، ص 302 – 303 ابن الوردي، تتمة ص 50. ابن واصل، مفرج، ج1، ص 124. سبط الجوزي، مرآة، ج 8، ق1، ص 202. الذهبي، سير، ج20، ص406. النويري، نهاية 27، ص 157. الصوري، الأعمال المنجزة، ج3، ص342–343.

(12) مؤنس، نور الدين، ص 210. العريني، الشرق، ص 625. الدي، الجهاد، ص 245، 264.

(13) عوض ، السياسة، ص 170.

وقد كانت معركة يغري[1] في رجب 543هـ/نوفمبر 1148م أولى صور الصدام بين الجيش النوري، وبين صليبي أنطاكية، وانتصر فيها نور الدين وقواته[2]، وكان من نتائج هذا الانتصار النوري فتح حصن حارم[3]، وأرتاح[4].

واستمر الجهاد النوري ضد إمارة أنطاكية، فانتصر عليهم في معركة أنب[5] في صفر 544هـ/ يونيه (حزيران) 1149م، وتم قتل أمير أنطاكية (ريموند دي يواتيه)، الذي وصف بأنه كان " عاتية من عتاة الفرنج و ذوي التقدم فيهم والملك"[6] وعددٍ آخرٍ من مساعديه.

وقد مثل انتصار نور الدين في هذه المعركة انجازاً مهماً له لا سيما وأنه كان في مرحلة مبكرة من حكمه، وأكسبه انتصاره سمعةً ذائعةَ الصيتِ، ومكانةً بارزةً في العالم الإسلامي.

ويبدو من التقارب التاريخي في توقيت المعركتين أن نور الدين كان مصمماً على إضعاف إمارة أنطاكية الصليبية والقضاء عليها.

وقد كان لمقتل أمير أنطاكية ريموند بالغ الأثر على مختلف أوضاع الأمارة، فحلت الفوضى، وانتشر الهلع بين الصليبيين، ولم يعد هناك شيء يحول بين نور الدين والإمارة بعد مقتل أميرها، وعددٍ كبيرٍ من قادة جيشه[7].

ومهما يكن من أمر، فقد استغل نور الدين الانتصار الذي حققه في أنب، فقام بفتح عددٍ من الحصون التي تتبع إمارة أنطاكية، ومنها: أرزمان، وأنب، وعم، وتوج فتوحاته بالسيطرة على ميناء السويدية الاستراتيجي[8].

---

(1) يغري: بليدة إلى الشمال من دربساك في شمال أنطاكية على النهر المعروف باسمها ويصب في بحيرة أنطاكية. ابن العديم، زبدة، 292، حاشية 4. في معجم البلدان لياقوت، ج2، ص224، بجيرة يغرا بالقرب من أنطاكية. وذكر ابن العديم البحيرة بقوله: " وهي بحيرة كبيرة في جانب العمق مستطيلة بعمق أنطاكية وتعرف أيضا ببحيرة بغراس " ج1، ص409.

(2) ابن الأثير، الكامل ،ج9، ص356. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص198–200. ابن العديم، زبدة، ج2، ص292. ابن واصل، مفرج،ج1،ص114. ابن الوردي ،تتمة، ج1، ص48. النويري، نهاية،ج27،ص154. عطية ، إمارة، ص233. حبشي، نور الدين،ص79. وقد خالف ابن القلانسي إجماع المصادر والمراجع بالقول بهزيمة القوات النورية، ذيل، ص302–303.

(3) حارم: حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية. ياقوت، معجم، ج2، ص205.

(4) أرتاح: مدينة من أعمال حلب. ياقوت، معجم، ج1، ص140.وانظر: القلانسي، ذيل، ص302. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 183، 200. عاشور، الحركة، ج2، ص637.

(5) أنب أو إنب بالكسر: حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب. ياقوت، معجم، ج1، ص258.

(6) ابن القلانسي، ذيل، ص 304. الأصفهاني، تاريخ، ص207. ابن الأثير، الباهر، ص 102. الكامل، ج9، ص 362. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص206–207. ابن واصل، مفرج ج1 ص120 –116. وانظر: بردج، الحروب ص 159. المطوي، الحروب ص 48.

(7) عوض ، السياسة، ص172.

(8) عطية ، إمارة ص 235. العريني ، الشرق، ص 576. عاشور الحركة، ج2، ص 639. حبشي، نور الدين، ص 83. عوض، السياسة ص 172.

كما تمكن من فتح أهم الحصون التابعة للإمارة، ألا وهو حصن أفامية([1]) عام 544هـ/1149م [2]. واستمراراً للعمليات الجهادية ضد إمارة أنطاكية، أمر نور الدين جنوده ببذل كافة الجهود لأسر أميرها، وخاصة بعد أن تولى حكمها أرناط([3]) عام 548هـ/ 1153م، وفعلاً تمكنت القوات النورية من إلقاء القبض على أرناط وإيداعه السجن[4].

ونظراً للنجاحات المستمرة لنور الدين ضد الصليبيين في أنطاكية، قرر الصليبيون في بلاد الشام التحالف مع البيزنطيين، والأرمن للحد من إحراز أي تقدم آخر، وخاصة أنه أصبح على قاب قوسين أو أدني من أبواب الإمارة، واتفقوا جميعاً على مهاجمة نور الدين عند حارم[5]؛ وهناك نشبت معركة حاسمة عام 559هـ/1163م، كان النصر فيها حليفاً لنور الدين، وجيشه الذي بلغ ثلاثين ألفاً، وكان مدعوماً من أخوة نور الدين: نصرة الدين أمير أميران، و قطب الدين، وكذلك من زين الدين كوجك([6]) حاكم إربل([7])، وحاكم سنجار([8])، وسيف الدين صاحب منبج[9].

---

(1) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام، وكورة من كور حمص. ياقوت، معجم، ج1، ص227.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص205، 217. عاشور، جهاد ص 210. العريني، الشرق، ص 578.

(3) أرناط كما تسميه المصادر الإسلامية، أو رينالد دي شاتيون في المصادر اللاتينية حاكم الكرك، تزوج في بداية ظهوره على الساحة السياسية بكونستانس Constance أميرة أنطاكية فاحتل بذلك مكانة مرموقة حتى وقع في الأسر الإسلامي ففقد تلك المكانة وبعد إطلاق صراحه انتقل إلى إقطاعية نابلس حيث تزوج من ستيفاني ابنة فيليب دي ميللي سيد الإقطاعية، وبزوجه من ستيفاني أصبح سيداً على بارونية ما وراء نهر الأردن بما فيها الكرك والشوبك بعد وفاة والد ستيفاني، وقد اتصف بالمغامرة والاندفاع والجرأة والغدر مما جعل العماد الأصفهاني يقول في حقه أنه " أغدر الفرنجية وأخبثها وأفصحها عن الرّدى والرداءة وأبحثها، وأنقضها للمواثيق المحكمة، والأيمان المبرمة وأنكثها وأخبثها ". أبو شامة، الروضتين، ج2،ص93-94، 400، 466، ج3ص134، 274، 288، 296. وانظر عن أرناط: العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5،ص69.. الحموي، مضمار الحقائق، ص60. ابن الأثير، الكامل، ج10،ص105، 142-143، 146. البنداري، سنا البرق، ص289. بلدوين، اضمحلال، ص265.

(4) عوض، السياسة، ص 174.

(5) انظر حول المعركة بالتفصيل: ابن الأثير، الباهر، ص123-125. الكامل ج9، ص 467-469. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص33، 415-419. ابن كثير، البداية، ج12، ص234. الذهبي، سير، ج20، ص533.

(6) زين الدين كوجك: على بن كوجك بن بكتكين التركماني صاحب إربل وممصرها، الفارس المشهور والبطل المذكور ولقب بكوجك وهو بالعربي اللطيف القد والقصير، وكان مع ذلك معروفا بالقوة المفرطة والشهامة وهو ممن حاصر المقتفي وخرج عليه ثم حسنت طاعته وكان جوادا معطاء فيه عدل وحسن سيرة ويقال إنه تجاوز المائة، توفي في 563هـ. الذهبي، سير، ج22، ص335. العبر، ج4، ص182. الأتابكي، النجوم، ج5، ص378.ابن العماد، شذرات، ج2، ص211.

(7) إربل: مدينة كبيرة بالقرب من الموصل من جهتها الشرقية وتعد من أعمالها. ياقوت، معجم، ج1، ص137. ابن خلكان، وفيات، ج1، ص187.

(8) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وهي في لحف جبل عال. ياقوت، معجم، ج3، ص262.

(9) ابن الأثير، الباهر، ص123. الكامل ج9، ص 468-469. أبو شامة، الروضتين ج1، ص419. ابن واصل، مفرج، ص 1، ص 143، ابن كثير البداية، ج12، 248. الحريري، الإعلام، ص 78.

وقد استطاع الجيش النوري قتل عشرة آلاف جندي صليبي، وأسر ستة آلاف آخرين[1].

وعلى أثر المعركة تم السيطرة على حارم[2]، وكسب كميات وفيرة من الغنائم[3]، ثم واصل عملياته ضد الصليبيين، ونجح بفرض سيطرته على بانياس أثناء غياب عموري الأول في مصر، ذلك بعد شهرين من الانتصار في حارم، وذلك في جمادي الأول عام 560هـ/مارس (آذار) 1165م[4]، ويبدو أن نور الدين كان يهدف من وراء ذلك التخفيف عن صلاح الدين في مصر، وإجبار عموري الأول على ترك مصر، والعودة لتدارك الموقف المتدهور حول إنطاكية، وفي محيط المملكة الصليبية.

وإذا ما انتقلنا للحديث عن جهاد نور الدين ضد إمارة طرابلس، فإن أول ما يطالعنا هو تلك المعركة التي انهزم فيها نور الدين، والتي عرفت بالبقيعة عام 558هـ/ 1162م[5]؛ غير أن تلك الهزيمة لم تمنع نور الدين من العودة إلى مهاجمة المناطق والحصون المحيطة بالإمارة، ونجح بفتح عددٍ منها، ففي عام 561هـ/1165م، كانت السيطرة على حصن المنيطرة([6])، وعددٍ من الحصون الأخرى، منها: صافينا، والعريمة، وباسوطا، وهاب، بعد معركة اللبوة عام 565هـ/1169م[7].

وبعد عامين أي في عام 567هـ/1171م، تمكنت القوات النورية من فتح حصن آخر من حصون إمارة طرابلس، وهو حصن عرقة([8]).

ومهما يكن من أمر فقد استطاع نور الدين فتح العديد من الحصون والقلاع الصليبية، غير أنه لم يتمكن من إسقاط الإمارتين الصليبيتين بشكل تام، إذ يبدو أن الصراع كان عنيفاً.

---

(1) البنداري سنا البرق، ص 19. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 418–419. ابن العديم، زبدة، ج1، ص 320، ابن واصل، مفرج، ج1، ص 145، سبط ابن الجوزي مرآة ، ج8، ق1، ص 247. الحريري الإعلام، ص 78، ابن العماد، شذرات، ج4، ص 186. وكان من بين الأسرى الصليبيين وحلفائهم: أبرزهم أمير أنطاكية بوهيمند الثالث، وأمير طرابلس ريموند الثالث، أمير كيليكيا البيزنطي قسطنطين كارلومان، والأمير هيودي لوزينيان.

(2) أبو شامة، الروضتين ج1، ص419. ابن واصل ، مفرج، ج1، ص 145. الحريري، الإعلام، ص 78.

(3) ابن الأثير، الباهر، ص 125. ابن العديم، زبدة ، ج2، ص 320.

(4) ابن الأثير، الباهر، ص 130. الكامل، ج4، ص469. أبو شامة، الروضتين ، ج1، ص341–342. ابن العديم، زبدة ، ج 2، ص321. ابن كثير البداية، ج12، 236. الذهبي، سير، ج20، ص410. الأتابكي، النجوم، ج5، ص367.

(5) ابن الأثير، الباهر، ص 117 – 118. الكامل ج9، ص 467. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص416. ابن واصل مفرج، ج1، ص 135. ابن العديم، زبدة ج2، ص 313 – 314.

(6) المنيطرة : حصن بالشام قريب من طرابلس. ياقوت، معجم، ج5، ص217. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 481. الباهر، ص 131. ابن شداد، النوادر، 38. ابن العديم، زبدة ،ج2، ص 332. أبو شامة، الروضتين ، ج2، ص 16. ابن واصل مفرج ج1، ص 148. ابن كثير البداية، ج12، ص 251. الذهبي، العبر، ج4، ص174. الأسدي، الكواكب، ص 169. النويري، نهاية ج27، ص 158. الحريري ،الإعلام ص 78.

(7) ابن الأثير، الباهر، 154. الكامل، ج 10، ص 5، 37. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص196، ج2، ص20، 225.

(8) عرقة: بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ وهي آخر عمل دمشق. ياقوت، معجم، ج4، ص109. وانظر: ابن الأثير، الباهر، 154. أبو شامة الروضتين، ج2 ص 224. ابن العديم، زبدة ج 2، ص 336.

وقد احتاج إلى بذل جهودٍ كبيرةٍ من أجل حسمه؛ ورغم ذلك فإن الإنجازات التي حققها نور الدين خلال جهاده ضد مملكة بيت المقدس، وإمارتي أنطاكية وطرابلس، لا يمكن التقليل من شأنها، بل يمكن اعتبار أنها هي التي مهدت لصلاح الدين لمواصلة جهاده ضدها.

ثالثا: حرص نور الدين محمود على وحدة وتماسك الدولة الإسلامية:

شهد المشرق الإسلامي خلال مرحلة الصراع الإسلامي الصليبي ظاهرة القوى السياسية الكبرى، وصراع الكيانات الصغيرة للحاق بها؛ فقد كانت الخلافة العباسية السنية في بغداد ، والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة ، وبقايا النظام الأتابكي، كما نجد في دمشق والموصل ، والأسرات الحاكمة مثلما الأمر في: شيزر([1]) ومنبح، وجعبر، وتلك الكيانات السياسية الكبرى والصغرى سيطرت على مساحاتٍ شاسعةٍ، وموارد اقتصادية هائلة مكنتها من لعب دورٍ سياسي مهم.

وهنا أدرك نور الدين ضرورة توحيد تلك الكيانات، وما تملكه من إمكانيات اقتصادية، ليستغلها في دعم جهاده ضد عدو واحد لا يرحم أحداً، ألا وهو العدو الصليبي الفرنجي. وليس كما يحلو للبعض، أن ما قام به نور الدين مجرد أطماع دنيوية، وطموحات سياسية لإنشاء إمبراطورية للأتابكة في شمال العراق، تمتد نحو بلاد الشام لتصل إلى مصر، ولكي يمنح نفسه الغطاء الشرعي، والقبول الشعبي قام باستغلال شعارات الجهاد ضد الصليبيين، لتبرير التوسع على حساب جيرانها من القوى المحلية الشامية والجزرية، وبالتالي إمكانية تغير خريطة بلاد الشام، وما وجدت عليه من تفكك في أخريات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، والذي كان عاملاً جوهرياً، هيأ للغزاة الصليبيين الفرنجة توطيد أقدامهم في شرق البحر المتوسط وأعالي الفرات[(2)].

ومن هنا فإنه لا يمكننا إنكار القول: بأن هناك عدداً من الدوافع السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، هي التي دفعت نور الدين للعمل على ضم الكيانات السياسية جميعها في كيانٍ واحد يسيطر عليها وحده، ولكن من المحتم لدينا أن لا نعول كثيراً على الدوافع الدنيوية؛ لأن الدافع الأساسي والرئيسي الذي جعل نور الدين مصراً على السيطرة على القوى الإسلامية المفككة، هو حرصه على وحدة وتماسك الدولة الإسلامية، كمواجهة السرطان الصليبي الفرنجي في المشرق الإسلامي، وكل ذلك كان يحركه الوازع الديني، والإيمان الحق بأن الوحدة هي السبيل الوحيد لطرد العدو من بلاد المسلمين.

---

(1) شيزر: قلعة تشتمل على كورة جنوب معرة النعمان إلى الشمال من مدينة حماة تبعد عنها حوالي 44كم. ياقوت، معجم البلدان، ج3ص383. البكري، معجم، ج3ص818.

(2) انظر هذا الرأي في عوض، السياسة، ص 110.

ومهما يكن الأمر فقد كان هناك العديد من الدوافع، وعلى رأسها المحرك الإيماني الوحدوي، الذي لا يتأتي له التحقق إلا بعد تحقيق الدوافع الأخرى والتي منها: رغبة نور الدين محمود في السيطرة على خطوط التجارة التي ربطت الشام بجنوبه ، وشمال العراق[1].

وكذلك التحكم بمراكز الصناعة خاصة في المدن الكبرى، كما هو الحال في دمشق، والموصل، والإفادة من وفرة المواد الخام اللازمة للتصنيع مثلما الأمر في الموصل.

وهناك اعتبارات إستراتيجية تتعلق في السيطرة على مراكز التكتل السكاني في السهول الفيضية لأنهار الفرات، والعاصي وغيرها[2]. وهذا بالتالي يمكنه من امتلاك عنصر مهم للجهاد ضد الصليبيين الفرنج ، ألا وهو العنصر البشري، الذي كان يعول عليه كثيراً آنذاك في العديد من الأنشطة.

وسنستعرض في هذا المبحث الخطوات، والحيثيات التي قام من خلالها نور الدين بتوحيد الكيانات السياسية والقوى الإسلامية في قوة واحدة:

1-الموصل:

خضعت الموصل بعد وفاة عماد الدين زنكي، للأخ الأكبر لنور الدين، سيف الدين غازي[3](541ـ544هـ/1144ـ1149م)، والذي عد نفسه الوريث الشرعي لأملاك والده، لأن التقاليد التركية أقرت له أن تكون زعامة البيت الحاكم له، ورأى أن سيطرة نور الدين على حلب وجعلها مركزاً، وعاصمة لدولته الناشئة عصياناً، وخروجاً عن تلك التقاليد[4].

ويبدو أن الأخوين حاولا تجنب الدخول في صراعٍ حربي، لحسم ما بينهما من خلاف حول وراثة ما تركه حصاد عدد من السنين التي قام بها عماد الدين زنكي، وانتظر كل منهما الفرصة لترجيح كفته؛ وعليه كان الحل الدبلوماسي المؤقت والمتمثل في اتفاق الخابور([5]) عام 541هـ/1146م[6].

وقد نص الاتفاق: على أن تكون المناطق الواقعة شرق نهر الخابور لسيف الدين غازي، أما المناطق التي تقع غربه فتكون لنور الدين، أي أن النهر المذكور هو الحد الفاصل لممتلكات الطرفين[7].

والواقع أن هذا الاتفاق جاء بعد اختراق القوات النورية لمناطق نفوذ سيف الدين غازي دون استئذان؛ وذلك من أجل مواجهة المحاولة الفاشلة التي قام بها جوسلين الثاني كونت الرها لاحتلال

---

(1) عوض، السياسة، ص 26، 27، 109.

(2) ابن القلانسي، ذيل، ص 142. الإدريسي، نزهة، ج4، ص 367، 347. ابن العديم، زبدة، ج2، ص 341.

(3) سبق ترجمته.

(4) ابن الأثير، الباهر، ص96. ابن موسى، غزوات ص 125. عوض ، السياسة، ص 123.

(5) الخابور: نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ولاية واسعة وبلدان جمة غلب عليها اسمه فنسبت إليه من البلاد قرقيسياء وماكسين والمجدل وعربان. ياقوت، 2، ص334.

(6) ابن الأثير، الباهر ص 87 – 88. ابن واصل مفرج، ج1، ص 111. سبط ابن الجوزي ، مرآة ج8 ق1، ص 192 النويري، نهاية ،ج27، 149 – 150. وانظر: الجميلي، دولة، ص 71. عاشور، جهاد، ص208. عوض، السياسة، ص 134.

(7) عوض، السياسة، ص 124.

الرها المتهاوية بأيدي المسلمين بعد فتح عماد الدين لها في العام 539هـ /1144م ، وكانت هذه التجربة الفاشلة في عام 542هـ/1147م[1].

والجدير بالذكر أن قوات نور الدين نجحت خلال عملية التصدي لحملة جوسلين بالسيطرة على الرها على الرغم من كونها من أملاك أخيه سيف الدين ولم يعارض ذلك[2]؛ مما قد هيأ المناخ الملائم لنور الدين، لبسط نفوذه على ما يحيط بها من مدن لحمايتها من أي محاولة أخري قد يقوم بها الصليبيون لاحتلالها مرة أخري.

وقد ظل اتفاق الخابور وحتي وفاة سيف الدين غازي 544هـ/1149م، يحظى باحترام الجانبين، بحيث لم يحاول أي طرف خرقه[3]؛ لأنه كما يبدو لم تحن الفرصة بعد لنور الدين لضم الموصل لحلب وقد حرص نور الدين محمود أن يجني ثمار الاتفاقية التي عقدها مع أخيه سيف الدين غازي ليتعاونا سوياً ضد الصليبيين، حيث نجد أن نور الدين قد استعان بدعم سيف الدين لمواجهة الهجوم الصليبي على دمشق عام 543هـ/1148م خلال الحملة الصليبية الثانية[4]، وكذلك عند مهاجمته حصن العريمة في العام نفسه بصحبة أتابك دمشق معين الدين أنر، فقدم له سيف الدين غازي ما لزمه من مساعدة[5]، ولم يدم عهد سيف الدين طويلاً، إذ وافته المنية عام 544هـ/1169م [6].

وقد خلف غازي في حكم الموصل وغيرها من أملاكه أخوه قطب الدين مودود (544ـ565هـ/1149ـ1169م)[7]، وقد اتصف بأنه كان " لين الجانب "[8]، مما يجعل الباحث يفترض أن ذلك اللين قد أربك نور الدين محمود، بحيث خشي على أملاك أخيه من السقوط بأيدي الصليبيين مستغلين لين جانبه، مما حذا بنور الدين للقيام بمهاجمة سنجار التي تتوسط ما بين الموصل وحلب[9].

غير أن قطب الدين مودود رفض التحرك النوري نحو سنجار، لكنه لم يستطع منعه، فلجأ إلى التفاوض مع أخيه نور الدين الذي نجح في السيطرة على سنجار فعلياً، وأسفرت المفاوضات عن تنازل نور الدين عن مدينة سنجار مقابل الحصول على حمص[10]، واصطلحا على ذلك[11].

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة ، ج8، ق1، ص 191. ابن العديم ، زبدةج2، ص 290. ابن خلدون العبر، ج5، ص 238.

(2) عوض، السياسة، ص 124

(3) Steven The Grusaders, p. 134.

(4) ابن الأثير، الباهر، ص89. أبو شامة الروضتين، ج1، ص190. الديوجي الموصل، ص 29.

(5) ابن الأثير، الباهر، 154. الكامل، ج 10، ص 5، 37. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص196، ج2، ص225،20. النويري، نهاية، ج27، ص 153.

60) الأصفهاني، تاريخ، ص 207.ابن خلكان، وفيات، ج3، 177.ابن واصل، مفرج، ج1، ص 116. الأسدي الكواكب ص131.

(7) سبق ترجمته.

(8) ابن الأثير، الباهر، ص98. سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8 ق1 ص 204.

(9) ابن العبري ، تاريخ ، ص 207. ابن واصل ، مفرج ، ج 1 ص 118–119.

(10) ابن الأثير، الباهر، ص98. ابن واصل، مفرج، ج1، ص 120. الأسدي، الكواكب، ص 134.

(11) ابن العبري، تاريخ، ص 207، ابن واصل ، مفرج، ج1، ص 118 – 119.

وبهذا الاتفاق صارت الخطوات النورية حثيثة نحو الوحدة المنشودة، ودخلت العلاقات بين الطرفين بعد هذا الاتفاق مرحلة سليمة متعاونة؛ فبعد مرض نور الدين محمود عام 554هـ/1159م، خشي أن تقع المنطقة فريسة للصليبيين الذين عملوا على استغلال الموقف، وأوصى بأن يكون قطب الدين مودود خليفته في حكم الدولة النورية[1]، وعلى صعيد التعاون العسكري بينهما، اشترك قطب الدين مع أخيه نور الدين في معركة حارم عام 559هـ/1169م[2]، وفي الإغارة على حصن الأكراد([3])، ومحاصرة عرقة، والسيطرة على جبله، والعريمة، و صافيثا، ومهاجمة هونين عام 562هـ/1166م، وظل الأمر كذلك حتى وفاة قطب الدين عام 565هـ/1169م[4].

وقد عانت الموصل بعد وفاة قطب الدين أوضاعاً سيئة، تمثلت في استبداد فخر الدين ابن عبد المسيح([5])، وسيطرته على الحاكم الجديد للموصل. وكان هذا الحاكم هو سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود (564 - 572هـ/1168-1176م)[6].

---

(1) عوض، السياسة، ص 127 الديوجي، تاريخ ج1 ص 289، أبو بدر ، الحروب ، ص 225، حسنين، أسامة، ص72

(2) ابن الأثير، الباهر، ص 123. الكامل ج9، ص 468-469. أبو شامة، الروضتين ج1، ص419. ابن واصل، مفرج، ص 1، ص 143، ابن كثير البداية، ج12، 248. الحريري، الإعلام، ص 78.

(3) حصن الأكراد: كان يسمى بحصن السفح، وأطلق عليه الفرنجة الصليبيون اسم حصن كرك الفرسان Karak des Chevaliers. يقع على بعد أربعون كم من مدينة حمص، وعلى بعد حوالي ستة وأربعين كم إلى الشمال الشرقي من طرابلس، وكان صالح بن مرداس قد عهد بأمر الدفاع عن ذلك الحصن لعائلات كردية وذلك في سنة 422هـ/1031م فقاموا بتحصينه حتى نسب إليهم. انظر: البغدادي، مراصد، ج10، ص406. ابن شداد الحلبي، الأعلاق، ج2، ق2، ص115.أبو الفداء، تقويم، ص258.مصطفى، المدن،ج1،ص206.عنان، قلاع المسلمين، ص544. إبراهيم، الحياة، ص27. الغامدى، بلاد الشام، ص328-329.Marino, Secrets For True.Crusaders, Vol. VII, P.5.

(4) ابن العبري، تاريخ، ص 213، ابن الأثير، الكامل ج10، 24. الأسدي.الكواكب، ص 189. عوض، السياسة، ص 127.وانظر : ابن شداد، النوادر، ص 38. ابن الأثير الكامل، ج10، ص5، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 24.

(5) فارق زين الدين على بن بكتكين النائب عن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل خدمة صاحبه بالموصل وسار إلى إربل وكان هو الحاكم في الدولة وأكثر البلاد بيده منها إربل وفيه بيته وأولاده وخزائنه ومنها شهروزر وجميع القلاع التي معها وجميع بلاد الهكارية وقلاعه : منه العمادية وغيرها وبلد الحميدية وتكريت وسنجار وحران وقلعة الموصل، وكان قد أصابه طرش وعمى أيضا فلما عزم على مفارقة الموصل إلى بيته بإربل سلم جميع ما كان بيده من البلاد إلى قطب الدين مودود وبقي معه إربل ، ولما فارق زين الدين قلعة الموصل سلمها قطب الدين إلى فخر الدين عبد المسيح - وهو خصي أبيض من مماليك زنكي أتابك عماد الدين- وحكمه في البلاد فعمر القلعة وكانت خرابا لأن زين الدين كان قليل الالتفات إلى العمارة، وسار عبد المسيح سيرة سديدة وسياسة عظيمة. ولما حضرت الوفاة قطب الدين مودود، قام عبد المسيح بالضغط عليه لتعديل وصيته فيمن يخلفه، فقد كان وصى بالملك بعده لابنه الأكبر عماد الدين زنكي الثاني، وعدل عنه إلى ابنه الآخر سيف الدين غازي لأن المتحكم بالأمور هو ابن عبد المسيح، وكان يكره عماد الدين لأنه كان طوع عمه نور الدين لكثرة مقامه عنده ولأنه زوج ابنته وكان نور الدين يبغض فخر الدين بن عبد المسيح فاتفق فخر الدين وخاتون ابنة حسام الدين تمرتش بن ايلغازي زوجة قطب الدين وأم ابن الأثير، الباهر، ص136، 146. الكامل، ج10، ص8، 24-25، 29.

(6) ابن الأثير، الباهر، ص 136، 152. الكامل، ج10، ص24-25، 29. ابن العبري، تاريخ، ص 213. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 161، 165. ابن كثير، البداية، ج12، ص261. الأتابكي، النجوم، ج5، ص348. عبد الرؤوف بلاد، ص 97. عوض السياسة ، ص 128.

والجدير بالذكر أن ابن عبد المسيح هذا هو الذي لعب دوراً مهماً في تعديل الوصية التي تركها قطب الدين حول من يخلفه في الحكم، فبعد أن كانت الوصية تقتضي بأن يكون الابن الأكبر عماد الدين زنكي الثاني هو الحاكم الفعلي للموصل، تآمر ابن عبد المسيح هو ووالده سيف الدين غازي لإبعاد عماد الدين زنكي الثاني وقصر الأمر على ابنه، وهنا سارع عماد الدين الثاني للاستنجاد بمربيه نور الدين محمود[1].

وقد استثمر نور الدين محمود فرصة ما يحدث في الموصل من صراع على السلطة أزكاه بن عبد المسيح، فعبر بقواته نهر الفرات عام 566هـ/1170م، وبسط نفوذه على قلعة جعبر([2])، ومدن: الرقة([3])، والخابور، ونصيبين [4]، كما ضم إليه سنجار، وتوج عمله بالسيطرة على الموصل في 13 جمادي الأولى عام 566هـ/22 يناير عام 1170م[5]، محققاً بذلك أهم الانتصارات العسكرية والسياسية، وأدي ذلك إلى حسم " المسألة الموصلة " لصالحه[6]. ولتلبية المطلب الشعبي بضرورة وحدة وتماسك المسلمين للمحافظة على إنجاز عماد الدين زنكي طرد الصليبيين من المناطق الجزرية.

2- دمشق:

تطلع نور الدين منذ توليه مقاليد الحكم إلى ضم أتابكيه دمشق نظراً لاعتبارات عدة أولها:

الأول : توطيد أقدامه في حاضرته حلب.

الثاني: أن مدينة دمشق تعد من أهم المراكز الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة لما تمثله من أهمية زراعية وصناعية وتجارية.

وقد مثلت امتداداً طبيعياً للطرق التجارية المارة بحلب، وكذلك تلك القادمة من مصر، كما أنها تمتعت بثقل حضاري وسياسي مؤثر منذ أن كانت عاصمة للخلافة الأموية، وعلى المستوى العسكري، مثلت دمشق خط الدفاع الأول عن المحور الشمالي لبلاد الشام، والجزيرة الممتد من حلب وحتى

---

(1) ابن الأثير، الباهر، ص 146. الكامل، ج10، ص24-25. ابن العبري، تاريخ، ص 213. ابن العديم، زبدة ، ج2، ص 231 – 232. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 161. الأتابكي، النجوم، ج5، ص348. عاشور الحركة، ج2، ص 716.

(2) ابن الأثير، الباهر، ص 136. الكامل، ج10، ص30.

(3) الرقة: مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي. ياقوت، معجم، ج3، ص58.

(4)نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام. ياقوت، معجم، ج5، ص288.

ابن الأثير، الباهر، ص 153،152. الكامل، ج10، ص30. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص165- 166. ابن العبري، تاريخ ص 264. عبد الرؤوف، بلاد ص 97. عوض، السياسة، ص 128.

(5) ابن الأثير، الباهر، ص153. الكامل، ج10، ص 30-30. سبط ابن الجوزي، مرآة ، ج8. ق 1، ص 282. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 167-168. الأتابكي، النجوم، ج5 ص 383. عاشور ، الحركة، ج2، ص 716.الديوجي الموصل،ص 33.

(6) عوض، السياسة، ص 129. توفيق مملكة، ص 152.

الموصل، كما أنه من غير المستبعد ترك مدينة دمشق لتقع فريسة للصليبيين، الذين يحتلون مناطق واسعة ملاصقة لها، وهذا بالتالي لا يهدد دمشق وحدها، بل يهدد الدولة النورية نفسها[1].

ويبدو أن التحالف البوري- الصليبي كان المؤرق الأكبر لنور الدين، لما يمثله من خطر على المسلمين ووحدتهم، وما يشكله من دعم للوجود الصليبي في المنطقة وإقراراً بشرعيته.

وعند ذلك قرر نور الدين إعمال فكره لإيجاد المبرر الواقعي للتدخل في الشئون الدمشقية، ومن ثم اللجوء إلى الخيار العسكري لحسم المسألة :

المبرر الأول : اتجه نور الدين بادئ ذي بدء إلى فكرة الزواج السياسي، فعمد إلى مصاهرة أقوى الشخصيات السياسية في دمشق آنذاك وهو: معين الدين أنر، فتزوج ابنته في عام 541هـ/1146م[2]، وعد ذلك أهم الزيجات السياسية التي أثرت في تطور الأحداث خلال تلك المرحلة[3].

المبرر الثاني الذي صاغه نور الدين لنفسه لتمهيد الطريق نحو دمشق هو: الوضع المقلق والمحزن للفلاحين في الريف الدمشقي، وحوران جراء الاعتداءات الصليبية المستمرة عليهم، وعجز البوريين في دمشق عن حمايتهم[4].

لم يشأ نور الدين التحرك صوب دمشق إلا بعد أن يختبر نوايا البوريين نحوه، فطلب من أتابك دمشق مجير الدين أبق([5]) في عام 544هـ/1149م، أن يقدم له مساعدة عسكرية قدرها ألف فارس لمساعدته في محاربة الصليبيين، ولما كان مجير الدين حليفاً للصليبيين فإنه رفض طلب نور الدين[6]؛

---

(1) ينظر: عوض، السياسة، ص 110.

(2) ابن القلانسي، ذيل ص 288 – 289. ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص104، 120. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 180. ابن كثير، البداية، ج12، ص295. الذهبي، سير، ج20، ص230.

(3) عوض، السياسية، ص 111.

(4) ابن القلانسي ، ذيل ، ص 309.

(5) مجير الدين أبق: أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين أتابك أبو المظفر سعيد التركي، ولد ببعلبك وقدم دمشق مع أبيه محمد فلما مات أبوه محمد ولي إمرة دمشق يوم الجمعة الثامن من شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة وكان أتابك زنكي بن آق سنقر صاحب حلب وبعض الشام والموصل والجزيرة محاصرا لدمشق فلم يصل منها إلى مقصود ورحل عنها وكان أبق صغير السن واستولى على أمره أنر بن عبد الله الملقب بمعين الدين مملوك جد أبيه طغتكين والرئيس أبو الفوارس المسيب بن علي بن الصوفي، فلما مات أنر انبسطت يد أبق قليلا والرئيس أبو الفوارس يدبر الأمور، وبعد مدة دبر أبق وجماعة من بطانته على الرئيس حتى أخرجه من دمشق إلى صرخد، واستوزر أخاه أبا البيان حيدرة بن علي مديدة ثم استدعى عطاء بن حفاظ السلمي ادم من بعلبك وجعله مقدما على العسكر وقتل أبا البيان ثم قبض على عطاء وقتله، ولم يلبث بعد ذلك إلا يسيرا حتى قدم نور الدين محمود بن زنكي وأخذ منه دمشق. ووفى لأبق بما جعل له وسلم إليه مدينة حمص فأقام بها يسيرا ثم انتقل منها إلى بالس مدينة بناحية الفرات فسلمت إليه بأمر الملك العادل فأقام بها مدة ثم توجه منها إلى بغداد فقبله أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله وأخرج له ديوانا كفاه ببغداد وظل فيها إلى أن توفي كهلا. ابن عساكر، تاريخ، ج7، ص299. ابن كثير، البداية، ج12، ص226. الصفدي، الوافي، ج6، ص188. الذهبي، سير، ج20، ص365.

(6) ابن القلانسي، ذيل ص 308.

لأن لسان حاله يقول " نخشى أن تصيبنا دائرةٌ "([1])، فخشي أن يقوى مركز نور الدين السياسي على حساب أتابكيته، فيتزعزع وضعها، فيتيسر لنور الدين إقحام نفسه في شئون دمشق، وهو يحمل المسوغات الكاملة لذلك.

ولم يكن مجير الدين أبق يفطن إلى أن رفضه طلب نور الدين سيدفعه إلى التحرك نحو دمشق، وهذا ما حصل فعلاً، إذ تقدمت القوات النورية جنوب دمشق ، وخلال ذلك سعي نور الدين إلى إبقاء المجال مفتوحاً أمام العلاقات الودية مع أتابكية دمشق، فأرسل رسالة إلى مجير الدين ذكر فيها أن سبب مقدمة سوء أوضاع الفلاحين من أهل حوران وما يتعرضون له من ظلم يمارسه الصليبيون بحقهم([2])، وأمام ذلك الموقف قررت قيادة دمشق وقف الزحف النوري الذي أوقفته سوء الأحوال الجوية الماطرة[3]، وأمام فشل الجهد العسكري، أدركت ضرورة تقديم تنازلات سياسية، لإرضاء نور الدين، والحيلولة دون لجوءه إلى الخيار العسكري، فدانت بالطاعة له، وتم الاتفاق على إقامة الخطبة له بعد الخليفة العباسي، والسلطان السلجوقي، وأن ينقش اسمه على السكة[4]؛ وهذا الإجراء كان بمثابة اعتراف ضمني بالوجود النوري سياسياً وعسكرياً، وخطوة مهمة نحو ضم دمشق إلى مشروع الوحدة الذي ينشده نور الدين ، ولم يقنع نور الدين بما أبداه أصحاب دمشق من حسن النوايا، لأن الهدف الذي وضعه لم يتحقق بعد، وعند ذلك عاود الضغط على دمشق عام 546هـ/ 1151م، لإضعافها بشتى السبل، وفي الوقت نفسه حاول الجيش الدمشقي اللجوء إلى مهاجمة القوات النورية على اعتبار أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم؛ بيد أن هذا الهجوم والذي تمثل بنصب كمين قد فشل[5]، وانعكست الأوضاع السياسية والعسكرية المتردية بين الطرفين النوري والدمشقي على مجمل الأوضاع في مدينة دمشق، فعاشت المدينة نوعاً من الإضراب، وانتشرت عمليات السلب والنهب على المستويين الزراعي والتجاري[6].

ويبدو أن نور الدين بما تمتع به من حس مرهف قد أشفق على أهل دمشق، فأوفد عدداً من الشخصيات الرفيعة المستوى في دولته، للتوصل إلى اتفاق مصالحة مع مجير الدين أبق، يهدف إلى وقف العمليات العسكرية[7]، ويزعم أحد الباحثين أن سبب عودة نور الدين للخيار الدبلوماسي مرة ثانية هو: اشتعال جذوة الصراع مع الصليبيين في الشمال وبالتحديد مع إمارة أنطاكية[8].

---

(1) سورة المائدة، الآية: 52.

(2) المصدر نفسه، ص 309. الذهبي، تاريخ، ج37، ص24.

(3) ابن القلانسي، ذيل ص 309. الذهبي، تاريخ، ج37، ص24–25.

(4) ابن القلانسي، ذيل ص 309. الذهبي، تاريخ، ج37، ص25.

(5) ابن القلانسي، ذيل، ص 309. الذهبي، تاريخ، ج37، ص30.

(6) ابن القلانسي، ذيل، ص 309.

(7) الذهبي، تاريخ، ج37، ص24–25، 27. ابن القلانسي، ذيل، ص 309.

(8) نقلا عن عوض، السياسة، ص 112.

وفي سبيل تخفيف حدة التوتر ورداً على الوفادة النورية، قام أتابك دمشق مجير الدين أبق بزيارة شخصية لحلب، حظي خلالها باحترام كبير من قبل نور الدين[1]، غير أن هذه الزيارة لم تكن لتشفع لأتابكية دمشق؛ إذ أن نور الدين عاود التفكير وبجدية للعودة إلى ضم دمشق، ولكن هذه المرة بعيداً عن الخيار العسكري، وإنما اتجه إلى سياسة الحصار الاقتصادي، فمنع وصول الغلال إليها من حلب والمناطق الشمالية، مما انعكس سلباً على الوضع الاقتصادي في دمشق، فارتفعت الأسعار الأمر الذي دفع السكان إلى النزوح حتى " خلا من البلد الخلق الكثير "[2].

كما سعي نور الدين إلى سياسة فرق تسد بين مجير الدين أبق وأتباعه على نحو أدى إلى دب الفرقة والخلاف بين الطرفين ، ودفع مجير الدين أبق إلى مصادرة أملاك، وإقطاعات عدد كبير من أتباعه للاشتباه بعلاقتهم بنور الدين محمود[3]، الذي سعى للاتصال والتحالف مع الأحداث[4] في دمشق، لما لهم من نفوذ بين أوساط العامة الدمشقيين، مما يعني إحداث نوع من التوتر والبلبلة في الأوضاع الداخلية، تدفع السكان للثورة والانقلاب على الحكم الأتابكي للأسرة البورية.

وهذا ما حصل فعلاً حيث تم الاتفاق بين نور الدين والأحداث[5]، وبعض الأمراء الحانقين على مجير الدين أبق بسبب ما اتخذه من إجراءات بحقهم على تسليم المدينة إلى نور الدين محمود، وتحت وطأة الحصار الاقتصادي الخانق، والاتفاق السابق مع الأحداث تقدمت القوات النورية نحو دمشق، وتمكنت من إسقاطها في صفر عام 549هـ/إبريل (نيسان) عام1154م[6].

ولا خلاف حول أن فتح نور الدين لدمشق، وإسقاط النظام البوري المتخاذل وضمها للمملكة النورية، يعد وبحق أحد أهم الإنجازات النورية، بل " أعظم إنجازاته على الإطلاق "[7]. ونقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية[8]؛ حيث غدت بلاد الشام والجزيرة الفراتية كتلة واحدة يسيطر عليها حاكم واحد، وبالتالي شكل خطراً جسيماً على الصليبيين، الذين أضحوا يواجهون قوة إسلامية

---

(1) ابن القلانسي، ذيل، ص 317. الذهبي، تاريخ، ج37، ص27.

(2) المصدر نفسه، ص 325.

(3) ابن الأثير، الباهر، ص 107. سبط ابن الجوزي، مرآة ، ج8 ق 1، ص 221، ابن العديم، زبدة ج2، ص 304 النويري، نهاية ، ج27، ص 161. الأتابكي، النجوم، ج5، ص 318، القرماني، أخبار، ص279.

(4) ابن الأثير، الباهر ص107. خليل، عماد الدين ص 32.

(5) ابن الأثير، الباهر، ص 107.

(6) ابن عساكر، تاريخ، ج7، ص299. ابن الأثير، الباهر، ص 107. ابن كثير، البداية، ج12، ص231. سبط ابن الجوزي، مرآة ، ج8 ق 1، ص 220 – 221 ابن العديم زبدة، ج2، ص 304 – 305 ابن الشحنة، روضة ، 223 – 234، الصفدي، الوافي، ج 6، ص 188.

(7) لامونت، الحروب، ص 119.

(8) العريني، الشرق، ص 299. الدي، الجهاد ص 280. عوض، السياسة ، ص 115.

موحدة للمرة الأولي منذ الوجود السلجوقي في تلك المنطقة[1]، وخسرت مملكة بيت المقدس اللاتينية أهم وأقوى حليف لها[2].

وبذلك أصبح بإمكان نور الدين بعد نجاحه في توحيد الشام والجزيرة العمل على دعم سياسته الجهادية ضد إمارة أنطاكية في الشمال، ومملكه بيت المقدس اللاتينية في الجنوب كما رأينا.

كذلك أدي ضم دمشق إلى دولة نور الدين إلى فتح الطريق نحو القاهرة[3]، التي كان يسعى الصليبيون إلى ضمها إلى أملاكهم، لتدعيم هيمنتهم على منطقة المشرق الإسلامي برمتها[4].

وأصبحت الدولة الفاطمية في مصر بين المطرقة، والسنديان بعد انتقال زعامة بلاد الشام من الأسرة البورية التي أسسها ظهير الدين طغتكين أتابك إلى الأسرة الزنكية التي أسسها عماد الدين زنكي أتابك[5].

3- مصر:

في الوقت الذي أصبح فيه نور الدين سلطاناً على بلاد الشام، كانت الأوضاع الداخلية في مصر قد بلغت أقصى درجات الفوضى والتردي؛ إذ كان الخليفة فيها هو الظافر بالله([6])، الذي حكم مابين (544ـ549هـ/1149ـ1154م)، وكان يتولى الوزارة له عباس بن أبي الفتوح الصنهاجي، الذي استبد بالأمر دونه، مثل من سبقه من وزراء، وبلغ به الأمر، أن سعى في قتله على يد ابنه نصر، وذلك في المحرم عام 549هـ، وولي مكانه ابنه الفائز بنصر الله([7])، الذي لم يتجاوز عمره

---

(1)عوض، السياسة ص115. عاشور، الحركة، ج2. ص 665 – 666. توفيق، مملكة، ص 154. غنيم، الجبهة، ج2، ص 19. عوض، السياسة ص115.

(2) باركر، الحروب، ص 98. عوض، السياسة، ص 115.

(3) النقاش، العلاقات، ص 43.

(4)عوض، السياسة، ص 115.

(5) العوفي، الحركة، ص 37.

(6) الظافر العلوي (527 – 549 هـ / 1133 – 1154م) إسماعيل بن عبد المجيد الحافظ ابن محمد المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بأمر الله، العلوي الفاطمي، أبو المنصور، الظافر بأمر الله: من ملوك الدولة الفاطمية بمصر، ولد في القاهرة، وولي بها لافة صغيرا بعد وفاة أبيه (الحافظ لدين الله) سنة 544 هـ، بعهد منه. ولم يطل زمنه. كان كثير اللهو ولوعا باستماع الأغاني، من أحسن الناس صورة. وفي أيامه أخذت عسقلان، فظهر الخلل في الدولة. وإليه ينسب الجامع الظافري في القاهرة. قتله أحد رجاله غيلة بها. ابن الأثير، الكامل، ج11، ص 53 – 72. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص310–312. ابن كثير، البداية، ج12، ص226. الذهبي، سير، ج15، ص202. المقريزي، خطط، ج1، ص375. الأتابكي، النجوم، ج5، ص319. السيوطي، تاريخ، ص440. ابن إياس، بدائع، ج1، ص 64 – 65. ابن العماد، شذرات الذهب، ج2، ص152.

(7) الفائز بنصر الله (544 – 555 هـ/ 1149 – 1160م) عيسى (الفائز) بن إسماعيل الظافر ابن الحافظ، أبو القاسم العبيدي الفاطمي: من ملوك الدولة الفاطمية بمصر، بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه (سنة 549 ه) وهو طفل، فتولى عباس بن أبي الفتوح (وزير أبيه، والمتهم بقتله) تدبير شؤونه، وكتب نساء القصر إلى طلائع ابن رزيك (وكان واليا على الأشمونين والبهنسة) يشتكين ويستغثن، فأقبل ابن رزيك وخافه ابن أبي الفتوح فعبر النيل، فاعترضه بعض الإفرنج فقتلوه، وقام ابن رزيك بالوزارة وإدارة الملك (سنة 549 هـ) ومات الفائز صغيراً. مولده ووفاته في القاهرة. ابن الأثير، الكامل، ج 11. ص72 – 96. ابن خلكان، وفيات، ج1، ص395. ابن كثير، البداية، ج12، ص242. الذهبي، سير، ج15، ص205. السيوطي، تاريخ، ص440. ابن إياس، بدائع، ج1، ص66. ابن خلدون، العبر، ج4، ص75.

خمس سنوات، وكان يعاني من اضطرابات نفسيه، وصرع لتأثره بما شاهد من مذبحة تم ارتكابها في القصر الفاطمي[1].

وقد استغل عباس صغر سن الفائز بنصر الله وما كان يعانيه من مرض، ليوطد سلطته، وظل كذلك إلى أن ظهر على المسرح السياسي شخص يفوقه قوة ونفوذاً؛ وهو أبو الغارات طلائع بن رزيك[2]، الذي حمل على عاتقه فكرة الثأر من عباس وابنه، بسبب ما ارتكباه من مجزرة دموية بحق عددٍ من أفراد القصر الفاطمي، ففر عباس وابنه نصر، غير أن قضاء الله نفذ في عباس وابنه على يد الصليبيين، الذين قتلوا عباساً، وأسروا ابنه، وسلبوا ما كان بحوزتهما من أموالٍ وعتاد[3]، وبهذا الحادث تم إسدال الستار على وزارة عباس، وتولى مكانه طلائع بن رزيك، ليصبح هو صاحب الأمر، والنهي في مصر الفاطمية ، وقبل الخوض في مسألة ضم نور الدين لمصر، لابد لنا من التعرج على شيء من العلاقات بين نور الدين والفاطميين في مصر، التي مرت بعدة مراحل، وساعد عليها ضعف الفاطميين ورغبتهم في التحالف مع قوة سياسية و عسكرية، تساعدهم في مواجهة الخطر الصليبي، واستعادة أملاكهم التي فقدوها جراء الغزو الصليبي، إضافةً إلى سعيهم لكسب الرأي العام الشعبي بالظهور في رداء المحامي عن الإسلام، والمسلمين ووجدوا في دولة نور الدين الفتية خير حليف قد يساعدهم على تحقيق ما يرمون إليه [4].

وقد بدأت المرحلة الأولي من التعاون العسكري بين نور الدين والفاطميين في عهد الوزير الفاطمي السني العادل بن السلار عام 546هـ/1151م؛ أي قبل ضم دمشق بحيث تتقدم النورية من

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج11، ص 191 –192. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص310–312. ابن كثير، البداية، ج12، ص231. المقريزي، اتعاظ، ج3، ص 208 – 209. سرور، الدولة، ص112.

(2) طلائع بن رزيك (495 – 556 هـ / 1102 – 1161م) الملقب بالملك الصالح، أبي الغارات: وزير عصامي في الدولة العبيدية (الفاطمية)، يعد من الملوك. أصله من الشيعة الإمامية في العراق. قدم مصر فقيراً، فترقى في دم، حتى ولي منية ابن خصيب (من أعمال الصعيد المصري)، وسنحت له فرصة فدخل القاهرة، بقوة، فولي وزارة الخليفة الفائز (الفاطمي) سنة 549 هـ، واستقل بأمور الدولة، ونعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين. ومات الفائز سنة 555 هـ، وولي العاضد، فتزوج بنت طلائع، واستمر هذا في الوزارة، وسار سيرة مذمومة واحتكر الغلات وقتل عدة أمراء وأضعف أحوال الدولة بقتل ذوي الرأي والبأس وصادر وعسف فكرهت عمة العاضد استيلاءه على أمور الدولة وأموالها، فأكمنت له جماعة من السودان في دهليز القصر، فقتلوه وهو خارج من مجلس العاضد. ورغم ما سبق فقد وصف بأنه كان شجاعا حازما مدبرا، جوادا، صادق العزيمة عارفا بالأدب، شاعرا، له (ديوان شعر – ط) صغير، وكتاب سماه (الاعتماد في الرد على أهل العناد) ووقف أوقافا حسنة. ومن آثاره جامع على باب (زويلة) بظاهر القاهرة، وكان لا يترك غزو الفرنج في البر والبحر. ولعمارة اليمني وغيره مدائح فيه ومراث. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص363، 391. ج2، ص82. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص449. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج37، ص51–52. ج38، ص168. 197. ج39، ص274. سير، 15، ص208. ج20، ص397–398. ابن خلكان، وفيات، ج2، ص526–528. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص309–318. 339، 345.

(3) ابن الأثير، الكامل ، ج11، ص 193 – 194. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص310–312. المقريزي، اتعاظ، ج3، ص 215 – 217. سرور، الدولة، ص112–113.

(4) عوض، السياسة، ص 82.

الشمال ، بينما يقوم الأسطول الفاطمي بمهاجمة المدن الساحلية مبتدأ بمهاجمة غزة، وكان ابن منقذ هو حلقة الوصل بين الطرفين، لتنفيذ هذا المشروع الجهادي الذي لم يكتب له النجاح بعد أن اعتذر نور الدين عن المشاركة موضحاً لابن منقذ مدى انشغاله بالمسألة الدمشقية، " أهل دمشق أعداء والفرنج أعداء ، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما[1]. ويبدو أن الموافقة المبدئية من نور الدين على التعاون مع الدولة الفاطمية لم تكن عن رغبة في مساندة هذه الدولة، وهو يعلم أنها تعتنق مذهباً مخالفاً لمذهب دولته السني، وإنما تلبية لطلب الوزير السني ابن السلار، مما يدلل على أنه يتطلع جدياً إلى مصر، أما المرحلة الثانية من العلاقات بين نور الدين والفاطميين، فتمثلت في سلسلة المراسلات الدبلوماسية بين الطرفين، وكانت بدايتها في العام 552هـ/1157م، عندما أرسل نور الدين سفارة إلى مصر[2]، وتكررت نفس السفارة في رمضان من العام التالي 553هـ/1158م، وقد ردت الخلافة الفاطمية على تلك السفارتين بإعادة السفير النوري محملاً بالهدايا والأسلحة والعينيات، ونجد سفارة أخري من نور الدين عام 554هـ/1159م، ورد عليها العاضد([3]) عام 555هـ/1160م بالخلع إليه [4]، وإلى جانب السفارات الدبلوماسية السابقة، قدم الفاطميون بما يمتلكوه من ثروات هائلة بحكم سيطرتهم على مصر ، دعماً مالياً سخياً في عام 558هـ/1163م [5]، و562هـ/1167م[6]، والتفسير المنطقي للموقف الفاطمي هو أن هذه الدولة رأت في نور الدين قوة لايستهان بها خاصة بعد نجاحه في توحيد بلاد الشام والجزيرة الفراتية ، وعليه فإن هذه القوة يجب أن تستثمر، ويكسب جانبها بكل الوسائل والطرق لا حباً فيها – فهي سنية مناهضة للمذهب الإسماعيلي الشيعي–؛ ولكن خوفاً منها، وكسباً لقوتها لمواجهة خطر داهم يهدد الجميع وهو الخطر الصليبي الذي بدأ يطرق أبواب الفاطميين في مصر خاصة بعد سقوط عسقلان عام 1153/548م. وازدادت أطماع الصليبيين في مصر بشكل كبير بعد تولي الملك

---

(1) انظر أيضا: ابن القلانسي ، ذيل، ص 315. ابن ميسر، أخبار، ج2، 915 المقريزي ، اتعاظ ج 3، ص، 22أيضا: المناوي، الوزراء ص 228. محمد، مصر، ص 91.عاشور،شخصية،ص44.عوض السياسة،ص82، 83 العوفي، الحركة، ص 35 – 36.

(2) ابن القلانسي، ذيل، 338، ص 353، 356 ،ابن ميسر ، أخبار، ج2، ص 96، ص 98. المقريزي ، اتعاظ، ج3، ص 230.

(3) العاضد لدين الله (544 – 567 هـ / 1149 – 1171م): عبد الله (العاضد) بن يوسف بن الحافظ، العلوي الفاطمي، أبو محمد: آخر ملوك الدولة الفاطمية (العبيدية) بمصر والمغرب. بويع له بمصر سنة 555 ه، بعد موت الفائز. وكان الضعف قد ظهر على رجال هذه الدولة، واستبد الوزراء والمستشارون من الترك وغيرهم بالأمر. وفي أيامه قوي السلطان صلاح الدين (يوسف بن أيوب) وتولى وزارته وتصرف في شؤون الملك، ثم قطع خطبته وأمر بطبة للمستضئ بالله العباسي. وكان العاضد في مرض موته، فمات ولم يعلم بذلك. فهو آخر من دعي بأمير المؤمنين من العبيديين الفاطميين بمصر، وآخر من ولي لافة منهم. وكانت مدتهم 268 سنة ابن خلدون 4: 76 و 81 و 82 وابن الاثير 11: 96 و 137 والنجوم الزاهرة 5: 307 و 334 – 357 واتعاظ الحنفا 287 – 293 وابن خلكان 1: 269 وابن إياس 1: 67 وهو فيه: " عبد الله ابن عبد المجيد الحافظ ابن المستنصر "، وفي مولده خلاف، قيل سنة 540 و 546 و 544 و 543 وأخذت برواية ابن تغري بردي.

(4) ابن القلانسي ، ذيل ص 356.

(5) المقريزي، اتعاظ ج3، ص 260.

(6) المصدر نفسه، ج3، ص 278

عموري عرش المملكة الصليبية في القدس المحتلة[1]، وعن مطامع الصليبيين في مصر وأمام التهديد الصليبي وعد الوزير طلائع بن رزبك الصليبيين بتقديم إتاوة سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار غير أن هذه الإتاوة لم تدفع، ويبدو أن السبب في ذلك اغتيال ابن رزبك، وتولى شاور بن مجير السعدي بدلاً منه سدة الحكم الوزاري للخليفة العاضد (555ـ567هـ ـ 1160ـ1170م)، وقد حمل قائد الجيش الفاطمي ضرغام عبء التصدي لحملة عموري الذي هاجم مصر عام 558هـ - 1163م بحجة عدم وفاء القاهرة بوعودها بشأن الإتاوة[2]، ونجح ضرغام فعلاً في رد عموري وجيشه دون أن يحققوا أي مكاسب تذكر، وبعد الإنجاز الكبير الذي حققه ضرغام القائد العسكري الطموح تطلع إلى التخلص من الوزير الفاطمي شاور بن مجير السعدي فخرج عليه، ونجح في عزله عن منصبه عام 558هـ /1163م. فلجأ إلى نور الدين محمود، وأغراه بمهاجمة مصر، وإعادته إلى الوزارة مقابل تعهده بتمويل الحملة النورية، وتقديم ثلث دخل مصر لنور الدين على شكل إتاوة سنوية، وأن يحكم نيابة عنه ووفق أمره ، وأن يجعل بمصر حامية عسكرية من الجيش النوري [3]، ووجد نور الدين أمامه فرصة لا يمكن أن تعوض، وهي مهاجمة مصر، لتقويض الحكم الشيعي فيها، واستغلال موقعها الجغرافي، وما تمثله من ثروة اقتصادية، وبشرية يمكن الإفادة منها، وكان للعرض المتقدم من شاور دورٌ دافعٌ لنور الدين، ليتقدم نحو مصر رغم ما قيل حول تردده في قبول طلب شاور بالتدخل، نظراً لوجود الصليبيين في الطريق الذي تمر منه القوات النورية في حال مسيرها نحو مصر[4].

والواقع أن هذا الرأي لا يمثل الحقيقة لأن الحملات الثلاث التي يوجهها نور الدين صوب مصر، وما أنفقه في سبيل إعدادها دلت على نحو قاطع مدى حرصه على ضم مصر إلى دولته، وهو في هذا الصدد يتهم نور الدين بالطمع السافر متناسياً أن أهداف نور الدين من السيطرة على مصر تحمل أبعاداً دينية أسمى من كل الأطماع الدنيوية.

وقد تقدم الجيش النوري وعلى رأسه أسد الدين شيركوه، وصحبه ابن أخيه صلاح الدين يوسف(5)، وسلكوا في طريقهم إلى مصر شرق الشوبك ثم أيله نحو السويس(6).في الوقت الذي هاجم فيه نور الدين بعض المواقع الصليبية، لإشغال الصليبيين، وتأمين مرور قواته(7)، وما أن وصلت القوات النورية مدينة بلبيس حتى اصطدمت مع ناصر الدين أخ ضرغام، ألحقت به الهزيمة هو

---

(1) ينظر:ابن واصل مفرج، ج3 ص 258. عاشور، الحركة، ج2، ص 68. أضواء، ص 68 عوض، السياسة، ص 85 – 86.

(2) محمد، مصر، ص 92.

(3) ابن الأثير، الباهر، ص 120.

(6) المصدر نفسه، وهو المصدر الوحيد الذي قال بهذا الرأي.

(5)أبو شامة : الروضتين ، ج1، ص 393 .

(6) ابن واصل ، مفرج، ج 1 ، ص 138. المقريزي، اتعاظ ، ج3، ص 266.

(7)ابن الأثير ، الباهر ، ص 121، الكامل، ج11 ، ص 121. ابن العديم ، زبده.، ج2 ، ص 316. ابن واصل، مفرج ، ص138. أبو شامة الروضتين ، ج 1،ص 333. الأسدي ، الكواكب ، ص 164. المقريزي ، اتعاظ ، ج3 ، ص 226.

وقواته(1) ، وواصل شيركوه زحفه نحو القاهرة، حيث اصطدم مع ضرغام وهزمه([2])، وقتل ضرغام وتفرقت قواته وذلك في عام 559هـ/1164م ([3])، ونتيجة لذلك عاد شاور لتولي وزارة مصر للعاضد مرة ثانية، ولقب بالملك المنصور([4])، وتنكر لصنيع الجيش النوري ، ورفض تنفيذ وعوده التي قطعها على نفسه لنور الدين، وطلب من شيركوه الخروج من مصر([5])، وعندما رفض شيركوه الانسحاب عمد شاور إلى البحث عن قوة مناوئة تخلصه من جيش نور الدين، واتجه إلى التحالف مع الصليبيين، فأصبح أعداء الأمس هم حلفاء اليوم بالنسبة لشاور، عندها اتصل بالملك عموري مطالباً إياه بالتحرك نحو مصر لإخراج قوات نور الدين منها ([6])، وقد تكفل شاور بتمويل مستلزمات الحملة الصليبية التي وصلت إلى بلبيس وفرضت الحصار على قوات نور الدين مدة ثلاثة أشهر([7]). وقد انفرد الأتابكي ([8]) بالقول أن الحصار استمر قرابة الشهرين ، لكن الراجح أنه ثلاثة أشهر، لإجماع غالبية المصادر على ذلك دون الجزم بذلك، جعلت قائد هذه القوات – شيركوه – يسلم المكان ويغادر بلبيس وقواته مع تعويض مقداره ثلاثين ألف دينار([9]) عن تكاليف حملته ، كما درس بشكل متكامل المناطق والمواقع الإستراتيجية المهمة التي مر بها ، وسيتكرر الصراع حولها ، كما أن هذا الجيش برهن على قدرته على إحداث تغيير سياسي في مصر الفاطمية، وهذه الناحية لازمت التطورات السياسية للخلافة الفاطمية في مصر حينذاك، ومثلت عاملاً مهماً في انحدارها وسقوطها في نهاية الأمر([10])، وأقنع أسد الدين شيركوه سيده نور الدين بضرورة العودة إلى مصر لتأديب شاور ، موضحاً له مدى ثراء البلاد وضعفها، وما تعانيه من صراع وزاري، ولما كانت مصر ضمن حسابات نور الدين الاستراتيجية التي يدرك أهمية أن تكون قطباً من أقطاب الوحدة التي ينشدها، فإنه وافق على اقتراح شيركوه، ووضعه على رأس حملة جديدة هو وصلاح الدين([11]) سارت الحملة النورية الثانية حتى بلغت مصر، وسيطر

---

(1)ا بن الأثير ، الكامل ، ج11 ، ص 121. ابن العبري، تاريخ ، ص 368، ابن العديم ، زبده، ج2، ، ص 316. المقريزي ، اتعاظ ، ج3، ص 267

(2)الأسدي ، الكواكب ، ص 164، الأتابكي ، النجوم ،ج.5،ص 347 .

(3)ابن الأثير ، الكامل ج11، ص . ابن العبري، تاريخ، ص 368 . البنداري ، سنا البرق ، ص 293، أبو شامة ، الروضتين ، ج 1، ص 235. الذهبي ، دول ، ج2، ص 73.

(4)ابن شداد، النوادر ، ص 36 .

(5)ابن الأثير ، الكامل ، ج11، ص 121،الباهر ، ص151. ابن العبري، تاريخ1ص368 .

(6)ابن الأثير ، الكامل ج11، ص 121. ابن العبري، تاريخ، ص 368. أبو شامة ، الروضتين ج1، ص 235. الصوري ، الأعمال.

(7)ابن العديم ، زبدة ، ج2، ص 317. البنداري ، سنا البرق ، 19، المقريزي ، اتعاظ ،ج3، ص 277 .

(8)النجوم ، ج5، 347 .

(9)ابن العديم ، زبدة ،ج2،ص 321. الأتابكي، النجوم، ج، ص 347 .

(10) عوض ، السياسة، ص 93

(11) ابن الأثير ، الباهر ، ص132. ابن العديم ، زبدة ، ج2، ص 132 ابن واصل ، مفرج، ج1، ص 148. أبو شامة ، الروضتين، ج1 ، ص 363. ابن كثير ، البداية ج1، ص 252 .

الجيش النوري على المناطق الغربية من النيل، ونزل بالجيزة قبالة الفسطاط دون أن يجابه بأي مقاومة تذكر([1]) .

وقد أدرك شاور خطورة الموقف، فلجأ إلى الصليبيين للمرة الثانية، فأتوه " على الصعب والذلول"([2])، مما يعني أنهم ابتهلوا الفرصة ووصلوا بسرعة كبيرة، واصطدموا بالقوات النورية عند البابين: وهناك هُزم الصليبيون، وكثر القتلى والجرحى في صفوفهم([3])، ومن البابين اتجه شيركوه هو وصلاح الدين بجيشه إلى الفيوم، ومنها إلى الإسكندرية للسيطرة عليها، ونجح شيركوه في ذلك، ثم ترك الإسكندرية ليذهب إلى الصعيد، ويجني خراجه، خلف وراءه صلاح الدين والياً عليها، وقد ابتهل الصليبيون فرصة خروج معظم الجيش النوري مع شيركوه، وتقدموا صوب الإسكندرية، وفرضوا عليها الحصار حتى اشتد الوضع الاقتصادي في المدينة([4])، ويبدو أن شيركوه وابن أخيه قد أدركا الأهمية الاستراتيجية للإسكندرية كأكبر ميناء تجاري للفاطميين على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ويمكن استغلاله لمساومة قوات شاور، وحلفاءه من الصليبيين([5]). وهذا ما حدث فعلاً عندما بدأت الاتصالات بين المحاصرين والمحاصرين، وتم الاتفاق بين الطرفين على أن تخرج القوتين النورية والصليبية من مصر بعد أن يحصل شيركوه على خمسين ألف دينار نظير انسحابه، وشريطة ألا يخلف الصليبيون وراءهم أي قواعد عسكرية([6]).

وفّى شاور أخل بالشق الأول من الاتفاق، وبمجرد انسحاب القوات النورية أخل بالشق الثاني منه، حيث أبقى على بعض الحاميات الصليبية على أبواب القاهرة([7]).

ويبدو أن شاور قد أدرك خطورة الحملات النورية، وأنها لن تتوقف بل ستستمر حتى يحقق نور الدين هدفه الرامي إلى السيطرة على مصر، وضمها إلى دولته، لذلك فمن الضروري الاحتماء خلف قوة مناوئة تستطيع الوقوف في وجه القوات النورية . وعلى الجانب الآخر فإن نور الدين وجد الدافع الرسمي والمبرر الواقعي لحملته الثالثة بعد أن قرر الصليبيين مهاجمة مصر في عام 564هـ /1168م([8])، ونجحوا في احتلال بلبيس، وارتكبوا فيها مذبحة عبرت عن مدى الوحشية الصليبية([9])، وعندها أفاق شاور من سكرته، وعلم خطورة الموقف، وحقيقة الموقف الصليبي ، وقام بتحصين

---

(1) ابن العديم ، زبدة ج2 ، ص 322 – 323 أبو شامة ، الروضتين، ج1، ص 364.

(2) ابن شداد ، النوادر ، ص 37 . ابن واصل ، مفرج ، ج1 ، ص 149. ابن أبو شامة الروضتين، ج1، ص 364.

(3) ابن الأثير ، الكامل، ج11 ،ص 131–132، الباهر ، ص 132–133. ابن العديم ، زبدة ، ج2 ، ص 123. ابن خلكان، الوفيات ج6 ، ص 14. أبو شامة ، الروضتين، ج1، ص 365. ابن واصل ، مفرج ، ج1 ، ص 5 ، 151 ، الأتابكي، النجوم، ج5 ، ص 349.

(4) البنداري، سنا البرق، ص2.

(5)عوض ، السياسة ، ص 96.

(6)ابن العديم ، زبدة ، ج2، ص 324.

(7)ابن واصل ، مفرج، ج1، ص 156، 157. المقريزي، اتعاظ ، ج3، ص 287.

(8)ابن الأثير ، الباهر ، ص 137 ، 139 ، الكامل ج11 ص 135– 136. ابن العديم ، زبدة ، ج2 ص 326، ابن واصل، مفرج ، ج1، ص 16–157. المقريزي، اتعاظ، ج3 ، ص 292–293 . السيوطي ، حسن ، ج2، ص4.

(9)أبو شامة ، الروضتين ، ج1، ص 432. سعداوي ، التاريخ ، ص 14، العريني، الشرق ص 697. ماجد، ظهور ، ص 469.

القاهرة ، وأخلى الفسطاط، ثم حرقها كي لا يستفيد منها ملك القدس وقائد الحملة الصليبية عمري، لما تمثله من أهمية نظراً لقربها من العاصمة الفاطمية([1])، وأمام تلك الأحداث المتتابعة لم يجد الخليفة الفاطمي من بد إلا الاستنجاد بنور الدين، ليتدخل وينقذ الموقف، واستفز فيه النخوة الإسلامية حتى انزعج نور الدين بما حدث في مصر، وما تحمله استغاثة العاضد من تلميحات حول أن أعراض المسلمين في خطر "قام لذلك وقعد" ([2])، وأصدر أوامره إلى شيركوه بالتحرك على رأس جيش كبير يقدر نحو ثمانية آلاف فارس عام 564هـ/1169م([3])، فهو خير من يقوم بتلك المهمة، نظراً لخبرته السابقة بمسالك ودروب وأحوال المنطقة([4])، وبمجرد وصول الجيش النوري، أدرك الصليبيون خطر المواجهة مع هذا الجيش، وقرروا الانسحاب من مصر محتفظين بماء الوجه، مع الحصول على ضمانات اقتصادية، يقدمها شاور لهم فور انسحابهم، وهي ألف دينار، ويتم تعجيل دفع مبلغ مائة ألف دينار، والباقي في صورة قطعية سنوية مع كمية ضخمة من الغلال([5]).

وحتى لا ينفذ شاوروعده للصليبيين ولا يعاود الاتصال بهم، وعقاباً له على كل سوابقه الخيانية مع القوات النورية، فإن شيركوه أمر بالقبض عليه، وتنفيذ حكم الشرع فيه، حيث تم قتله عام 564هـ/1169م على يد صلاح الدين الأيوبي([6])، ورداً للجميل، وعرفاناً بالإنجاز الذي حققه الجيش النوري قلد العاضد الوزارة لأسد الدين شيركوه خلفاً لشاور، وظل في منصبه حتى وافته المنية بعد نحو شهرين في: [22 جمادى الآخر 564هـ= 28 فبراير1169م] ([7]) ، ويذكر ابن الفرات تاريخ ، ص 47 : أن شيركوه قد قتل بالسم، وقام العاضد لدين الله بترتيب صلاح الدين وزيراً له بعد عمه شيركوه ، وقد لعب مقاليد منصبه فقام بالتصدي لحملة الصليبيين على دمياط عام 565هـ/1170م([8])، مدعوماً من أستاذه نور الدين، الذي قام بمهاجمة المناطق الصليبية لاشغال الصليبيين عن تقديم أي مساعدة لنظرائهم المحاصرين في مدينة دمياط([9])، إلى جانب أنه عمل على إرسال مساعدات عسكرية لصلاح الدين([10]) تضاف إلى الدعم المالي الذي قدمه الخليفة الفاطمي العاضد.

---

(1)الصوري، الأعمال.

(2)ابن الأثير ، الباهر ، ص 138، وأنظر: الكامل، ج11 ، ص 136. أبو شامة ، الروضتين ج1، ص 391 ، ابن واصل ، مفرج ، ج1، ص 158، الأسدي، الكواكب، ص 176. المقريزي اتعاظ، ج3 ، ص 293. السيوطي، حسن ، ج2، ص4.

(3)ابن الأثير، الباهر، ص 139، ابن العديم، زبدة، ، ج2، ص326-327. أبو شامة ، ج1، ص392. ابن واصل ، مفرج، ج1، ص 156.

(4)عوض ، السياسة، ص 98.

(5)ابن الأثير ، الباهر، ص 138، المقريزي، اتعاظ ، ج3، ص 298.

(6) ابن شداد النوادر ، ص 4 ، ابن حماد ، ص 63

(7)ابن حماد أخبار، ص 63

(8) ابن الأثير، الباهر، ص143، ابن شداد، النوادر ،ص 41 أبو شامة ، الروضتين، ج1، ص 457، الاسدي ، الكواكب ص186 .

(9) ابن شداد ، النوادر ، ص 42-43 الذهبي ، دول ، ج2، ص 78. الأسدي ، الكواكب، ص 186. الحريري، الأعلام،78

(10)ابن الأثير ، الباهر، ص 134، أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 457. الأسدي ، الكواكب، ص 185-186

وأمام هذا التكاثف الإسلامي تم تقويض المشروع الصليبي الرامي إلى احتلال مصر، وقطع الطريق على نور الدين محمود، لتشكيل جبهة إسلامية موحدة ، وبهذا النصر المبين ترسخ الوجود النوري في مصر خلال اليد الفعلية المنفذة للمشروع النوري، وهو صلاح الدين الأيوبي الذي بدأ بالعمل على تنفيذ الخطوة الأهم في المشروع الوحدوي النوري، وهي القضاء على المذهب الشيعي المتمثل بالدولة الفاطمية التي طالما وقفت حائلاً أمام الوحدة الإسلامية، ونجح في إعلان الخطبة للخليفة العباسي في أول جمعة من المحرم عام 567هـ/10 سبتمبر 1171م([1]) ، وقد تمثلت هذه الخطبة إعلاناً صريحاً بسقوط الخلافة الفاطمية، وبرهن صلاح الدين الأيوبي على أنه خير من ينوب عن نور الدين في تنفيذ مشروعاته بتوفيق من الله عز وجل.

ومهما يكن من أمر فإن سقوط لافة الفاطمية مَثَّلَ نجاحاً باهراً لنور الدين محمود من خلال صلاح الدين ، وجاء دعماً مهماً لمشروع الوحدة التي افتقدتها بلاد الشام ومصر في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

وأدت إلى وقوع المنطقة فريسة للغزو الصليبي ، وبالسيطرة على مصر نجح نور الدين في حسم قضية طالما أرقته طويلاً ، ووضع يده على أخصب السهول الفيضية التي تحيط بنهر النيل وعلى موارد اقتصادية لا تنضب؛ أضف إلى ذلك مدى وفرة العنصر البشري الضروري لحسم الصراع مع الصليبيين([2]).

رابعاً: موقف نور الدين محمود من الباطنية الإسماعيلية (الحشاشين):

واجهت الدولة النورية العديد من المشكلات والمصاعب الداخلية ومن بين هذه المشكلات ، الحركات السياسية المناوئة لها متمثلة في نشاط الإسماعيلية الباطنية التي تفاقمت معارضتهم للدولة النورية السنية([3]).

وقد كان موقف نور الدين من هذه الحركة في بداية حكمه موقفاً متسامحاً، ولعل تلك السياسة المتسامحة لم تكن عن ضعف من نور الدين، وإنما للعمل على تجنب الدخول بمناوشات قد تثير القلاقل في وجه الدولة الناشئة، غير أن هذا الموقف من هذه الحركة قد تغير إلى معاداتهم منذ العام 543هـ/1148م([4]).

([1]) بن حماد ، أخبار ، ص 63 . الذهبي دول، ج 2 ، ص 79–80 والأتابكي ، النجوم، ج5 ، ص 341 . ابن الطقطقي، الفخري، ص 425 . السيوطي ، تاريخ، ص 179 . المعاضيدي ، الحياة ، ص 205 . بار كر الحروب ، ص160.

([2]) بن حماد ، أخبار ، ص 63 . الذهبي دول، ج 2 ، ص 79–80 والأتابكي ، النجوم، ج5 ، ص 341 . ابن الطقطقي، الفخري، ص 425 . السيوطي ، تاريخ، ص 179 . المعاضيدي ، الحياة ، ص 205 . بار كر الحروب ، ص160. وانظر: غنيم،الجبهة ، ج2، ص5 . عوض، السياسة، ص101.

([3]) عوض ، السياسة، ص 34

([4])توفيق، مملكة، ص 149، عوض ، السياسة ص34

وقد كانت أول مظاهر العداء تجاه الإسماعيلية قيام نور الدين بإلغاء صيغة الأذان الشيعية الإسماعيلية من "حي على خير العمل"، وذلك عام 543هـ/1148م([1]) ، وكان لهذا القرار تأثير مهم على سير الأحداث، بحيث أقدم الإسماعيليون على مساندة القوات الصليبية ضد نور الدين في معركة أنب عام 544هـ/1149م، ولقي زعيمهم على بن وفا مصرعه([2])، وتابعوا سياستهم العدائية تجاه الدولة النورية، فعمدوا إلى إحراق الجامع الكبير في حلب عام 548هـ/1153م([3])، وقد قام عدد من القادة باستغلال الحقد الإسماعيلي ضد نور الدين، وتوظيفه لصالح تطلعاتهم السياسية، ونزعتهم الاستقلالية .

ومن بين هؤلاء الزعماء الأخ الأصغر لنور الدين أمير ميران نصرة الدين، فعلى الرغم من أن نور الدين قد أوصى خلال مرضه عام 552هـ/1157م، بأن يكون نصرة الدين خليفته إلا أن الأخير استغل مرض أخيه ليستولي على الحكم ، وحتى يضمن تحقيق طموحاته السياسية، قام باستمالة أكثر الحركات عداوة لنور الدين الإسماعيلية الباطنية، وقد استجابوا لدعوته، وساعدوه على تحقيق مراده وإنجاح مراميه، وهذا الدعم كان طبيعياً، نظراً للحقد الذي كان تكنه للدولة النورية، وسعيها لحرمان نور الدين من النفوذ السياسي الذي منحه للسنة.

ويبدو أنهم وجدوا في نصرة الدين ورقة رابحة لتحقيق أهدافهم المذهبية الضالة([4]) .

وقد تمكن نصرة الدين بمساعدة الإسماعيلية من الاستيلاء على مدينة حران دون قلعتها تمهيداً لمهاجمة حلب، وأمام تلك الأحداث الخطيرة قام نور الدين بحصار مدينة حران، وتمكن من إخضاعها لسيادته بشكل نهائي عام 554هـ/1181م([5])، والواقع أن ضم نور الدين لحران قد أفشل مخططات الإسماعيلية، وحجم من خطرهم، ولو بشكل مؤقت، إذ أنهم واصلوا عداءهم لنور الدين، ويبدو ذلك من خلال المحاولات المستمرة لاغتياله([6]).

ويعد راشد الدين سنان(559هـ- 1163/589-1193م) أبرز زعماء الإسماعيلية الذين عاصروا نور الدين محمود، وقد تمتع بنفوذ سياسي كبير بين أتباعه، حيث سعى نور الدين محمود إلى مراسلته، لمناظرته، والإطلاع على وجهات نظره المذهبية لمواجهته للرد عليها([7]).

ولا مراء في أن الخلافة العباسية أدركت خطورة انتشار الدعوة الإسماعيلية في بلاد الشام والجزيرة، ومن ثم اتجهت إلى مساعدة الدولة النورية لدعم موقفها ضد هؤلاء الشيعة الباطنية([8]).

([1]) ابن القلانسي ، ذيل ، ص 301،ابن عساكر، نقاش ، الحشاشون، ص 139

([2]) ابن القلانسي ، ذيل ، ص 304 ، ابن العديم ، زبده، ج2 ، ص 298-299

([3]) ابن العديم ، زبده، ج2، ص 308

([4])ابن القلانسي، ذيل ، ص 358 .

([5])عوض، السياسة، ص 119.

([6])نيسمان الحروب ، ج2،ص641. غنيم، الجبهة، ج2، ص 73.

([7])ابن خلكان، وفيات، ج4، ص 272. إلىافعي. مرآة ، ج 3، ص 387.

([8])عوض ، السياسة ، ص73.

خامساً: علاقة نور الدين محمود بصلاح الدين الأيوبي:

تولي صلاح الدين الأيوبي الوزارة بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه الذي تولى الوزارة في مصر للخليفة الفاطمي العاضد لدين الله، فرسخ ملكه والخطبة مع ذلك على المنابر بالديار المصرية للخليفة العاضد، وبعده للملك العادل نور الدين محمود "فالملك في الظاهر للعاضد، ولا يتصرف صلاح الدين إلا عن أمره"([1]). فكان كما يذكر أبو شامة([2]) نائباً عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلد كلها"، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الأسفهلار([3])، ويكتب علامته في الكتب تعظيماً ، أن يكتب اسمه، ولا يفرده في كتاب بل يكتب: الأمير الأسفهلار صلاح الدين، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا ([4]) مما أدى إلى توتر العلاقات السياسية بين الطرفين، ويبدو أن نور الدين بعد أن أرسل شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر، وبعد أن قوي نفوذهما، وتوطدت أقدامهما فيها، عاد عن ذلك، وأراد أن يعيدهما إلى الشام بعد أن أدرك تطلعات صلاح الدين، وطلب من العاضد ذلك غير أنه رفض([5])، لأنه كان يتوسم فيهما الإدارة الناجحة للبلاد بعد ما مرت به من ظروف سيئة كانت نتاج الصراع الوزاري المقيت بين شاور وضرغام([6]) . وعلى الرغم من ذلك فقد تعددت الآراء حول طبيعة العلاقة بين نور الدين محمود من جهة، وصلاح الدين الأيوبي من جهة أخرى، ومن بين هذه الآراء التي رددها عز الدين بن الأثير –مؤرخ الزنكيين– في "كتابيه الكامل في التاريخ"، و"الباهر في تاريخه الدولة الأتابكية"، وتناقلها عنه مجموعة من المؤرخين القدامى والمحدثين، وفحواها: " أن صلاح الدين لم يكن مخلصاً لأستاذه نور الدين، وكان يتحين الفرص لبسط نفوذه في مصر والاستقلال عنه، ومزاحمته الهيمنة السياسية ببلاد الشام" ([7])، وممن رجح هذه الآراء من المؤرخين المحدثين على بيومي، قيام، ص 147–198، على أساس أنها تؤيد رأيه بخصوص تطلعات الأسرة الأيوبية في تكوين ملك وراثي لها منذ أن كانت في قلعة تكريت، ثم في خدمة البوريين،

([1])ابن واصل ، مفرج، ج1، ص 173.

([2])الروضتين، ج2 ، ص 408.

([3])الأسفهلار: كلمة مكونة من لفظين ، أحدهما فارسي، وهو "أسفه" ومعناه المقدم، والثاني تركي وهو "سلار" ومعناه العسكر، فكان معناهما "مقدم العسكر" ينظر: الفلقشندي، صبح، ج3 ، ص 483، ج6، ص7، 8.

([4])ابن واصل ، مفرج، ج1، ص173، أبو شامة، الروضتين،ج2، ص 408.

([5])ابن الفرات، تاريخ ، مجلد، 4، ج1، ص 47.

([6])عوض، السياسة، ص 103.

([7])بأن نور الدين قد أعد صلاح الدين وعائلته ليكونوا نوابه في مصر ، وباقي ما يسيطر عليه من ممتلكات الفاطميين الشيعة البائدة سواء كان في اليمن أو المغرب،. والجدير بالذكر أن تدخل نور الدين محمود في شئون مصر إبان نيابة صلاح الدين عنه في حكمها ، مثل إرساله وزيره ابن القيسراني، إنما كان لاستطلاع أحوالها ومراجعة حساباتها، وهذا نوع من الإشراف الإداري الذي مارسه نور الدين على نوابه ليس في مصر فحسب وإنما في جميع المناطق التي كانت تتبع سلطانه. ينظر خبر زيارة ابن القيسراني لمصر عام 568هـ–569هـ، ثم تحديد القطيعة المالية التي يدفعها صلاح الدين إلى نور الدين محمود رمزاً لتبعيته . ابن واصل ، مفرج، ج1، ص 257–258 . أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 525.، المقريزي، السلوك، ج1، ص51–52.

والزنكيين غير أن أحمد سيد، تاريخ، ص 22 حاشية([1]) يعلق على ذلك قائلاً : "والتي لا تميل إليها كتبت بعد وفاة نور الدين، واضطرار صلاح الدين الخروج على رأس عساكره إلى بلاد الشام، وضم ممتلكات أستاذه نور الدين بها إلى ممتلكاته بمصر، إذ أن خروج صلاح الدين إلى الشام كان بهدف إعادة الجبهة الإسلامية الموحدة ، التي كان عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين قد سعيا طويلاً من أجل تحقيقها، وكادت بعد وفاة نور الدين أن تنقسم، بعد انقسام البيت الزنكي، ولم يكن باستطاعة ابنه الذي لم يبلغ الحلم بعد الصالح إسماعيل إعادة توحيد مملكة والده" ([2]) ، ولقد كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي وإلى الصالح إسماعيل " كتاباً يتواضع له فيه، ويخاطبه بمولانا وابن مولانا" ويقول: " إنما جئت من مصر لك لأؤدي ما يجب من حقوق المرحوم، فلا تسمع ممن حولك فتفسد أحوالك ، وتختل أمورك، وما قصدي إلا جمع كلمة الإسلام على الفرنج"([3]) .

ويبدو أن هذه الأقوال التي ذكرها ابن الأثير ، وتناقلها عنه بعض المؤرخين حول عدم ولاء صلاح الدين للزنكيين ، والروايات التي توافرت حول هذا الموضوع قد صاغها المؤرخون وعلى رأسهم ابن الأثير لتعليل ما قام به صلاح الدين بعد موت ولي نعمته، وكان الدافع وراءها ولاء ابن الأثير للبيت الزنكي، من ناحية، ثم عدم تعاطفه مع صلاح الدين، الذي أنهى الحكم الزنكي، وهيمن على ممتلكاتهم من ناحية أخرى، وخاصة وقد لاحظ المؤرخون المحدثون أن ابن الأثير ، قد تحامل بشكل كبير على صلاح الدين ، في تاريخه الكامل، والباهر، وقد تلمس له مواضع الزلل وأسباب الخطأ، كما أن معظم الأقوال التي وردت، حاولت استنباط ما في نفس نور الدين محمود، وصلاح الدين، كل منهم اتجاه الآخر، وهذا بالطبع شيء لا يمكن استقراؤه، لأنه لا يعلم خفايا الأنفس، وما تخفى الصدور إلا الله عز وجل([4])، وربما نجد بوادر الخلاف بين صلاح الدين، وأستاذه نور الدين عندما استهان الأخير بالهدية التي أرسلها صلاح الدين من خزانة العاضد([5])، واستقلاله لما أرسله من أموال، ورغبته في محاسبته على ما في مصر من خراج، بينما كان صلاح الدين قد وطد سيطرته بها على نحو لم يكن معه، ليقبل أن يعامل من أستاذه، بمثل ذلك الأسلوب ، ويذهب ابن أبي طي إلى أن من عوامل الخلاف بين الزعامتين ، أن صلاح الدين تولى الوزارة للعاضد دون علم سيده([6])، غير أن

([1])ابن الأثير، الباهر، ص 4خليل، عماد الدين، ص 32.

([2])المصدرين السابقين .

([3])سبط ابن الجوزي ، مرآة ، ج8، ص 327-328 .

(4)ينظر تفاصيل الأزمة السياسية بين نور الدين محمود ، وبين صلاح الدين نائبه في مصر سنة 567هـ ، والتي سماها ابن الأثير"الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين" وعنه أخذ أغلب المؤرخين هذه التسمية في ابن الأثير الباهر، 158-159، أبو شامة، الروضتين، ج1،ص48-49. ابن واصل، مفرج، ج1، ص 221-223.وانظر: الغراوي،التعريف، ص 38-49، سيد تاريخ، ص32.

(5)الأسدي، الكواكب، ص220. الذهبي، دول، ج2، ص 82 . عوض السياسة ، ص 103.

(6)نقلاً عن الأسدي ، الكواكب، ص 181. أبو شامة ، الروضتين، ج1، ص 441، 443-503.

ذلك مردود، لأن الحقيقة هي: أن العلاقة بين نور الدين، وصلاح الدين لم تكن تتعدى أكثر من كونها علاقة رئيس بمرؤسه، وهذا ما ذهب إليه بعض مؤرخي صلاح الدين، وأيده بعض المؤرخين المحدثين([1]).

وقد ذكر العماد الأصفهاني بأن صلاح الدين كان "لا يخرج عن أمر نور الدين، ويعمل له عمل القوي الأمين، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين([2])، ويذهب أبو شامة([3]) إلى التأكيد على أن نور الدين لم يأخذ على صلاح الدين إلا إسرافه في توزيع الأموال، وصرفها، واستبد بذلك من غير مشاورته، ويدعم أبو شامة رأيه، بوثيقة وقف عليها بنفسه، بخط نور الدين ، يقرر فيها للقاضي شرف الدين ابن أبي عصرون، إعجابه الشديد بما قام به صلاح الدين من نصره المذهب السني بمصر، والقضاء على الدولة الفاطمية ، والمذهب الشيعي، ويطلب من أبي عصرون مساندة صلاح الدين، في هذا الأمر الجلل([4]).

ولا يفوتنا القول بأن جميع الخطوات التي قام بها صلاح الدين في سبيل القضاء على الخلافة الفاطمية ومذهبها الشيعي، جاءت بأمر من نور الدين محمود ، ولم تصل إلى أوجها إلا بعد وصول نجم الدين أيوب والد صلاح الدين من طرف نور الدين إلى مصر، ليباشر بنفسه تنفيذها والوقوف على ما وصلت إليه، إذ تجمع المصادر على أن صلاح الدين كان متردداً في قطع الخطبة للفاطميين، وأنه لم يقدم على هذا العمل رغم إلحاح نور الدين المتكرر ، إلا بعد قدوم والده، الذي أشرف بنفسه على هذا العمل، بعد أن حرص صلاح الدين، أن يبدو وكأنه لم يأمر بهذا خشية انتفاض المصريين وثورتهم، وليتخلص من نتاج هذا العمل الخطير إذا لزم الأمر([5]). وظل متردداً في قطع الخطبة للفاطميين بمصر حتى سنة567هـ، حيث ألزمه نور الدين بذلك إلزاماً([6])، غير أن الحادثة التي ربما أشعلت الأزمة بين الطرفين، وأدت إلى توتر العلاقة بينهما –على فرض أن ذلك صحيحاً– ما ذكر حول طلب نور الدين من صلاح الدين أن يقوم بمحاصرة حصن الكرك المحتل من قبل الصليبيين بالاشتراك معه، غير أنه لم يلق منه سوى المماطلة، وقد أدى ذلك إلى أن فكر نور الدين جدياً في غزو مصر، ولكن المنية فاجأته([7])، ويبدو أن صلاح الدين كان يدرك أن حملة الكرك لن يكون الهدف من ورائها إسقاط حصن صليبي بقدر ما هو إسقاطه هو عن الاستقلال بمصر([8])، ويحاول ابن شداد عدم

---

(1)الشيال ، مصر ص 31–39، سيد ، تاريخ، ص 23 من أن صلاح الدين ظل يأتمر بأمور نور الدين محمود ولا يخرج عنه ، حتى وفاة الأخير.

(2)أبو شامة الروضتين ،ج1، ص305.

(3)الروضتين، ج1، ص441 .

([4])أبو شامة ، الروضتين ، ج1، ص 492–493، 496–499، 501 ابن العديم ،زبده، ج22، ص 329. المقريزي،اتعاظ، ج3،ص 311. وينظر : سيد تاريخ، ص58، 95. عوض ، السياسة ،ص 80 .

([5])أبو شامة ، الروضتين، ج1، ص496 ص 499 .

([6])ابن شداد ، النوادر، ص 47 .

([7])عوض، السياسة، ص 104 .

([8])ابن شداد، النوادر، ص47 .

إظهار صلاح الدين بمظهر المتمرد على أستاذه، وأوضح أنه رفض أن يشق عصا الطاعة، ويحاربه عندما علم بقصد مصر ([1])، ويعلق عوض على ذلك بقوله: بأن صلاح الدين أدرك احتمال قيام نور الدين بمثل تلك المشاريع العسكرية ضده في مصر، ولذا فإنه حرص على أن يضم اليمن إلى ملك بني أيوب، استعداداً لما قد يستجد من عداء، ويبدو أن عوض استنتج ذلك مما أورده ابن الأثير الذي قرر أن صلاح الدين كان يعتقد أن نور الدين متى زال الفرنج عن طريقه أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه يؤثر استئصالهم ([2])، وهذا كلام مردود عليه، لأن صلاح الدين كما تذكر المصادر التاريخية هو الذي قام بالجانب الأكبر في الجهاد ضد الفرنجة الصليبيين، وأبلى في ذلك أعظم البلاء على نحو ضمن لها أعظم مكانة في تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي.

ويبدو أن الرأي الراجح هو رأي ابن الأثير: إذ أنه يميل إلى الاعتقاد بأنه لو تم التعاون بين صلاح الدين ونور الدين بصدق ضد الصليبيين لنجحا في اسقاط مملكة بيت المقدس في وقت مبكر([3])، لكنه بدلاً من ذلك، فإن صلاح الدين اهتم بتحقيق مصالحه الشخصية، حيث هدف إلى إقامة حكم وراثي للأيوبيين في مصر([4])، غير أنه من المستبعد الأخذ برأي جب وغيره، لأن إسقاط الممتلكات الصليبية خلال السنوات القليلة للغاية التي أعقبت سقوط الدولة الفاطمية، ووفاة نور الدين محمود (567-569هـ -1171-1174م) ، وعلى المستوى التاريخي، من الملاحظ أن ذلك الهدف الضخم لا يمكن تحقيقه إلا على المدى الطويل، وبعد إعداد مكثف (567-583هـ /1171-1187م) ، كما لا يمكن فصل فكرة صلاح الدين حول الحكم الوراثي لأسرته، وبين فكرة الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام، وليس في الإمكان أن تعيب على صلاح الدين إقامة دولة للأيوبيين في مصر طالما أن ذلك سيفجر الجهاد ضد الصليبيين بصورة واضحة([5])، وليس أدل على تعاون كل من صلاح الدين ونور الدين، حقق تفاهمهما الإستراتيجي من أثرٍ في قتال الفرنج الصليبيين وجهادهم، فيذكر أبو شامة أنه في سنة 568هـ /1172م، تولى السلطان نور الدين في الشام، والسلطان صلاح من مصر في هذه السنة جهاد الفرنج ([6])، مما حذا بالعماد الأصفهاني إلى وصف هذا الحدث بـ "جهاد السلطانيين للفرنج" ([7]) ، وهذا ما أكده صلاح الدين في رسالته للخليفة العباسي بقوله أنه "كان العقد بينه وبين نور الدين رحمه الله، في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشام، المملوك (أي صلاح الدين) بعسكره بره وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره([8])، ومهما يكن من أمر فإن كل الدلائل تشير إلى الخلاف بين نور الدين ونائبه صلاح الدين كان خلافاً عادياً، تم تهويله، وتصويره على أنه صراع سياسي مرده

([1])عوض، السياسة ، ص 104.

([2]) السابق .

([3])جب، هكذا انتصر صلاح الدين، ص 80

([4])توفيق، مملكة، ص177.

([5])عوض، السياسة ، ص 105.

([6]) السابق .

([7])المصدر نفسه ، ج1، ص 530- 536 .

([8])المصدر نفسه،ج2، ص 642 .

إلى الأطماع الشخصية لصلاح الدين، وهذا في الحقيقة وكما بينا مجرد ظنون كان مصدرها الأول هو ابن الأثير، كما سبق أن ذكرنا.

لقد ظل صلاح الدين مخلصاً لسيده لأبعد الحدود، فكان نور الدين هو "الآمر"، وصلاح الدين هو "المباشر" ([1])، فكان صلاح الدين كما يذكر أبو شامة بعد استيلاءه على الوزارة في مصر الفاطمية هو وأهله ونوابه "كلهم من قبل نور الدين رحمه الله ، هم أمراؤه خدمة وأصحابه ([2]) ، وليس أدل على التبعية الكاملة لصلاح الدين اتجاه نور الدين، وكونه كان يخطب له على المنابر في أرجاء الدولة الفاطمية، إبان وزارته للخليفة العاضد ([3])، وأثر نقل الخطبة للعباسيين، كان طيب بمصر، يدعو لنور الدين بعد الخليفة([4])، وقررت السكة باسم الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، وباسم الملك العادل نور الدين محمود، فنقش اسم كل منهم في وجه([5]) ، وكان مجيء ابن القيسراني وزير نور الدين إلى مصر سنة 568–569هـ، لكشف البلاد، وارتفاعها ومراجعة حساباتها لتقرير القطيعة، أو الوظيفة السنوية التي يرسلها صلاح الدين لنور الدين([6]) أمراً عادياً يظهر تبعية مصر لنور الدين ،ولا يعني استغراب صلاح الدين لهذا العمل بقوله :"إلى هذا الأمر وصلنا([7]) إلا لكون ما فعله نور الدين قد يشك في نزاهته، وذمته لو قام بنفسه برفع تقرير حول مصر إلى نور الدين ، ولا داعي لإرسال ابن القيسراني.

وليس لصلاح الدين الحق في ذلك، لأننا كما ذكرنا: فإن إرسال نور الدين لابن القيسراني لاستطلاع أمر مصر، وما وصلت إليه الحالة السياسية، كان أمراً طبيعياً، ولا يعني بحال من الأحوال أن نور الدين كان يشك قيد أنملة في نزاهة صلاح الدين، وإلا لما أرسله ليكون نائباً له في مصر، ففي نفس الوقت الذي أرسلت فيه الخلافة العباسية خلعة لنور الدين حيث قلدته سيفين إشارة إلى تقليده أمر الشام ومصر، قام نور الدين بإرسال خلة من قبل سيرها من بلاد الشام إلى صلاح الدين، وأهله، وأمرائه بمصر([8]) ، وحين وصلت خلعة صلاح الدين بمصر"استقصرها، واستنزرها، واستصغرها دون قدره" ([9]) مما جعل نور الدين يطيب خاطره، بأن سير تشريفه برمته، وكان أميز وأفضل، وأجمل

([1]) أبو شامة ، الروضتين، ج1، ص 522–523

([2])أبو شامة ، الروضتين، ج1، ص 509 .

([3])المصدر نفسه ،ج 1، ص408، أيضاً : ابن واصل، مفرج ، ج1، ص 173 .

([4])الأتابكي: النجوم، ج6، ص8 .

([5])أبو شامة ، الروضتين، ج1، ص 52، ابن واصل، مفرج، ح1، ص 257–258. المقريزي، السلوك ج1 ، ص 51– 52 .

([6])أبو شامة ، الروضتين، ج1، ص 52، ابن واصل، مفرج، ح1، ص 257–258. المقريزي، السلوك ج1 ، ص 51– 52 .

([7])أبو شامة ، الروضتين، ج1 ص 418 .

([8])المصدر نفسه، ج1، ص 506، ابن واصل، مفرج، ج1، ص219 .

([9])المقريزي، السلوك، ج1، ص 46 .

وأكمل ([1]) ، وفي الوقت نفسه كان صلاح الدين يراعي التأدب في رسوم الملك، فلا يساوي نفسه بأستاذه نور الدين ، ففي رجب سنة 567 هـ/1711م .

ضربت نوب الطبلحانة([2]) بالباب الناصري ثلاث مرات كل يوم، وضربت بدمشق خمس مرات كل مرات بالباب النوري([3]) ، وفي نفس السنة سارت الرسل من القاهر إلى نور الدين، تخبره بلبس صلاح للخلع، وباستجابة صلاح الدين للخلع، ومداومة إرسال ما قرر عليه من ما إلى نور الدين في كل سنة([4])، ومنذ استقرار صلاح الدين بمصر حتى وفاة نور الدين، داوم على إرسال تحف القصر الفاطمي إلى أستاذه نور الدين، رمزاً للولاء والتبعية([5])، ولم يتوقف عن إطلاع نور الدين على كل المستجدات السياسية في مصر ، فنجده مثلاً يرسل كتابا، يتضمن ذكر ثورة عمارة اليمني([6]) .

وحتى وفاة نور الدين، كانت مصر والشام قد توحدتا تحت زعامة نور الدين، وهذا ما عبر عنه العماد الأصفهاني خلال امتداحه لنور الدين حيث يقول:

بملك مثر أهنئ مالك الأمم فثق وأبشر ينصر الله عن أمم

فملك مصر وملك الشام قد نظما في عقد عز من الإسلام منتظم([7])

ولكن بعد وفاة نور الدين " انفردت مصر عن الشام، وطمع أهل الكفر في بلاد الشام([8]) ، وهذا على ما يبدو ما دفع صلاح الدين للخروج إلى الشام ليس نكراناً لجميل سيده، ولا جحوداً بفضله، وإنما " لتوحيد كلمة المسلمين ضد الفرنج "([9]) .

([1])أبو شامة ، الروضتين ، ج1، ص506 .

([2])الطبلحانة : كلمة فارسية معناها الموسيقى السلطانية ، وكانت العادة أن تدف نوبة في كل ليلة بالقلة بعد صلاة المغرب، وتكون بصحبة السلطان في الأسفار والحروب ، انظر الفلقشندي، صبح ، ج4، ص 8-9،ص 13.

([3])المقريزي ، السلوك، ج1، ص 46 .

([4])المقريزي، السلوك، ج1، ص 47 .

([5])أبو شامة ، الروضتين ، ج1، ص 524-525، ابن واصل ، مفرج، ج1، ص 224- 225-226 .

([6])عمارة اليمني(000 - 569 ه = 000 - 1174 م) عمارة بن على بن زيدان الحكمي المذحجي اليمني، أبو محمد، نجم الدين: مؤرخ ثقة، وشاعر فقيه أديب، من أهل اليمن، ولد في تهامة ورحل إلى زبيد سنة 531 هـ، وقدم مصر برسالة من القاسم بن هشام (أمير مكة) إلى الفائز الفاطمي سنة 550 ه في وزارة " طلائع ابن رزيك " فأحسن الفاطميون إليه وبالغوا في إكرامه، فأقام عندهم، ومدحهم، ولم يزل موالياً لهم حتى دالت دولتهم وملك السلطان " صلاح الدين " الديار المصرية، فرثاهم عمارة واتفق مع سبعة من أعيان المصريين على الفتك بصلاح الدين، فعلم بهم فقبض عليهم وصلبهم بالقاهرة، وعمارة في جملتهم، له تصانيف، منها " أرض اليمن وتاريخها - ط " و " النكت العصرية، في أخبار الوزراء المصرية - ط " وفيه كثير من أخباره، تحدث بها عن نفسه، وقصائد ومختارات أوردها من شعره ونثره. صبح الأعشى 3: 532 ووفيات، 1: 376 وآداب اللغة 3: 74 والفهرس التمهيدي 304 وكشف الظنون 1777 والسلوك للمقريزي 1: 53 وفيه تفصيل المؤامرة على صلاح الدين.

وفي مفرج الكروب 1: 212 - 216 قصيدة عمارة في رثاء الفاطميين، وأولها: " رميت يادهر كف المجد بالشلل " ثم في الصفحة 243 - 246 و 251 - 257 خبر المؤامرة وقتله وشئ عنه. وانظر:ابن واصل ، مفرج ، ج1، ص 248.

([7])أبو شامة ، الروضتين، ج1، ص 444، 445 .

([8])نفس المصدر، ج2،ص 597-598 .

([9])سبط ابن الجوزي ، مرآة ، ج8، ص 327-328.

الفصل الثاني

((منهـــــــــــج نور الـــــديـــــن محمود فـــي إدارة الدولة)).

أولاً: تقسيمات نور الدين محمود الإدارية للدولة:-

بدأت الدولة النورية عهدها بالسيطرة على مدينة حلب، وبعض المناطق المجاورة لها في شمال بلاد الشام، وذلك عقب اغتيال عماد الدين زنكي عام 541هـ/1146م، إلا أنه وخلال ما يقرب الثلاثين عاماً استطاع نور الدين محمود أن يمد نفوذها ليشمل شمال العراق، ووسط الشام، وكذلك مصر حتى حدودها في بلاد النوبة، وامتدت تلك الحدود حتى جبل نفوسة غرباً، وهكذا، فبدلاً من مدينة رئيسية، صارت الدولة النورية تخضع لها مناطق واسعة مترامية الأطراف([1])، حوت العديد من المدن الكبرى المهمة في المنطقة مثل: دمشق، والموصل، والقاهرة، فضلاً عن حلب ذاتها([2]).

وعندما كانت الدولة النورية في حلب، وأعمالها بشمال الشام لا تزال دويلة وليدة، لم تكن تواجه نور الدين أي مشكلة من ناحية التقسيمات الإدارية، ولكن مع اتساع رقعتها بصورة كبيرة-كما أسلفنا- صار من الضروري أن يتخذ نور الدين عدد من الإجراءات التي تكفل له إدارة البلاد، وإحكام قبضته عليها، فقام بتقسيم الدولة الإسلامية في عهده إلى عدة أقاليم هي:-

أولا: القسم الشمالي من بلاد الشام، وقاعدته حلب، ويضم عدد من القرى، والضياع، والحصون كان من أهمها:

(1) أرتاح: حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب([3]).

(2) الأرتيق: كورة من أعمال حلب من جهة الجنوب([4]).

(3) أفلاطنس: حصن عظيم عال مشرف جدا من أعمال جبل وهرا وهو من أعمال حلب الغربية([5]).

(4) أقميناس: قرية كبيرة من أعمال حلب في جبل السماق أهلها إسماعيلية([6]).

(5) الباب: ويعرف بباب بزاعة بليدة في طرف وادي بطنان من أعمال حلب بينها وبين منبج نحو ميلين وإلى حلب عشرة أميال([7]).

(6) باعربايا: بلد من أعمال حلب من مضافات أفامية([8]).

(7) بربعيص: من أعمال حلب([9]).

---

(1) ابن العديم، زبدة، ج2، ص340-341. ابن الأثير، الباهر، ص159-163. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص14. وانظر: عوض، السياسة، ص209.

(2) القلقشندي، مآثر الأناقة ج،2، ص46. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج،4 ص، 178. عوض، السياسة، ص209.

(3) ياقوت، معجم، ج1، ص140.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص141.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص232.

(6) المصدر نفسه، ج1، ص238.

(7) المصدر نفسه، ج1، ص303.

(8)ياقوت، معجم، ج1، ص324.

(9) المصدر نفسه، ج1، ص325.

(8) برج الرصاص: قلعة ولها رساتيق من أعمال حلب قرب أنطاكية([1]).

(9) بزاعة أو بزاعا: بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب بينها وبين كل واحدة منهما مرحلة([2]).

(10) بسرفوث: حصن من أعمال حلب في جبال بني علىم له ذكر في فتوح الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي وقد خرب، وأصبح قرية([3]).

(11) بلاطنس: حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية من أعمال حلب([4]).

(12) بهنسا: قلعة حصينة عجيبة بقرب مرعش وسميساط، وهو على سن جبل عال، من أعمال حلب([5]).

(13) تل قباسين: قرية من قرى العواصم من أعمال حلب([6]).

(14) جبل السماق: بلفظ السماق الذي يطبخ به هو جبل عظيم من أعمال حلب الغربية يشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع عامتها للإسماعيلية الملحدة([7]).

(15) حارم : بكسر الراء حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية وهي من أعمال حلب([8]).

(16) حبيب: بلد من أعمال حلب يقال له بطنان حبيب([9]).

(17) خناصرة: بليدة من أعمال حلب تحاذي قنسرين نحو البادية([10]).

(18) دانيث: بلد من أعمال حلب بين حلب وكفرطاب([11]).

(19) دير بساك: قرب أنطاكية من أعمال حلب([12]).

(20) دير بلاض: من أعمال حلب فيه رهبان([13]).

(21) ذاذيخ: قرية قرب سرمين من أعمال حلب([14]).

---

(1)ياقوت، معجم، ج1، ص373.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص478.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص516.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص478.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص516.

(6) المصدر نفسه، ج2، ص43.

(7) المصدر نفسه، ج2، ص102.

(8) المصدر نفسه، ج2، ص205.

(9) المصدر نفسه، ج2، ص216.

(10)المصدر نفسه، ج2، ص390.

(11) المصدر نفسه، ج2، ص434.

(12) المصدر نفسه، ج2، ص500.

(13) ياقوت، معجم، ج2، ص501.

(14) المصدر نفسه، ج3، ص3.

(21) زعرايا: من أعمال حلب(1).

(23) عزاز: مدينة لطيفة من أعمال حلب(2).

(24) سرمد: موضع من أعمال حلب(3).

(25) سرمين: بلدة مشهورة من أعمال حلب(4).

(26) عين تاب: قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية وكانت تعرف بدلوك ودلوك رستاقها، وهي من أعمال حلب(5).

(27) الفنيدق: من أعمال حلب(6).

(28) كفرسوت: من أعمال حلب قرب بهسنا(7).

(29) بكفرنجد: قرية كبيرة من أعمال حلب في جبل السماق(8).

(30) مشحلا: قرية من نواحي عزاز من أعمال حلب(9).

(31) نواز: قرية كبيرة فيها تفاح كبير مليح اللون أحمر في جبل السماق من أعمال حلب(10).

(32) نوا: بلفظ جمع نواة التمر وغيره بليدة من أعمال حوارن، وقيل هي قصبتها بينها وبين دمشق منزلان(11).

(33) العمق: كورة قرب دابق بين حلب وأنطاكية(12).

(34) تل السلطان : موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق(13).

(35) دير باعنتل :من جوسية على أقل من ميل وجوسية من أعمال حمص على مرحلة منها من طريق دمشق وهو على يسار القاصد لدمشق(14).

والقسم الأوسط وقاعدته دمشق ومقاطعة حمص، ويشمل على عدد من القرى والضياع منها:

(1) آبل القمح: قرية من نواحي بانياس من أعمال دمشق بين دمشق والساحل(15).

---

(1)ياقوت، معجم، ج3، ص137.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص518.

(3) المصدر نفسه، ج3، ص215.

(4) المصدر نفسه، ج3، ص215.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص176.

(6) المصدر نفسه، ج4، ص278.

(7) المصدر نفسه، ج4، ص469.

(8) المصدر نفسه، ج4، ص471.

(9) المصدر نفسه، ج5، ص132.

(10) المصدر نفسه، ج5، ص306.

(11) المصدر نفسه، ج5، ص306.

(12) المصدر نفسه، ج4، ص156.

(13) المصدر نفسه، ج2، ص43.

(14) ياقوت، معجم، ج2، ص500.

(15) المصدر نفسه، ج1، ص50.

(2) آبل السوق: قرية كبيرة في غوطة دمشق من ناحية الوادي(1).

(3) أعناز: بلد بين حمص والساحل(2).

(4) أعناك: بليدة من نواحي حوران من أعمال دمشق(3).

(5) الأكواخ: ناحية من أعمال دمشق(4).

(6) أنطرطوس: بلد من سواحل بحر الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية، وأول أعمال حمص(5).

(7) بج حوران: قرية من أعمال دمشق(6).

(8) بصرى :من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران(7).

(9) بعلبك : من أعمال دمشق(8).

(10) البلقاء كورة: من أعمال دمشق بين الشام، ووادي القرى قصبتها عمان(9).

(11) تلفياثا :من قرى غوطة دمشق(10).

(12) تلفيتا :من قرى سنير من أعمال دمشق(11).

(13) الجابية: قرية من أعمال دمشق، ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفر في شمالي حوران(12).

(14) حارب : موضع من أعمال دمشق بحوران قرب مرج الصفر([13]).

(15) الحارث: قرية من قرى حوران من نواحي دمشق يقال لها حارث الجولان([14]).

(16) حصن مقدية: من أعمال أذرعات من أعمال دمشق([15]).

---

(1)ياقوت، معجم ، ج1، ص50.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص222.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص222.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص241.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص270.

(6) المصدر نفسه، ج1، ص339.

(7) المصدر نفسه، ج1، ص441.

(8) المصدر نفسه، ج1، ص453.

(9) المصدر نفسه، ج2، ص205.

(10) المصدر نفسه، ج2، ص42.

(11) المصدر نفسه، ج2، ص42.

(12) المصدر نفسه، ج2، ص91.

(13) ياقوت، معجم، ج2، ص204.

(14) المصدر نفسه، ج2، ص205.

(15) المصدر نفسه، ج2، ص265.

(17) حوران كورة: واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرى كثيرة، وقصبتها بصرى([1]).

(18) الحولة كورة: بين بانياس، وصور من أعمال دمشق ذات قرى كثيرة([2]).

(19) السطح : قرية من قرى دمشق خارج باب توما([3]).

(20) سطرا: من قرى دمشق([4]).

(21) سمكين: ناحية من أعمال دمشق من جهة حوران([5]).

(22) الصنمان : قرية من أعمال دمشق في أوائل حوران بينها وبين دمشق مرحلتان([6]).

(23) صهيا: قرية من إقليم بانياس من أعمال دمشق([7]).

(24) صيدنايا : بلد من أعمال دمشق([8]).

(25) العرمان: من قرى صرخد من عمل حوران من أعمال دمشق([9]).

(26) عشترا :موضع بحوران من أعمال دمشق([10]).

(27) عقيل: من قرى حوران من ناحية اللوى من أعمال دمشق([11]).

(28) الغثاة: قرية من حوران من أعمال دمشق([12]).

(29) قارة: اسم قرية كبيرة على قارعة الطريق وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلـــى دمـــشق وهي كانت آخر حدود حمص وما عداها من أعمال دمشق وأهلها كلهم نصارى([13]).

(30) المشارف : جمع مشرف قرى قرب حوران منها بصرى من الشام ثم من أعمال دمشق([14]).

(31) منين: قرية في جبل سنير من أعمال دمشق([15]).

(32) هيت: من قرى حوران من ناحية اللوى من أعمال دمشق([16]).

---

(1)ياقوت، معجم ، ج2، ص317.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص323.

(3) المصدر نفسه، ج3، ص220.

(4) المصدر نفسه، ج3، ص220.

(5) المصدر نفسه، ج3، ص251.

(6) المصدر نفسه، ج3، ص431.

(7) المصدر نفسه، ج3، ص436.

(8) ياقوت، معجم، ج3، ص438.

(9) المصدر نفسه، ج4، ص110.

(10) المصدر نفسه، ج4، ص125.

(11) المصدر نفسه، ج4، ص141.

(12) المصدر نفسه، ج4، ص187.

(13) ياقوت، معجم، ج4، ص295.

(14) المصدر نفسه، ج5، ص131.

(15) المصدر نفسه، ج5، ص218.

(16) المصدر نفسه، ج5، ص420.

(33) جوسية: من أعمال حمص على مرحلة منها من طريق دمشق وهو على يسار القاصد لدمشق([1]).

(34) رفنية كورة : مدينة من أعمال حمص يقال لها رفنية تدمر([2]).

(35) سلمية بليدة : في ناحية البرية من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين وكانت تعد من أعمال حمص([3]).

(36) الطوبان: حصن من أعمال حمص أو حماة([4]).

(37) القريتان أيضا قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البرية بينها وبين سخنة وأرك، أهلها كلهم نصارى([5]).

(38) كفربطنا: من قرى غوطة دمشق من إقليم داعية([6]).

(39) كفرتكيس: من أعمال حمص([7]).

(40) اللاذقية: مدينة في ساحل بحر الشام تعد في أعمال حمص، وهي غربي جبلة بينهما ستة فراسخ وهي زمن ياقوت حوإلى 620هـ/1223م من أعمال حلب([8]).

(41) حماة: مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار، واسعة الرقعة حفلة الأسواق يحيط بها سور محكم وبظاهر السور حاضر كبير جدا فيه أسواق كثيرة، وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي عليه عدة نواعير تستقي الماء من العاصي، فتسقي بساتينها، وتصب إلى بركة جامعها، ويقال لهذا الحاضر السوق الأسفل لأنه منحط عن المدينة، ويسمون المسور السوق الأعلى وفي طرف المدينة قلعة عظيمة عجيبة في حصنها وإتقان عمارتها وحفر خندقها(9).

(42) صرخد: بلد ملاصق لحوران من أعمال دمشق، هي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة(10). كما ضمت الدولة النورية إقليم الجزيرة، والذي اشتمل على ثلاث مقاطعات وهي:- هي ديار ربيعة، وديار

---

(1)ياقوت، معجم ، ج2، ص185.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص55.

(3) المصدر نفسه، ج3، ص240.

(4) المصدر نفسه، ج4، ص46.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص335.

(6) المصدر نفسه، ج4، ص468.

(7) المصدر نفسه، ج4، ص468.

(8) المصدر نفسه، ج5، ص5.

(9) ياقوت، معجم، ج2، ص300.

(10) المصدر نفسه، ج3، ص401.

مضر، وديار بكر، وقد عرفت بذلك نسبة إلى القبائل العربية ربيعة ومضر وبكر التي نزلت هذا الإقليم قبل الإسلام(1).

ديار ربيعة: تقع في شرق ديار مضر، وتتألف من الأراضي التي في شرق نهر الخابور الكبير المنحدر من رأس العين، ومن الأراضي التي تقع في شرق الهرماش، وكذلك مما على ضفتي نهر دجلة من أراضي تمتد بانحدار النهر من تل فافاز إلى تكريت([2])، ومن أهم مدنها:

(1) الموصل: قاعدة ديار ربيعة، على ضفة دجلة الغربية حيث تتصل فروع النهر، فتؤلف مجرى كبيراً واحداً، ويقال أن اسم الموصل جاء من الاتصال([3]).

(2) أربل: تقع على بعدٍ متساوٍ تقريباً، بين نهر الزاب الكبير والزاب الصغير([4]).

(3) العمادية: تقع بالقرب من منابع الزاب الأعلى شمال الموصل، وتنسب إلى مؤسسها عماد الدين زنكي([5]) والد نور الدين. وكان قبل ذلك حصناً للأكراد يسمى آشب([6]).

(4) الحديثة: وتسمى حديثة الموصل، تمييزاً لها عن حديثة الفرات، وتقع عند مصب الزاب الأعلى على الضفة الشرقية لنهر دجلة([7])، تسعة فراسخ عن الموصل([8])، وقد بقيت هذه المدينة على شكل دائرة، وكانت عاصمة إقليم الجزيرة قبل الموصل([9]).

(5) نصيبين: وهي من أجمل بقاع الجزيرة، وأحسنها([10])، وأكثرها عمراناً، وتقع على طريق القوافل من الموصل إلى الشام([11]).

(6) جزيرة ابن عمر: في شمال نيسابور، وتنسب إلى مؤسسها الحسن ابن عمر التغلبي([12])، وقد وصفها ابن حوقل([13]) بأنها ثغر الجزيرة، لوقوعها غربي دجلة وشرقي الفرات.

(7) ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرقة على دنيسر، و دارا، ونصيبين([14]).

([1])لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص114.

(2) المرجع نفسه، ص115.

(3) ياقوت، معجم، ج5، ص223. لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص115.

(4) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص119.

(5) ياقوت، معجم، ج6، ص64.

(6) ابن الأثير، الباهر، ص65.

(7) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص119.

(8) الفرسخ ثلاثة أميال على وجه التقريب، حسيني، الإدارة العربية، ص120.

(9) ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص288.

(10) المصدر نفسه، ج3، ص288.

(11) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص124.

(12) المصدر نفسه، ص474.

(13) المسالك والممالك، ص150.

(14) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص125.

(8) سنجار: تقع في وسط برية ديار ربيعة في لحف جبل سنجار العالي([1])، وبينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وتبعد عن نصيبين ثلاثة أيام أيضاً([2]).

2- ديار مضر:

تحف بضفاف الفرات من سميساط إلى عانة التي يسقيها نهر البلح، أحد روافد نهر الفرات، الآتي من حران([3])، ومن أشهر مدنها:

(1)الرقة: تقع على نهر الفرات، فوق مصب نهر البلح المنحدر من الشمال إلى الفرات([4])، وهي قصبة ديار مضر([5]).

(2)الرها: تقع عند منابع أحد روافد البلح، ويدين أغلب أهلها بالنصرانية، ولذا كثر بها بناء الكنائس والأديرة([6]).

3- ديار بكر: تقع على نهر دجلة الأعلى([7])، ومن أشهر مدنها:

(1)آمد: قصبة إقليم ديار بكر، ويطل عليها جبل مرتفع، وهي حصينة ومنيعة([8])، شيدت على صخرة واحدة طولها ألفا قدم، وعرضها كذلك، ويحيط بها نهر دجلة([9]).

(2) ميافارقين: بلد حصين يحيط به سور مبني بالحجارة، حلوه خندق([10]).

(3) حصن كيفا: يقع على ضفة الفرات الجنوبية، وبه قلعة حصينة([11]).

وهكذا اشتملت الدولة النورية على مناطق كانت تعد وما تزال من أهم المناطق الجغرافية من حيث الموقع والأهمية الإستراتيجية، واشتملت على العديد من الموارد الاقتصادية وغيرها.

ثانيا: التزام نور الدين محمود الشريعة الإسلامية:-

انتهج نور الدين محمود الشريعة الإسلامية في إدارة دولته، فقد اعتمد القرآن الكريم، واتخذه دستوراً ووزيراً[(12)]؛ ولم تكن مقاليد الحكم في دولته أداة لخدمة أهداف الطبقة الحاكمة، كما أنها لم تكن

---

(1) ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص262.

(2) رحلة ابن جبير، ص227.

(3) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص133.

(4) ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص105.

(5) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص133-134.

(6) ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص24.

(7) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص140.

(8) ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص61.

(9) المصدر نفسه.

(10) المصدر السابق، ج5، ص235. لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص143.

(11) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص144.

(12) يظهر ذلك من قول الشاعر ابن منير الطرابلسي والذي عاصر نور الدين محمود:-

مجرد ذريعة عملية لتسيير الشئون المادية المنفعية الصرفة للدولة فحسب، بل إن هنالك أهدافاً أكبر بكثير، وقيماً ومبادئ أبعد مدى، كان على أجهزة الدولة أن تسعى إلى تحقيقها في واقع الحياة، وأن تبذل ما تمتلكه من قدرات وخبرات للسير بالأمة قدماً صوب آفاقها الرحبة الشاملة؛ بمعنى أن تنفيذ شريعة الإسلام، وقيمه، ومبادئه في واقع الحياة، وبعث المجتمع الإسلامي كان هو الهدف المركزي لدولة نور الدين محمود، فهي إذاً دولة ملتزمة، وليست صاحبة أغراض منفعية، وكسب واحتراف؛ وقد أكد نور الدين على هذه الحقيقة في أكثر من مناسبة، وحشد لها الكثير من الأقوال والتأكيدات والتصريحات، ودعا بحماس منقطع النظير إلى تحقيقها، وسعى – فعلاً – إلى أن تنتقل هذه الدعوة – رغم المصاعب والعقبات – من ميدان الفكر إلى ميدان التطبيق(1)، فكان يقول: " ونحن نحفظ الطرق من لصّ وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين، ونمنع عنه ما يناقضه، وهو الأصل "(2). وقال: " نحن شحن للشريعة نمضي أوامرها "(3)، وقال مخاطبا أحد ولاته: " انظر في العوادي، وما يجري فيها من الدعاوي، وميز بين المحاسن، والمساوئ، وأحمل الأمور فيها على الشريعة "(4). وقال متحدثاً إلى اثنين من كبار موظفيه: " والله إني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين، فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي، وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك (أمام الله). فالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام، ولا تريان قصة مظلوم لا ترفع إلي، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها، وارفعاها إلي"(5).

وقال فيما يلخص موقفه الملتزم: " إني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع "(6)، وهناك شهادات للمؤرخين تؤكد جميعها هذا الحرص على الالتزام، وعلى جعل الدولة أداةً لتحقيق كلمة الله في الأرض(7)، وفي ذلك يقول ابن الأثير: " كان نور الدين يعظم الشريعة المطهرة، ويقف عند أحكامها "(8). ويقول في مكان آخر: " وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك إتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل، والمشرب، والملبس وغير ذلك، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية، همة أحدهم بطنه، وفرجه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته، فوقف مع أوامر الشرع، ونواهيه

لامُلك إلا ملك محمود الذي اتخذ الكتاب مظاهراً ووزيراً.

انظر: ابن منير، شعر، ص99. ديوان، ص246. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص218.

(1) خليل، نور الدين، ص 86.

(2) ابن الأثير، الباهر ص 173– 174. أبو شامة، الروضتين ج1، ص49.

(3) ابن الأثير، الباهر ص 166. الأسدي، الكواكب، ص20. وانظر: السرطاوي، نور الدين، ص62. خليل، نور الدين، ص 86.

(4) الأصفهاني، البرق ص 146 – 147.

(5) أبو شامة، الروضتين ج1، ص 59. الأسدي، الكواكب ص 25.

(6) أبو شامة، الروضتين ج1، ص36 – 37.

(7) خليل، نور الدين، ص 86.

(8) ابن الأثير، الباهر ص 166. الكامل، ج10، ص 57. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص38.

وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه "(1) ، ويقول أبو شامة: " سمعت أبا شداد يقول: أما فكره، ففي إظهار شعار الناس، وتأسيس قاعدة الدين "(2)، ويقول في موضعٍ آخر: كان " أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها "(3). أما ابن كثير فيقول: " كان يقوم في أحكامه بالمعدلة([4]) الحسنة وإتباع الشرع المطهر، وأظهر ببلاده السنة وأمات البدعة "(5)، ويقول أبو شامة: " كان نور الدين – لما صارت له الموصل – قد أمر ألا يعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي، وألا يعمل القاضي، والنواب كلهم شيئاً إلا بعد مراجعة الشيخ عمر الملا – أحد شيوخ الموصل الصالحين – وعندما حضر والى الموصل، وبعض القادة والأمراء فيها إلى الشيخ عمر لكي يكتب إلى نور الدين كتاباً يطلب منه أن يسمح بتشديد العقوبة على بعض المخالفات بسبب كثرة مرتكبيها، وعدم ارتداعهم : وكانت أوامر نور الدين أن تكون العقوبات مطابقة لما ورد بأحكام الشريعة بدون زيادة ونقصان، ولم يجرؤ الوالي على الكتابة لنور الدين بهذا الموضوع، خشية التأنيب، واعتقد أن الشيخ عمر بما له من دالة على نور الدين ربما نجح بالمطلوب، فكتب الشيخ عمر كتاباً إلى نور الدين يقول فيه : " إن الزعار وقطاع الطرق والمفسدين قد كثروا ويحتاج إلى نوع سياسة، ومثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يجئ ليشهد له "(6) فأجاب نور الدين على ظهر رسالة الشيخ بقوله: " إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فما لنا من حاجة على زيادة ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة، فهو يكملها بزيادته وهذا من الجرأة على الله وعلى شرعه، والعقول المظلمة لا تهتدي، فالله سبحانه يهدينا وإياك إلى الكتاب وإلى الصراط المستقيم "([7])، فلما وصل الجواب إلى الشيخ عمر جمع الناس، وقرأ عليهم كتابه، وجواب نور الدين عليه قائلاً: " انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد " (8).

---

(1) ابن الأثير، الباهر ص 165 – 166. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص37.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص62.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص33.

(4) المعدلة: يقال فلان من أهل المعدلة أي من أهل العدل، والعدل الحكم بالحق يقال هو يقضي بالحق و يعدل وهو حكم عادل ذو معدلة في حكمه. انظر: ابن منظور، لسان، ج11، 430.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص278.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص60. عيون، ج1، ص276. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص282.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص60. وانظر: ابن كثير، البداية، ج12، ص282–283.

(8) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص60. عيون، ج1، ص276.

فنور الدين كان لا يرضى بسياسة القتل، والصلب، والضرب، ولا يزيد شيء على ما شرعه الله، بل يلتزم به حرفياً لا ينقص منه شيء، لأنه يعلم علم اليقين أن الله عز وجل لم يترك شيئاً مما يصلح للبشر إلا شرعه لهم، فهو لا يؤمن بالقوانين الوضعية التي يصنعها الإنسان.

وكان نور الدين معتنياً بحفظ أصول الديانات، ولا يُمَكِّنُ أحداً من إظهار ما يخالف الحق، ومتى أقدم على ذلك أَدَّبَهُ بما يناسب بدعته(1)، وهنا نذكر تلك الحادثة والتي تمثل ذلك الموقف النوري من أحد المبتدعين بدمشق، ويعرف بيوسف بن آدم: "كان يظهرالزهد والنسك، وقد كثر أتباعه، أظهر شيئاً من التشبيه، فبلغ خبره نور الدين، فأحضره، و أركبه حماراً، وأمر بصفعه، فطيف به في البلاد جميعها، و نودي عليه هذا جزاء من أظهر في الدين البدع، ثم نفاه من دمشق، فقصد حران، و أقام بها إلى أن مات"([2]).

وكان لا يقدم على إجراء عام أو شخصي، إلا بعد أن يستفتي الفقهاء الذين كانوا أشبه بمجلس شيوخ تشريعي، أو هيئة استشارية تستلهم في قراراتها النهائية مؤشرات الشريعة الغراء، بحيث لا يقدم أحد في الدولة على عملٍ، أو إجراء إلا ويجيء ذلك العمل منسجماً مع فكر الدولة وعقيدتها وشريعتها(3).

ولم يدع نور الدين منكراً يسود جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية إلا عمل على إزالته، وحث موظفيه على التنفيذ الفوري لأوامره بهذا الصدد .. إنه لم يشأ أن يقاتل العدو في ارج، وفي الداخل يعشش الخراب، والتفكك والعفن فيدمر الإنسان المسلم، ويفتت العلاقات الاجتماعية، ويستنزف القدرات الجهادية الخلاقة للأمة المسلمة، والتي بدونها كانت تنتهي دائماً إلى مواقع الفرار، والذلة والهزيمة.

لقد قالها يوماً أحد كبار الشيوخ – برهان الدين البلخي – وجهاً لوجه أمام نور الدين: " أتريدون أن تنصروا، وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور؟ فلا والله(4)، وما كان نور الدين بحاجة إلى من يقول له هذا، ولكنها الذكرى التي تهز الفؤاد، وتقود إلى مزيد من الإنجاز الذي يبني الجبهة الداخلية النظيفة، المتينة القديرة على مواصلة المهمة القتالية التي قادها نور الدين .. لقد أصدر أوامره إلى كافة موظفيه بالعمل على منع ارتكاب الفواحش، وشرب الخمور، أو بيعها في جميع بلاده، أو إدخالها إلى بلدٍ ما، وإسقاط كل ما يدخل تحت شبه الحرام، وتصفية آثار الآثام، وإراقة الخمور، وإزالة كل ما ينّد الظلام، وكان ينزل عقابه السريع العادل بكل من خالف عن أمره وكل الناس عنده فيه سواء(5).

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص49– 50. الأسدي، الكواكب ص 25 ، 32 – 33.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص49– 50.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص34، 42،62، 73–74. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ج8، ص247.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص68. ابن العديم، زبدة حلب، ج2، ص215.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص372.

ولقد بلغ من التزام نور الدين بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام حداً كبيرا يدل على مدى التزامه بمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل الأمور، فقد حكى الشيخ أبو البركات أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمّر أثناء الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج متقلداً سيفاً، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه، وقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقلد السيف؛ يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف، ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم، فلما كان من الغد مر، وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه، فخرج من القلعة، وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك، رحم الله الملك العادل نور الدين الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الحالة، بل لما بلغته رجع بنفسه، ورد جنده عن عوائدهم إتباعا لما بلغه عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فما الظن بغير ذلك من السنن (1).

ولقد تحققت في دولة نور الدين محمود آثار تحكيم شرع الله تعالى، من التمكين، والأمن والاستقرار، والنصر والفتح المبين والعز والشرف، وبركة العيش، ورغد الحياة في عهده، وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل، حتى " كانت دولته نافذة الأوامر منتظمة الأمور "(2).

ثالثا: الأنظمة والوظائف الإدارية في عهد نور الدين محمود :-

أدرك السلطان العادل نور الدين محمود ضرورة إحكام قبضته على أقاليم الدولة المختلفة لتوجيه طاقته نحو الجهاد ضد الصليبيين، لذلك أقام نظاماً سياسياً قوياً، ومنظماً امتاز بمميزات خاصة، فعلى الرغم من أن دولة والده عماد الدين زنكي وصفت بأنها أتابكية، ووصف بأنه أتابك، إلا أن الأمر اختلف بالنسبة لنظام الحكم في الدولة النورية إذ اتخذ شكل الملكية، أو السلطنة([3]).

وقد وصف نور الدين محمود في النظام السياسي بأنه ملك أو سلطان([4])، ولقبه الخليفة العباسي المقتفي (ت555هـ/1160م) بالملك العادل([5])، ولم يوصف قط بأتابك، مما يدل على أن تلك الدولة وإن كانت إفرازاً أتابكياً إلا أنها خالفته حيث لم تنشأ في كنف السلاجقة وإن أخذت عنهم الكثير في نظمها السياسية([6]).

وقد ورثت الدولة النورية عن سلطنة السلاجقة بعض الوظائف الإدارية والمناصب السياسية، كما أحدثت بعضاً منها حسب ما تقتضيه الحاجة، ومن هذه الوظائف والمناصب:

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 54. عيون، ج1، ص384 – 385.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص54.

(3) عوض، السياسة، ص40-41

(4) ابن القلانسي، ذيل، ص331، 333، 334، 335. ابن خلكان، وفيات، ج5، ص148. الذهبي، ج21، ص182.

(5) ابن خلكان، وفيات، ج5، ص148، 150. ج6، ص250. الذهبي، سير، ج20، ص409. السيوطي، تاريخ، ج1، ص440.

(6) عوض، السياسة، ص41.

1-الوزارة([1]):

وهي وزارة تنفيذ لأوامر السلطان، وليست وزارة تفويض كما هو الحال في العصر الفاطمي الثاني([2])، وقد أوكل نور الدين أمرها للعناصر المدنية دون العسكرية([3])، وربما دفعه إلى ذلك كفاءة المدنيين، وخشيته من زيادة نفوذ العسكريين على نحو يهدد سلطانه([4])؛ و لربما لانشغال العسكريين المستمر في الحرب، والجهاد ضد الصليبيين، فأراد عدم إرهاقهم بأمور الإدارة والسياسة، فضلاً عن الأمور العسكرية.

والوزير هو رئيس الجهاز الإداري المركزي، ويكون مسؤولاً أمام نور الدين عن جميع الدواوين والسجلات المتعلقة بالجند والبريد وزينة، ويقدم النصح والرأي في الأمور السياسية، والإدارية، والعسكرية، وقد كانت وظيفة الوزير أهم وظائف الدولة قبل استحداث وظيفة النائب، فقد كان الوزير في البداية هو المدبر الوحيد والحقيقي لجميع شؤون الدولة، ولكن صلاحياته تقلّصت بعد استحداث وظيفة النائب، الذي كان يتمتع بجميع صلاحيات السلطان ضمن منطقة مسؤوليته، ويرتبط بالسلطان مباشرة، وقد حصل تداخل في الواجبات والصلاحيات بين وظيفة الوزير، ووظيفة الناظر (ناظر الديوان) الذي كان يعد مسؤولاً عن الدواوين، وكان عمل الوزير يقتصر في بعض الأحيان على تقديم المشورة في الأمور المهمة بسبب التداخل المذكور([5]).

ومن أبرز من تولى الوزارة في عهد الدولة النورية: كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري الذي " ترقى إلى درجة الوزارة، وحكم في بلاد الشام ولم يكن شيء من أمور الدولة يخرج عنه "([6]).

وممن تولى الوزارة أيضاً، موفق الدين خالد بن محمد القيسراني([7])، الذي تقدم عند نور الدين تقدماً زائداً بحيث فوض أموره إليه، فأضاف إليه مهمة كتابة الإنشاء، وفوض إليه أمر متابعة أحوال

---

(1) ابن خلكان، وفيات،ج4، ص5.ابن العديم، بغية، ج6، ص2802. الذهبي، سير، ج21،ص54. الكتبي، الوافي، ج10، ص31.

(2) عوض، السياسة، ص41.

(3) خليل، عماد الدين، ص265.

(4) عوض، السياسة، ص41.

(5) أبو صيني، دور، ص 172. حلمي، السلاجقة، 210.

(6) ابن الجوزي، المنتظم، ج10، ص539. ابن خلكان، وفيات، ج4، ص5. وانظر: ابن العديم، زبدة، ج2، ص312.

(7) خالد بن محمد بن نصر بن صغير بن خالد القيسراني: أبو البقاء الدي المخزومي من ولد خالد بن الوليد المخزومي وكان أصله من قيسارية الشام وولد أبوه بعكا، وانتقل إلى حلب بعد استيلاء الفرنج عليها وولد له ولده خالد وكان خالد كاتبا مجيدا في ط كثير التحرير بخطه متبعا طريقة على بن أبي هلال المعروف بابن البواب اتباعا حسنا لا سيما في قلم المحقق فإنه أبدع فيه وأحسن كل الإحسان، وخدم الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بحلب وتقدم عنده وأنفق عليه، وولى وزارته وجمع في ولايته بين الإنشاء والاستيفاء. ابن العديم، بغية، ج7، ص3096.

مصر فأرسله رسولاً إلى صلاح الدين([1])، وقد ناب عنه في منصب الوزارة خلال غيابه في مصر، العماد الكاتب الأصفهاني فيقول: " قمت بعده بجميع الأمر"([2]).

ويورد الأصفهاني([3]) ما يؤكد كفاية القيسراني، ومقدرته، وحسن اختيار نور الدين له فيقول: " وكان نور الدين رفعه، واصطنعه، وبلغ فيه مبلغاً من الأمر، كأنه أشركه في الملك معه، ولقد كان لبيقاً بذلك، حقيقاً به "، ومن الوزراء أيضاً المنجي([4]).

2- النائب:-

هو الذي ينوب عن نور الدين في الإقليم، ويكون مسؤولاً عن الشؤون العسكرية والإدارية فيه، ومن صلاحياته توقيع المراسيم والمنشورات، وترشيح أسماء نوابه في المدن الأخرى التابعة للإقليم، والإشراف على تنفيذ القوانين ضمن منطقة مسؤوليته، ويرأس اجتماعات ديوان الجيش في الإقليم وقيادة الفرق العسكرية، الموجودة في الإقليم([5])، حيث عمل النائب في المنطقة التي عين بها على المساعدة في إدارتها نيابة عن السلطان؛ ومن أشهر النواب في عهد نور الدين، الأمير مجد الدين أبو بكر محمد بن الداية " نائب نور الدين في حلب، كان يدبر أعمالها ويسدد أحوالها " لمدة خمسة عشر عاماً (6)، ومحي الدين بن كمال الدين الشهرزوري الذي " ناب عن والده في حلب سنة 555هـ/1160م "([7]).

وكان الأمير أسد الدين شيركوه نائب نور الدين في دمشق([8])، ومن نواب نور الدين أيضاً، النائب حسان المنبجي الذي أسند إليه نور الدين فتح (تل باشر)، فتسلمها بالأمان في سنة 546هـ/1151م([9])، أما سعد الدين كمشتكين فإنه كان نائباً بقلعة الموصل بعد نجاح نور الدين في ضمها سنة 566هـ/1170م([10]).

---

(1) البنداري، سنا، ص68. الأصفهاني، الخريدة، قسم الشام، ج1، ص125-126. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص54. ابن العديم، بغية، ج6، ص2802. ج7، ص3096، 3100. ابن كثير، البداية، ج12، ص281. الكتبي، الوافي، ج10، ص31. ابن العماد، شذرات، ج2، ص293.

(2) الخريدة، قسم الشام، ج1، ص125-126.

(3) المصدر نفسه. البنداري، سنا، ص69.

(4) هكذا أورده الذهبي، ولم يعثر الباحث على ترجمة هذا الشخص فيما بين يديه من المصارد. انظر: الذهبي، سير، ج21، ص54.

(5) أبو صيني، دور، ص171.

(6) ابن القلانسي، الذيل، ص330، 355.

(7) ابن خلكان، وفيات، ج4، ص242.

(8) ابن القلانسي، ذيل، ص336.

(9) أبو شامة، الروضتن، ج1، ص267.

(10) البنداري، سنا، ص69. ابن الأثير، الكامل، ج11، ص364-365.

3- المستوفي:-

وهو الذي كان يتولى أمر الديوان المالي ويضبطه([1])، فهو المسؤول عن موازنة الدولة جميعها من حيث تقدير الأموال المستحقة وجمعها من مصادرها وحفظها، وتخصيص الأموال اللازمة للجند وغيرهم من أجهزة الدولة ومؤسساتها، ويكون له نّواب في الأقاليم يقومون بالواجبات نفسها، ويعملون بإمرته، وكذلك يكون له عدد من الكتبة المساعدين في الإدارة المركزية يعملون معاً تحت إمرته في ديوان يسمى ديوان الاستيفاء؛ ووظيفة المستوفي أهم الوظائف في الإدارة المركزية بعد وظيفة الوزير، ويتبع المستوفي موظف آخر هو المشرف، الذي يرأس ديوان الإشراف، ويعتبر عمله مكملاً لعمل المستوفي، ومهمته: تدقيق الحسابات والموازنة بين الصادرات والواردات لخزينة الدولة([2]).

وقد كان منصب الاستيفاء من أهم الوظائف الإدارية([3]) في عهد السلاجقة، لأنه المسئول عن الشئون المالية والحسابات، وضبط أموال الولاية، ولأن مصالح الجند وقواعد الملك والرعية وأموال المملكة تحت مسئوليته. وليس أدل على ذلك مما أورده ابن الأثير([4]) من أن شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور المستوفي، والخوارزمي (ت 494هـ/1100م) كان مستوفياً في ديوان السلطان ملكشاه، وقد بذل له مائة ألف دينار حتى ترك الاستيفاء.

وهذا يعني أن هذا المنصب الإداري المهم من مخلفات النظام الإداري السلجوقي، وقد طبقه نور الدين في دولته.

الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى منصب الاستيفاء:

يجب أن يكون الشخص المختار لهذه الوظيفة معروفاً بحسن السيرة، والسداد في الرأي، ومن حيث التدين يجب أن يكون من المتفق على تقواه، عارفاً بأسرار المعاملات المالية وأساليبها، لا يفوته ضبط الجزء من حساباتها، موصوفاً بأنواع من الكفاءات، والخبرة التامة بالرسوم، وأصولها، وبآداب خدمة الملك، ذا قلمٍ، وحكم موصوفين بالعدل، وشاهد صدق، معروفاً بحسن الفصل بين الحق والباطل، وأهلاً للقيام بإنجاز المصالح، والأمور السلطانية ليناط به حفظ أموال الدولة([5])، وله خبرة في كافة أعمال الضرائب وغيرها، ويفصل المحاسبات، ويجلبها ويراجعها، عارفاً بضبط الخراج، والزيادات والعلاوات([6]).

---

(1) القلقشندي، صبح، ج5، ص466.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص318، 238.

(3) ابن خلكان، وفيات، ج4، ص150.

(4) الكامل، ج9، ص44.

(5) إقبال، الوزارة، ص49، 50. أمين، تاريخ العراق، ص198.

(6) إقبال، الوزارة، ص50، 51.

مراسيم تعيين المستوفي:

كان من رسوم تعيين المستوفي، أن اختياره يتم عن طريق رأس الدولة أو وزيره، وكان الملك يصدر مرسوماً بذلك([1])، ويخلع عليه الشريفة ويجلس له مجلس عام([2])، وكان من مراسيم تعيينه أيضاً إلزام عمال الوزارة بتوقيره واحترامه، ومراعاة قدرته واحتشامه، وعليهم أن يدركوا أن منزلته أرفع المنازل، وأن يرفعوا إليه في كل شأن يتعلق بديوان الاستيفاء، وأن يوقروا مرسومه ومراسيمه بأمر من السلطان نفسه([3])، لأنه هو الذي يقرر المعاملات، ويحرر الحسابات، ويثبت البراءات للسلطان.

نواب المستوفي:

كان مستوفي المملكة العام هو نفسه رئيس ديوان الاستيفاء، وكان له نواب أو وكلاء في كل مدينة، عرف شاغلها باسم وكيل المستوفي، أو نائب المستوفي، الذي كان يشترط فيه أن يكون كرئيسه، مشهوراً بحسن السيرة وكمال الديانة، عليماً بأسرار المعاملات ودقائق الحسابات، وأن يكون قلمه حكم عدلٍ، وشاهد صدقٍ، ويكلف هذا الوكيل الذي كان يعرف بالمستوفي الصغير([4]) تمييزاً له عن المستوفي الكبير، بضبط أوراق الدخل، والمنصرف، وضبط الخراج، والضرائب، والزيادات، والعلاوات، وإرسال نسخة منقحة ومهذبة إلى الديوان في عاصمة السلطنة، وعليه أن يوصل ما هو مقرر على الولايات التابعة له، طبقاً لما هو مسجل في دفاتر ديوان الاستيفاء، وبناء على ما هو وارد في حجة الديوان، وهم أشبه بوكلاء وزير المالية الآن.

ويبدو أن لفظ المستوفي يتفق مع لقب الخازن، أو الخزينة دار([5])، وكان يعمل تحت إمرته "الحساب" جمع حاسب أو محاسب([6])، ويبدو أن الإدارة التي كان يشغلها هذا الموظف تتفق مع "ديوان الخراج"، وديوان الزمام عند العباسيين([7])، لأنه كان يشرف على خزائن الدولة([8]).

وكان موفق الدين خالد القيسراني " مستوفي المملكة النورية "([9])، أرسله نور الدين رسولاً إلى مصر، فقام بأمر الاستيفاء بدلاً منه العماد الكاتب الأصفهاني، ورفض نور الدين أن يبيع هذا المنصب

---

(1)إقبال، الوزارة ، ص49-51.

(2) المرجع نفسه، ص113.

(3) المرجع نفسه، ص49.

(4) عبد الفتاح، الحياة السياسية، ص86، 87.

(5) إقبال، الوزارة، ص50.

(6) الكرديزي، زين الأخبار، ج2، ص10.

(7) بارتولد، التركستان، ص358.

(8) الطبري، تاريخ، ج3، ص1550.

(9) البنداري، سنا، ص69. ابن العديم، بغية، ج7، ص3096.

بخمسة آلاف دينار لأحد الأمراء، وهو رضي الدين يعقوب أمير سنجار، فقال نور الدين: أما العماد فلا نبيع كفاة الرجال بالقناطير المقنطرة من المال، ويبدو أن العماد قد قنع بمنصب الإنشاء، فحث نور الدين على توليه رضي الدين يعقوب الاستيفاء مقابل عشرة آلاف دينار، غير أن الأخير طلب من نور الدين أن يكون له في كل بلد نائب حتى يستطيع الوفاء بما بذله من المال، فرفض طلبه وقال: " كأنه يريد أن يوفيني المال من مالي، و فرايد أعمالي "، ثم صرفه عن الاستيفاء ورده إلى العماد الأصفهاني([1]).

وممن تولى منصب الاستيفاء أيضاً في دمشق، كمال الدين الشهرزوري([2])، وتولى صفي الدين أبو الحسن على بن المبارك، وأخوه أبو الفتح أحمد بن المبارك بن غالب اللخمي المستوفي، الاستيفاء في مدينة إربل([3])، وكان أبو الفتح نصر بن عيسى بن على الجزري الموصلي، صاحب ديوان الاستيفاء في مدينة الموصل([4])، وقد ذكر ابن خلكان([5]) بأن " الاستيفاء في تلك البلاد منزلة علية وهو تلو الوزارة ".

ومع هذه الأهمية للمستوفي من الناحية الإدارية إلا أن النائب كان يفوقه، إذ يبدو أنه كان يتمتع بسلطات أوسع من تلك التي يتمتع بها المستوفي، ففي عام 551هـ/1156م، صدر الأمر النوري لنائبه في دمشق أسد الدين شيركوه بالتحقيق مع متولى الديوان (المستوفي) أبو سالم ابن همام الحلبي، لشكوك حامت حول تورطه بفساد إداري، تمثل في عدم الوفاء بما عليه من حقوق وواجبات، وقد ثبتت خيانته وتفريطه، فأمر أسد الدين بتعزيره، وطيف به في أسواق دمشق وهو حليق اللحية، ويركب الحمار بشكل مقلوب، وبقي في الاعتقال أياماً، ثم نفي إلى حلب بشفاعة أحد كبار رجال الدولة([6]).

4- الأمير الحاجب:-

ويضاف إلى المناصب السابقة مناصب ووظائف أخرى مثل وظيفة الأمير الحاجب، وهو المسؤول عن ديوان الجيش من حيث حفظ السجلات التي تحتوي أسماءهم، ووظائفهم، ورواتبهم وإقطاعيتهم، ويقوم بحل مشاكلهم، وتقديم صورة واضحة عن أحوالهم إلى السلطان أو النائب. كما يقوم بالإشراف على سلاح الجند، وخيولهم، ويساعده في ذلك عدد من الكتبة، والموظفين يشكلون معه ديوان الجند الذي يتولى كما ذكرت كل ما يتعلق بشؤون الجند من خيل، وسلاح، ورواتب، وإقطاعات،

---

(1) البنداري، سنا، ص69. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص238. ابن العديم، بغية، ج7، ص3096.

(2) ابن خلكان، وفيات، ج4، ص5.

(3) ابن خلكان، وفيات، ج4، ص151. الذهبي، سير، ج23، ص50.

(4) ياقوت، معجم، ج2، ص66.

(5) وفيات، ج4، ص150.

(6) ابن القلانسي، ذيل، ص336.

وسجلات([1])، وكان محمد العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه، وأحد كبار نوّابه في حلب وصاحب بعلبك وتدمر(2).

أما الحاجب فهو الذي يتولى تنظيم مقابلات السلطان، والدخول عليه في مجلسه، ومع أن بعض المراجع تذكر أن وظيفة الحاجب اختلفت عما كان عليه قبل عصر السلاجقة، وأصبحت مهمة الحاجب: إبلاغ السلطان حالة الشعب، وكشف مظالمهم أمامه، وإطلاعه على الأمور الرئيسة للدولة، ومطاردة الظلم وفق توجيهات المسؤول الأعلى، فالحاجب – إذن – يشبه وزير الداخلية حالياً(3)، إلا أنه ورد في بعض المصادر الأخرى أن نور الدين كان يأمر بإزالة الحاجب، والبواب عندما يجلس في دار العدل للقضاء، ليسهل دخول الضعفاء من الناس عليه(4)، مما يدل على أن وظيفة الحاجب ظلت حتى في عصر نور الدين تشمل واجب تنظيم الدخول على السلطان ومقابلته(5).

وفي بعض الأحيان كان الحاجب يقوم بدور الرسول، ففي سفر سنة 553هـ/1157م، " توجه الحاجب محمود المسترشدي إلى مصر عائداً مع رسلها بجارايات ما كان ورد معهم من مكاتبات الملك العادل الصالح متولي أمرها عن الملك العادل نور الدين([6]).

وقد صار لنور الدين عدة حجاب كان من أبرزهم المدعو محمد الجفري([7])، الذي لعب دوراً تآمرياً خطيراً في سنة 553 هـ/1157م، حيث ابتهل هو ومتولي القلعة، ومتولي الديوان فرصة مرض السلطان نور الدين، وقاموا بمراسلة أخيه أمير أميران، لحثه على السيطرة على الحكم، غير أن تلك المؤامرة قد فشلت، ويرجع الفضل في ذلك إلى اليقظة الكبيرة التي تمتعت بها الشرطة النورية (الشحنكية)، التي تمكنت من ضبط الرسائل التي كتبت لأمير أميران([8])، ويبدو أن الحاجب قد استغل ثقة السلطان، وقربه الشديد منه في لعب الدور السابق، غير أن هذا لا يعني تعميم الموقف السابق على باقي رجال الجهاز الإداري في دولة نور الدين.

5- الوالي أو متولى الولاية:-

تغير مفهوم وظيفة الوالي عما كان قبل دولة السلاجقة، فقد كان الوالي يمثل الخليفة أو السلطان في ولايته، ويعد مسؤولاً عن جميع الشؤون الإدارية والعسكرية فيها، أما في عهد السلاجقة والدولة الزنكية، فقد أصبح النائب هو الذي يتولى الصلاحيات المذكورة، بينما يكون الوالي مسؤولاً عن مدينة

---

(1) أبو صيني، دور، ص 174.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص141.

(3) أبو صيني، دور، ص 174.

(4) ابن الأثير، الباهر ص 168.

(5) أبو صيني، دور، ص 175.

(6) ابن القلانسي، ذيل، ص356.

(7) لم يعثر الباحث على ترجمة له.

(8)ابن القلانسي، ذيل، ص355.

،أو بلدة، أو قلعة في الولاية، أو الإقليم الذي يحكمه النائب باسم السلطان، أي أن النائب في عهد السلاجقة، وعهد الدولة الزنكية حلَّ محل الوالي في مركزه وصلاحياته([1]). أما واجبات الوالي فقد اختص بالأمور الداخلية للولاية([2])؛ وهي واجبات إدارية تشمل تنفيذ الأحكام، ومراقبة الأسواق ،ومحاسبة المخالفين للقانون، وتفقد أبواب المدينة، وأسوارها، وإطلاع النائب، أو السلطان على الأوضاع العامة في المدينة([3])، وحمايتها من التهديدات الخارجية([4])، ويعد كمال الدين الشهرزوري من أبرز الولاة الذين اعتمد عليهم نور الدين([5]). وكان نجم الدين بن شادي والد صلاح الدين الأيوبي والياً من قبل نور الدين على حلب، وقد قام بأداء مهمته على أكمل وجه، فعندما تعرضت بعلبك لغارة فرنجية صليبية سنة 546هـ/1151م، فأتبعهم بفرقة عسكرية، استطاعت دحرهم، وقد ساعدتهم الظروف المناخية الثلجية على هزيمة المهاجمين، وغنم ما معهم([6])، وممن تولى منصب الوالي زمن نور الدين أيضاً، نظام الدين أبو الكرام المحسن بن أبي المضاء البعلبكي([7]).

6- الشحنة:

الشحنة أو الشحنكية: كلمة تركية تعني صاحب الشرطة، أو قائد الحامية، أو الحاكم الإداري للمدينة، المسؤول عن الأمن والنظام فيها، وهو من المناصب التي استحدثها السلاجقة([8])؛ وكان يعين من قِبل السلطان مباشرة، ويعمل بإمرته رجال الشرطة، أو الحامية، ويقوم بحفظ الأمن الداخلي في المدينة([9])، وملاحقة اللصوص، والخارجين عن القانون؛ ويلاحظ أن هناك تداخلاً بين واجبات الوالي والشحنة في المدينة، ولا تذكر المصادر والمراجع حدوداً فاصلة بين واجبات مختلف الوظائف الإدارية في تلك العصور، ويظهر أن واجبات كل وظيفة كانت تتحدد في ضوء قوة شخصية من يشغلها، فإذا كانت شخصيته قوية، زادت صلاحياته، واتسعت لتشمل واجبات لوظائف أخرى؛ وقد مثل هذا النظام

---

(1) أبو صيني، دور، ص175.

(2) ابن القلانسي، ذيل، ص355.

(3) أبو صيني، دور، ص175.

(4) عوض، السياسة، ص41.

(5) ابن خلكان، وفيات، ج4، ص5.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص274.

(7) المصدر نفسه، ج1، ص74. والمحسن بن أبى المضاء عالم أصله من أهل بعلبك، ويذكر ابن الأتابكي الأتابكي أنه من المحتمل أن يكون هو طيب الذي أسند إليه صلاح الدين مهمة طابة التي أعلن فيها إسقاط الدولة العبيدية (الفاطمية). انظر: الأتابكي، النجوم، ج5، ص355.

(8) أمين، نظم، ص220. الدي، الحياة، ص254. حلمي، السلاجقة، ص213.

(9) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص3. ابن شداد، الأعلاق، ج3، ق1، ص169. إدريس، رسوم، ص109. أنوري، اصطلاحات، ص223-225.

المسمى بالشحنة، ويطلق على القائمين به الشحنكية، عنصراً فعالاً في النظام الإداري للدولة النورية، وهو يشبه في عصرنا نظام الشرطة([1]).

ولقد حدد نظام الملك([2]) الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى مسئولية الشحنة فقال: " ليبحث في كل مدينة عمن له شفقة في الدين، وعلى أمور الدين، ويخاف الله تعالى، وليس بصاحب غرض، ثم يقال له إننا نضع هذه المدينة والناحية أمانة في عنقك، عليك أن تحيط بكل شيء، وتتحرى كل صغيرة وكبيرة، ثم تحيطنا علماً بالحقيقة سراً وعلانية، لكي تأمر باتخاذ التدابير اللازمة، بل أنه أوجب على من يتوفر فيه هذه الصفات أن يلزم بقبول الوظيفة، وإلا أجبر على تحملها ".

كما كان يشترط في الشحنة الشجاعة، والمقدرة العسكرية والإدارية، والمقدرة على حفظ الأمن، ومراقبة المفسدين، والقبض على الجنازة، ومراقبة اللصوص، وقطاع الطرق([3]).

وقد أدرك نور الدين محمود مدى الأخطار المحدقة بالدولة النورية، في صورة الاتجاهات المناوئة لها في الداخل، ومن ثم عمل على بذل كافة الجهود الممكنة لمواجهتها من خلال إقامة جهاز أمني قوي، تنتشر فروعه في كافة أنحاء الدولة، والوقوف في وجه الحركات الثورية، ومن أمثلتها: حركة معز الدين المغربي، الذي خرج على السلطة في عام 566هـ/ 1170م، مدعياً الربوبية ،واستمر في ثورته حتى بعد وفاة نور الدين محمود، إلى أن تم قمعها في عام 571هـ/1175م([4])، كما كان للشحنة دورٌ مهمٌ في الكشف عن خيوط المؤامرة التي حاكها الأخ الأصغر لنور الدين مع عددٍ من المسئولين الإداريين في الدولة.

وقد استطاع رجال الشرطة المنتشرين على مشارف الطرق القبض على أحد التجار، وهو يحمل الرسائل التي كان يتم تبادلها بين القادة الذين حاولوا تدبير الانقلاب بمساعدة رجال الإسماعيلية الشيعة، وقام شحنة حلب بقطع رأس التاجر، أما شحنة دمشق، فقد قبض على متولي القلعة، والمستوفي، اللذان كان لهما ضلع كبير في حث أمير أميران لتولى مقاليد السلطة خلال مرض نور الدين عام 553هـ/1157م([5]).

ومن الجدير بالذكر أن ظاهرة العيارين والشطار([6])، قد انتشرت في بلاد الشام، والجزيرة خلال مرحلة الحروب الفرنجية (الصليبية)، حيث المناخ الملائم، والأرض الخصبةصبة المتمثلة في

---

(1) أبو صيني، دور، ص176.

(2) سياسة نامه، ص83.

(3) الدي، الحياة السياسية، ص255.

(4) وهذا يعني أنها كانت قوية ومؤثرة استطاع مشعلها استقطاب عدد كبير من عامة مدينة دمشق. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص388-389.

(5) ابن القلانسي، ذيل، ص355.

(6) حول ظاهرة العيارين والشطار انظر: النجار، العيارين والشطار، صفحات الكتاب.

الحروب والصراعات([1])، وقد قاموا بقطع الطريق، والسطو على القوافل التجارية([2])، ومن الطبيعي أن كثرتهم ارتبطت بالمناطق ذات الأهمية التجارية مثل: مدن الشام، والجزيرة ذات النشاط الاقتصادي التجاري، وقد وجدت جماعة من العيارين في عهد الدولة النورية بلغت أحياناً أعداداً تراوحت بين الستين والسبعين شخصاً([3])، وقد تم وصفهم في بعض الأحيان بالحرامية([4])، واللصوص([5]).

ومهما يكن من أمر فقد استطاعت الشحنة التغلب على ظاهرة اللصوصية بفضل قيادتها القوية ويقظتها الدائمة، وخاصة بعد تولي صلاح الدين الأيوبي شحنكية دمشق عام 550هـ خلفاً لأخيه توران شاه([6]).

وقد امتدح الشاعر عرقلة الكلبي([7]) صلاح الدين وشحنكيته التي تولاها في عهد نور الدين وقال:

رويدكم يا لصوص الشام فإني ناصح في مقالي
فما بالكم وسمي النبي يوسف رب الحجى والكمال
فذاك مقطع أيدي النساء وهذا مقطع أيدي الرجال([8])

والجدير بالذكر أن نور الدين محمود قد أدرك ظاهرة انتشار اللصوصية، فاختار لمنصب الشحنة خيرة رجاله ومنهم صلاح الدين حيث "جعله من خواصه لا يفارقه حضراً ولا سفراً"([9])، إضافة إلى أنه أمر بترتيب فراء في الأماكن المخوفة([10]). وممن تولى شحنكية حلب بدر الدين حسن بن الداية([11])، كما كان سعد الدين كمشتكين شحنة مدينة الموصل بعد ضمها([12]).

---

(1) عوض، السياسة، ص259. رمضان، المجتمع، ص115.

(2) ابن منقذ، الاعتبار، ص93.

(3)ابن منقذ، الاعتبار ، ص93، 102.

(4) ابن منقذ، الاعتبار، ص102.

(5) عرقلة، ديوان، ص87. الأسدي، الكواكب، ص147.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص319. ابن كثير، البداية، ج12، ص233. الأسدي، الكواكب، ص147.

(7) عرقلة الأعور (486 – 567 هـ / 1093 – 1171م) حسان بن نمير بن عجل الكلبي، أبو الندى: شاعر، من الندماء، كان من سكان دمشق، واتصل بالسلطان صلاح الدين الأيوبي، فمدحه ونادمه، ووعده السلطان بأن يعطيه ألف دينار إذا استولى على الديار المصرية، فلما احتلها أعطاه ألفين، فمات فجأة قبل أن ينتفع بفجأة الغنى، له (ديوان شعر، ط). الفوات 1: 112 ومرآة الزمان 8: 286 وانظر ريدة 1: 178 – 229.

(8) عرقلة، ديوان، ص87. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص319. ابن كثير، البداية، ج12، ص233. الأسدي، الكواكب، ص147.

(9) الأسدي، الكواكب، ص147.

(10) ابن الأثير، الباهر، ص173–174. ابن كثير، البداية، ج12، ص291. الأسدي، الكواكب، ص32.

(11) أبو شامة، الروضتين، ج، 2، ص330.

(12) المصدر نفسه، ج1، ص60. أبو شامة، عيون، ج1، ص276. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص282.

ويبدو أن الاستقرار والأمن قد عم بلاد الشام والجزيرة بحيث أن نور الدين قد أمر بعزل الشحن من وظائفهم، وفوض للقاضي كمال الدين بن الشهرزوري القيام بالمهام التي كان يقوم بها الشحنة قائلا: " انظر أنت في ذلك واحمل أمور الناس على الشريعة "، وكان ذلك ناتجاً عن قيام نور الدين بإسقاط " الجهات المحظورة و الشبه المحظورة " كما ينقل أبو شامة عن الأصفهاني([1]).

7- رئيس المدينة أو البلد:-

وإلى جانب الوظائف الإدارية السابقة وجد منصب رئيس المدينة الذي اختص ببعض اختصاصات الوالي([2])، وممن تولى هذا المنصب في مدينة دمشق مرتين ابن القلانسي([3])، وقد حمدت ولايته([4]).

8- والي القلعة (الدزدار):-

كلمة فارسية مكونة من مقطعين: داز أو دزه بمعنى قلعة، ودار أي الحافظ، أو الممسك، أو صاحب، فهي بذلك تعني حافظ القلعة([5])، ويحتل منصب الدزدار أهمية عظيمة في العصر النوري، لأن القلعة تعد أخطر موقع داخل المدينة، فهي المركز الرئيسي للدفاع عنها، فالعدو لا يمكن أن يتحكم في المدينة إلا إذا تمكن من القلعة، وقضى على آخر أثر لمقاومة حاميتها([6])، وانطلاقاً من هذا المبدأ كان الدزدار الشخصية الثانية في الإمارة من حيث الدفاع، لأنه يقع عليه عبء الدفاع عنها في أوقات الخطر، والحفاظ على سلامتها، وفي حالة غياب الأمير يصبح الدزدار الحاكم، وكان من اختصاصاته الإشراف الدائم والمستمر على إحكام التحصينات، وتفقد المنشآت العسكرية، وإعدادها للدفاع عن المدينة([7]).

وتختلف واجبات والي القلعة عن الوالي العام للمدينة، فالأول يعد قائد الحامية، ويكون مسؤولاً عن أبواب القلعة، وصيانتها، وإدارة حاميتها، فهو قائد عسكري، وله واجبات إدارية ضمن القلعة نفسها([8]).

وقد اختص بفتح وإغلاق قلعة المدينة وصيانتها في حالة تعرضها للهزات الأرضية([9]).

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص53. وانظر: الأتابكي، النجوم، ج6، ص79.

(2) ابن العديم، بغية، ج1، ص54.

(3) ابن القلانسي: الصاحب العميد أبو يعلى حمزة بن أسد بن على التميمي الدمشقي الكاتب صاحب التاريخ المسمى ذيل تاريخ دمشق، كان كاتبا أديبا، وكان يكتب له في سماعه أبو العلاء المسلم فذكر هو أنه هو وأنه كان كذلك يسمى، وكان متميزا في الكتابتين الإنشاء والديوان، توفي في ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمس مئة. انظر: الذهبي، سير، ج20، ص 388- 389. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج1، ص74. الذهبي، سير، ج20، ص 388- 389. ابن العماد، شذرات، ج 2، ص174.

(4) الذهبي، سير، ج20، ص 388.

(5) ابن خلكان، وفيات، ج7، ص142.

(6) الجميلي، إمارة ص236.

(7) نفسه، ص237.

(8) أبو صيني، دور، ص175.

(9) ابن القلانسي، ذيل، ص355، وقد أشار إلى اشتراك وإلى القلعة في التخطيط للانقلاب على حكم نور الدين. وانظر: ابن واصل، مفرج، ج2، ص118.

ويذكر أبو شامة([1]) كيف أن والي القلعة مجد الدين ابن الداية قد أغلق أبواب قلعة حلب ليمنع نصرة الدين أمير أميران من الدخول، بعد أن تبين أن نصرة الدين قد اتفق مع الإسماعيلية على الاستيلاء على الحكم- كما أسلفنا- بعد علمه بمرض نور الدين الشديد عام 552هـ.

وقد استطاع الأحداث في حلب كسر إغلاق البوابات ومساعدة نصرة الدين على الدخول.
ويعد الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين أبرز من تولى هذا المنصب في الدولة النورية، فبعد أن فتح نور الدين بعلبك عينه دزداراً عليها(2)، وكان شاذبخت الخادم دزدارا ووالياً على حلب([3])، كما عين على مدينة الموصل بعد ضمها لملكه خادماً له يدعى سعد الدين كمشتكين ليكون دزداراً عليها(4). وكان مخلصاً لسيده حتى بعد وفاته، فانضم إلى بنى الداية، وبايع الصالح إسماعيل بن نور الدين في حلب([5]).

9- كاتب الحكم:

ذكر هذا المنصب ابن العديم([6])، ولكنه لم يوضح شيئاً عن طبيعة العامل فيه، ولم يفصح لنا إلا عن أحد الذين شغلوا هذا المنصب في عهد نور الدين، وهو النجيب سعد الله بن محمد بن الوزان([7]) وكان بحلب.

10- المحتسب:

يعرف الفقهاء الحسبة بأنها: "أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله"([8])، تحقيقاً لقوله تعالى: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر"([9])، وتأكيداً لسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) القائل: " لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم، فيدعون خياركم فلا يستجاب لهم"([10])، ومعنى هذا أن الحسبة كانت نقلاً على كل أفراد الأمة الإسلامية، وواجب مفروض على من يتولاها، أي المحتسب([11]).

---

(1) الروضتين، ج1، ص347.
(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 405.
(3) المصدر نفسه، ج2، ص، 330. ج3، ص77.
(4) أبو شامة، الروضتين ، ج2، ص168. 325.
(5) المصدر نفسه، ج2، ص، 326.
(6) بغية، ج9، ص4310.
(7) لم يعثر الباحث له على ترجمة فيما بين يديه من مصادر.
(8) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص240. ابن خلدون، المقدمة، ص225. ابن تيمية، الحسبة ، ص6، 34.
(9) سورة آل عمران، آية رقم 104.
(10) صحيح مسلم، ج3، ص155.
(11) ابن الأخوة، معالم، ص26.

ونظراً لأهمية هذا المنصب فقد اشترط الفقهاء فيمن يتولاه شروطاً منها: أن يكون لين القول، طلق الوجه، كريم الأخلاق، خالص النية، بعيداً عن الرياء، وأن يكون عدلاً ذا صرامة، وقوة في الدين متورعاً عن قبول الهدية، لا يخالف قوله فعله، وأن يكون عارفاً بأحكام الشريعة، وسنة المصطفى (عليه الصلاة والسلام)([1])، أما أهم الأعمال التي يقوم بها المحتسب، فأغلبها يتعلق بالدين والخلق مثل: الأمر بتأدية صلاة الجمعة، والمحافظة على صلاة الجماعة، وأداء الزكاة، وردع أهل البدع، ومراعاة آداب السلوك، والتمسك بأهداب الدين، والمحافظة على الأخلاق العامة، ومنع النساء من التبرج، ومراقبة الحانات وشاربي الخمر، ومنع الدعارة([2]).

وتناولت أعماله أيضاً، أعمالاً دنيوية تتفق ومصالح المسلمين العامة، حتى أصبحت الحسبة أشبه بخدمة اجتماعية اقتصادية لسكان المدن مثل: المحافظة على المواطنين وسلامتهم، كمنع الحمالين، وأصحاب السفن من المبالغة في الحمل، أو شحن السفن، والحكم على أهل المباني الآيلة للسقوط بهدمها وإزالتها، وإزالة بروز مصاطب الحوانيت في الأسواق، وإماطة الأذى عن الطريق، وأمر السقائين بلبس السراويل القصيرة الساترة لعوراتهم، وتغطية القرب (جمع قربه للشرب)، ومنع معلمي الأطفال من ضربهم ضرباً مبرحاً، ومنع معلمي السباحة من التغرير (الضحك عليهم وترغيبهم) بالصغار([3]).

وكان عمل المحتسب الأساسي الإشراف على الأسواق، والنظر في الموازين والمكاييل، وصحتها، ونسبتها، ومراقبة الأسعار، ومنع الاحتكار، والإشراف على دور الضرب، والعيار ،ومراعاة إثبات اسم الخليفة على السكة والطراز([4])، كما كان يشرف على السلع المعروضة في الأسواق، ويراقب طوائف أصحاب الحرف على اختلافهم، كالأساكفة، وبائعي الحرير والفراء، وياطين والصباغين، والحاكة(الخياطون)، والخبازين، وصانعي الحلوى والشوائين، والصيادلة، والأطباء، والصيارف، والصياغ، وغيرهم ممن كانت تعج بهم أسواق المدن الإسلامية([5])، ويفرض حسبته على الجميع([6]).

وللمحتسب نواب في سائر المدن، والأقاليم التابعة له يتولون أعمال الحسبة فيها([7])، ويستعين في تصريف أعماله بمعاونين له([8])، كان يختارهم من بين أصحاب الحرف المختلفة ليشرف كل منهم على أحوال طائفته، ويطلع على أخبارهم، وحيلهم حتى يتسنى له مراقبتهم([9]).

---

(1) الشيزري، نهاية الرتبة، ص6-11.

(2) ابن الأخوة، معالم القربة، ص28. المقريزي، إغاثة الأمة، ص19.

(3) النبراوي، النظم الإسلامية ص131، 132. أنوري، اصطلاحات ديواني، ص226-227.

(4) الشيزري، نهاية الرتبة، ص108. ناصر خسرو، سفر نامة، ص61.

(5) الشيزري، نهاية الرتبة، ص108. عبد الرازق، الحضارة، ص115.

(6) سياسة نامه، ص80.

(7) نظام الملك، سياسة نامه، ص80.

(8) ابن الأخوة، معالم القربة، ص12-24. الشيزري، نهاية الرتبة، ص12-16.

(9) الشيزري، نهاية الرتبة، ص13-27.

وكان للمحتسب سلطة تنفيذية إلى جانب رأيه، وهو ما عرف بالتعزير، كالردع بالقضاء على شيء محرم، والتوبيخ بالقول، أو الضرب بالسوط أو الدرة، والتشهير، أو التجريس بأن يلبس المشهر به طرطوراً منقوشاً بالخرق الملونة، ومكللاً بالأجراس ليطاف في الشوارع([1]).

وقد عرف المحتسب في كل دول العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وبطبيعة الحال وجدت في الدولة النورية، وقد اهتم نور الدين اهتماماً كبيراً بالحسبة، ومتوليها المحتسب، ودقق في اختياره وأسند إليه أعماله، فقد نبه العماد الأصفهاني المعاصر لنور الدين إلى أهمية المحتسب، وشروط من يتولى الحسبة، وواجباته من خلال رسالة إنشائية كتبها لواحد من المحتسبين([2]).

11- ناظر النظار:

وقد ظهر هذا المنصب في مصر، ويبدو أن صلاح الدين هو الذي أوجده بعد تسلمه الوزارة من الفاطميين، وممن تولى هذا المنصب: القاضي أبو المكرم أسعد بن طير مهذب بن مينا بن مماتي المصري الكاتب([3])، خاف من ابن شكر([4])، فسار إلى حلب، ولاذ بملكها إلى أن توفي سنة ست وست مئة في جمادى الأولى.

12- الأسكدار([5]):

من أعوان صاحب البريد، ويشبه في عمله ساعي البريد في عصرنا الحالي، وكانت الرسائل ترسل بوساطة هؤلاء الأسكدارية إلى كافة الولايات([6])، وهو نفسه (الفرانق) من الفارسية بروانه أي: الخادم، أي: حامل الرسائل([7])، وكانت الرسائل السرية تدون بنوع من الشفرة يدعى (المعما)([8]).

13- أطباء الخاصة:

---

(1)الشيزري، نهاية الرتبة ، ص14-56.

(2) البرق الشامي ج، 5 ص، 136-138.

(3) ويعرف بابن مماتي، مؤلف كتاب قوانين الدواوين، و مصنفات عدة ونظم رائق فنظم كليلة ودمنة ونظم سيرة صلاح الدين. الذهبي، سير، ج21، ص485.

(4) الوزير الكبير صفي الدين عبد الله بن على بن حسين الشيبي الدميري المالكي ولد سنة ثمان وأربعين وتفقه وسمع بالثغر يسيرا من السلفي وابن عوف وجماعة وتفقه بمخلوف بن جارة روى عنه المنذري والقوصي وأثنيا عليه بالبر والإيثار والتفقد للعلماء والصلحاء أنشأ بالقاهرة مدرسة ووزر وعظم ثم غضب عليه العادل ونفاه فبقي بآمد فلما توفي العادل أقدمه الكامل وولاه الوزارة، توفي في 622هـ. انظر: الذهبي، سير، ج22، ص294.

(5) الأسكدار: جمعها أسكدارية بمعنى ساعي البريد أو حامل الرسائل الذي يغير دابته كل منزل ليركب دابة أخرى مستريحة، ويتمنطق بحزام حتى لا يتعب، وهو من الفارسية (أزكوداري) أي من أين لك هذا؟ انظر: البهيقي، تاريخ، ص799. والخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص264 الذي يورد معنى آخر للاسكدار، فهو مدرج يكتب فيه جوامع الكتب المنفذة للختم من ديوان الرسائل ص274. بارتولد، التركستان، ص359. أنوري، اصطلاحات، ص186-194.

(6) الراوندي، راحة الصدور، ص170. أنوري، اصطلاحات، ص191.

(7) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص64. بارتولد، التركستان، ص359.

(8) الكرديزي، زين الأخبار، ص13. العوفي، لباب الألباب، ص92. بارتولد، التركستان، ص359.

وكانوا مختصين بالإشراف على صحة السلطان ورعايته، وامتد عملهم أيضاً إلى المقربين من السلطان(1). وكان أبو الفضل بن أبي الوقار(2) طبيباً " لنور الدين محمود بن زنكي، ويعتمد عليه في صناعة الطب، وكان لا يفارقه في السفر والحضر "(3)، كما أن الرحبي(4) من أبرز أطباء نور الدين محمود(5). وكذلك الحال بالنسبة لمهذب الدين بن النقاش(6).

14- أمير الحج:

اهتم نور الدين بإمارة الحج، وكان يختار لها من يصلح، ويقوم باستقبال ووداع أفواج الحجيج بنفسه، وكان أسد الدين شيركوه، ومجد الدين ابن الداية من أبرز أمراء الحج في الدولة النورية، وقد يصل عدد الحجيج إلى ألف حاج، تتكفل الدولة بكل ما كانوا يحتاجون إليه من الزاد، والكساد وتكاليف الرحلة الطويلة التي كانوا يقومون بها(7).

15- الخطيب: ينبغي اختبار الخطباء الذين يصلون بالناس في المساجد الجامعة، للتأكيد من تقواهم وحفظهم للقرآن الكريم، فالصلاة من الأمور الدقيقة، وصلاة الناس مرهونة بالإمام، فإذا ما اختلت صلاته، اختلت صلاتهم أيضاً([8]).

وكان عز الدين أبو البركات بن عبد([9])، والإمام عز الدين أبو القاسم على بن الحسن بن الماسح من أبرز خطباء المسجد الأموي الشافعية في الدولة النورية([1])، وكان " طيب أبو الحسين بن

---

(1) البيهقي، تاريخ، ص256.

(2) هو الشيخ الأجل العالم أبو الفضل إسماعيل بن أبي الوقار أصله من المعرة، وأقام بدمشق، وسافر إلى بغداد، وقرأ على أفاضل الأطباء من أهلها، واجتمع بجماعة من العلماء بها، وأخذ عنهم، ثم عاد إلى دمشق، وكان متميزاً في صناعة الطب علمها وعملها، كثير الخير، محمود الطريقة، حسن السيرة، وافر الذكاء. ابن أبى أصيبعة، عيون، 635.

(3) ابن أبى أصيبعة، عيون، 635.

(4) الرحبي: إمام الطب رضي الدين يوسف بن حيدرة بن حسن الرحبي الحكيم كان أبوه كحالا من أهل الرحبة، فولد له يوسف بالجزيرة العمرية، وأقام بنصيبين مدة، وبالرحبة، ثم قدما دمشق في سنة خمس وخمسين وخمس مئة، ثم أقبل يوسف على الدرس والنسخ ومعالجة المرضى ولازم المهذب ابن النقاش، وبرع فنوه المهذب باسمه، وحسن موقعه عند السلطان صلاح الدين، وقرر له ثلاثين ديناراً على القلعة، والبيمارستان، واستمرت عليه حتى نقصها المعظم، ولم يزل مبجلاً في الدولة، وكان رئيسا عالي الهمة، كثير التحقيق، فيه خير، وعدم شر، تصدر للإفادة، وخرج له عدة أطباء كبار، كان مولد الشيخ رضي الدين الرحبي في شهر جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة بجزيرة ابن عمر، وكان أول مرضه في يوم عيد الأضحى من سنة ثلاثين وستمائة ووفاته رحمه الله بكرة يوم الأحد العاشر من المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة بدمشق، ودفن بجبل قاسيون فعاش نحو المائة سنة ولم يتبين تغير شيء من سمعه ولا بصره. ابن أبى أصيبعة، عيون، 672- 676. الذهبي، سير ج: 22 ص: 371

(5) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص311.

(6) هو الشيخ الإمام العالم أبو الحسن على بن أبي عبد الله عيسى بن هبة الله النقاش مولده، ومنشؤه ببغداد، عالم بعلم العربية والأدب، وكان يتكلم الفارسي، واشتغل بصناعة الطب على الأجل أمين الدولة هبة الله بن صاعد بن التلميذ، ولازمه مدة واشتغل بعلم الحديث، سمع ببغداد من أبي القاسم عمر بن الحصين، وحدث عنه سمع منه القاضي عمر بن القرشي، وروى عنه حديثا في معجمه، كما كان بزازاً أديباً. ابن أبى أصيبعة، عيون، ص 635.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص316، 390.

(8) نظام الملك، سياسة نامة، ص80. بارتولد، التركستان، ص363. بانوري، اصطلاحات، ص242.

(9) الخضر بن شبل بن الحسن بن على بن عبد الواحد أبو البركات بن أبي طاهر الحارثي الدمشقي المعروف بابن عبد خطيب دمشق، كان فقيها متميزاً من الفقهاء الشافعية، كتب كثيراً في الفقه، والحديث، ودرس الفقه في جامع دمشق، وبالمدرسة المجاهدية وبزاوية الفقيه نصر المقدسي، ووقف عليه نور الدين محمود بن زنكي مدرسته التي داخل باب الفرج، ودرس بها، وتولى الخطابة بجامع دمشق، وكان متقناً في علوم شتى، كثير المحفوظ، توفي الفقيه أبو البركات رحمه الله في ليلة الأربعاء، ودفن صبيحتها ثاني

أبي الحديد (ت546هـ) خطيب دمشق، و كان خطيباً بليغاً عفيفاً، و لم يكن له من يقوم مقامه في منصبه سوى أبي الحسن الفضل ولد ولده، وهو حديث السن، فنصب مكانه، وخطب، وصلى بالناس، واستمر الأمر له، ومضى فيه"([2]). وذكر ابن العديم([3]) أن والده كان " قد ولي الخطابة بقلعة حلب في أيام نور الدين محمود بن زنكي، وخطب بالمسجد الجامع بحلب ".

16- عامل الخراج (البندار):

مهمته جمع الخراج من الولايات، ويساعده عدد من الموظفين يقوم كل منهم بجباية الخراج كل من ناحيته، وكان الخراج في بعض الجهات دفعة واحدة، وفي هذه الحالة يجبي الخراج في يوم النوروز، وهو أول أيام السنة الفارسية بعد حصد الزرع([4])، وأحياناُ يجبي على دفعتين كما هو الحال في كثير من الولايات الإسلامية([5]).

رابعاً: الشروط الواجب توافرها في الموظفين الإداريين في عهد نور الدين محمود:

تميزت القيادات السياسية، والإدارية، والعسكرية في دولة نور الدين على العموم بالتزامها العقائدي في نشاطاتها وممارساتها، ويعود ذلك إلى تربيتها الإسلامية، وإلى شخصية نور الدين التقي الورع، وكان لذلك تأثيرٌ كبيرٌ على رجاله، ومعاونيه، وقادة جيشه، وأصبح بعضهم على مستوى نور الدين في العلم والأخلاق والتدين؛ ومن أمثلة ذلك: وزيره أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، الذي قدم من بغداد إلى دمشق، فقد كان فقيهاً أصولياً "، وكان أديباً شاعراً، وخبيراً بالسياسة وتدبير الملك "([6])؛ شغل مناصب مختلفة، كالسفارة، والوزارة، وناظر الأوقاف، وناظر المالية، والقضاء، واستمر على ذلك حتى تولى صلاح الدين السلطنة(7). ولم تكن هذه الشخصيات إلا نماذج لرجال الإدارة والحكم زمن نور الدين.

فقد أظهر هذا الرعيل المهارات في التخطيط، والتنفيذ، وحشد مقدرات الأمة، وتنظيمها، مما هيأها لمجابهة التحديات في الداخل والخارج(8) . ومن أمثلة هذه المهارات والمزايا ما يلي :

1- التكامل الفكري والسياسي:

عشر ذي القعدة سنة اثنتين وستين، ودفن بمقبرة باب الفراديس. حضرت دفنه والصلاة عليه، وحضره خلق عظيم من الأعيان والعوام، وكان رحمه الله متحرياً في فتاويه، وشهاداته، وولى بآخره الخطابة، فكان رحمه الله لتفننه وكثرة محفوظه لا يعتمد على إيراد المعهود عند الناس، بل يأتي من كل شيء بطرف، فحصل من السامعين النكرة له، ولم يكن ذلك بالعائب له ولا الناقص من منزله. انظر: ابن العديم، بغية الطلب، ج، 7 ص، 3312- 3316.

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص73.

(2) ابن القلانسي، ذيل، المصدر نفسه، ج1، ص272.

(3) بغية الطلب، ج،3 ص 1211.

(4) Krmcl: The Onent Under Caliphatc, London, (1949);P.297. . أنوري، اصطلاحات، ص97.

(5) ابن حوقل، صورة الأرض، ص356.

(6) الذهبي، سير، ج21، ص58

(7)الذهبي، سير، ج21، ص58.

(8) الكواكب الدرية ص 38.

فقد أدركت هذه القيادات خطورة الارتجال، أو انفراد فريق من القيادات دون الآخر، واعتمدت في القرارات التي تتخذها على آراء العلماء والمختصين، فكان لدى نور الدين مجلس دوري يلتقي فيه القادة، والعسكريين من العلماء المختصين، حيث يحتل العلماء المنزلة الأولى فيه([1]).

وقد كان الاختيار يقع على من كان منهم من " ذوي الهمم العلية، و الآراء الصائبة، والأنفس الأبية "([2])، وكان نور الدين يمنع الأمراء من اغتياب العلماء، والتشديد على احترامهم، وتقديرهم([3]).

2- اعتماد الشورى وعدم الانفراد باتخاذ القرارات:

اهتم الملك العادل نور الدين محمود زنكي بالشورى، فقد رأى أهميتها في حيوية الأمة وأمنها واستقرارها، والأهم من ذلك كله أن الله عز وجل جعل فيها سورة من سور القرآن الكريم حملت اسمها، وهو مبدأ أرشد إليه القرآن الكريم، وهو يمثل أرقى أشكال التعاون، قال تعالى : " والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شُورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون "([4]) ، كما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه بشكل لا يقبل التأويل في قوله تعالى: " وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين "([5]) .

والشورى واجبة على الحاكم في الشريعة الإسلامية، وإلى هذا القول ذهب كثير من العلماء والفقهاء، فلا يحل للحاكم أن يتركها، وأن ينفرد برأيه دون مشورة المسلمين من أهل الشورى، كما لا يحل للأمة الإسلامية أن تسكت على ذلك، وأن تتركه ينفرد بالرأي دونها، ويستبد بالأمر دون أن يشركها فيه[(6)] ،

فالأمة لا تنهض إلا إذا أخذت بفقه النهوض، والذي منه ممارسة الشورى في نطاقها الواسع.

ولقد اعتمدها نور الدين محمود، ولم ينفرد باتخاذ القرارات، بل تبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب والصوفية، يبحث في أمور الإدارة، والنوازل والميزانية.

ولقد اتخذت الشورى في عهد نور الدين صوراً مختلفة، ومن هذه الصور:

أ- **الشورى في القضايا العامة :** وقد قدم لنا أبو شامة وثيقة مهمة عن أحد المحاضر التي دونت بصدد عدد من قضايا الوقف، والأملاك كانت قد أدخلت ضمن أوقاف الجامع الأموي بدمشق، وسعى

---

(1) المصدر نفسه، ص38. هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 264.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص163.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص47.

([4]) الشورى، آية : 38.

([7]) آل عمران، آية : 159.

(6) فقه النصر، ص 454.

نور الدين إلى فصلها، وإعادتها إلى قطاع المنافع العامة وبخاصة مسائل الدفاع والأمن، وقد تمثلت في تلك الوثيقة بوضوح الرغبة الجادة لدى نور الدين الأسلوب الشوري الحر باعتباره الطريق الذي لا طريق غيره للوصول إلى الحق ففي (19 صفر 554هـ) أحضر نور الدين أعيان دمشق من القضاة ومشايخ العلم والرؤساء [1]، وسألهم عن المضاف إلى أوقاف الجامع بدمشق من المصالح ليفصلوها منها، وقال لهم: " ليس العمل إلاّ ما تتفقون عليه وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون، ويتشاورون في مصالح المسلمين، وليس يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلاّ ويذكره، ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلاّ وينكره، والساكت منكم مصدّق للناطق ومصوبٌ له. فشكروه على ما قال ودعوا له، وفصلوا له المصالح من الوقف، فقال نور الدين : إن أهم المصالح سد ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق والفضيل، والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم، وأموالهم، ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار؟.

وقد عمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين، فأفتى شرف الدين المالكي بجواز ذلك، ومنهم من روّى في مهلة النظر، وقال الشيخ ابن عصرون الشافعي : لا يجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بد من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه من إليه الأمر من بيت مال المسلمين، فيصرفه في المصالح، ويكون القضاء واجباً من بيت المال، فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك، ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين : هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق، وعلى بناء (بعض) العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا ؟، وهل كان إلا مبلغاً للأمر في عمل ذلك ؟، فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا بإذني، وأنا أمرت به"[2].

ب- المجالس المتخصصة: كان مجلس نور الدين ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء، والفقهاء للبحث والنظر [3] ، ولم تكن المناظرات التي شهدتها مجالسه مضيعة للوقت، وتخريجاً نظرياً للفروع على الأصول وترفاً فكرياً، إنما كانت نشاطاً جاداً من أجل مجابهة المشاكل، والتجارب المتجددة المتغيرة؛ بالحلول المستمدة من شريعة الإسلام، وفقهما الواسع الكبير، ما دام الرجل يسعى إلى إعادة صياغة الحياة في ميادينها كافة، وعلى مدى مساحاتها بما ينسجم وعقيدة الإسلام، ورؤياه لموقع الإنسان في العالم، ومن ثم فإن ندوات كهذه أشبه بمجالس أو (لجان برلمانية) متخصصة تجتمع بين الحين والحين لحلّ مشكلة ما، أو استعداد تشريع أو إقرار قانون، ونحن نذكر هنا ذلك الاجتماع الموسّع الذي مّر

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص74.

(2)المصدر نفسه، ج1، ص75-77.

(3) ابن الأثير، الباهر ص 171 – 173.

ذكره مع حشد من العلماء، الذين اختيروا لكي يمثلوا المذاهب الفقهية كافة، من أجل النظر في عدد من قضايا الوقف، والمصالح العامة (1).

وقد شبه ابن الأثير(2) مجلسه بمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس حلم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم، ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا، وإلى روايته الأخرى التي يتحدث فيها عن قيام نور الدين باستحضار عدد من الفقهاء، واستفتائهم في أخذ ما يحلّ له من: الغنيمة، ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، فأخذ ما أفتوه بحلّة، ولم يتعّده إلى غيره البتة (3). فما يصدر عن ممثلي الشريعة الغراء يتوجب أن يكون ملزماً لكل إنسان سواء كان في القمة، أم في القاعدة، وقولهم: هو القول الفصل لأن نور الدين – وقد عرفنا مدى صدقه مع ربّه ومع نفسه ومع رعيته – ما كان يريد أن يمارس الاستشارات القانونية المزدوجة، يبرز للناس أنه لا يقدم على عمل إلاّ بعد الإطلاع على رأي قادة فكرهم، ومشرعي قوانينهم، ويسعى في الخفاء إلى تنفيذ ما كان قد اعتزمه مسبقاً مهما كانت درجة تناقضه مع طروحات اللجان الاستشارية، والتشريعية، والبرلمانية، التي ستكون بمثابة الرداء الخارجي الذي يحمي في داخله مضامين، وممارسات لا تمتد إلى لون الرداء ونسيجه في شيء(4)، وكان يكاتب العلماء للاستشارة.

فقد ذكر ابن الجوزي أن نور الدين كاتبه مراراً(5)، وكان نور الدين سأل العلماء، والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة، وكان يقول لمستشاريه من العلماء والفقهاء: " بالله انظروا أي شيء عملتموه من أبواب البر والخير دلّونا عليه، وأشركونا في الثواب، فقال له شرف الدين بن أبي عصرون: والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله، ولم يترك لأحد بعده فعل خير إلا وقد سبقة إليه" (6) .

فقد تميزت إدارة نور الدين بالشورى، وتبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب، والصوفية يبحث في أمور الإدارة، والميزانية، فإذا بحث أمراً يخص الأمة جميعها أو كان ذا علاقة بالأموال المرصودة لصالح المسلمين، جمع أعضاء هذا المجلس وشاورهم فيه، وسأل كل عضو ما عنده من الفقه، ولا يتعدى الرأي الذي يُتفق عليه[7]، ما دام يحقق المصلحة العامة وقد مّر بعض الممارسات الشورية في حديثنا عن الشورى في عهد نور الدين زنكي.

---

(1) نورالدين محمود ص 133.

(2) الباهر ص 173.

(3) المصدر نفسه، ص 164.

(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 134.

(5) ابن الجوزي، المنتظم ، ج10، ص249.

(6) أبو شامة، عيون الروضتين ، ج1، ص374.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص34، 42،62، 73–74. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ج8، ص247.

3- تغليب المصلحة العامة على الانفعالات والمصالح الشخصية في معالجة المشكلات التي قد تثور بين الأقران.

فقد كان من الطبيعي أن تقوم مشكلات وخلافات بين نور الدين – مثلاً – ووزرائه وقادته، لكنهم كانوا يعالجون هذه المشكلات بأسلوب لم يخرج يوماً عن حدود المصلحة العامة، وما تقتضيه وحدة الكلمة وتغليب الأخلاق الإسلامية [1].

4- التفاني في أداء الواجب بتعاون وتآخٍ: ومن طريف ما لاحظه الدكتور حسين مؤنس[2]عند هذا الزعيم من القادة، والإداريين، والعلماء قوله: إن تعلقهم بالدين جعلهم يتخيرون أسماءهم على نحو يتفق مع هذه النزعة : فبينما كان البويهيون ينسبون أنفسهم للدولة فيقولون: عضد الدولة، بهاء الدولة، صمصام الدولة، كان قادة هذه الدولة، وأعوانهم، والعاملون معهم يختارون عماد الدين، وسيف الدين، ونور الدين، وصلاح الدين، وأسد الدين، ونجم الدين، وزين الدين وهكذا، وثمة ملاحظة أخرى وهي تعلق هذا الجيل بالدين جعلهم يحرصون على الجهاد والاستشهاد، فإذا لم يكتب لهم الاستشهاد أوصوا بدفنهم في مدافن المدينة المنورة، كما فعل الوزير جمال الدين الموصلي([3])، وأسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين والد صلاح الدين[4].

5- الزهد والتعفف وبذل المال في الصالح العام:

تجلت آثار التربية الإسلامية في مواقف رجال الدولة، والإدارة، والجيش من الثروات، والسياسة الاقتصادية، فقد زهدوا بالمكاسب، وعزفوا عن الاحتكار والترف. وحذا حذوهم الأغنياء في المدن والقرى، ومع ذلك شهدت دولته تقدماً اقتصادياً سيأتي بيانه بإذن الله، ومن ذلك أسد الدين شيركوه أكبر قادته العسكريين، فقد كان يملك أراضاً واسعةً، أنفق مواردها في بناء المدارس التي تنشر الفكر الإسلامي، وحين مات لم يخلف إلا دنانير قليلة[5]، وكذلك فعل وزير نور الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري الذي أوقف أوقافاً كثيرة منها: مدرسة الموصل، ومدرسة نصيبين، ورباطاً في المدنية المنورة، وأوقف أوقافاً في قرية "الهامة" على المقادسة الذين نزحوا من وجه الاحتلال الفرنجي، وكان كثير التبرع، والهبات ولا تقل هبته في المرة الواحدة عن ألف دينار فما فوقها [6]، وكذلك فعل عبد الله بن عصرون، حيث بنى مدرستين في دمشق وحلب ،وكذلك فعل نجم الدين يوسف والد صلاح الدين، حيث بنى خانقاه تُعرف بالنجمية[7]، وعلى هذا المنهاج سار بقية رجال

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص 266.

(2) نور الدين محمود ص 407، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 266.

(3) ابن جبير، تذكرة، ص100.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص249.

(5) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، ج1،ص34. مؤنس، نور الدين محمود، ص 391.

(6) السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص117 – 119.

(7) ابن خلكان، وفيات، ج1، ص257. الذهبي، سير، ج20، ص590.

الحكم والإدارة، وحذت حذوهم نساؤهم. من ذلك ما فعلته الست خاتون عصمت الدين زوجة نور الدين حيث أوقفت " اتونية " بمحلة حجر الذهب وخانقاه خاتون باب النصر، وأوقافاً كثيرة أخرى ومثلها زمرد خاتون بنت جاولي[1].

خامساً: اهتمام نور الدين محمود بشئون القضاء:

القضاء لغة، أحكام الشيء والفراغ منه، لقوله تعالى: " وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب"([2])، أي أخبرناهم بذلك وفرغنا لهم منه([3])، واصطلاحاً هو القطع لقوله تعالى: "فاقض ما أنت قاض"([4]).

وقد سمي القاضي بذلك لأنه يقطع الخصومة بين الخصمين بالحكم([5])، ومن هنا جاء تعريف ابن خلدون([6]) للقضاء بأنه: منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي، وقطعاً للتنازع، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاه من الكتاب والسنة، أي أن مهمة القاضي الأساسية كانت الفصل بين المتنازعين حسب الشريعة الإسلامية([7]).

والقضاء الإسلامي مؤسسة تطورت مع تطور المجتمع الإسلامي، وتأثرت بالحاجات التي نشأت نتيجة ظهور الدولة العربية الإسلامية وتوسعها وانقسامها، وتغلب الأعاجم عليها، ومع تطوره تعددت السلطات التي تمارسه، وكثرت نظريات الفقهاء التي تعالج طبيعته ومشاكله([8])، فالقضاء جزء مهم من ولاية الخليفة العامة على المسلمين له أن يمارسه بنفسه أو بواسطة نوابه طبقاً للشريعة الإسلامية([9]).

ويشترط فيمن يتولى القضاء شروط سبعة هي: الذكورة مع البلوغ، والإسلام، والعدالة، والحرية، والعلم بالأحكام الشرعية، وسلامة الحواس([10]) .

إن من أهداف الحكم الإسلامي الحرص على إقامة قواعد النظام الإسلامي التي تساهم في إقامة المجتمع المسلم، ومن أهم هذه القواعد العدل، قال تعالى: " إن الله يأمر بالعدل والإحسان "([11])، وقال تعالى : " إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل "([12])، وقال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص245، 317-318. الذهبي، سير، ج20، ص230.

(2) سورة الإسراء، آية 4.

(3) الباشا، الفنون الإسلامية، ج2، ص834.

(4) سورة طه، آية رقم 72.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص451. أحمد عبد الرازق، الحضارة، ص99-102.

(6) المقدمة، ص451.

(7) ابن تيمية، الحسبة، ص55-58. القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص23.

(8) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص66-77. ابن تيمية، الحسبة، ص49-68. ابن خلدون، المقدمة، ص451.

(9) خصباك، القضاء، ص81.

(10) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص65-76. أحمد الشامي، الحضارة، ص88.

([11]) سورة النحل : 90.

([12]) سورة النساء، آية : 58.

والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تَتَّبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً "(1) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشد الناس يوم القيامة عذاباً إمام جائر (2)، والعدل أساس الحكم (3)، وإقامته بين الناس في الدين الإسلامي تعدُّ من أقدس الواجبات، وأهمِّها، وقد اجتمعت الأمة على وجوب العدل(4)، ولقد كان نور الدين محمود زنكي قدوة في عدله، قدم في ذلك أروع الصور، فقد كانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس، و نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً كبيراً، حتى اقترن اسمه بالعدل، وسمي بالملك العادل(5)، ولعل من أسباب نصر الله لهذا الملك العادل على الباطنية والصليبيين، إقامته للعدل في الرعية، وإيصال الحقوق إلى أهلها، فالعدل في الرعية، وإنصاف المظلوم، يبعث في الأمة العزة والكرامة، ويولد جيلاً محارباً، وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها، رعية تحب حكامها وتطيعهم، لأنهم أقاموا العدل على أنفسهم، وأقاموا العدل على غيرهم، وأما الظلم فهو ظلمات في الدنيا والآخرة، وهو يؤذن بزوال الدول، وقد حرم الله الظلم على نفسه، فقد قال في الحديث القدسي : يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا (6). وقال تعالى: " احشروا الذين ظلموا وأزواجهم "([7]) وقال تعالى: " فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا "(8) .

وقد سجل التاريخ بأن نور الدين محمود ساد العدل في دولته(9)، وتم إيصال حقوق الناس إليهم، فنشطوا في الجهاد والدفاع عن دينهم وعقيدتهم، وأوطانهم وأعراضهم ومن أبرز أعماله الإصلاحية والتجديدية، إقامته للعدل في دولته (10)، وقد أولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماماً كبيراً، وجعلها في قمة أجهزته الإدارية، وخول القضاة على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية صلاحيات واسعة، إن لم نقل مطلقة، ومنحهم استقلالاً تاماً، لكونهم الأداة التنفيذية لاقرار مبادئ الحق والعدل، وتحويل قيم الشريعة، ومبادئها إلى واقع ملتزم، وتوجت جهوده بإنشاء دار العدل التي كانت بمثابة محكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين، وإرغامهم على سلوك المحجة البيضاء، أو

---

(1) سورة النساء : 135.

(2) الجامع الصغير للسيوطي رقم الحديث 1050 حديث حسن.

(3) معوقات الجهاد في العصر الحاضر (481/1).

(4) الصَّلابَّي، فقه التمكين، ص 455.

(5) الأصفهاني، البرق، ج5، ص78. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص31.

(6) المنذري، مختصر صحيح مسلم، رقم 1828.

([7]) سورة الصافات: 22.

(8) سورة النمل : 52 .

(9) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص32، 57. الذهبي، سير، ج20، ص532.

(10) أيعيد التاريخ نفسه ص 98.

طردهم واستبدالهم بغيرهم إن اقتضى الأمر(1). وكان شعاره ما أكده لأصحابه مراراً: حرام على كل من صحبني، ولا يرفع إلي قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إلي (2). ويحكي خادمه شاذبخت الطواشي الهندي – الذي كان أحد نوابه في حلب – هذه الحادثة ذات الدلالة الواضحة في هذا المجال : كنت يوماً أنا ورجل واقفين على رأس نور الدين، وقد صلى المغرب، وجلس وهو مفكر فكراً عظيماً، وجعل ينكش بإصبعه الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا : في أي شيء يفكر ؟ في عائلته، أو في وفاء دينه ؟، وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال ما تقولان ؟، فأجبناه بعد تردد فقال : والله إني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة ،فبالله عليكم ، وإلا فخبزي عليكم حرام – لا تريان قصة مظلوم لا ترفع إلي، أو تعلمان مظلمة، إلا وأعلماني بها وارفعاها إلي(3).

وقد وصف ابن الأثير(4) نور الدين بأنه: " كان يتحرى العدل، وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان القوي، والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم، ويتولى كشف ذلك بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها" .

وقد حظي القضاء برعاية نور الدين واهتمامه أكثر من أية وظيفة أخرى، ويرجع السبب في ذلك إلى تركيزه على إقرار العدل، وإشاعته في دولته، فقد كان يختار لهذه الوظيفة أشهر العلماء، والفقهاء المعروفين بالتقوى، والاستقامة، ويعطيهم كامل الصلاحيات في تنفيذ أعمالهم، وأحكامهم، فكان القضاء يتمتع باستقلال تام(5)، وكان هو أول من أنشأ محكمة عليا سمّاها دار العدل، للنظر في القضايا المتعلقة بكبار رجال الدولة، عندما لاحظ تهيب القاضي طلب بعضهم للمحاكمة، فكان يجلس فيها للقضاء، ومعه الفقهاء والعلماء والقاضي، ليستشيرهم فيما يعرض عليه من قضايا، ثم جعل من نفسه قدوة لرجال دولته، عندما ذهب إلى مجلس القضاء، وطلب من القاضي أن يساوي بينه وبين خصمه في المحاكمة(6)، فلم يجرؤ أحد بعد ذلك من الأمراء، والقادة، وكبار موظفي الدولة على مخالفة الشريعة، أو ظلم أحد من الرعية لأنه علم أن العقاب لا بد أن يقع عليه، وكان كمال الدين الشهرزوري أشهر القضاة في دولة نور الدين، الذي كان يجلُّه ويقدره، فجعله قاضياً للقضاة في الدولة كلها، بحيث يكون القضاة في الأقاليم نوّاباً عنه، وكلّفه بأعمال مهمة غير القضاء، كالإشراف على دار الضرب، وأوقاف الدولة، وبناء أسوار دمشق، ومدارسها، ومارستاناتها حتى وصفه العماد الأصفهاني

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 75.

(2) الأسدي، الكواكب، ص 25.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص59. الأسدي، الكواكب ص 25.

(4) الباهر ص 166.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص54.

(6) المصدر نفسه، ج1، ص39.

بأنه كان الحاكم المطلق في دمشق وأنه : ارتقى إلى درجة الوزارة، فكان له الحل، والعقد في أحكام الشام(1)، ومن القضاة الآخرين. الذين اشتهروا في دولة نور الدين شرف الدين أبي عصرون، الذي وصف بأنه من أفقه أهل عصره(2).

1- ثقافة القضاة ونزاهتهم: من خلال استعراض سيرة قضاة الدولة النورية، وغيرها من المدن التي وقعت تحت سيطرة، ونفوذ نور الدين نجد أنهم كانوا من الفقهاء، وأن أكثرهم عرف بسعة العلم([3])، ولم نعثر على قاضٍ واحدٍ عرف بالجهل.

ولقد دقق سلاطين السلاجقة في شروط اختيار قاضي القضاة، ومعاونيه من شهود، وكتاب، وحجاب، وأمناء، ووكلاء (المحامين)([4])، فكان يختارهم من أغزر الناس علماً، وأزهدهم نفساً ويداً، وأقلهم طمعاً، كما كانوا يعزلون من لم يكن كذلك، ويستبدلون به من كان خيراً منه([5])، يقول نظام الملك([6]): "ينبغي التعرف على أحوال قضاة المملكة واحداً واحداً، والإبقاء على العلماء والزهاد، والأمناء منهم، وعزل كل من لا يتصف بهذه الصفات، وتعيين آخر صالح مكانه، ويجب أن يكون للقاضي راتب شهري يكفيه أمور معاشه، حتى لا يكون في حاجة إلى الخيانة، لأن هذا العمل مهم ودقيق، لأن دماء المسلمين وأموالهم بيد القضاء".

2- مجالس القضاء: (المكان الذي كان يجري فيه القضاء):

كان المسجد الجامع المكان الذي يجري فيه القضاء منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم([7])، وكان القضاء يتم بعد ذلك في الجامع أو بيت القضاء، أو في أي مكان آخر يراه القاضي مناسباً لعمله([8]).

3- دار العدل أو المحكمة العليا:

كانت قمة إجراءات نور الدين القضائية إنشائه داراً في دمشق، لكشف المظالم سماها (دار العدل)، وكانت أشبه بمحكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين، ثم عممت صلاحياتها، فامتدت أقضيتها إلى سائر أبناء الأمة، وقد جاء إنشاؤها بسبب تزايد عدد الأمراء الكبار في دمشق، وتماديهم في اقتناء الأملاك، وتجاوز بعضهم حقوق البعض الآخر، فكثرت الشكوى إلى قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري، فأنصف بعضهم من بعض، لكنه لم يقدم على الإنصاف من بعض الأمراء الكبار

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص429. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص296. الذهبي، سير، ج20، ص139.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص429.

(3) خصباك، القضاء، ص96-97.

(4) المرجع نفسه، ص97.

(5) نظام الملك، سياسة نامة، ص77.

(6) المصدر نفسه، ص77.

(7) مصطفى مشرفة، القضاء في الإسلام، ص25-26.

(8) جعفر خصباك، القضاء، ص103. أحمد الشامي، الحضارة، ص88-89.

أصحاب المكانة العالية في الدولة النورية مثل: أسد الدين شيركوه، فأنهى الحال إلى نور الدين، فأصدر أمره حينئذ ببناء دار العدل (1). يقول ابن الأثير: " فلما سمع شيركوه ذلك أحضر نوابه جميعهم، وقال لهم : اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين ؟ والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك، فافصلوا الحال معه، وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى على جميع ما بيدي، فقالوا له : إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب. فقال: خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة (أي القضاء)؛ فخرج أصحابه من عنده، وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم، وأشهدوا عليهم، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات، فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين، فعرفه الحال فقال: الحمد لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا"(2). وثبت لنور الدين أهمية هذه الدار، فعممها في غير دمشق (3)، وكان نور الدين يجلس في دار العدل مرتين في الأسبوع، وقيل أربع مرات، أو خمس للنظر في أمور الرعية، وكشف ظلاماتهم، لا يطلب بذلك درهماً ولا ديناراً، ولا زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله(4). وكان يحضر معه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري، وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب لاعتمادهم كمجلس استشاري لاتخاذ القرارات النهائية، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والقوى والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن الكلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالمقال، ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها والمكالمة معه فتغلب خصمها طمعاً في عدله، ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحق عنده فيجري الله على لسانه ما هو موافق للشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة(5). ولم يميز نور الدين في دار العدل هذه بين أبناء رعيته على أي دين كانوا، فكان كما يقول ابن الأثير : ينصف المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده (6) ، وكان قبل إنشائه هذه الدار يجلس كل يوم ثلاثاء في المسجد المعلق بدمشق: ليصل إليه كل أحد من المسلمين، وأهل الذمة حتى نساؤهم(7)، الأمر الذي يفسر لنا ما

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص42.

(2) الباهر ص 168 نور الدين محمود، ص 76.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص57. المنهج المسلوك، ج1، ص566..

(4) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص62.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص62.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص57.

(7) الأسدي، الكواكب ص 25.

أورده الرحالة اليهودي بنيامين انطليطلي (1) من تواجد العدد الكبير من اليهود في دمشق وحلب، حيث بلغ في الأولى نحو ثلاثة آلاف، وكان لهم كنيس للعبادة مما يعنى كفالة الحرية الدينية لهم([2])، وفي حلب كان من اليهود ألفاً وخمسمائة(3)، ويعلل لنا أيضا مشاركة اليهود في مساعدة نور الدين في السيطرة على دمشق بعدما وصل إلى مسامعهم عدل نور الدين وسماحته([4]).

أما النصارى المتواجدون في دولة نور الدين فإنهم لم يمسوا بأذى – رغم ظروف الصراع الإسلامي الصليبي – وعوملوا كمواطنين لهم حق الرعاية الكاملة ولم يعرف عنه(5) أنه هدم في حياته كنيسة، ولا آذى قساً، أو راهباً، وقد كان الصليبيون إذا دخلوا بلداً قتلوا جلة أهله المسلمين، ولو أنه تأثر بذلك، وعاملهم بالمثل لقام له في ذلك عذر، ولكنه كان إنساناً عظيماً لا يقيس نفسه بأولئك الجفاة الذين أساؤوا حتى إلى نصارى البلاد، فظلت الكنائس في بلاده عامرة بأهلها، بل إن الصليبيين كانوا إذا خرجوا في بلد تنفس أنصاره الصعداء، وآمنوا إلى عدله وإنصافه(6).

4- نماذج من القضايا التي حدثت في نور الدين محمود:

طلب مرة من قبل أحد المدعين فما كان من أحد كبار موظفيه إلا أن دخل عليه ضاحكاً، وقال مستهزئاً: يقوم المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على الرجل سخريته ، وقال : تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم ؟، وأردف: يُحضر فرسي حتى نركب إليه: السمع والطاعة؛ قال الله تعالى : " إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا " ([7])، ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة، واستدعى أحد أصحابه وقال له: امضي إلى القاضي، وسلم عليه، وقل له: أني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع (8).

وقد كان يلعب الكرة يوماً – هوايته المفضلة – في دمشق، فرأى رجلاً من أتباعه يحدث آخر ويومئ بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فأعلمه أن له مع نور الدين خصومة حول بعض الأملاك، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة، فتردد الغلام في عرض الموضوع على نور الدين، ولكن هذا ألح عليه، فلما تبين له الأمر ألقى العصا من يده، وخرج من الميدان، وسار إلى القاضي كمال الدين، وقال له : إنني قد جئت محاكماً، فاسلك معي ما تسلكه مع غيري، فلما حضر

---

(1) رحلة، ص117.

(2) ابن عساكر، تاريخ، ج43، ص343. أبو شامة، الروضتين، ج1،ص73.

(3) بنيامين، رحلة، 122.

(4) ابن القلانسي، ذيل، ص327. أبو شامة، الروضتين، ج1،ص305. الذهبي، سير، ج20، ص408. الأسدي،الكواكب الدرية، ص145

(5) مؤنس، نور الدين، ص 78.

(6) المرجع نفسه، ص 367، 368.

([7]) سورة النور، آية 51 .

(8) ابن الأثير، الباهر ص 166 – 167.

المدعي ساوى كمال الدين بينه، وبين خصمه، وإذ لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا فقال : اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه، وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي، وإنما حضرت لئلا يظن أنني ظلمته، فحيثما ظهر أن الحق لي وهبته إياه (1) .

تلك غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان، وهي درجة وراء العدل، فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق، الواقفة معه كما علق ابن الأثير (2)، وفي عام 558هـ – 1162م، ادعى رجل على نور الدين أن أباه (زنكي) أخذ من ماله شيئاً بغير حق، وأنه يطالب بذلك. فقال نور الدين : أنا لا أعلم شيئاً عن ذلك، فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها وأنا أرد إليك ما يخصني، فإني ما ورثت جميع ماله فقد كان هناك ورثة غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة (3) .

ولم يكن نور الدين يصدر العقوبة على الظنة والتهمة، بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه البينة الشرعية عاقبة العقوبة العادلة من غير تعد، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة، والمبالغة في العقوبة، والأخذ بالظنة، وآمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل وإتباع الشرع المطهر(4) .

سادساً: الدواوين في عهد نور الدين محمود:

حرص الأتابكة على إدارة دواوينهم على خير وجه حتى أن الدواوين الإدارية في عهد عماد الدين زنكي بن آقسنقر، كانت تضاهي دواوين سلاطين السلاجقة، لكثرة أعمالها، وسيرها بسرعة ودقة([5])، فضلاً عن تنظيمها الإداري، فكانت الشكاوى ترفع أولاً إلى الديوان المختص، فإذا لم يحقق الديوان الشكوى، يرجع صاحبها إلى أمير حاجب، فإذا لم ينظر فيها، يرجع صاحب الشكوى([6]) إليه، ولضمان سير الدواوين الإدارية سيراً حسناً، أحسن عماد الدين زنكي اختيار موظفيها، وكان لا يرفع أحداً منهم فوق القدر الذي يستحقه، ولا يضعه دونه([7])، ويوسع عليهم في أرزاقهم، ولا يتغير على أحد منهم إلا بذنب عظيم يوجب التغيير([8]). ومن المرجح أن تلك الدواوين قد استمرت في عملها على أكمل وجه، ومن المؤكد أن ما كان سائداً منها في عهد والده عماد الدين قد استمر على نفس الوتيرة مع الأخذ بعين

---

(1)ابن الأثير، الباهر ص 166 – 167.

(2) المصدر نفسه، ص 167.

(3) أبو شامة، الروضتين ج1، ص63.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص40. عيون الروضتين ، ج1، ص364.

(5) ابن الأثير، الباهر، ص83.

(6) ابن الأثير، الباهر، ص83.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص106.

(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص158.

الاعتبار التطورات التي حدثت في عهد نور الدين، وما صاحب ذلك من ازدياد في رقعة الدولة، إضافة إلى ما تمتع به الوريث الجديد لعرش الدولة الزنكية من صفات تميزه عن سلفه.

1- ديوان الإنشاء:

ويسمى أيضاً بديوان الرسائل، ويعرف رئيسه بكاتب الرسائل أو كاتب الإنشاء([1])، وكان لنور الدين كاتب، ولنائبه كاتب، ويشترط في كاتب الرسائل أن يكون قد تمرس في الكتابة([2])، ويختص كاتب الرسائل بإذاعة المراسم، وتحرير الرسائل وختمها([3]). ومن أشهر من تولى هذا المنصب المهذب أبو محمد الحسن بن على بن الزبير الذي " تولى ديوان الإنشاء بالشام حتى عام 563هـ، وله مقاصد حسنة في الكتب، وهو حميد السيرة جميل السريرة، وقد قال: ووجدت على الأيام منه الإعزاز والتمكين " وذلك بعد أن استعفي أبو اليسر شاكر بن عبد الله من دمة في كتابة الإنشاء، وقعد في بيته "([4]). وكان العماد الكاتب الأصفهاني من أبرز من تولى كتابة الإنشاء([5]).

كما كان مهذب الدين بن النقاش، ممن تولى " كتابة الإنشاء وكتب كثيرا لنور الدين المراسلات والكتب إلى سائر النواحي وكان مكينا عنده "([6]).

2- ديوان البريد:

اعتمد نور الدين على البريد في إدارة شئون البلاد، فقد كان شديد العناية بأخبار الأطراف، وما يجري لأصحابها ، وينفق على ذلك أموالاً كثيرة، وكان يطالع ، ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ، ونهاره من حرب، وسلم ، وذلك عن طريق عيونه الذين كانوا يصلون إليه كل يوم([7]).

وقد كانت مهمة صاحب ديوان البريد، موافاة نور الدين بكافة الأخبار ، والحوادث التي تصل إليه من أعوانه المنتشرين في أنحاء الدولة .

ولم يأل نور الدين جهداً في سبيل تحسين أحوال البريد ، فاستخدم الحمام الزاجل في نقل البريد ، وقد عني عناية كبيرة بتربية هذا الطائر، وتدريبه، ويعد نور الدين هو أول من اتخذ هذا الأسلوب المهم ، والذي عده ابن الأثير([8]) " من ألطف الأفكار وأنفعها " . وفي ذلك يقول القلقشندي([9]): أن البلاد

---

(1) ابن الساعي، الجامع المختصر، (مقدمة المحقق: مصطفى جواد)

(2) القرماني، آثار الأول، ص29-78.

(3) ابن خلدون، العبر، ج1، ص246. القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص43-44.

(4) أبو شامة، الروضتين ج1، ص29.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص236. 338.

(6) ابن أبى أصيبعة، عيون، ص636.

(7) المصدر نفسه ، ج 2 ، ص236 ،338 .

(8) ابن الأثير ، الباهر،ص159 . وانظرالقلقشندي ، صبح ،ج14 ،ص390 . ابن إياس ، بدائع ،ج1 ،ص241 .

(9)القلقشندي ، صبح ،ج14 ، ص367 .

الشامية، والمصرية أخذوا الحمام الزاجل من الموصل، وأن أول ما نقله من الموصل من الملوك ، نور الدين محمود بن زنكي سنة (567هـ= 1171م)، وكانت تصل نور الدين عن طريق الحمام الزاجل أخبار البلاد البعيدة ، فيقف على ما يجري في مملكته الواسعة ، كما استعان به في نقل رسائله أثناء حروبه ([1])، وأمر نور الدين ببناء الأبراج للحمام الهوادي، وكانت هذه الأبراج أشبه بالمغاور الحدودية، فيها حامية من الجند المسلمين([2])، وكانت منتشرة في جميع أنحاء البلاد النورية([3]).

وترجع أهمية الحمام الزاجل إلى سرعته، فكان يطير لمدة ثلاث عشرة ساعة بدون انقطاع بسرعة كيلو متر في الدقيقة، وينقل الرسائل ، ويعود إلى وطنه مهما بعدت المسافة([4]) .

وقد رأى نور الدين اتخاذ الحمام المناسيب([5])، وتدريجها على الطيران، لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان([6])، فـ" هي تطوي الفراسخ البعيدة، والأشواط في ساعة، وتنتهي إلى أقصى غايات الطاعة بأتم استطاعة، وقد عم بها نفع المرابطين للغزات، والمجاهدين في سبيل الله، في إهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها، دالة على مكايدها ومكامنها، طائرة يكتبهم إلى من وراءهم من الطلائع والسرايا، مظهره لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا، وإنها لميمونة المطار، مأمونة العثار، سالمة من الأخطار، مهدية في الأسفار أمينة في الأسرار، سابقة إلى الأوكار"([7]). وكان للبريد دور مهم في نجاح نور الدين في تشديد سيطرته على مختلف الأقاليم الواقعة تحت سيطرته، وأصبح أسلوب نور الدين البريدي من الأساليب المستحدثة التي لم يعهدها المسلمون من قبل، لربط البلاد بشبكة اتصالات تضمن سرعة وصول كافة التعليمات، والأوامر الإدارية بسرعة، إضافة إلى إبلاغ المسئولين بتطورات الأقاليم([8]). وطالت أبراج الحمام مملكته، فكانت من حد النوبة إلى باب همذان لا يتخلّلها إلا بلاد الفرنج، وكان الفرنج الصليبيين ربما نازلوا بعض الثغور فإلى أن يصله بر ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض، فحينئذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر البلاد وأجرى الجرايات لها ولمربيّها، فوجد بها راحة كثيرة، فقد كانت الأخبار تأتيه لوقتها، فإنه كان له في كل ثغر رجال، مرتبون، ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأو أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته، وعلقوه على الطائر وسّرحوه، فيصل إلى المدينة

---

(1)القلقشندي ، صبح ،ج14 ، 389. وانظر أيضاً : عوض ، السياسة ، ص39 .

(2)ابن الأثير ، الباهر،ص 159 . الكامل ،ج11،ص375. أبو شامة، الروضتين ،ج1، ص21–22 . الأسدي ، الكواكب ،ص38.

(3)القلقشندي ، صبح ،ج14 ، ص389 . وانظر: عوض ، السياسة ،ص39 .

(4) الموسوعة العربية الميسرة ، ص725 . Ecyc. Of Islam: Art Hamam.

(5) الحمام المناسيب: المنسوب، القلقشندي، صبح، ج2، ص90 بان المسلمين كان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب.

(6) الأصفهاني، البرق، ج1، ص119.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص521.

(8) ابن الأثير، ابن الأثير ، الباهر، 159. الكامل، ج11، ص375. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص21–22. الأسدي، الكواكب، ص38. ابن العماد، شذرات، ج4، ص220. الغزي، نهر، ج3، ص97. على، خطط، ج2، ص45–66. الحويري، الأوضاع، ص163. عوض، السياسة، ص211. السرطاوي، نور الدين، ص82.

التي هو منها في ساعته، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، فانحفظت الثغور بذلك [1].

3-ديوان الضرب:

وهو ديوان اختص بسك العملة وضرب النقود، فقد استخدمت الدولة النورية عملات ذهبية وفضية ونحاسية، وأشرف هذا الديوان على مراكز سك العملة التي تمثلت في حلب، ودمشق([2]).

وسنفصل الحديث عن النقود في الفصل الرابع.

4- ديوان الإشراف:

ويعد عمله مكملاً لعمل المستوفي، ومهمته تدقيق الحسابات والموازنة بين الصادرات والواردات لخزينة الدولة([3]).

وقد كان أبو الفتح الفارسي([4]) من أبرز من تولى هذا المنصب، وكان يكتب له بالعربي والعجمي، وتولى ديوان الأشراف بحماة([5]).

---

(1) عبد القادر أحمد ،دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص 202.

(2) عوض، السياسة ، ص39-40.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص318، 238.

(4) هو دارا بن منصور بن دارا بن العلاء بن أحمد ابن على بن عبد الرحمن بن على بن عيسى بن يزدجرد بن شهريار ورد دمشق في صحبة نور الدين رحمه الله وكان يكتب له بالعربي والعجمي وتولى ديوان الأشراف بحماة وأقام مدة بحمص مرابطا لحصن الأكراد وكان جده دارا كاتبا للسلطان أبي الفتح ملك شاه

(5) ابن عساكر، تاريخ، 17، ص78.

الفصل الثالث

((الجيش النوري ونظمه العسكرية))

أولا: عناصر الجيش وحجمه:

أولى نور الدين عناية فائقة بالجيش، وجعل الجانب العسكري في دولته من الجوانب الرئيسة؛ نظراً لما للجيش من أهمية في حماية الدولة، ولم يشاهد أحسن من عسكره، وهيئته وعدته، ووفور عدته"([1]).

وقد تلقى جيش نور الدين دعمه البشري من العديد من المناطق التي خضعت لسلطان الدولة النورية، ومنها: المناطق الجزرية، والشامية، وتكون من أجناس وأعراق مختلفة، حيث انتظمت في الجيش النوري.

وقد شكل التركمان العنصر الأساسي في الجيش بصفة عامة([2])، ويسمون بالخيالة([3])، وكان فرسان الجيش النوري من التركمان، وخاصة من أمرائهم(4)، وقد ساهموا بنصيب وافر في الجيش النوري([5])، وكانت أعدادهم تتفوق على ما سواهم من الأجناس، وقد تصل أعدادهم إلى العشرة آلاف([6])، أو الستة آلاف([7])، أو الأربعة آلاف فارس(8)، وعرفوا بمهارتهم العسكرية الفائقة، وببراعتهم الحربية، وكان لهم قدرة كبيرة في رمي السهام، و إحكام تصويبها نحو الهدف([9])، وكان من أهم أسلحة الفرسان: السيوف، والرماح، والحراب، وكانوا يلبسون الدروع، ويركبون الخيل السريعة

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص181.

(2) الأصفهاني، البرق، ج3، ص166،72، ج5، ص114، 147. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص152، 184، 260، 376 ج2، ص47.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص188، 305.

(4) ابن القلانسي، ذيل، ص304. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص188، 233، 265، 341. ج2، ص376.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص188، 341.

(6) ابن القلانسي، ذيل، ص 88. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 175.

(7) ابن القلانسي، ذيل، ص304.

(8) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص265.

(9) يقول الجاحظ " والتركيُّ يرمي بعشرة أسهم قبل أن يفوق (يطلق) (غيره) سهماً واحداً ويركض دابته منحدراً من جبل أو مستلقياً إلى بطن واد بأكثر مما يمكن (غيره) على بسيط الأرض. وللتركيِّ أربعة أعين: عينان في وجهه وعينان في قفاه. الجاحظ: أبو عثمان بن بحر، "رسائل الجاحظ في مناقب الترك"، تحقيق عبد السلام هارون، انجي، القاهرة 1964م، ص70. وانظر: مردان، وجدي أنور، الجاحظ يكتب عن مناقب الترك ضمن موسوعة تركمان العراق، على الصفحة الالكترونية: http://www.alturkmani.com

المدربة الفارهة، والتي أجاد فرسان الدولة النورية قيادتها وركوبها([1])، وكانت لهم خبرة كبيرة بالحرب من فوق ظهر الجياد([2]).

وقد أسندت إليهم مهمات تشبه تلك المهمات التي تقوم بها القوات الخاصة في عصرنا الحالي، ومن هذه المهمات على سبيل المثال: تكليفهم بالقبض على كبار قادة الفرنجة الصليبيين.

فقد نجحت مجموعة من فرسان التركمان في عام 545هـ/1150م بالظفر بابن جوسلين حاكم عزاز من نواحي حلب([3])، وكان لذلك الحدث ردة فعل شعبية كبيرة بحيث " سر بهذا الفتح كافة الناس "([4]).

ولقد استفاد التركمان فوائد رئيسة من قدرتهم الفائقة على التحرك بسرعة:

أولاً: مكنتهم خفة الحركة من البقاء على بعد معين من عدوهم، واختيار لحظة يكونون فيها مستعدين للاشتباك معه([5])، وكان رماة السهام من الفرسان التركمان مهرة جداً في رميها، فلم يكن أسلوبهم هو الرمي المنفرد، وإنما الرمي الجماعي في صورة زخات على العدو، وجعلوا زخاتهم تنحصر في هدف واحد هو الفرس، ولذلك نجد أن أكبر خسائر أعدائهم كانت في الخيل([6]).

ثانياً: استعمل التركمان هذه المناورة كطعم لوضع العدو في كمين، وكانوا بارعين في حرب الكمائن([7])، فاستخدموا قوات قليلة العدد من الفرسان، لإغراء العدو على مهاجمتهم، والقضاء عليهم، وهو أسلوب يمكننا أن نطلق عليه (تحريض العدو على الهجوم)، وعندما كان يتحرك العدو لمهاجمتهم كانت هذه الجموع الصغيرة من فرسان السلاجقة، تقوم بإغراء واستدراج فرسان عدوهم لإيقاعهم في الكمين، حيث القوة الرئيسة للفرسان السلاجقة، التي تظل مختفية حتى اللحظة الحاسمة([8])، وهذا النوع من القتال نقصد به حرب الكمائن، لا يحقق نصراً كاملاً وحاسماً، ولا يعتمد عليه إلا إذا كانت طبيعة الأرض تسمح باختفاء القوة الرئيسة للكمين، كما لا يؤخذ بهذا الأسلوب القتالي إلا عند الحاجة،

---

(1) ابن القلانسي، ذيل، ص 299. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 343.

(2) الجاحظ، مناقب الترك، ص70. ابن القلانسي، ذيل، ص299.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 246. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص369–370. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص228. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص302. ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص24. ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص219. الأسدي، الكواكب الدرية، ص136.

(4) ابن القلانسي، ذيل، ص310.

(5) سميل، الحروب الصليبية، ص87.

(6) رمضان، العلاقات، ص87–94.

(7) ابن القلانسي، ذيل، ص312.

(8) رمضان، العلاقات، ص89.

للحصول على الأسرى، لاستيفاء المعلومات منهم، أو للعمل على إضعاف الروح الهجومية للعدو بكثرة بث هذا النوع من الكمائن([1]).

ثالثاً: استغل التركمان قدرتهم على التحرك كأسلوب مهاجمة جناحي العدو، ومؤخرته، فكانوا يطوقون عدوهم في أكثر من موضوع مثل: النحل، ويهاجمونه من كل جهة، ويحيطون به من جميع الجهات([2])، كالحزام أو مثل الكرة حول محورها([3])، و كما لو كانوا يحاصرون مدينة([4])، فإن لم يستطيعوا تطويق العدو وسعوا أجنحتهم إلى أقصى حد ممكن حتى يطوقوا عدوهم من الجانبين على الأقل([5])، وهذا النوع من التكتيكات يحتاج إلى تفوق عددي في بعض الأحيان، ولكن التركمان استخدموه تحت كل الظروف في حالة تفوقهم العددي على خصمهم، أو في حالة افتقادهم للقوة العددية([6]).

ولقد سبب هذا الأسلوب الكثير من الارتباك للأعداء الذين كان عليهم أن ينظروا دائماً إلى ما وراء أكتافهم([7]).

وهناك أسلوب آخر تميز به فرسان التركمان عن غيرهم وهو الرمي بالسهام، وكما سبق القول: لم يكن رميهم منفرداً، ولكن جماعياً على شكل زخات على خيول العدو([8])، كما استعملوا القوس ورموا وهم على السرج بمهارة عالية، فكان الفارس السلجوقي يستطيع الرمي بسهمه من فوق فرسه في أثناء عدوه، ولم تقتصر هذه المهارة على قدرته على إطلاق سهمه في أثناء تراجعه، ولكن كان بوسعه أن يدور على السرج، ويطلق السهام التي وصفها الكتاب اللاتين بالمطر، والعاصفة، والبرد، والغيوم أو العاصفة المطيرة([9])، وهذا يقف دليلاً على أن الرمي لم يكن منفرداً ولكن جماعياً.

كما كان باستطاعتهم في حالة الارتداد أن يتحولوا فوق سروجهم دون أن يتوقفوا، ويترجلوا ويصوبوا سهامهم نحو مطارديهم، ويستهدف هذا الأسلوب القضاء على تماسك العدو([10])، وخاصة أن

---

(1) ابن القلانسي، ذيل، ص312. رمضان، العلاقات، ص89.

(2) سميل، الحروب الصليبية، ص78.

(3) المرجع نفسه، ص78.

(4) الصوري، الحروب الصليبية، ج3، ص323. مجهول، أعمال الفرنجة، ص49-50.

(5) سميل، الحروب الصليبية، ص79.

(6) أحمد رمضان، الحروب الصليبية، ص89.

(7) سميل، الحروب الصليبية، ص79.

(8) أحمد رمضان، العلاقات، ص87-94.

(9) وليم الصوري، الحروب الصليبية، أجزاء 2، 3، 4. سميل، الحروب الصليبية، ص79.

(10) رمضان، العلاقات، ص90-92.

رميهم بالسهام كان يستهدف الخيل التي قتل العديد منها نتيجة السهام التركية، وكثيراً ما أصيب الأعداء بضعف خطير بسبب فقدان الخيول([1]).

كما شكل العرب والأتراك، عنصراً مهماً في الجيش النوري([2])، وانضمت إليهم مجموعات من المقاومة الشعبية كالأحداث، والمتطوعين، والفلاحين، والصوفية، والفقهاء([3]).

وقد لعبوا دوراً مهماً في مختلف المعارك التي خاضها نور الدين في صراعه مع الفرنجة الصليبيين، وغيرهم([4]).

وقد كانت أعدادهم كبيرة تصل إلى عدة آلاف([5])، وكانت أسلحتهم متنوعة تشمل: السيوف، والحراب والسهام، والنشاب، ونبل الجرخ، وكانوا يلبسون الدروع([6])، ويضعون فوق رؤوسهم الخوذ([7])، ويحملون في أثناء الحرب كنائن النبل([8])، كما كانوا يحملون التاجيخ، وهي الحربة القصيرة، أو المهماز([9])، ولهم جعبة يضعون فيها سهامهم وأقواسهم([10]) تسمى تركش([11])، وكانوا يحملون الرمح([12])، وقد يلجأون إلى رشق الحجارة، وخاصة إذا كانوا من المتطوعين الذين لا يملكون الأسلحة، ويعتمدون في تكتيكاتهم العسكرية على الحرب الخاطفة، والمطاردة، والمناوشة، وحرب العصابات، والشوارع بين الأشجار والبساتين([13]).

ثانياً: تنظيمات الجيش:

1- الفرسان (الأمراء):

---

(1) مجهول، أعمال الفرنجة، ص87-89.

(2)أبو شامة، الروضتين، ج1، ص188، 305. مصطفى، دخول الأتراك الغز الشام، ص320-322.

(3) ابن القلانسي، ذيل، ص304-305،340. ابن العديم، بغية الطلب،ج10، ص4419. أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص304،329،204، 341، ج2، ص243. ج3، ص171.

(4) ابن القلانسي، ذيل، ص304. 314. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص188.

(5)أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 299. البنداري، آل سلجوق، ص16-17.

(6) ابن القلانسي، ذيل، ص 299. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص188، ج2، ص26.

(7) الخوذ: ما يوضع الرأس، وتصنع من حديد أو غيره، الشامي، الحضارة، ص99، 101.

(8) كنائن النبل: جمع كنانة وهي الجراب الذي يوضع فيه السهام، لسان العرب، ج5، ص4943.

(9) أنوري، اصطلاحات ديواني، ص144.

(10) أنوري، نفسه، ص143-145. الجنابي، الجيش والشرطة، ص348.

(11) ابن منقذ، الاعتبار، ص275.

(12) سميل، الحروب الصليبية، ص78، الشامي، الحضارة، ص99.

(13) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص188.

يؤلف الفرسان العنصر الأساسي في الجيش بصفة عامة([1])، ويسمون بالخيالة([2])، وكان فرسان الجيش النوري من التركمان، وخاصة من أمرائهم(3) كما أسلفنا.

وقد سار الجيش النوري على احترام فرسانهم إلى حد كبير، فهم عماد الجيش، وبهم فتح السلاطين العظام البلاد، وكانت قوتهم واتساع دولتهم مرهون بهم وبمهارتهم القتالية، فلم يكن للجند النوري حق الإفصاح عن مطالبهم إلا عن طريق مقدميهم(الفرسان)، وإذا تجاوز أحدهم هذا التقليد، كان يلقى العقاب([4])، وكانت لهم القيادة في الجيش فعرفوا بالاسفهسالارية([5])، أي قواد الجيش([6]). وبما أن كل جيوش العصور الوسطى كانت تعتمد على الفرسان، لكن الفرسان التركمان تميزوا عن غيرهم بالسرعة، والمرونة في القتال، والمناورة، ويرجع السبب في خفة حركتهم هذه إلى سرعة خيولهم، ورشاقتها([7])، وخفة أسلحتهم، إذ كان سلاحهم الرئيسي القوس، كما كانوا يحملون السيف، والترس، والرمح، والهرواة([8])، وهناك أدلة على أن الرمح، والترس لدى التركمان كانا أخف منهما لدى الفرنجة الصليبيين، ولم يكن ترس التركمان شبيهاً بترس الصليبيين، الذي كان قريباً من شكل الطائرة الورقية الطويلة، بل كان ترساً مستديراً صغيراً، وخفيف الوزن([9]).

لقد كان فرسان التركمان بمساعدة خيولهم السريعة، وأسلحتهم الخفيفة أقدر على التحرك([10])، حيث جاءت خفة الحركة هذه من تفوق عنصر الفرسان على عنصر المشاة، فضلاً عن أن تسريع الفارس التركماني من قدرته على إصابة الهدف بدقة في أثناء امتطائه حصانه وهو يعدو به عدواً سريعاً، وكذا سرعة عدو الحصان نفسه على مدى الرمي، تشكل قدرة فائقة على إحداث خسائر كبيرة في الخصم، وفي ذات الوقت سرعة اقتراب كبيرة في المنطقة حتى الوصول إلى خط الأمام للعدو، وتغيير أداة الفارس من القوس إلى أداة الجسم وهي: السيف([11]).

2-المشاة (الرجالة):

---

(1) الأصفهاني، البرق، ج3، ص72،166، ج5، ص114، 147. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص152، 184، 260، 376 ج2، ص47.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص188، 305.

(3) ابن القلانسي، ذيل، ص304. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص188، 233، 265، 341. ج2، ص376.

(4) نظام الملك: سياسة نامة ص164. الجنابي، الجيش والشرطة، ج6، ص245.

(5) أنوري، اصطلاحات ديواني، ص132.

(6) البيهقي، تاريخ، ص270.أمين، تاريخ العراق، ص205. الباشا، الوظائف، ج2، ص589.

(7) مجهول، أعمال الفرنجة، ص 41، 42.

(8) سميل، الحروب الصليبية، ص77.

(9) المرجع السابق، ص78. رمضان، العلاقات، ص88.

(10) رنسيمان، تاريخ الحروب، ج1، ص156.

(11) رمضان، العلاقات، ص87-94.

وهم الرجالة من الجند الرماة، وقد اتخذوا من شتى العناصر التي كونت الجيش النوري([1])، واعتمدوا في تكتيكاتهم العسكرية كما ذكرنا على الحرب الخاطفة، والمطاردة والمناوشة، وضرب مؤخرة العدو، وعلى حرب العصابات، والشوارع بين الأشجار والبساتين([2]).

كما أنهم لعبوا دوراً مهماً، وأساسياً في الحصار، وتزويد الجيش بالمؤن والمعدات، والحرب في المناطق الوعرة، وأحياناً كانوا يندمجون مع الفرسان، فيرافق الفارس جندي من المشاة، وكانت أهميتهم في الجيش تأتي بعد الفرسان، والدليل على ذلك أن مشاة الجانب الخاسر في المعركة كان مصيرهم الذبح([3]).

3-النشابون (الرماة):

يطلق عليهم الرماة، لأنهم يرمون بالنشاب([4])، كما يتسلحون بكنائن النبل([5])، والفؤوس الصغيرة (البلطة)، ويستعان بهم في صد المغيرين، وفي الحصون والأبراج، وكسر أقفال الأبواب([6])، وقد وجدت فرقة في الجيش النوري يسمون النشابة([7]).

4-المنجنيقيون:

وهم رماة المنجنيق([8])، وكانوا يستخدمونها في تدمير القلاع، والأسوار، والحصون، والدفاع عن المدن، والقلاع ضد هجمات الأعداء([9]). وقد كان لهم دورٌ في حصار مدينة سنجار([10])، وفي ضرب قلعة الكرك خلال الهجوم الذي شنه جيش نور الدين، لإجبار الفرنج الصليبيين على مغادرة مصر بعد مهاجمتهم إياها، لتخفيف الحصار الذي فرضوه على صلاح الدين؛ حيث نصب عليها منجنيقين استمرت في ضرب القلعة مدة أربعة أيام([11]).

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص188، 305. رمضان، العلاقات، ص265، 299. مصطفى، دخول الأتراك، ص320-322،

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص188.

(3) سميل، الحروب الصليبية، ص81-86. أحمد رمضان، العلاقات، ص92.

(4) النشاب: ويعاونهم الطلائع وهي سرية من الفرسان يتقدمون الجيش عادة: للاستكشاف والاستطلاع، أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 188. ج2، ص186. متز، الحضارة، ج2، ص125.الشامي، الحضارة، ص99.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص208.

(6) المصدر نفسه، ج1، ص306. ثابت، الجندية في الدولة العباسية، (بغداد سنة 1931م)، ص151. الجنابي، الجيش، ص248.

(7) ابن القلانسي، ذيل، ص265.

(8) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 335.أنوري: اصطلاحاتي ديواني، ص144.

(9) الأصفهاني، البرق، ج3، ص151. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 188. ج2، ص 150، 186. إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج4، ص360. ثابت، الجندية، ص154. الجنابي، الجيش، ص250.

(10) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 166.

(11) المصدر نفسه، ج2، ص 150.

5-الجمارون:

وهم الذين يتولون أعمال التحصين، وبناء الأسوار، وقطع الصخور، وحفر الخنادق([1]).

6-النفاطون:

وهم الذين يرمون الأعداء بقوارير النفط، وتصنع من الزجاج، وهي تشبه القنابل الآن، وتستعمل لإحراق السفن والأسلحة، والأمتعة التي تصنع من الخشب، ويضرب أيضاً الجنود، وتجمعات العدو، وكانوا يلبسون ملابس خاصة غير قابلة للاحتراق، وهم مثل قاذفي القنابل حالياً([2]).

7-الزراقون:

ومفردها الزراق([3])، وهم طائفة من الجند، اختصت بقذف النار المشتعلة، أو النفط الملتهب، بواسطة أنابيب نحاسية، أو اسطوانية يحملها الجند، أو في السفن، عرفت عند العباسيين باسم الزراقات أو النفاطات([4]).

8-العرادون:

العرادة آلة حربية تشبه المنجنيق، ولكنها أصغر منه([5])، وتخصص هذه الطائفة من الجند لاستخدام نوع معين من الأسلحة الثقيلة عرفت باسم العرادة([6]).

9-رماة الجروخ:

يسمون أيضاً بالجرخية، وهم الذين يرمون السهام، والحجارة، والمواد الحارقة بواسطة آلة حربية ذات أقواس كبيرة تعرف بالجرخ([7]).

10-المنادي:

الذي ينفر في الجنود بالحرب([8]).

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج8، ص283. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص392.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 104، 120، 122، 123،125، 162،164. الشامي، الحضارة، ص100.

(3)أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 104، 120، 122، 123،125، 162،164. الشامي، الحضارة، ص100 .

(4) الجميلي، الموصل في العصر السلجوقي، ص261.

(5) الدي، النظم في العراق، ص293. الشامي، الحضارة، ص100. الجنابي، الجيش، ص252.

(6) حسن، تاريخ الإسلام، ج4، ص360.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج41، ص 164. ثابت، الجندية، ص154.

(8) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 176. 267. 306، 341، 417. ج2 ص 327،458.

11-اليزك:

الدليل، أو طليعة الجند، ومن يقتدي به، ويسير أمام الجند لاستطلاع أخبار العدو([1])، ويمكن تشبيهه بجنود الاستطلاع الآن.

12-حارس الجند:

وهم جنود يحيطون بالجيش من جوانبه لحراسته مثل الشرطة([2]).

13-الصياح:

الذي يصيح في الجند بمواعيد القتال([3]).

14-المعبئ:

الذي ينظم الجند في ديوان العرض، وفي الجرائد السلطانية([4]).

15- سرهنك:

مقدم الجيش أو العسكر([5])، وكان من أشهرهم في الدولة النورية: أسد الدين شيركوه([6])، وشمس ابن المقدم بن الداية([7])

16- سلاح دار:

متولي دار السلاح([8])، أو من يحمل سلاح السلطان، أو الأمير، ويقومون بحراسته، وللسلاحدارية أمير يعرف بأمير السلاح([9]).

ولقد نجح جوسلين في أسر " سلاح دار لنور الدين، وأخذ ما معه من السلاح، فأنفذه إلى السلطان مسعود بن قليج أرسلان السلجوقي صاحب قونية – كان نور الدين قد تزوج ابنته – و أرسل مع السلاح إليه يقول: قد أنفذت لك سلاح صهرك، و سيأتيك بعد هذا غيره، فعظمت هذه الحادثة على نور الدين"([10])، ويبدو أن هذا العمل الذي قام به جوسلين كان بمثابة إهانة كبيرة في حق نور الدين

---

(1) المصدر نفسه، ج2، ص398. ج3، ص 20.

(2) البيهقي، تاريخ، ص561. أنوري، اصطلاحات ديواني، ص127-128.

(3) أنوري، اصطلاحات ديواني، ص128.

(4) أنوري، اصطلاحات ديواني، ص129.

(5) البيهقي، تاريخ، ص561. أنوري، اصطلاحات ديواني، ص129.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 405.

(7) المصدر نفسه، ج2، ص318.

(8) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 246. أنوري، اصطلاحات ديواني، ص133.

(9) الباشا، الوظائف، ج2، ص596، 597.

(10) ابن العديم، زبدة، ص335. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 246.

أمام صهره، وكانت هذه الحادثة سبباً في رصد مكافاة مجزية لمجموعة من الجنود التركمان إذا ما استطاعوا الظفر بجوسلين، وقد نجحوا في ذلك([1]).

17- العارض:

مهمته عرض الجند للسلطان، ورئاسة ديوان عرض الجيش، وعليه ضبط نفقات الجيش ومرتباته، وتنظيم تغذيته، وتفقد مظهر المجندين، ورجال الجيش([2]). وكان من أبرزهم في دولة نور الدين المحسن بن الملحي([3]).

18- كردوس:

جالي السيف، وصاقله، وكان يصاحب الجيش في كل معركة([4]).

19-قاضي العسكر:

هو القاضي الذي يفصل بين الجند، ويتحدث في الأحكام في أثناء تنقلاتهم، وكان يتخذ له كاتب، ويكون له شهود عدول، ويكون له منزل بجوار خيام الجند، ويكون مستعداً للأحكام التي يكثر فعلها بين المعسكر مثل: الغنائم، والقسمة، والمبيعات، والديون المؤجلة، والرد بالعيب، والشركة، وما يحكم فيها بمغيب([5])، وكان يعين من قبل السلطان.

وقد جرت العادة أن يعين قضاة للعسكر حسب مذاهبهم الدينية([6]). وكان القاضي شمس الدين ابن الفراش([7]) قاضي عسكر الدولة النورية([8]).

---

(1) أبو شامة، الروضتين،ج1، ص 247.

(2) إقبال، الوزارة، ص57. أنوري، اصطلاحات ديواني، ص135.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص286.

(4) أنوري، اصطلاحات ديواني، ص137.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص206-207.

(6) الباشا، الوظائف والفنون، ج2، ص866.

(7) ابن الفراش: شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش من أهل دمشق قاضي العسكر وكانت وفاته بملطية وهو عائد من الرسالة إلى أولاد قليج أرسلان بالروم، وصفه العماد الأصفهاني بقوله: " كان هذا القاضي من أصدق الأصدقاء وأكرم الكرماء وما فارقني من أيام الملك العادل نور الدين رحمه الله في السراء والضراء وكنت بأحواله شديد الاعتناء وتوصلت له عند السلطان في تخصيصه بالمواصلة الموصلية والمراسلة في المهام فية والجلية ثم تولى نيابة عن السلطان في الولاية الشهرزورية والحكم على المقطعين بها وإنصاف الرعية فلما فوضت إلى مظفر الدين صاحب إربل رجع شمس الدين ودامت غيبته عن الحضرة مدة سبع سنين وكان تولى قضاء العسكر موضعه بهاء الدين بن شداد وكان خطب أولاد السلطان قليج أرسلان مهما عند السلطان فاعتمد على القاضي شمس الدين في الوصول إليهم والحكم بتإلىف ذات بينهم عليهم فمضى" توفي في 588هـ . انظر: أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 347-348.

(8) أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص307. ج3، ص335.

20- الفراشون:

الذين يقومون بفرش ونصب الخيام للجند([1]).

21- الفقهاء والوعاظ:

الذين لازموا الجيش، لشد أزره، وتحميسه على القتال، بل شاركوا في العمليات العسكرية ضمن مجموعات المقاومة الشعبية([2]).

22- الأطباء والممرضون:

الذين يقومون بمداواة الجرحى، ودفن الموتى([3]).

23- الخراسانيون:

واختصوا بنقب الأسوار، والعمل على إحداث الفتحات، ليتسنى للجنود الدخول إلى القلعة أو المدينة([4]).

وقد اشتهر الحلبيون بمعرفتهم بمواضع النقوب في الأسوار، لذلك كان يطلق عليهم النقابون([5])، والحجارون([6])، والجاندارية.

وقد شاركوا في جل الفتوحات التي كان يقوم بها نور الدين ومنها على سبيل المثال: فتح مدينة دمشق([7]). ومن ذلك ما حدث عام 552هـ/11 أيار 1158م، حين سقطت بانياس بيد قوات نور الدين.

فقد ذكر ابن القلانسي: أن النقابين انتهوا من حفر النقب، وحشوه، ثم أحرقوه، فسقط البرج فوق النقب، وهجم العساكر من الفجوة التي أحدثها الانهيار، فدخلوا المدينة، وقتلوا من وجدوه في طريقهم، ونهبوا ما وصلت إليه أيديهم[(8)]، وبذلك تم الفتح. أما عن تسجيل هؤلاء الجند والفرسان، فكان يسجل كل جندي من الجيش في الجريدة السلطانية([9])، وتعيين وظيفته وراتبه([10])، أما الجند النظاميين فكانوا

---

(1) ابن العديم، زبدة، ص221. أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص398. الراوندي، راحة الصدر، ص198.

(2) ابن القلانسي، ذيل، ص340. ابن العديم، بغية الطلب،ج10، ص4419. أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص341، ج2، ص243. ج3، ص171. الدي، النظم، ص293. الحنابلي، الجيش، ص256.

(3) وكانوا يحملون معهم ما يعرف بمستشفيات الميدان وهي أماكن تبعد عن مسرح القتال بمسافة معقولة لمعالجة الجرحى على محفات على محفات تحملها الإبل، الشامي، الحضارة، ص100.

(4) ابن القلانسي، ذيل، 279. ابن منقذ، الاعتبار، ص95، 200، 203. الأصفهاني، البرق، ج3، ص178. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص175، 342،

(5) ابن القلانسي، ذيل، 341،279. ابن الأثير، ج10، ص76. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص279، 305.

(6) الأصفهاني، البرق، ج3، ص178.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص305.

(8) ابن القلانسي، ذيل، ص341.

(9) أنوري، اصطلاحات ديواني، ص122.

(10) يطلق على الراتب العسكري (الأطماع) مفردها طمع وهو رزق الجند، وقيل أطماع الجند أوقات قبضها أيضاً، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة طمع، ج8، ص239. نظام الملك: سياسة نامة، ص139، هامش(1). أنوري، اصطلاحات، ص122.

يسجلون في دفاتر خاصة في ديوان عرف بديوان الجند، ويطلق عليه (الجرائد الديوانية)([1])، ويسمى هذا الديوان ديوان العرض، أو ديوان عرض الجيش([2])، ويختص بالشئون الآتية:

1- تنظيم سجلات بأسماء الجند الذين تتوفر فيهم شروط معينة، وهي: البلوغ، والحرية، والإسلام ،وسلامة الجسم من العاهات التي تمنعه من القتال([3]).

2- ترتيب أسماء الجند تبعاً لأجناسهم، وأوصافهم، وبلدانهم الأصلية، وكان الغرض من هذا الترتيب، معرفة أصل الجندي، وجنسيته، لأن ديوان العرض ضم أجناساً من العرب، والأكراد، والأتراك، والديلم، وغيرهم من الأجناس([4]).

3- تقدير العطاء لكل جندي، وذلك حسب كفاءته ومقدرته على القتال([5]).

ولقد أطاع الجند النوريين قوادهم، ومقدميهم، ونقباءهم، بل والسلطان نفسه طاعة لا مثيل لها، وخير دليل على ذلك هو حركة الفتح المستمرة، المتعاقبة التي قام بها هؤلاء الفرسان مع أسيادهم([6]).

---

(1) الرواندي، راحة الصدور، ص204.

(2) إقبال، الوزارة، ص57.

(3) الخالدي، النظم، ص155.

(4) مصطفى، دخول الأتراك، ص320، 323.

(5) أنوري، اصطلاحات، ص122.

(6) ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص119. ابن كثير، البداية، ج12، ص228، 234. أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص32، 57. الذهبي، سير، ج20، 532.

ثانيا: التعبئة وأساليب القتال:

دعا نور الدين منُذ بداية حكمه للجهاد في سبيل الله، وأعلن أن هدفه تحرير بلاد المسلمين، ومقدساتهم من الاحتلال الفرنجي، فما أن " استتب له الأمر ظهر منه بدل الاجتهاد في القيام بأمر الجهاد، والقمع لأهل الكفر والعناد "([1]).

وقد ظهر ذلك بصورة واضحة من خلال أن ابن عساكر جليس نور الدين ألف له كتاباً احتوى أربعين حديثاً عن فضائل الجهاد[2]، كما أن طاهر بن نصر الله بن جهبل المتوفى سنة 596هـ/1199م، ألف بدوره لنور الدين محمود زنكي كتاباً في فضل الجهاد[3]، ولشغف نور الدين نفسه بالجهاد وضع فيه كتاباً بقلمه[4]، وراسل باقي الحكام المسلمين في بلاد الشام، وشمال العراق([5])، ليساهموا معه في تحقيق هذا الهدف، وتعّززت دعوته هذه بما حققه من انتصارات على الفرنجة، وما عرف عنه من عدل وصدق وتقوى وزهد، فاكتسب مصداقية كبيرة، وتحققت له شعبية واسعة بين عامة المسلمين في بلاد الشام، والجزيرة بمختلف طبقاتهم واتجاهاتهم، وصار في أعينهم رائد الجهاد ضد الفرنجة، وأمل المسلمين في استعادة أرضهم، ومقدساتهم المحتلة([6])، واستقطبت دعوة الجهاد أعداداً كبيرة من المتطوعين، كان نور الدين يستفيد منهم في عملياته العسكرية([7])، وأوجدت رأيا عاماً قوياً، وضاغطاً على الحكام، والأمراء، ليستجيبوا لدعوة نور الدين، فمن يتخلف منهم عن تلبية الدعوة يتعرض للنقد حتى من رعيته، ويتهم بدينه ووطنيته، ويخشى خروج الحكم من يده، ونجح نور الدين في استثمار هذا الشعور إلى أبعد الحدود، فكان يخطط للمواجهة مع الفرنجة في الوقت والمكان المناسبين، ويطلب العون من باقي الأمراء والحكام المسلمين فيبادرون لإرسال القوات إليه، وغالباً ما كانوا يحضرون بأنفسهم، ويضعون أنفسهم تحت قيادته، فيتحقق له التفوق على العدو، ويحقق الانتصارات الباهرة، ويحصلون بدورهم على حقهم من الغنائم، ويعودون إلى إماراتهم.

---

(1) ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص119.

(2) ابن عساكر، تاريخ، المقدمة ج1، ص8. وانظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ ،ج4،ص109. خليفة، كشف، ج2، 1275. الفراني، المقاومة، ص152.

(3) ابن الصلاح، طبقات الشافعية، ج2، ص762. الذهبي، العبر، ج3، ص115. إلىافعي، مرآة الجنان، ج3، ص485. خليفة، كشف، ج2، 1275. الفراني، المقاومة، ص152.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص313. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص57. وانظر: البحيري، عالمية الحضارة، ص96، هامش 75. على، الإسلام، ج2، ص292. بدوي، الحياة العقلية، ص130. وانظر: الفراني، المقاومة، ص152.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص467. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص224.

(6) أبو شامة ، الروضتين، ج1، ص443-444.

(7) ابن القلانسي، ذيل، ص ص304-305،340. ابن العديم، بغية الطلب،ج10، ص4419. أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص304،329،204، 341، ج2، ص243. ج3، ص171.

ففي موقعة إنّب عام 544هـ/1150م، طلب نور الدين المساعدة من أتابك دمشق معين الدين أنر لنصرته على الفرنج الصليبيين، وقد استجاب معين الدين لطلب نور الدين، وأرسل له مجاهد الدين بزان بن مامين، في فريق وافر من العسكر الدمشقي، أدَّى تكرار هذا العمل إلى توافر القوة الكافية لنور الدين، فاجتمع له ستة آلاف سوى الأتباع، مقابل أربعمائة من فرسان الفرنج الصليبيين، وألف من المشاة([1])، في الوقت الذي يريد دون تحمل عبء نفقات إدامة هذه القوات خلال فترات الراحة والهدوء.

ويذكر ابن القلانسي في حوادث عام 548هـ/1154م، وقبيل سقوط عسقلان بيد الفرنج الصليبيين، أن نور الدين " أظهر عزمه على جمع العساكر، والتركمان من سائر الأعمال، و البلدان للغزو في أحزاب الشرك، والطغيان، ولنصرة أهل عسقلان على الإفرنج النازلين عليها ... و اقتضت الحال توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى نور الدين في جمهور عسكره للتعاضد على الجهاد في ثالث عشر محرم من العام المذكور، واجتمع معه في ناحية الشمال "([2])؛ كما أدّت هذه الظاهرة إلى تحسين العلاقة بين الحكام، والأمراء العرب المسلمين، وتمتينها على أساس الثقة، والتعاون، والتنسيق ضد العدو المشترك، وزوال الخلاف، والنزاع، والتنافس الذي كان قائماً بينهم فيما سبق، وكان يخاطبهم بقوله: " أنا ما أوثر الاّ صلاح أمر المسلمين، و جهاد المشركين، و خلاص من في أيديهم من الأسرى، فإن ظهرتم معي، وتعاضدنا على الجهاد فذلك المراد"([3])، وأصبح النزاع في المنطقة واضحاً محدداً بين جبهتين فقط هما: الجبهة الإسلامية، وجبهة الفرنجة، وصار نور الدين زعيم الجبهة الإسلامية بدون منافس[4].

ويمكن أن نتلمس آثار الشعبية التي حققها نور الدين من خلال رواية ابن الأثير التالية التي تناقلها العديد من المؤرخين: في سنة 559هـ/1164م، عندما عقد نور الدين العزم على فتح حارم، فطلب نجدات من أمراء الأطراف، وقد لبوا الطلب ما عدا الأمير فخر الدين قرا أرسلان الأرتقي صاحب ماردين الذي امتنع عن التطوع في البداية، إلا أنه غير رأيه بعد ذلك، فما هو السر في ذلك؟ الجواب تجده في تصريحه التالي نقلاً عن ابن الأثير([5]): " إن نور الدين قد سلك معي طريقاً – يقول فخر الدين– إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنه قد كاتب زهادها، وعبادها، والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل

---

(1) ابن القلانسي، ذيل، ص ص304–305،340. أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص204 كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية ج: 1 ص: 288

(2) أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص288.

(3) ابن القلانسي، ذيل، ص313. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص264.

(4) الذهبي، سير، ج20، ص532.

(5) الكامل، ج9، ص467–468. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص133. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص318–319.

والأسر، ويستمد منهم الدعاء، ويطلب أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحدٍ من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه، وهم يقرؤون كتب نور الدين، ويلعنوني، ويدعون علي، فلا بد من المسير إليه، ثم تجهز، وسار بنفسه".

وكان نور الدين يستخدم قواته حسب إمكانياتها، ولا يكلّفها فوق طاقاتها، ويتجنب التورط في معركة بدون تحضير، واستعداد يجعله مطمئناً إلى تحقيق النصر فيها، ويقدر قوة عدّوه تقديراً صحيحاً ودقيقاً كما يقّر قوّته بالمقابل بالمعيار نفسه وهو في هذا المجال(1)، ولم يكن يرسل جيشه دفعةً واحدةً بل كان يرسله على دفعات، يجهز الكتيبة، ويتأكد من حسن تجهيزها، ثم يردفها بالأخرى، وهكذا يكتمل إعداد الجيش([2])، وهذا لا يعني التقدير العددي فقط، بل كان يأخذ بالحسبان العوامل الأخرى؛ المعنويات، والكفاءة والقيادة والأسلحة، فلم يكن يصرف المال " إلا في وجه بر، أو تجهيز جيشٍ، ومعونة مجاهد "([3])، واستفاد نور الدين من تجربة الحملة الفرنجية الثانية درساً مهماً، ذلك أن قوة الفرنجة في المشرق الإسلامي لا تقتصر على قوة إماراتهم فيه، وإنما تشمل دعم الدول الأوروبية لهم كلما دعت الحاجة([4])، فقرر ألاّ يخوض معركة فاصلة معهم إلا بعد أن تتوافر لديه القوة الكافية للقضاء على إماراتهم في بلاد الشام، ومواجهة احتمالات التدخل الأوروبي سواء حصل هذا التدخل قبل الفراغ من تدمير الإمارات أم بعد.

وقد شكّل هذا القرار، السبب الرئيسي في توجّه نور الدين وسعيه الحثيث لضم مصر إلى دولته، للاستفادة من إمكانياتها البشرية، والاقتصادية، والحصول على القّوة المطلوبة لمواجهة الموقف المذكور[(5)].

وقد اكتسب نور الدين خبرة واسعة، ومهارة فائقة في إدارة الحرب، وتطبيق مبادئها قبل تولّية السلطة، وكان ذلك من خلال مشاركته في جميع المعارك التي خاضها مع والده عماد الدين زنكي على مدى فترة حكمه التي دامت عشرين عاماً (521 – 541هـ/1127–1147م) [(6)]، ومن الطبيعي أن تزداد خبرته ومهارته في هذا المجال بعد تولّيه الحكم من خلال المعارك الكثيرة التي خاضها ضد الفرنجة وغيرهم، وحقق فيها انتصارات باهرة، ولعلَّ أساليب القتال لم تكن تحمل نفس الأسماء المعروفة بها في الوقت الحاضر إلا أن مضمونها لم يتغير منُذ العصور القديمة، وإنما تغّيرت الوسائل والأسلحة

---

(1) مؤنس، نور الدين، ص 194.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص139.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص72.

(4) ابن القلانسي، ذيل، ص297. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص184–185.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص49. الأسدي،الكواكب الدرية ص 201.

(6) ابن الأثير، ابن الأثير ، الباهر ص 74.

والمعدات وبعض المصطلحات، وما زالت المبادئ نفسها تدرس في المعاهد العسكرية العليا في هذه الأيام، ومن مبادئ الحرب وأساليبها التي طبقها نور الدين:

أ- تحديد الهدف:

كان نور الدين واضح الرؤية منُذ حكمه، كان هدفه الاستراتيجي الرئيسي في المجال العسكري تحرير بلاد الشام من الاحتلال الفرنجي([1])، وبما أن الهدف يتطلب إمكانيات كبيرة جداً لم تكن متوفرة لنور الدين في بداية حكمه، فقد جعل لتحقيق هذا الهدف على مراحل كل مرحلة هدفها وخطتها المستقلة والتي تتكامل كلها مع بعضها في سبيل بناء القوة اللازمة لتحقيق هذا الهدف الاستراتيجي.

ب- العمل التعرضي:

يعني هذا المبدأ مهاجمة العدو أولاً، والمحافظة على زمام المبادرة، وذلك بضرب العدو أولاً، والمحافظة على زمام المبادرة، وضرب العدو باستمرار، وعدم إعطائه فرصة للاستراحة أو إعادة التنظيم، ويظهر من سيرة نور الدين أنه كان مبادراً غالباً، وأنه احتفظ بزمام المبادرة في أغلب مواجهاته مع الفرنجة، ويظهر ذلك خلال حصاره لحصن أفامية([2]).

فقد " ضيق عليه، ومنع من به القرار ليلاً و نهاراً، وتابع عليهم القتال ليمنعوا الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها، و ساروا نحوه، ليزحزحوه عنها، فلم يصلوا إليه إلا وملك الحصن، وملأه ذخائر من طعام، ومال، وسلاح، ورجال، وجميع ما يحتاج إليه "[(3)].

وقد صرح نور الدين بعدم خشيته من الفرنج الصليبيين، ولا من جموعهم، وبأنه لا ينحرف عن جهادهم مهما كلفه ذلك([4]).

ج- الحشد:

يعني هذا المبدأ تجميع قّوة ممكنة في المكان، والزمان المناسبين لمواجهة العدو، والتفوق عليه.

وقد طبق نور الدين مبدأ الحشد عدة مرات خلال مواجهاته مع الفرنجة، فيذكر ابن القلانسي مثلاً: أن نور الدين " أمر بعرض عسكره وحصره فذكر أنه بلغ كمال ثلاثين ألف مقاتلٍ"([5]).

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص264.

(2) بينه وبين مدينة حماة مرحلة وهو حصن منيع على تل مرتفع عال من أحصن القلاع و أمنعها و كان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة و شيزر و بنهبونها فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل و الصغار. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص264.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص217. وانظر: ابن القلانسي، ذيل، ص305.

(4) ابن القلانسي، ذيل، ص308.

(5) المصدر نفسه، ص315. دور نور الدين في نهضة الأمة ص 197.

د- المناورة: قابلية الحركة:

يعني هذا المبدأ قدرة القوات على الانتقال بسرعة من مناطق التجمع، والحشد إلى ميدان المعركة في الزمان، والمكان المناسبين لها دون أن يتحقق ذلك للعدو، ثم للحركة ضمن ميدان المعركة بالشكل الذي يوفر للقوات فرصة أفضل لضرب العدو والقضاء عليه، وهذا ما كان يفعله نور الدين باستمرار في إطار تطبيقه لمبدأ العمل التعرضي، فكان يختار مكان المعركة، ويسبق عدوه إليه، وتميز جيشه بسرعة الحركة، وسرعة التجاوب لأمر الحركة لأنه كان في حالة استنفار دائمة[1]، كما عبّر عن ذلك بنفسه في جوابه لصديقه الزاهد الذي لامه على ممارسته للعبة كرة البولو، وتعذيبه الخيل في اللهو واللعب، فكان من ضمن جوابه قوله: ".. إنما نحن في ثغر والعدو منا قريب فربما وقع صوت فتكون الخيل قد أدمنت على سرعة الانعطاف بالكر والفر، فإذا طلبنا العدو أدركناه"[2].

وكان دائم التنقل بين أطراف مملكته، لتفقد أحوالها، فهو في حركة مستمرة، وتعد حملاته على مصر من أروع الأمثلة على المناورة الإستراتيجية، كما أنها تميزت بالجرأة، والسرعة، وحسن التخطيط، ودقة التنفيذ، ومن بين الحملات الثلاثة، تميزت الثانية بأنها كانت سباقاً بين جيش نور الدين ،وجيش مملكة بيت المقدس اللاتينية على مصر، فكان السبق لجيش نور الدين الذي عبر النيل وجَّر العدو إلى المكان الذي اختاره للمعركة، فحقق انتصاراً باهراً، بالرغم من أن المسافة التي قطعها أبعد من تلك التي قطعها الجيش الفرنجي؛ وأما المناورة في ميدان المعركة، فقد كان نور الدين يوليها اهتماماً كبيراً، فكان يخطط للمعركة، ويديرها، ويشرف على القتال، فإذا التحم الجيشان، واشتد القتال، وحمى الوطيس، اندفع لمشاركة رجاله مما يثير حميتهم وحماسهم فيتحقق النصر، وكان ينظم جيشه في المعركة ثلاثة أقسام كما هو معروف عن السلاجقة في هذا الأمر، ميمنة ميسرة، وقلب، وعند الاصطفاف للمعركة يكون القلب للخلف في خطة مرسومة، فيندفع العدو خلفه إلى مسافة محددة، ثم يثبت القلب، ويضغط الجناحان على جيش العدو الذي يصبح محاصراً من ثلاث جهات، وعندما يزداد الضغط على جيش العدو تضيق فسحة المناورة له، فترتبك صفوفه، ويسارع للهرب من الجبهة المفتوحة في الخلف بشكل غير منظم مما يجعله فريسة سهلة للقتل والأسر، نفذ نور الدين هذه المناورة في معركة إنّب عام 544هـ/1150م([3])، ومعركة حارم عام 559هـ/1164م([4])، التي سبق الحديث عنها؛ بينما نفذها جيش نور الدين في معركة البابين بمصر، وكان بقيادة أسد الدين شيركوه([5]).

---

(1) أبو صيني، دور نور الدين، ص 198.

(2) ابن الأثير، ابن الأثير ، الباهر، ص 164. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص35. ابن كثير، البداية، ج12، ص233.الأسدي، الكواكب الدرية، ص 55.

(3) ابن القلانسي، ذيل، ص305.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص418.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص13.

ولقد حقق نور الدين من خلال تطبيقه لمبدأ المناورة، وقابلية الحركة، وسرعتها فائدةً عظيمةً، بالإضافة إلى تفّوقه على العدو، وانتصاره عليه، تمثَّل ذلك: بنقل المعركة إلى أرض العدو، فكان الخراب والدمار يحلّ دائماً في مناطق العدو، وعلى أرضه بينما تبقى بلاد نور الدين في أمن وسلام(1).

هـ – وحدة القيادة:

يؤدي تطبيق هذا المبدأ إلى تجاوز الخلافات وتوحيد الجهود، واختصار الوقت والإجراءات، مما يساعد في تحقيق النصر، جمع نور الدين في شخصه بين القيادة السياسية، والقيادة العسكرية، فكان الملك، وقائد الجيش في الوقت نفسه، وقاد جيشه إلى النصر في أغلب المعارك التي خاضها ضد الفرنجة، وتمكن من توحيد بلاد الشام، وشمال العراق، والجزيرة، ومصر في دولة واحدة بزعامته، فصارت الجبهة الإسلامية صفاً واحداً متراصاً في وجه الغزاة الفرنجة، بقيادة سياسية واحدة، وقيادة عسكرية واحدة، فتهيأت الظروف لتحقيق النصر[2].

و– عنصر المفاجأة:

حقق نور الدين المفاجأة في أغلب هجماته على الفرنجة، فكان يربكهم ويفقدهم السيطرة على قّواتهم، ويحتل الموقع حصنا كان أم بلدة أو يقضي على القوة قبل أن تصل النجدة إليهم، حدث هذا في هجومه السريع على مدينة الرها عام 541هـ/1147م([3])، وفي هجومه على حصن أفاميه عام 544هـ/1150م، وفي هجومه على حصن بانياس عام 559هـ/1167م[4]، حيث يذكر أبو شامة([5]) أن نور الدين هاجم الحصن " لعلمه بقلة من فيها من الحماة الممانعين عنها ".

ز– الخديعة:

كان نور الدين محمود بحكم عقيدته وطبيعته التي تميل إلى الرحمة والرأفة يكره إراقة الدماء على غير طائل، ويسعى لتحقيق أهدافه بأقل الجهد والخسائر، ولا يتردد في أساليب المكر والخداع مع العدو .

وصفه المؤرخون بأنه كان في السياسة والدهاء على جانب عظيم[6]، وأنه كان يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج، وأكثر ما ملكه من بلادهم بهذه الأساليب[7]، ففي عام 556هـ خرج

---

(1)أبو شامة، الروضتين، ، ج2، ص139.

(2) أبو صيني، دور نور الدين ص 200.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص175.

(4) ابن القلانسي، ذيل، ص341. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 437.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 437.

(6) ابن الأثير، ابن الأثير ، الباهر، ص 169.

(7) المصدر نفسه.

نور الدين في قوة صغيرة لقتال الفرنج الصليبيين، ولولا الحيلة من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشرذمة القليلة، والطائفة اليسيرة، فتحقق ذلك في قلوبهم، فوقفوا و ما جسروا على الإقدام عليه "([1]).

وفي عام 561هـ/1166م، شن نور الدين غارة مفاجئة بسرية من الفرسان على حصن المنيطرة شرق طرابلس، وتمكن من احتلاله بالرغم من مناعته، وقوة الحامية المدافعة عنه، ولكنه بالمفاجأة، ولم يجُسر أمير أنطاكية أو أي من أمراء الفرنجة الآخرين على مهاجمته، لتوقعهم أنه احتل الحصن بكامل جيشه وليس بسرية صغيرة فقط[2].

ومن ذلك أنه حين عقد العزم على أسر جوسلين – كما مر بنا– " أعمل الحيلة على جوسلين، وعلم أنه إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج، وحذر وامتنع، فأحضر نور الدين جماعة من التركمان، وبذل لهم الرغائب من الإقطاع، والأموال إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلاً، و إما أسراً " وقد نجحوا في أسره[3]، " و كان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج شديد العداوة للمسلمين، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته، وجودة رأيه، وشدة عداوته للملة الإسلامية، وقسوة قلبه على أهلها، وأصيبت النصرانية كافة بأسره، وعظمت المصيبة عليهم بفقده، وخلت بلادهم من حاميها، وثغورهم من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده، وكان كثير الغدر، والمكر لا يقف على يمين، ولا يفي بعهد طالما صالحه نور الدين، وهادنه فإذا أمن جانبه بالعهود، والمواثيق نكث، وغدر، فلقيه غدره، وحاق به مكره، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله"([4]).

ومن خلال إعمال العقل، والحيلة، والحكمة السياسية، تمكن نور الدين من ضم دمشق إلى دولته بعد فشل كل الجهود العسكرية بسبب حرص الفرنج الصليبيين على بقاء دمشق تحت السيطرة البورية.

فقد " كان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق لأنه كان يأخذ حصونهم، ومعاقلهم، وليست له دمشق فكيف إذا أخذها، وقوي بها، وانضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين، فإن الدم كان عنده عظيماً لما كان قد جبل عليه من الرأفة، والرحمة، والعدل "(5)، وبناء عليه، فإن نور الدين عمد إلى سلك مسالك أخرى للسيطرة على دمشق، فلجأ كما أسلفنا إلى الحيلة.

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص378.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص481. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص5–6. ابن خلكان، وفيات، ج7، ص174. ابن كثير، البداية، ج12، ص271.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 246. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص369–370. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص228. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص302. ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص24. ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص219. الأسدي، الكواكب الدرية، ص136.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 247.

(5) السابق، ج1، ص 302.

وقد قام بمراسلة أميرها مجير الدين، واستمالته، ووصاله بالهدايا، ليظهر له أنه لا يطمع في السيطرة على مدينته، ثم عمل على إبعاد معاونيه، وخاصته، والأمراء عنه لجعله وحيداً من غير مناصر، ولا معاون من خلال إبلاغه عن تعاون، ومراسلات تجري بينه وبينهم لتسليم دمشق، ويقول له: "إن فلاناً – ويذكر بعض الأمراء الذين لمجير الدين– قد كاتبني في المخاطرة عليك فاحذره"، وهذا دفع مجير الدين إلى إبعاد واعتقال أبرز أصحابه ومستشاريه، وعندما راسل نور الدين أحداث دمشق (الحرس الشعبي) ،وزناطرته (طبقة من السكان مولعة بتحريك الاضطرابات والفتن)(1)، واستمالهم، فأجابوه إلى تسليم البلد دون مقاومة(2).

وقد أقنعه نور الدين بذلك، فقام مجير الدين بإقصاء جميع من حوله من الموظفين، وصادر إقطاعاتهم، وقبض على بعضهم، لشكه فيهم، وأدت سياسة نور الدين تلك إلى خلو مدينة دمشق من الأمراء، ولم يبق من مساعدي مجير الدين إلا " أميراً كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، وكان شهماً شجاعاً، وفوض إليه أمر دولته، وكان نور الدين لا يتمكن من دمشق معه، فقبض عليه مجير الدين، وقتله، فقال له عند قتله: إن الحيلة قد تمت عليك، فلا تقتلني، فإنه سيظهر لك ما أقول"(3).

ح– الاستخبارات:

التجسس هو في حقيقة الأمر إجراء سياسي، وعسكري استعمل ويستعمل وسيظل مستعملاً إلى الأبد، ويجمع الكل على نجاعته في الحروب، وغيرها من الأمور.

وقد كان عماد الدين زنكي والد نور الدين شديد العناية بأخبار الأطراف، وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم، وكان يغرم على ذلك المال الجزيل، فكان يطالع، ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان السلجوقي في ليله، و نهاره من حرب، و سلم، وهزل، وجد، وغير ذلك، فكان يصل إليه كل يوم من عيونه عدة قاصدين، وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير، وكان يقول: إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيراً(4).

وقد صار نور الدين على نفس سياسة والده، وكان له عيون يثق بصدقهم، وأمانتهم في كل مدينة، أو حصن ضمن مملكته، وفي الدول والإمارات المجاورة: الفرنجية، والإسلامية يزودّونه بكل ما يستجّد من أحداث، فيكون باستمرار مطلعاً على أحوال رعيته، وأحوال الدول الأخرى، فيضع خططه على أساس هذه المعلومات، وكان دائم الحركة بين أقاليم مملكته، ليتأكد بنفسه من الأوضاع

(1) ابن الأثير، ابن الأثير ، الباهر، ص107.

(2) المصدر نفسه. ابن العديم، زبدة، ص337.

(3) ابن الأثير، ابن الأثير ، الباهر، ص107. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 303.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص158.

العامة، ونظراً لاتساع مناطق نفوذه بضمه لمصر، أمر نور الدين باتخاذ الحمام الهوادي – كما أسلفنا – وذلك بهدف الحصول على الأخبار بأكبر قدر ممكن من السرعة.

وقد شرح ابن الأثير(1) ذلك قائلاً: " كان سبب ذلك أنه اتسعت بلاده، وطالت مملكته، فكانت من حد النوبة إلى باب همذان، لا يتخللها سوى بلاد الفرنج "، ويشير بعد ذلك إلى أهمية هذه المؤسسة، ومنافعها وفعاليتها في تلك الحقبة التي شهدت حروباً مستمرة فيما بين المسلمين، والفرنجة الذين: "ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصل إليه بر ويسير إليهم، يكونوا قد بلغوا بعض الغرض"([2])، فحينئذ أمر بتنظيمها في سائر البلاد، وأجرى الجرايات لها ولمربيها، فأصبحت الأخبار تصل إليه في حينها.

وكان لنور الدين في كل ثغر رجال مرتبون، ومعهم حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته، وعلقوه على الطائر وسرحوه، فيصل إلى المدينة التي هو فيها في ساعته، ثم تنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه. " فانحفظت الثغور بذلك "([3]).

ولم يكتف بهذا، بل بنى الأبراج على الطرق، وبين بلاد المسلمين، والبلاد الخاضعة للصليبيين، وجعل فيها من يحفظها، ومعهم الطيور الهوادي "فإذا رأوا من العدو واحداً أرسلوا الطيور، فأخذ الناس حذرهم، واحتاطوا لأنفسهم، فلا يبلغ العدو منهم غرضاً([4])، وبهذا الإجراء عبر نور الدين عن رغبته العميقة في اختزال الزمن، ومجابهة الامتداد الجغرافي الواسع لمملكته بأسلوب فعال يمكنه من أن يقطع الطريق على مناورات خصومه المسلمين، وأعدائه الصليبيين([5]).

كما ساعد هذا النظام على كشف تحركات العدو الفرنجي، وفي سرعة الإجراءات للرد عليها، وكان نور الدين يدرك أهمية المعلومات، وأهمية التأكد من صحتها، لأن نجاح خططه التي يضعها على أساس هذه المعلومات يعتمد على مدى دقتها، وصحتها، ولذلك لم يعتمد فقط على العملاء (العيون) الذين كانوا يحصلون على مرتبات، ومكافآت وافرة مقابل ما يقدمونه، كوظيفة رسمية، بل كان له أصدقاء كثر من أهالي المناطق المحتلة، والتجار، والزهاد المتجولين في البلاد، وبين الناس، وكانوا يراسلونه باستمرار، ويزودونه بالأخبار، والأهم من هذا أنه كان يحصل على المعلومات عن الإمارات الفرنجية بطريقة تعرف في العلم العسكري الحديث باسم الاستطلاع بالقوة، فكان يرسل سرايا من جيشه ينتخبهم من الفرسان الأشداء إلى مناطق العدو، ينفذون إغارات سريعة على مواقع العدو،

---

(1) ابن الأثير ، الباهر، ص159.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه، ص171.

(5) خليل، نور الدين، ص23.

وحصونه، ويتوغلون في بلاده، وربما أقاموا معسكرات متنقلة سَّرية كلما اكتشفهم العدو، وطـــاردهم انتقلوا إلى مكان آخر، ثم يعودون بعد فترة بالكثير من المعلومات، وربما كان معهم بعض الأسرى من العدو يمكن الاستفادة من معلوماتهم أيضاً، ولم تخل أي إشارة أوردها المؤرخون عن نور الـــدين إلا ويردفوها بالحديث عن خبر قد وصل له، وبناء عليه قام نور الدين بالتحرك، ومن الأمثلة على ذلـــك: ما حدث في13 ربيع الأول552هـــ/25 إبريل (نيسان) 1157م، حيث اتجَّه نور الدين محمـــود لتفقـــد أحوال مدينة بعلبك، وبعد وصوله " تواصلت الأخبار إليه من ناحية حمص، وحماة بإغـــارة الإفـــرنج الملاعين على تلك الأعمال، وإطلاقهم فيها أيدي العبث والفساد "[1]، واستدعت تلك الأخبار التي تناقلها أفراد المقاومة الشعبية لنور الدين محمود ترك بعلبك، وروج لوضع حد للانتهاكات التي ترتكبها قوات الاحتلال الصليبي[2].

وعندما نزل نور الدين إلى الكرك وذلك في سنة 565هـــ/1169م " أتاه الخبر أن الفرنج قـــد جمعوا له وساروا إليه "[3]، ممَّا جعل نور الدين يرحل عن الكرك، ليلقاهم قبل أن يصلوا إليه، وقبل أن تزداد أعدادهم بوصول المدد العسكري إليهم[4].

ط- إنهاك العدو واستنزاف قّوته:

إذا كانت القوة اللازمة للقضاء على إمارات الفرنجة غير متوفرة لنور الدين قبل ضمه لدمشق، ومن بعد ذلك مصر، فإن القوة المتوافرة لديه كانت كافية لإيقاع ضربات موجعة بالعدو يتم من خلالها قتل قادته، وأفراده، وتدمير اقتصاده، وتحطيم معنويات، واسترجاع ما يمكن مـــن الأرض، والقـــلاع، والمدن التي اغتصبها من المسلمين، فقرر شن حرب استنزاف ضد الفرنجة، يحقق من خلالها ما ذكر أعلاه، بالإضافة إلى رفع معنويات المسلمين، وإثارة روح الجهاد في صفوفهم، وما يتحقق من غنائم، ومكاسب مادية تحصل من فداء أسرى العدو، تساعد في رفد موارد الدولة، وتغطية نفقات الحرب[5].

ي- التقرُّب غير المباشر:

طبق نور الدين هذا المبدأ عندما قّرر إتباع سياسة التدرّج في مواجهة العدو، فبـــدأ بأضـــعف الإمارات الفرنجية، إمارة تل باشر، بقايا إمارة الرها، وبعد أن فرغ منها توجه بقوتـــه نحـــو إمـــارة أنطاكية، فجّردها من جميع الأراضي التي كانت تسيطر عليها شرق نهر العاصي، وتحّول إلى إمـــارة طرابلس، ففعل بها مثل ذلك، وعندما حان وقت توجيه الضربة القاضية لمملكة بيت المقـــدس كانـــت

---

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص338.

(2) المصدر نفسه. الفراني، المقاومة، ص257.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج10،ص23.

(4) المصدر نفسه، ج10، ص23. البنداري، سنا البرق، ص47. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2،ص329. أبو شامة. الروضـــتين، ج3،ص204. الأسدي، الكواكب الدرية، ص188.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص419. ج 2، ص139.

خطته تقضي بالبدء من حصن الكرك الذي كان يعد نقطة ضعف بالنسبة لمملكة القدس، بالرغم من مناعته، كحصن، ولكنه يقع في أطراف المملكة، ولا بد لإنقاذه من توجه الجيش الفرنجي إلى منطقة الكرك، مما يسهل على نور الدين اختيار مكان المعركة، وجّر العدو إليها[1]، ويظهر بوضوح تطبيق نور الدين لمبدأ التقرب غير المباشر في تعامله مع الإمارات الفرنجية في بلاد الشام، خلال حملاته الثلاث على مصر، فقد كان يستغل توجه جيش مملكة القدس إلى مصر، ويهاجم إمارة أنطاكية، أو إمارة طرابلس، أو أراضي مملكة بيت المقدس، ليحقق تخفيف الضغط عن جيشه في مصر من جهة، ويحقق انتصارات، ومكاسب في موقف يعد العدو فيه ضعيفاً من جهة أخرى، ففي عام 559هـ/1164م، وبينما كان جيش مملكة القدس، والجيش المصري يحاصران جيش نور الدين في بلبيس، توجه نور الدين بالقوات التي تجمعت لديه من الموصل، والجزيرة إلى مدينة حارم، وحاصرها فتجمعت جيوش الفرنجة من أنطاكية، وطرابلس بالإضافة إلى الحامية البيزنطية في أنطاكية لإنقاذها، وهذا ما كان يخطط له نور الدين، فسحق هذه الجيوش، وأسر جميع الأمراء المشاركين، وافتتح حارم، ثم استثمر الفوز، وتوجه إلى بانياس التي تتبع لمملكة بيت المقدس، وحاصرها واحتلّها، فاضطر ملك القدس لرفع الحصار عن جيش نور الدين في بلبيس، والإسراع بالعودة إلى مملكته([2])، وكان هذا أيضاً ما خطط له نور الدين.

وقد حققه بهجوم مفاجئ، وسريع على مكان ضعيف، وبعيد عن بلبيس، حيث يوجد جيش مملكة القدس.

ك- الجاهزية للقتال:

كان نور الدين القدوة الحسنة في تطبيق المبدأ، فقد كان كما قيل: أصبر الناس في الحرب، وأحسنهم مكيدة، ورأياً، وأجودهم معرفةً بأمور الأجناد، وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل في ذلك[3].

وكان يتفقد جنوده باستمرار، ويطمئن عن أحوالهم، ويتفقد سلاحهم، ودوابهم، ويقول في هذا المجال: " نحن كل وقت بصدد النفير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعُدد دخل الوهن على الإسلام "[4]، وعلق ابن الأثير[5] على كلام نور الدين بقوله: " لقد صدق رضي الله عنه فيما قال، وأصاب فيما فعل، فلقد رأينا ما خافه علينا".

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص23. البنداري، سنا البرق، ص47. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2،ص329. أبو شامة. الروضتين، ج3،ص204. الأسدي، الكواكب الدرية، ص188..

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص466-470. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص415-420. ابن خلكان، وفيات، ج5، ص185. ابن كثير، البداية، ج12، ص248. الذهبي، سير، ج15، ص210. ج20، ص415.

(3) ابن الأثير، ابن الأثير ، الباهر ص 169.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص44.

(5) ابن الأثير ، الباهر ص 169.

ل- الحرب النفسية:

ركز نور الدين على الحرب النفسية، وأحسن استخدامها.

فقد وجه حربه النفسية في البداية نحو حكام الإمارات الإسلامية الذين كانوا غارقين في حياة اللهو، والترف غير مهتمين بأحوال رعاياهم السيئة، أو بمقاومة التوسع الفرنجي على حساب بلاد المسلمين، ونحو من كان على شاكلتهم من أبناء الأمة من التجار، والأثرياء الذين كان همهم جمع الثروات بأية وسيلة، كانت المبادئ التي يدعو إليها نور الدين في حربه النفسية بسيطة، وواضحة، ومحّددة هي: دين واحد هو الإسلام السني، دولة واحدة لمحاصرة الفرنجة من كل صوب هدف واحد، هو الجهاد لتحرير الأرض المحتلة[1]. وأما الجهاز الدعائي الذي كان نور الدين يعتمد عليه لبث هذه المبادئ بين صفوف الأمة، فيتألف من: العلماء، والعبّاد، والزهاد، فكان يطلب منهم كتابة قصائد، ورسائل، وكتب تدور كلها حول مضمون المبادئ المذكورة أعلاه، مع التركيز على توضيح فضائل القدس، ومحاسنها، وأهميتها بالنسبة للمسلمين، ثم يتم نشر هذه الرسائل بين الناس، وقراءتها في المساجد، والأسواق، واللقاءات في مختلف المناسبات، وكان من الطبيعي أن تشير هذه الرسائل والقصائد، والكتب إلى نور الدين باعتباره رائد الجهاد الملتزم قولاً، وفعلاً بالمبادئ، وكانت صورة نور الدين التي ترسخت في أذهان الناس تؤيد، وتدعم ما تشير إليه الرسائل، والقصائد، والكتب المذكورة .

وقد أسفرت الحرب النفسية المذكورة عن نتائج إيجابية كبيرة، حيث تحّولت اتجاهات الرأي العام الإسلامي نحو الجهاد لتحرير الأرض المحتلة، واكتسب نور الدين ثقة المسلمين، ومحبتهم، وتعاطفهم، مما كان له أكبر الأثر في الضغط على باقي الحكام، والأمراء للاستجابة لدعوته للجهاد، والانضواء تحت لوائه[2].

فقد كان مضمون الحرب النفسية الموجهة للفرنجة (العدو)، أن المسلمين بقيادة نور الدين لن يتوقفوا عن الجهاد حتى يحرروا بلادهم، ومقدساتهم المحتلة، وأن الإسلام يأمر بالعدل، والمساواة، والإحسان إلى الأسرى، ويحّرم الظلم والعدوان، وأن من يعتنق الإسلام يكتسب من الحقوق ما للمسلمين، فكان لهذه الأفكار، وما عرف عن نور الدين من ورع ،وعدل، والتزام بالعهود، والمواثيق، وما تحقق له من انتصارات، أثر عميق في نفوس قادة الفرنجة، وأفرادهم، فصاروا يرهبونه، ويحترمونه في الوقت نفسه، وكانوا يعتقدون أن له سراً مع الله، فإذا طلب منه طلباً استجاب الله لطلبه[3].

---

(1) أبو صيني، دور نور الدين، ص 204.

(2) المصدر نفسه ص 205.

(3) أبو صيني، دور نور الدين، ص 205.

وهناك أمثلة عديدة تدلل على استخدام نور للحرب النفسية، فقد أراد أن يخفف من وطأة الحصار الذي شدده الفرنج الصليبيين على قائد جيشه في مصر أسد الدين شيركوه، فقام بالإغارة على " طبرية وجمع أعلام الفرنج، وشعافهم، وجعلها في عيبة، وسلمها إلى نجاب([1])، وقال له: أريد أن تعمل الحيلة في الدخول إلى بلبيس، وتخبر أسد الدين بما فتح الله على المسلمين، وتعطيه هذه الأعلام، والشعاف، وتأمره بنشرها على أسوار بلبيس، فإن ذلك مما يفت في أعضاد الكفار، ويدخل الوهن عليهم، ففعل ذلك، فلما رأى الفرنج الأعلام، والشعاف قلقوا لذلك، وخافوا على بلادهم "([2])، وكان ذلك سبباً في عودتهم إلى المملكة لحمايتها، وخسر شاور بذلك أقوى حليف " وجمع أمراءه للمشورة، فأشاروا عليه بمصالحة أسد الدين، وتكفل إتمام الصلح له الأمير شمس الخلافة فأنفذه إليه، فتم الصلح على يديه على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى "([3]). فبفضل هذه الخدعة أصيب الصليبيون بالإحباط، لأن تأثيرها المعنوي عليهم كان أمن وقع السيوف.

م- شن حرب استنزاف مستمر:

أعطى نور الدين محمود الأولوية في أهدافه الإستراتيجية من حيث التنفيذ لهدف تحقيق الوحدة بين الدول والإمارات الإسلامية المواجهة للفرنجة، مصر، وبلاد الشام، لأنه أدرك من خلال تحليله للموقف الدولي، والإقليمي أنه لن يتمكن من القضاء على دول الفرنجة في بلاد الشام، وخاصة مملكة بيت المقدس قبل تحقيق الوحدة مع مصر، وإزالة الجسم الغريب في الأمة المتمثل في الدولة الفاطمية الشيعية الرافضية الباطنية، ثم الاستفادة من الطاقات الكامنة في الشعب المصري، ومن إمكانياته الكبيرة في المواجهة الأخيرة التي لابد أن تشترك فيها دول أوروبا المتمثلة في إمارات الفرنجة في الشام.

وقد حصل هذا بالفعل فيما بعد في زمن صلاح الدين، وثبتت صحة الاستراتيجية التي وضعها نور الدين، وبدأ بتنفيذها، ولكنه توفي قبل أن يكملها([4]).

ولذلك اتخذ نور الدين قراراً سياسياً في منشئه عسكرياً، وفي طبيعة تنفيذه، وهو يقصد من خلاله إضعاف قوّة الإمارات الفرنجية، وكسر شوكتها، وتحطيم معنويات قادتها، وأفرادها، واسترداد ما يمكن استرداده من المواقع، والحصون، والقلاع منها، وقتل أكبر عدد ممكن من رجالها، وهذا هو مفهوم حرب الاستنزاف، والغاية منها حتى إذا ما تحققت الوحدة بين بلاد الشام ومصر، وتوافرت الإمكانيات العسكرية الكافية، تم القضاء على الإمارات الفرنجية، وإزالتها من الوجود، ومواجهة كل ما يمكن أن يتبع ذلك من تدخل أوروبي، يظهر صحة هذا التحليل من موقف نور الدين بعد انتصاره

---

(1) لم أجد لها تفسير فيما بين يدي من مصادر، ولعله عامل البريد.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص92.

(3) المصدر نفسه.

(4) أبو صيني، دور نور الدين، ص 146.

الكبير في معركة حارم عام 559هـ/1164م، حيث تم إبادة وأسر أغلب الجيش الفرنجي، وكان من بين الأسرى قادة الفرنجة الثلاثة، أمير أنطاكية، وأمير طرابلس، وقائد الحامية البيزنطية في المنطقة، وأصبحت أنطاكية بعد المعركة هدفاً سهلاً، فلما طلب قادة نور الدين محمود منه مهاجمتها، واحتلالها قال: " أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة التي لها، فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد حصارٍ طويلٍ، وإذا ضيَّقنا عليهم، أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية، وملكوه إياها، ومجاورة بوهيموند أمير أنطاكية أحب إلي من مجاورة ملك الروم"[1].

وقبل ذلك عام 544هـ/1149م، قضى نور الدين محمود على جيش أنطاكية، وقتل أميرها في معركة إنَّب [2]، ثم تقدم إلى أنطاكية، وحاصرها، فامتنعت، ولم يضَّيق عليها الحصار، بل تركها بعد أن جَّردها من أغلب حصونها الشرقية، وفي عام 554هـ/1159م، وصل إمبراطور القسطنطينية بجيشه الكبير إلى أنطاكية في عرضٍ واضحٍ للقوة، وحاول أمراء الفرنجة استغلال وجوده مع جيشه الكبير، فحّرضوه على مهاجمة حلب، واحتلالها، وكان نور الدين محمود يتابع الأحداث، فأرسل سفارة إلى الإمبراطور البيزنطي، واتفق معه على هدنه طويلة بين الطرفين، كما تم تبادل الهدايا، وأطلق نور الدين بعض الأسرى النصارى. وتدل هذه الحوادث الثلاثة على أن نور الدين محمود كان يتجنب إثارة إمبراطور القسطنطينية حتى لا يضطر إلى مواجهة عدوَّين في وقت واحد، وأنه كان يسعى لتحييد الإمبراطورية البيزنطية، ودول أوروبا جميعها حتى تتغَّير الأوضاع، وتتوافر له الإمكانيات الكافية لمواجهة هذه الأطراف، إذا تدخلت عندما يّحول حزب الاستنزاف إلى حرب تحرير شاملة يقضي من خلالها على إمارات الفرنجة في بلاد الشام، ويؤكد وجود هذه الاستراتيجية عند نور الدين محمود قوله عندما أرسل له صلاح الدين الأيوبي هدايا من الجواهر، والتحف التي استولى عليها من قصور الفاطميين بعد إسقاط دولتهم عام 567هـ/1172م، فقد قال: " والله ما كان لنا حاجة إلى هذا، وما وصل إلينا عشر معشار ما أنفقناه في العساكر التي جهزناها إلى مصر، وما قصدنا بفتحها إلا فتوح الساحل"[3].

وقد حقق نور الدين فوائد كثيرة، وإنجازات كبيرة من خلال حرب الاستنزاف التي شنها على الفرنجة طول فترة حكمه (541هـ-569هـ)، فقد استرجع منهم أكثر من خمسين مدينة، وموقعاً وحصناً[4]، وجّرد إمارتي أنطاكية، وطرابلس من جميع المواقع، والحصون التي كانت لهما شرق نهر العاصي، وجعلهما، شريطاً ضيقاً على امتداد الساحل، واسترد بعض المواقع، والحصون من مملكة

---

(1) ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص119. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص466-470. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص415-420. ابن خلكان، وفيات، ج5، ص185. ابن كثير، البداية، ج12، ص248. الذهبي، سير، ج15، ص210. ج20، ص415.

(2) ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص119. ذيل تاريخ دمشق ص 304.

(3) البنداري، سنا البرق، ص 65.

(4) ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص119. الأسدي، الكواكب الدرية، ص 213.

بيت المقدس أهمها حصن بانياس جنوب غرب دمشق[1]، وألحق بالفرنج هزائم منكرة قتل فيها عشرات الآلاف من رجالهم، وقادتهم، وأمرائهم، وأسر أكثر من ذلك، فانخفضت معنوياتهم، وصار همهم المحافظة على ما أيديهم، بعد أن كانوا يطمحون للتوسع على حساب بلاد المسلمين [2].

وكان من أهم الإنجازات القضاء على إمارة الرها نهائياً، وفي المقابل ارتفعت معنويات المسلمين، وحصل نور الدين على ثقتهم، ومحبتهم مما سهل له تحقيق وحدة بلاد الشام، وشمال العراق ومصر بسهولة، ويسر، وبدون قتال، باستثناء ما حصل في مصر[3].

ن- الاستفادة من المسيحيين:

فقد استطاع أن يستميل مليح بن لاون حاكم أرمينيا الصغرى، والدروب، ويفصله عن الصليبيين، ويجعله من المحاربين بجانبه ضد البيزنطيين، ويقاتل به الفرنجة، ففي أحداث سنة 567هـ: " هزم مليحّ بن لاون الأرمني السَّيسِنيُّ عسكر صاحب الروم، وكان مصافياً لنور الدين، يبالغ في خدمته، ويحارب معه الإفرنج، ولما عوتب نور الدين في إعطائه سيْسَ، قال: "أستعين به على قتال أهل ملته، وأُرِيحُ طائفة من جندي، وهو سُدٌّ بيني وبين صاحب قسطنطينية"[4]، وفي رواية لابن الأثير توضح بعد نظر نور الدين، وحسن سياسته في هذا المجال فيقول: " ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروب، فإنه ما زال يخدعه، ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً، وكان يقاتل به الفرنج وكان يقول:"إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة، وعرة المسالك، وقلاعه منيعة، وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام، فإذا طُلب انحجز فيها فلا يقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا، وخدمتنا، وساعدنا على الفرنج، وحين توفي نور الدين، وسلك من بعده غير هذا الطريق، ملك المتولي للأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد المسلمين، وحصونهم وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه"[5]، وبذلك استطاع نور الدين أن يستفيد من الخلاف بين أرمينية وبيزنطة، وحقق كسباً عسكرياً، وكفل للمسلمين حقن دمائهم وجنب المسلمين معارك رآها خاسرة بعد دراستها.

---

(1) ابن القلانسي، ذيل، ص341. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص340-341. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص466-470. ابن كثير، البداية، ج12، ص248.

(2) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص 147.

(3) المصدر نفسه ص 148.

(4) الذهبي، سير، ج21، ص72.

(5) ابن الأثير، ابن الأثير ، الباهر ص 169، الكامل، ج10، ص46. وانظر: البنداري، سنا البرق، ج 1، ص231. ابن كثير، البداية، ج12، ص271. ابن العماد، شذرات، ج 4، ص. 225. رنسيمان، تاريخ، ج 2، ص. 275.

س- التركيز على النوعية والفاعلية:

اعتمد نور الدين على جيش نظامي كان صغير الحجم في بداية حكمه، ولكنه كان منظماً وفعَّالاً؛ وذلك لأن نور الدين بطبيعته كان يهتم بالنوعية أكثر من اهتمامه بالكمية، رائده في ذلك قول الله سبحانه وتعالى: " وكم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله"([1])، والقول المأثور: " القوة القليلة أفضل من القوة الكثيرة المبعثرة"(2)، فكان يحسن اختيار قادته، وجنوده ،ويحسن إعدادهم، وتدريبهم، وتسليحهم، فيّعوض النقص في عددهم بزيادة فعاليتهم، وزاد نور الدين في حوافزهم بزيادة مرتباتهم، وإقطاعاتهم، وتثبيت الإقطاع في أبنائهم في حالة استشهادهم([3])، فكانوا يقولون: " إنما هي أملاكنا نقاتل دونها"[(4)]، وإذا كان أبناء الشهيد صغار عيّن لهم رجلاً أميناً يشرف على إقطاعهم حتى يكبروا، مما زاد في إخلاص الجند وحماسهم – ولائهم – فكان نور الدين يواجه أعداءه بجيشه الصغير غير مبال بكثرتهم وتفوقهم العددي، وينتصر عليهم.

فقد انتصر في معركة إنّب عام 544هـ/1150م على جيش إمارة أنطاكية، وقتل أميرها بالرغم من تفوق العدو العددي، وكذلك في معركة حارم سنة 559هـ/1165م، حقق انتصاراً ساحقاً على تجمعٍ كبيرٍ من جيوش عديدة، وكان هذا شأنه في أغلب معاركه مع الفرنجة، وفي سنة 562هـ/1168م، انتصر جيشه في مصر بألفين من الفرسان فقط بقيادة أسد الدين شيركوه على جيش الفرنجة بقيادة ملك القدس عموري، وجيش مصر بقيادة الوزير شاور في معركة البابين، وعندما أظهر بعض الجند ترددا، أو تخوفاً قبل بدء المعركة بسبب كثرة عدد العدو، وقلة عددهم، قام أحد رجال نور الدين المعروفين بشجاعتهم، وصاح فيهم: " من يخاف القتل، والجراح فلا يخدم الملوك، والله لأن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبه ولا عذر ليأخذن إقطاعكم، وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه منه مُنذ خدمتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين، وتفرون من عدوهم، وتسلَّمون الديار المصرية يتصرف بها الكفار "[(5)].

ثالثا:الإنجازات العسكرية:

لقد كان الموقف العسكري في المشرق الإسلامي راجحاً لصالح الفرنجة عندما تسلم نور الدين حكم حلب عام 541هـ/1147م([6])، وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ تغيَّر الموقف العسكري، فأصبح

---

(1) سورة البقرة، الآية:249.

(2) أبو صيني، دور نور الدين، ص 193.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص45.

(4) ابن الأثير، ، الباهر ص 168.

(5) المصدر نفسه.

(6) انظر حول ريطة السياسية للمشرق: أبو بدر، الحروب الصليبية، ص19–20. كاهن، الشرق، ص44. جوزيف، العرب، 260.

راجحاً لصالح المسلمين، وكان التفَّوق العسكري الإسلامي على الفرنجة واضحاً جداً في السنوات الأخيرة من حكم نور الدين الذي حقق إنجازات عسكرية كبيرة تمثَّلت بشكل عام من ناحيتين:

الأولى: إلحاق هزائم منكرة بجيوش الفرنجة في معارك كثيرة.

الثانية: بناء قوة عسكرية كبيرة منظمة، وفعَّالة، كانت في السنوات الأخيرة من حكمه قادرة على تحرير الأرض الإسلامية المحتلة، ومواجهة التحديات الخارجية المحتملة، ومن خلال الناحية الأولى تحققت الإنجازات التالية:

- تحرير الكثير من المدن، والمواقع، والحصون الإسلامية من الاحتلال الفرنجي.
- تغيير الموقف العسكري في المنطقة لصالح المسلمين، والإثخان في الصليبيين، وقتل عشرات الآلاف من رجالهم، وأسر أكثر من ذلك وانهيار معنوياتهم.
- بث روح الجهاد في نفوس أبناء الأمة، ورفع معنوياتهم، وتوحيد جهودهم، وتوجيهها نحو تحرير الأرض والمقدسات.
- الإسراع في تحقيق الوحدة السياسية لبلاد الشام، وشمال العراق، ومصر، وشبه جزيرة العرب.
- توفير الأمن والاستقرار، مما هيأ الظروف المناسبة لتحقيق المنجزات الإدارية التي قامت على أساسها نهضة الأمة[1].

وفي الصفحات السابقة للبحث، وابتداء من الفصل الأول تحدثنا بصورة مسهبة عن انتصارات نور الدين، وانجازاته العسكرية، ولا داعي لإعادة الخوض فيها.

رابعاً: الأسلحة والمؤن والعتاد:

زود نور الدين جيشه بأنواع عديدة من الأسلحة، والتي شاع استعمالها في تلك المرحلة، وقد تنوعت الأسلحة المستخدمة في الجيوش النورية، وقد شاهد ابن القلانسي([2]) عرضاً عسكرياً للجيش النوري في عام 552هـ، اشتمل على العديد من الأسلحة، ذكر منها: " الجواشن، والدروع، والتراس والسيوف، والرماح، والطوارق الافرنجية، والقنطاريات، والأعلام، والمنجوقات – لعلها المنجنيقات– والطبول، والبوقات " وهي على النحو التالي:

1– السيوف([3]):

وهو من أقدم الأسلحة على الإطلاق، ويعد السيف هو السلاح التقليدي لجميع الجيوش في العصور الوسطى([4])، ويستعمله الفرسان والمشاة على السواء، وكان السيف سلاحاً رئيسياً في جيش نور الدين([5]).

---

(1) أبو صيني، دور نور الدين، ص 206.

(2)ابن القلانسي ،ذيل، ص338.

(3) أنوري، اصطلاحات ديواني، ص144.

(4) زكي، السيف، ص33–37.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص224. 280. 342. 395. ومواضع كثيرة. زكي، السلاح، ص110.

وقد اهتم نور الدين وفرسانه اهتماماً كبيراً بأجزاء السيف كالغمد، والحمل([1])، وكان لا يخرج إلا وهو متقلداً لسيفه، هو وجميع عسكره([2]).

2- الأقواس:

من أقدم أسلحة القتال، واستخدم أيضاً في الصيد([3])، وقد اشتهر منه القوس التركي والفارسي، ويتألف القوس من: البدن والوتر، والمحسب، وهو مقبض الرامي، ويصنع الوتر من خيوط مفتولة، أو شراك جلد، ويصنع من الحديد([4])، وكان له وعاء يوضع فيه([5])، وقد تميز الأتراك بالرمي بالقوس، وكانت لهم مقدرةٌ كبيرةٌ على حملها([6])، وقد تميز القوس بالخفة، وكان هو السلاح الرئيسي للأتراك بجانب السيف([7]).

3- الرمح:

عودٌ طويلٌ في رأسه حربة، يتراوح طوله من خمسة أذرع إلى سبعة، وهو خاص بالفرسان ،فكان يطلق على الرماح القصيرة مربوعات، وعلى الرماح الطويلة (الطوال)([8])، ومنها المتشعب والعريض، والرفيع، والمستوي، والمموج وغيرها([9]).

وقد تميز الرمح بالخفة مما ساعدهم كثيراً على سرعة الضرب، والحركة([10])، وكان الرمح التركي أخف وزناً، وحملاً من الرمح الفرنجي([11])؛ ولقد تغنى شعراء الدولة النورية في الحديث عن الرمح في كثير من قصائدهم([12]).

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 395. حمل السيف: وعندما يكون السيف داخل غمده يعلق في زنار يلتف حول وسط حامله أو يعلق في حملية (نجادة) على أحد الكتفين، زكي، السيف، ص223.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص54.

(3) الراوندي، راحة الصدور، ص205، 206. ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص125، ط، بيروت، زكي، السلاح، ص33.

(4) زكي، السلاح، ص21.

(5) أنوري، اصطلاحات ديواني، ص147.

(6) سميل، الحروب الصليبية، ص77، 78.

(7) سميل، نفسه، ص78.

(8) زكي، السلاح، ص21.

(9) الدي، النظم، ص335.

(10) أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص343. سميل، الحروب الصليبية، ص77، 78.

(11) سميل، الحروب الصليبية، ص78. الشامي، الحضارة، ص99.

(12) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 200، 242. ج2، ص27.

4- الترس:

صفحة من الفولاذ مستديرة، تحمل في اليد يلتقي بها ضربة السيف ونحوه([1])، وكان الترس من أسلحة الدفاع الرئيسة في الجيش النوري([2])، وسمي أيضاً بالجحفة، والدرقة، والمجن، وكان يصنع من شب المغطى بالجلد، والجحف هي: التروس من جلود بلا خشب، ولا عقب، وجمع الترس على تراس وتروس([3]).

5- البراوة:

قطعة حديد، لها رأسٌ من حديد أيضاً ، بارز منها نتوءات مسننة كطرف الحراب، وكانت مستخدمة لضرب الدروع، وكان الفارس السلجوقي يضرب على الخوذة بالهراوة، والسيف معاً مستخدماً السيف في اليد اليمنى، والبراوة في اليسرى، أو يكتفي بالهراوة فقط، ودرعه المستدير الصغير([4]).

6- السهام:

من آلات الرمي الشهيرة، وكانت سهام الجيش النوري خفيفة، فكانت تخترق الدرع للعدو، وكانت فائدتها القضاء على تماسك العدو، وقتل خيوله، وكان بوسع التركمان الرمي بالسهام، فكانت أشبه بصاروخ معاد، وكانت السهام وسرعة رميها وكثرتها، تحدث توتراً عصبياً متواصلاً على الجنود في جيوش أعدائهم، وكانوا يلجأون إلى إبطال ذلك الأسلوب بالاقتراب على نحو متلاحم من الجنود الذين يستعملونه، ولذلك كان بوسع الجنود الرمي بالسهام أكثر، وتحريض عدوهم على الهجوم، ومن ثم التخلي عن تشكيلهم([5]).

وقد روى ابن عساكر أن نور الدين كان " حسن الرمي بالسهام "([6]).

7- الحربة القصيرة – المسمار:

آلة دون الرمح، وليست من الرماح، وجمعها حراب([7])، وتستخدم لضرب العدو عن بعد، لأنها كانت تصوب لمكان أبعد([8]).

---

(1) ابن منظور، لسان، مادة ترس، ج6، ص32.

(2) ابن منقذ، الاعتبار، ص20. سميل، الحروب، ص78، 79.

(3) ابن منظور، لسان، ج6، ص32. زكي، السلاح، ص26.

(4) رمضان، الحركة الصليبية، ص87-94.

(5) سميل، الحروب الصليبية، ص78-80.

(6) ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص120.

(7) ابن منقذ، الاعتبار، ص108. ابن منظور، لسان، مادة حرب، ج1، ص306.

(8) زكي، السلاح، ص23-26. أنوري، اصطلاحات ديواني، ص143، 144.

8- المنجنيق:

من أشهر الأسلحة الثقيلة، وأشدها تأثيراً، وبخاصة في الحصار، ويتألف من عامود طويل قوي موضوع على عربة ذات عجلتين في رأسها حلقة، أو بكرة يمر بها حبل متين، وطويل في طرفه الأعلى شبكة على هيئة كيس توضع فيه الحجارة، أو برميل فيها مواد ملتهبة، ثم يحرك، ويرفع العمود على جراراته بواسطة رجال، فيندفع من الشبكة ما وضع فيها من القذائف، ويسقط على الهدف، فيقتل أو يحرف([1])، وقد استخدمه الفرس، والعرب، والأتراك، والبيزنطيون، واستخدمه السلاجقة في حروبهم خاصة في ضرب القلاع، والحصون، والمدن الكبيرة ([2])، وورث الجيش في الدولة عدد كبير من المنجنيقات التي كان يمتلكها نفس الجيش في عهد عماد الدين زنكي والد العادل نور الدين، وقد وصل عدد هذه المناجيق خلال حصار عماد الدين زنكي لقلعة بعلبك إلى أربعة عشر منجنيقاً([3]).

وفي يوم الثلاثاء 10 ربيع الآخر 552هـ/11 أيار 1158م، حاصر نور الدين قلعة بانياس بالمنجنيقات، وظل يقصفها لمدة أربع ساعاتٍ إلى أن تمكن من فتحها([4]).

9- العرادة:

من الأسلحة الثقيلة، وهي تشبه المنجنيق في هندستها، واستعمالها، بل اعتبره البعض من أنواع المنجنيق، ولكنه أصغر منه([5]).

10- الجروخ:

هي آلات حربية تستعمل لرمي السهام، والحجارة، حجمها أصغر من العرادة، ولها أقواسٌ كبيرةٌ تشد بوتر توضع بها السهام والمواد المشتعلة، والحجارة لرميها من مسافات بعيدة([6]).

11- النشابة:

يطلق عليها اسم السهم، أو النبل، وجمعها نشاب، وتصنع من أنواع معينة من عود الشجر، وأحسنها ما يكون مصنوع من التبغ، والأخشاب الصلبة، ولا تستعمل إلا مع القوس لأنها تكمله([7]).

12- الدروع:

ثوبٌ يسج من ذرة الحديد يلبس في الحرب، وتصنع من الحديد، أو الفولاذ، أو الكتان(8).

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج10، ص171. ابن منظور، لسان العرب، ج6، ص4142.

(2) ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص132. ابن القلانسي، ذيل، ص316. الصوري، الأعمال، ج2، ص569.

(3) ابن القلانسي، ذيل، ص269.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص341.

(5) الدي، النظم، ص294.

(6) المرجع السابق.

(7) ابن منظور، لسان العرب، ج6، ص4420. ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص125.

(8) زكي، السلاح، ص21.

13- الخوذة:

قطعة واحدة من الحديد، وهي من آلات الحرب، تلبس لوقاية الرأس، وتجمع خوذ(1).

14- الخنجر:

وهو السكين الكبير، استعمل في كل البلدان الإسلامية، وله مقبض، ويصنع غالباً من العاج(2).

15- الدبوس:

آلة حربية من حديد، وكانت تستعمل في تهشيم الخوذة المعدنية، يحملها الفرسان في السروج تحت أرجلهم، وكانت تعرف بالعمد([3]).

16- البوق:

الذي ينفخ به لإعلان النفير([4]).

خامساً: الإقطاع الحربي:

1- معنى الإقطاع في اللغة:

جمع الإقطاع الإقطاعات ، وهو مصدر أقطع، يقال أقطعه أرض كذا يقطعه إقطاعاً، واستقطعه إذا طلب منه أن يقطعه، والقطيعة الطائفة من أرض الخراج([5]).

وأما أصلها في الشرع كما رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق بسنده، إلى ابن سيرين عن تميم الداري أنه قال: "استقطعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضاً بالشام قبل أن تفتح فأعطانيها، ففتحها عمر بن الخطاب في زمانه، فأتيته، فقلت أن رسول اله صلى الله عليه وسلم أعطاني أرضاً من كذا إلى كذا، فجعل عمر ثلثها لابن السبيل، وثلثاً لعمارتها وثلثاً لنا([6]).

وذكر الماوردي([7]) في الأحكام السلطانية، أن أبا ثعلبة الخشني رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يقطعه أرضاً كانت بيد الروم، فأعجبه ذلك، وقال: ألا تسمعون ما يقول؟، فقال: والذي بعثك بالحق ليفتحن عليك فكتب له بذلك كتاباً".

---

(1)زكي، السلاح ، ص21-23.

(2) المرجع نفسه، ص21-23.

(3) المرجع نفسه، ص26.

(4) ابن منقذ، الاعتبار، ص18. أو شامة، الروضتين، ج4، ص317. ابن العديم، بغية، ج4، ص1964. ابن كثير، البداية، ج10، ص90. ابن منظور، لسان، ج10، ص31.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ص75، 76. ابن مسكوبه، تجارب الأمم، ج6، ص96. طرخان، النظم الإقطاعية، ص472. الشرباص، الإسلام، ص188.

(6) ابن عساكر، تاريخ، ج11، ص68. وانظر: صبح الأعشى، ج13، ص105. والمجموع، ج14، ص108.

(7) الأحكام السلطانية، ص107. وانظر: ابن قدامة، المغني، ج5، ص578.

وذكر القلقشندي([1])، أن أول من أقطع القطائع بالأرضين أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولا وجه له بعد ما تقدم ذكره، اللهم إلا أن يريد أن عثمان أول من أقطع القطائع بعد الفتح، فإن ما أقطعه النبي صلى الله عليه وسلم كان قبل الفتح كما تقدم.

2- أقسام الإقطاع:

ينقسم الإقطاع إلى قسمين: إقطاع التمليك، وإقطاع الاستغلال، وفيما يلي بيان كل قسم من **هذين القسمين:**

(أ) إقطاع التمليك:

الأرض المقطعة بالتمليك أما موات، وأما عامر، وأما معدن...

فأما الموات: فإن كان لم يزل مواتاً على قديم الزمان، لم تجر فيه عمارة، ولم يثبت عليه ملك، فيجوز للسلطان أن يقطعه من يحييه ويعمره، ثم مذهب أبي حنيفة أن إذن الإمام شرطٌ في إحياء الموات([2])، وحينئذ يقوم الإقطاع فيه مقام الادن([3]).

(ب)إقطاع الاستغلال:

وهو إما خراج، أو عشر.

فأما الخراج فينقسم إلى ثلاثة أقسام حسب المستحق؛ لأن المستحق قد يكون من أهل الصدقات، أو من أهل المصالح، أو من مرتزقة أهل الفيء، وفيما يلي بيان تلك الأصناف:

1-فإن كان من يقطعه الإمام من أهل الصدقات، لم يجز أن يقطع مال الخراج، لأن الخراج فيء لا يستحقه أهل الصدقات، كما لا يستحق الصدقة أهل الفيء، وأجاز إقطاعه أبو حنيفة([4]).

2-وإن كان من أهل المصالح ممن ليس له رزق مفروض، فلا يصح أن يقطعه على الإطلاق، وإن جاز أن يعطي من مال الخراج لأنهم من نقل أهل الفيء لا من فرصه، وما يعطونه إنما هو من غلات المصالح، فإن جعل لهم من مال الخراج شيء أحرى عليه حكم الحوالة لا حكم الإقطاع.

3-وإن كان من مرتزقة أهل الفيء، وهم أهل الجيش، فهم أخص الناس بجواز الإقطاع، لأن لهم أرزاقاً مقدرة تصرف إليهم مصرف الاستحقاق من حيث أنها أعواض عما أرصدوا نفوسهم له من حماية البيضة، والذب عن الحريم.

---

(1) صبح الأعشى، ج13، ص105-106.

(2) الموات: الأرض التي لم تعمر، شهدت العمارة بالحياة، وتعطيلها معقد الحياة، وأحياء الموات: أن يعمد الشخص لأرض لا يعلم تقدم ملك عليها لأحد فيحييها بالسقي، والزرع، أو الغرس، أو البناء، قال صلى الله عليه وسلم:"من أحيا أرضاً ميتة فهي له" أخرجه الترمذي في الأحكام، باب ما ذكر في أحياء الموات، وقال حديث حسن صحيح، والبخاري تعليقاً. ج4، ص15.

(3) ابن عبد الرازق الحنفي، شرح الدر المختار، ج2، 230. أبو القاسم الحلي، شرائع الإسلام، ج3، ص271.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص116-117.

ولقد كانت سياسة الخلفاء، ورجال الدولة العباسية تقوم على الاستعانة بالجند المرتزقة على اختلاف أجناسهم الذين كانوا يحاربون من أجل المال فقط، فكانت مطالبهم من المال في زيادة متصلة، ولم يكونوا يفرقون بين أعداء الدولة وأهلها، وما من مدينة كانوا ينزلون بها سواء أكانت في دار السلام، أو دار الحرب ضاربين بعرض الحائط أوامر كبار السلاطين السلاجقة لوقف تلك الأعمال؛ أما الأتابك عماد الدين زنكي، ومن بعده ابنه نور الدين، فإنهما اعتمدا على عدد قليل من الجند المخلص قرروا لهم مرتبات وافية، وكان نور الدين يخرج لهم من عنده عطاءً خاصاً، إضافة إلى المرتبات خلال الحملات المهمة، وكانت العادة قبل حكم نور الدين محمود أن يعد قائد كل مجموعة من الفرسان الجنود مسئولاً عنهم، فيعطى أرزاقهم، وسلاحهم، أو نفقات السلاح، فكان القائد يحوز لنفسه أكبر جانب من ذلك المال، ويهمل عدة الفرسان، أو المحاربين؛ أما العادل نور الدين، فقد حرص على أن يتثبت بنفسه من سلاح المقاتلين فكان " يثبت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه، و سلاحهم خوفاً من حرص بعض الأمراء، و شحه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد، و يقول نحن كل وقت في النفير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد، والعدد دخل الوهن على الإسلام"([1]).

وكانت الإقطاعات العسكرية هي أهم أرزاق ومرتبات الجند، وقد حل الإقطاع الحربي العسكري، محل العطاء، أو الرواتب لرجال الجيش(2)، حيث فرقت الأراضي إقطاعات على الجند، وسلمت إلى كل مقطع قرية، أو أقل، أو أكثر كل على قدر طاقته، وطاعته([3]).

وكانت ظاهرة إحلال الإقطاع محل العطاء، أو الرواتب لرجال الجيش، تمثل ظاهرة مهمة من مراحل تطول النظم الإقطاعية في العالم الإسلامي([4])، لأنه كان من عادة الخلفاء الراشدين منذ عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وبني أمية، وبني العباس والفاطميين، أن تجبى أموال الخراج، ثم تفرق في الأمراء، والعمال، والأجناد على قدرتهم، ويحسب مقاديرهم، وكان يقال لذلك في صدر الإسلام "العطاء"([5]).

واستمر الوضع على ذلك، أن يأخذ الجند أرزاقهم من ديوان العطاء، حتى استبد الأعاجم والموالي بالخلافة العباسية، بحيث لم يعد للخليفة العباسي من السلطة إلا اسمها، أو كما عبر بعض المعاصرين: " لم يبق له سوى السرير والمنبر، والسكة، والختم على الرسائل، والصكوك، والجلوس للوعود"([6]).

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص44.

(2) طرخان، النظم الإقطاعية، ص10–21. إسماعيل، الإقطاع، ص9، 10.

(3) المقريزي، السلوك، ص153، 154.

(4) طرخان، النظم الإقطاعية، ص21.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ص153. طط، ج1، ص53، 154.

(6) ابن مسكوبة، تجارب الأمم، ج2، ص341. طرخان، النظم الإقطاعية، ص10.

إلى جانب فقدان العالم الإسلامي منذ أوائل القرن الخامس الهجري لموارده المالية من التجارة الدولية نتيجة هيمنة قوى أجنبية على البحار، وانتزاع دور الوساطة في تجارة العبور الدولية من المسلمين، الأمر الذي أدى إلى تدهور الطبقة البرجوازية، والتمهيد لسيادة الإقطاعية([1]).

ويضاف إلى ذلك ابتلاء العالم الإسلامي بموجات بدوية رعوية انطلقت من الأطراف لتسيطر على القلب (المراكز)، وتقيم نظماً عسكرية تكرس الإقطاع، كالسلاجقة، والأتابكة([2]). كل ذلك عجل بظهور الإقطاع العسكري، الذي حل محل الرواتب منذ منتصف القرن الخامس الهجري الذي تمتع فيه المقطع بكافة حقوق الملكية([3])، وأساء فيه المقطعون التصرف ليس في إقطاع البلاد، والقرى، ولكن أيضاً في إقطاع حقوق بيت مال المسلمين لأنصارهم، وحواشيهم([4]).

وقد ساد الإقطاع العسكري العالم الإسلامي بأسره منذ منتصف القرن الخامس الهجري عن طريق القوة، والغلبة العسكرية([5])، وفي ذلك يقول الماوردي([6]): " الجند أحق الناس بالإقطاع"، وهذا لا يعني أن القرون الأربعة الأولى من الهجرة قد خلت من ظهور الإقطاعية في الدول الإسلامية، فلقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا النظام حين أقطع أناساً من مزنية أرضاً بقصد تعميرها، وقد سار الخلفاء الأربعة من بعده على ذلك، فكان أراضي الفتوح تقطع للقبائل، لتشجيعهم على الهجرة إلى المدن المفتوحة([7])، لينضموا إلى صفوف المحاربين، وقد أقبل شرفاء العرب على الهجرة من أجل الحصول على الإقطاعات([8])، وفي العهد الأموي توسعت الدولة في توزيع الإقطاعات، وبصفة خاصة أراضي الموات بهدف إحيائها، وصار حفر الأنهار في الإقطاعات ظاهرة مألوفة([9])، وعندما قامت الخلافة العباسية سار الخلفاء العباسيون على سياسة توزيع الإقطاعات على خواصهم وحواشيهم([10]).

3- الإقطاع في الدولة النورية:

ولقد انتقل النظام الإقطاعي الحربي كاملاً إلى الدول التي عاشت وانتعشت في كنف السلاجقة، وخير دليل على ذلك نجده لدى أتابكية عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود([11]).

---

(1) إسماعيل، الإقطاع، ص9.

(2) المرجع السابق، ص9، 10.

(3) أمين، تاريخ العراق، ص206، 207. إسماعيل، الإقطاع، ص9، 10.

(4) طرخان، النظم الإقطاعية، ص11.

(5) إسماعيل، الإقطاع، ص19.

(6) الأحكام السلطانية، ص194. والماوردي من جيل القرن امس الهجري.

(7) عبد الفتاح، الحياة السياسية، ص94.

(8) الدوري، نشأة الإقطاع، ص904.

(9) الدوري، نفسه، ص4.

(10) طرخان، النظم الإقطاعية، ص11. عبد الفتاح، الحياة السياسية، ص94.

(11) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص258. ابن الأثير، الكامل، ج11، ص45. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج7، ص306. طرخان، نفسه، ص30.

فقد اتجه إلى توزيع الإقطاعات على الفرسان، والجند، من أجل المحافظة على استمرار دعمهم الحربي لدولته في مواجهته الإمارت المتنافسة في بلاد الشام والجزيرة([1])، وكذلك الصليبيين، وهناك من يؤكد عدم وجود ملكية مباشرة للأرض من قبل الذين أقطعوا، وأن الأهالي، والفلاحين قاموا بتقديم ضريبة سنوية للحكومة، والمقطعين، ومع ذلك، فإن العهد الأتابكي لم يشهد توريثاً للإقطاع كما تصور البعض([2])، وإنما حدث ذلك فيما بعد في عهد نور الدين محمود.

وحيث إن الدولة النورية قد تأثرت بنظم السلاجقة، وأساليب حكمهم، فإنها اتجهت صوب الإقطاع العسكري لحاجتها إلى ضمان استمرار الخدمة العسكرية اللازمة، ولذا فإنها قدمت الإقطاع لكبار القادة العسكريين، وكذلك العسكر([3])، في مقابل الحصول على ذلك العون الحربي من المقطع وقت الحاجة.

ولقد اختلفت الإقطاعات من حيث المساحة، والموقع والجودة، باختلاف رتبة ومكانة المقطع، فقد يكون الإقطاع قرية صغيرة أو قلعة، أو ولاية بأكملها([4])، ولكن كان من حق المقطعين أن يزيدوا من إقطاعاتهم بشرط ألا تكون هذه الزيادة على حساب أبناء جلدتهم([5]). ولدينا أمثلة عديدة على ذلك النوع الحربي من الإقطاع، فبعد أن فارق صلاح الدين والده، وصار إلى خدمة عمه أسد الدين بحلب، قدمه بين يدي نور الدين فقبله، وأقطعه إقطاعاً حسناً في عام 546هـ([6])، وتم إقطاع تل باشر للغازي بن حسان المنبجي في نفس العام([7])، وأقطع حران لزين الدين على كوجك عام 547هـ، ولم تزل في يد نائبه إلى أن استعادها نور الدين، وأقطعها لأخيه نصير الدين أمير أميران في عام552هـ، ولم تزل في يده إلى أن تغير عليه نور الدين، فسيّر عسكره إليه وحاصره، وضايقه إلى أن تسلمها في عام 554هـ، استناب بها غلاماً له يسمى قايماز الحراني([8])، كما أقطعه منبج عام 562هـ/1166م ([9])، وعندما أعلن المنبجي العصيان أرسل إليه نور الدين عسكراً حاصروه في منبج، وانتزعوها منه، وأقطعها لأخيه ينال بن حسان المنبجي عام 563هـ/1167م([10]).

---

(1) خليل، عماد الدين زنكي، ص217.

(2) خليل، عماد الدين زنكي، ص223-225،

(3) يشير ابن الأثير بصراحة إلى أن نور الدين محمود أقطع نصيبين والخابور للعسكر، عن ذلك ابن الأثير ، الباهر، ص154.

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج8، ص307. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ورقة 142.

(5) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص53-56.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص 275

(7) ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص322. ويذكر أن إقطاع تل باشر نقل بعد ذلك للأمير بدر الدين دلدرم بن ياروق فحصنها وبناها، وعمر، فيها أبنية حسنة، ومنازل مزخرفة، وسكنها المسلمون، واتسع ربضها، وصار بها قاض، ومنبر وخطيب، ويبدو أن نور الدين نقلها بعد ذلك لسابق الدين عثمان بن الداية كما ذكرنا.

(8) ابن شداد، الأعلاق، ج1، ص121.

(9) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص308. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص325. ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص153.

(10) أبو شامة، الروضتين ج1، ص24.

وقد أقطع أسد الدين شيركوه حمص ،والرحبة في نفس العام ([1])، كما كان له هو، وأخوه نجم الدين كثيراً من الإقطاع في دمشق([2])، وكذلك أقطع مجد الدين بن الداية حارم وحلب([3])، وقلعة جعبر([4]) التي أقر أخوه شمس الدين عليها من بعد ذلك، أما سابق الدين عثمان بن الداية، فقد أقطعه عام 565هـ/1169م تل باشر([5])، وأضاف إليه شيزر([6])، أما حارم فقد نقلها إلى بدر الدين حسن بن الداية، وأضاف إليه عين تاب وعزاز([7]).

وقد انتزع سعد الدين كمشتكين حارم من بدر الدين حسن بن الداية بعد وفاة نور الدين سنة 569هـ([8])، وبعد نجاح نور الدين في ضم الموصل والجزيرة عام 566هـ/1170م، " أقطع نصيبين والخابور العساكر، وأقطع جزيرة ابن عمر، والموصل سيف الدين غازي ابن أخيه"([9])، أما فخر الدين بن عبد المسيح، فقد حصل على "إقطاعاً كثيراً" في عام 566هـ/1170م([10])، وبالنسبة لشهاب الدين على بن مالك العقيلي، فقد حصل على إقطاع شمل سروج، وأعمالها، والملاحة، والباب، وبزاعه بالقرب من حلب، بالإضافة إلى مبلغ من المال قدر بعشرين الف ديناراً.

وقد وصف ابن الأثير([11]) هذا الإقطاع بـ" العظيم جداً "، وأعطى نائبه، وهو القائد محمد بن عروة خمسمائة دينار، وأقطعه الرصافة([12])، كما أقطع البيرة لشهاب الدين محمد بن إلياس بن إيلغازي بن أرتق([13]).أما أمراء العرب في لبنان فقد تم إقطاعهم عام 560هـ/1164م، وتم الاتفاق

---

(1) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص213. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص305. 405. ج2، ص50. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص259. الذهبي، دول الإسلام، ج2، ص76. ابن العماد، شذرات، ج2، ص207. العريني، مصر، ص21.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 405

(3) طرخان، المرجع السابق، ص31.

(4) أبو شامة، الروضتين ، ج2، ص42. ابن شداد، الأعلاق، ج1، ص131.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص328. طرخان، المرجع السابق، ص31.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص328. ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص146.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص328. و عزاز: بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب. و العزاز الأرض الصلبة ياقوت، معجم، ج4، ص118. وقد افتتحها نور الدين محمود فى عام 545هـ/ 1150م. انظر: ابن العديم، بغية الطلب،ج10، ص4419. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص243.

(8) الأصفهاني، البرق، ج3، ص50. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 413. 469.

(9) المصدر نفسه، ج2، ص169.

(10) المصدر نفسه، ج2، ص169. ابن كثير، البداية والنهاية ، ج12، ص263. الأسدي، الكواكب الدرية، ص 192.

(11) ابن الأثير ، الباهر، ص136. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص42. ياقوت، معجم، ج2، ص142. ابن شداد، الأعلاق، ج1، ص131.

(12) ابن شداد، الأعلاق، ج1، ص131.

(13) المصدر نفسه، ج1، ص133.

على أن يقدموا للجيش النوري على الأقل أربعين فارساً([1])، وذلك كحد أدنى، كذلك تم إقطاع أمـــراء القبائل العربية الواقعة على طريق الحج من بلاد الشام إلى المحارم الإسلامية المقدسة مـــن أجـــل أن يكف أولئك الأمراء عن مهاجمة الحجاج الشاميين(2).

"وأقطع أمير مكة إقطاعاً سنياً"(3)؛ أما ملك الأرمن مليح بن لاوون، فقد تم إقطاعه إقطاعـــاً " من دار الإسلام "(4)، ويعد أول إقطاع يمنح في عهد الدولة النورية لقوة مسيحية، وكان ذلك لدوره في أن وقف إلى جانب الجيش النوري في مواجهة الخطر الصليبي، وكذلك البيزنطي.

ويلاحظ أن الإقطاع النوري الحربي لم يكن قاصراً على بلاد الشام فحسب بل إنه تعداها ليمتد إلى مناطق النفوذ التي اشتملت عليها الدولة النورية كنتيجة للتوسع فيها على حساب النفوذ الفـــاطمي؛ ففي مصر أيضاً، قرر المقريزي أن صلاح الدين الأيوبي – نائب الدولة النورية في مصر– عندما كان لا يزال وزيراً للخليفة العاضد أقطع شمس الدولة تورانشاه بن أيوب في عام 565هـــ/1168م مناطق قوص، وأسوان، وعيذاب([5])، وفي العام التالي 566هـــ/1170م، زاد ذلك الإقطاع بإضـــافة منـــاطق بوش، ودهشور، والمنوفية([6])، وبدوره أقطع شمس الدولة تورانشاه عام 568هـــ للأميـــر إبـــراهيم الكردي قلعة إبريم في مدينة أسوان([7])، وكانت الفيوم، وبلادها إقطاعاً لتقي الدين عمر([8])، ويـــضاف

---

(1) ابن يحيى، تاريخ بيـــروت، ص43. Salibi, "the Buhturids of the Grab, Medieval Lords of Beirut and the southern Lebnon" REA, T, VIII, Annee 1961, P,82.

(2) ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص121. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص278. أبو شامة، الروضـــتين، ج 1، ص32–33. النويري، نهاية الأرب، ج27، ص164. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج4، ص228. develoment of the Amirate of the Arabs during the seventh thirteenth and eight fourteenth centuries "BSOAS, vol,XXXVIII,1975, Hiyari, " the Origins and part,3, p.518.

(3) ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص121.

(4) ابن الأثير، الباهر، ص169. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص337. ويذكر ابن الأثير أنه مما دفع نور الدين إلـــى ذلـــك أن بلاد ملك الأرمن كانت وعرة المسالك ذات قلاع حصينة ولا توجد طرق ممهدة إليها. انظر: ابن الأثير، الباهر، ص169.

(5) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص317.

(6) المصدر نفسه، ج3، ص322، ويلاحظ أيضاً أن هذا الاتجاه سار عليه من قبل أسد الدين شـــيركوه الـــذي أقطـــع العـــسكر الإقطاعات كما يقرر المقريزي . المصدر نفسه، ص304.

(7) أبو شامة، الروضتين ج2، ص247

(8) تقي الدين صاحب حماة: الملك المظفر تقي الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب، وهو ابن أخـــي الـــسلطان صلاح الدين، كان شجاعاً مقداماً منصوراً في الحروب مؤيداً في الوقائع، ومواقفه مشهورة مع الفرنج، وكانـــت لـــه آثـــار فـــي المصافات دلت عليها التواريخ، وله في أبواب البر كل حسنة منها: مدرسة منازل العز، التي بمصر يقال إنها كانـــت دار ســـكنه ،فوقف عليها وقفاً كثيراً، وجعلها مدرسة، وكانت الفيوم، وبلادها إقطاعه، وله بها مدرستان شافعية، ومالكية، وعليهما وقف جيد أيضاً، وبنى مدينة الرها مدرسة لما كان صاحب البلاد الشرقية، وكان كثير الإحسان إلى العلماء، والفقراء، وأرباب الخير، ونـــاب عن عمه صلاح الدين بالديار المصرية في بعض غيباته عنها توفي عليها يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وقيل بل توفي ما بين خلاط وميافارقين، ونقل إلى حماة ودفن بها. ابن خلكان، وفيات، ج3، ص356.

إلى ذلك فإنه خلال تلك المرحلة التي سعى فيها صلاح الدين إلى تصفية النفوذ الفاطمي "أقطع أجناد الشام أجل البلاد"([1]).

ويلاحظ أن الإقطاع الحربي النوري قد تطور عندما تم توريث المنطقة المقطعة في حالة وفاة المقطع في ساحة الوغى، وكان ولده لا يزال طفلاً صغيراً، وفي هذه الحالة تم تعيين وصيٍّ لرعاية مصالحه حتى يكبر([2])، ومنطقي أن الاتجاه إلى توريث الإقطاع قدم إغراء أكثر من ذي قبل من أجل انضمام العديدين إلى المقدمة في الجيش النوري، وأدى أيضاً إلى استبسال المقطعين في الحروب إذ أنهم عدوها بمثابة أوطانهم([3]).

أما الشكل الآخر من أشكال الإقطاع النوري فلم يكن ذا صبغةٍ حربيةٍ، ومن أمثلة ذلك:

الإقطاع الذي حصل عليه الطبيب المهذب بن النقاش: إذ أقطع ضيعة([4])، ومن المنطقي أنه لم يكن إقطاعاً حربياً لانتفاء أية صفة حربية على شخصية ابن النقاش، وقد حصل عليه في عام 563هـ/1168م.

ومن المرجح أن الإقطاعات السابقة كانت إقطاعات حيازة ولم تكن إقطاعات تملك، إذ أن العماد الأصفهاني ينقل بالنسبة لإقطاع الطبيب المهذب بن النقاش أن نور الدين " أقطعه ضيعة وملكه أخرى "([5])، مما يدل على أن الضيعة المقطعة كانت مجرد حيازة، ولم تكن على سبيل التمليك، أما الثانية فكانت تمليكاً فعليا له.

وكان الوزير هو الشخص المسئول عن الإقطاعات، ومراقبتها، وفي أحيان كثيرة كان يغض الطرف عن بعض التجاوزات، ذلك لأن الوزير حسب القاعدة السلجوقية المعروفة، كان يتناول راتبه بمقدار عشر إيراد الدولة، وكان هَمْ الوزير أن تزداد الإقطاعات ليزداد راتبه، وهذا بالطبع سيؤدي إلى فوضى جديدة، وإلى تحكم الإقطاعين بالفلاحين مما يؤدي إلى النفور، والاستياء الشديدين، وإلى إضعاف الروح المعنوية، ومن ثم إلى ضعف المجتمع السلجوقي العام([6]).

ومن الطبيعي أن يعد الإقطاع وخاصة النوع الحربي الذي انتشر في كافة أنحاء الدولة النورية، أحد أهم النتائج الاقتصادية التي نجمت عن توسعها الخارجي، إن لم يكن أهمها فعلى أساس تلك القاعدة الإقطاعية، تشكل أبنية الدولة الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية.

---

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 311.

(2) ابن الأثير، الباهر، ص117. ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص135. الأسدي، الكواكب الدرية، ص26. النويري، نهاية الأرب، ج27، ص167.

(3) ابن الأثير، الباهر، ص119. الأسدي، الكواكب، ص26.

(4) البنداري، سنا البرق، ص16.

(5) المصدر نفسه، ص26.

(6) أمين، نظم الحكم، ص225، 226. محمود والشريف، العالم الإسلامي، ص582.

الفصل الرابع

((النظام المالي والاقتصادي للدولة))

تحتل الجوانب الاقتصادية لأي دولة من الدول أهمية خاصة، لما للعامل الاقتصادي من دور في مختلف الصراعات، وقد مثلت الدولة النورية أهمية اقتصادية كبيرة في ذلك العصر الذي مثل فيه العامل الاقتصادي دور مهم في جريان أحداثه إلى جانب العوامل الأخرى.

وكان النظام المالي للدولة النورية مثالاً لأفضل النظم، وأكثرها دقة، وشفافية وتطوراً؛ ذلك أن نور الدين كان أكثر الحكام تشبهاً بعصر الخلفاء الراشدين.

وفي هذا الفصل سنحاول إلقاء الضوء على النظام المالي والاقتصادي للدولة النورية، للخروج بأهم النتائج حول هذا الموضوع المهم.

أولا: النظام المالي:

وقد انقسمت الموارد المالية في الدولة النورية إلى موارد شرعية متعارف عليها في الشريعة الإسلامية، وهي: الزكاة، والجزية، والغنائم، والخراج.

وموارد غير شرعية متمثلة في: المكوس، والضرائب، وغيرها، وهذه الموارد غير الشرعية لم تمثل شيئاً في خزينة الدولة النورية، حيث قام نور الدين بإلغائها، واكتفى بالموارد الشرعية، وهذا الأمر لم يكن مألوفاً في أي من العصور بعد عصر الخلفاء الراشدين.

1-الموارد الشرعية الرئيسية:

أ-الزكاة:

تعد الزكاة من أهم مصادر الدولة الإسلامية إذ أنها ركنٌ من الأركان الخمسة في الإسلام، ويمكن التأكيد على أن الدولة النورية استثمرت هذا المصدر المهم كمورد من الموارد الرئيسة للدولة؛ والحقيقة أن الباحث لم يعثر في هذا الموضوع إلا على إشارة واحدة، تشير إلى محاسبة نور الدين لأحد عمال الزكاة، وهذا يعني أن الزكاة كانت تجبى في الدولة النورية، وأن هناك ما يفيد بوجود عامل لها يجمعها لصالح دار الزكاة ويسمى الضامن.

فقد ذكر معين الدين محمد حفيد القيسراني وزير نور الدين الشهيد أن: ضامن دار الزكاة المعروف بابن شمام انكسر عليه مالٌ جمّ، فحبس، فباع ما كان يملكه من عقار بما قيمته ثمانية آلاف دينار، وحمله إلى الخزانة، ولكنه بقي في الحبس مطالباً بما بقي في ذمته[1].

ب-الجزية:

كانت للجزية دواوينٌ في دولة نور الدين، ويعرف ديوان الجزية في هذه الدولة بديوان الجوالي([2])، ويقوم صاحبه بالنظر في أمور الجباية من أهل الذمة، وكان يرد إلى هذا الديوان،

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص19.

(2) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص145-146. يقول ابن العماد: " الجوالي جمع جالية، ومعناه ما يؤخذ من أهل الذمة في مقابلة استمرارهم في بلاد الإسلام تحت الذمة، وعدم جلائهم عنها، وهي من أحل الأموال، ولأجل حلها جعلت وظائف للعلماء،والصلحاء، والمتقاعدين من الكبراء". شذرات، ج4، ص376.

أموال وافرة بسبب كثرة أهل الذمة في الدولة النورية مثل: الرها([1])، وجبل لبنان([2])، وقرى الموصل([3]).

والحقيقة أن بعض الأتابكة لم يلتزم بأخذ الجزية من أهل الذمة وفقاً للقواعد التي قررها الفقهاء([4])، إنما رفعوا من قدرها، فأتابك الموصل عماد الدين زنكي بن آقسنقر، وخليفته في حكم الموصل سيف الدين غازي الأول، وقطب الدين مودود، كانوا يأخذون من أهل الذمة جزية تزيد على القدر الذي حدده الشرع، وظل الوضع كذلك إلى أن ضم نور الدين محمود بلاد الجزيرة سنة 566هـ/1170م، فأمر بإعادة الجزية إلى القدر الذي أجازه الفقهاء([5])، وكان يجتمع في خزانته الخاصة في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطاس، يصرفه في كسوته، و نفقته، وحوائجه المهمة حتى أجرة خياطه، و جامكية (راتب) طباخة، وما يزيد عن ذلك يتصدق به في وجوه الخير([6]).

غير أن سيف الدين غازي الثاني بن مودود – أتابك الموصل– رفع الجزية عن أهل الذمة بعد وفاة نور الدين محمود([7]).

أما بالنسبة للتجار النصارى المارين بأراضي الدولة النورية، فقد ذكر ابن جبير([8]) أنهم كانوا يؤدون ضريبة على تجارتهم، ولم يحدد قيمة هذه الضريبة، أو مقدارها.

ج–الغنائم:

وتعد من الموارد المهمة للدولة النورية، نظراً لطبيعة الظروف الحربية التي سادت منطقة بلاد الشام آنذاك؛ فقد نجحت القوات النورية في تحقيق الكثير من الانتصارات العسكرية، والمكاسب السياسة، وبطبيعة الحال فإن كل انتصار كانت تنجزه القوات النورية يتبعه عملية واسعة من جمع للغنائم يقوم بها الجيش المنتصر، فكان يتم جمع كل ما تقع عليه العين من أموال وذخائر؛ فبعد استرداد نور الدين لإمارة الرها، نجح الجيش النوري في الحصول على " شيء كثير من المال، والأثاث، والسبي، وانكفأ المسلمون بالغنائم إلى حلب، وسائر الأطراف "([9]).

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص138، 175. الأسدي، الكواكب، ص62.

(2) ابن جبير، تذكرة، ص201.

(3) المصدر نفسه، ص225.

(4) قرر الفقهاء أن تكون الجزية على قدر الطاقة، ولذلك قسم أهل الذمة إلى ثلاث طبقات، تدفع الطبقة العليا منه أربعة دنانير، والطبقة الوسطى دينارين، والطبقة الدنيا ديناراً. سرور، تاريخ الحضارة، ص109.

(5) ابن الجوزي، المنتظم، ج10، ص270.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص175.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، القسم الأول، ج1، ص4.

(8) تذكرة، ص201.

(9) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص175.

وقس على ذلك باقي الانتصارات التي حققها الجيش النوري في العديد من المعارك، والتي تم تفصيل القول فيها في الفصل الأول والثالث.

د-الخراج:

تتضح الصورة حول أهمية الخراج كمورد مهم من موارد الدولة النورية من خلال ما تـردد عن قيام نور الدين برفع كل أنواع الضرائب عن كاهل المواطنين في دولته " فما أبقى سوى الجزيـة ،والخراج، وما تحصل من قسمة الغلات "([1]).

ولم ترد إلا إشارات قليلة حول قيام الدولة النورية بفرض الخراج على الأراضي، والحقيقة أن هذه الدلالات لم تكن واضحة بما يكفي لتكوين صورة واضحة عن طبيعة نظام الخراج، ومقدار ما كان يؤخذ على الأراضي، وترد إشارة واحدة تفيد بأن نور الدين كان يأخذ الخراج من أهل معرة النعمـان من خلال سجل معد أطلق عليه "خراج الأملاك"[(2)].

2- الموارد الفرعية : الضرائب والمكوس:

أدرك نور الدين محمود أن أي تغيير أساسي في واقع الحياة البشرية نحو الأحسن، والأمثل لـن يستكمل أبعاده إلاّ من خلال إعادة تشكيل الأرضية الاجتماعية بالحق، والعدل بحيث لا يبقى هناك ظالم أو مظلوم، وكان موقفه الفعال ينطلق من الرؤية الإسلامية الموضوعية العادلة التي صاغها كتـاب الله وسنة رسوله، ونفذتها سياسات الخلفاء الراشدين، والقيادات الإسلامية الملتزمة عبر حركـة التـاريخ، وكان الملك العادل نور الدين محمود زنكي يرى في الدولة مؤسسة لحماية (حقوق) جماهير المواطنين ،وتقديم أوسع الخدمات لهم، وهو التصور الذي يرفض بالكلية صيغ الأخذ، والاسـتلاب، والابتـزاز، والتضييع التي مارستها الكثير من الحكومات عبر التاريخ الإسلامي، وغير الإسـلامي، وكـان هـذا الابتزاز يأخذ يوم ذاك صيغ التوسّع الضرائبي السالب، والامتناع في المقابل عن تقديم الخدمات، ومن أجل تجاوز هذا المنطق الخاطئ، سعى نور الدين إلى التحرك صوب الطرف المقابل تماماً، فعمل على تقليص الضرائب إلى الحد الأدنى المتاح، ونشط من أجل تقديم أوسع الخدمات لجماهير أمته، وكـان يحوط هذا التحرك – الذي أخذ يتصاعد بمرور الزمن – برقابة صارمة على أموال الدولـة العامـة ،ويقطع اليد التي تسعى إلى أن تمتد إليها بسوء، كما يحوطه بانفتاح عجيب على القطاعـات الفقيـرة المسحوقة من أبناء الأمة، من أجل تفهم واقعها المرير، ودفعها إلى مستوى الكفاية، يستند في ذلك كله على قدر من السياسات والموارد، كانت قديرة على تغطية متطلبات العطاء الواسعة التي نفذتها دولتـه الراشدة[(3)].

---

(1)أبو شامة، الروضتين ، ج2، 270.

(2) الكواكب ص 71.

(3) ابن الأثير، الباهر، ص 163. أبو شامة الروضتين، ج1، ص 33.خليل، نور الدين، ص 94.

كانت الضرائب قبل قيام دولة نور الدين تتزايد مع الزمن؛ ففي مصر التي كانت تخضع للحكم الفاطمي العبيدي – قبل أن يتم توحيدها ضمن الدولة النورية – كان يأخذ على البضائع مكساً (ضريبة) تصل إلى خمسة وأربعين في المائة من قيمتها، وابتكر الفاطميون " أشياء بعد أشياء ناء الناس بثقلها، حتى استغنى الكثير من التجار عن المتاجرة، وأخفى الناس أموالهم، وأصبحوا مع حكامهم في بلاءٍ شديدٍ، وارتفعت نسبة الخراج الذي كان يجبى على الأرض حتى لم يبق للزراع ما ينفقون به، وأصبح الحكام يكلون جباية الضرائب إلى نفرٍ من الجهابذة التزاماً، فيدفع الواحد منهم مبلغاً، ثم يجبي أضعافه من الناس"[1]، وظل الأمر كذلك حتى كان الفتح النوري لمصر.

وأخذ نور الدين في تنفيذ سياسة إلغاء المكوس منُذ مرحلة مبكرة من حكمه، وكان حيناً بعد حين – يصدر الأوامر، ويعمّم الكتب، والمناشير بإسقاط حشود الضرائب (اللا شرعية)، التي كانت تأخذ بخناق المواطنين من جراء سياسات الابتزاز التي اعتمدها الحكام، والأمراء الذين سبقوا نور الدين، والتي كان لا يزال العديد من الحكام، والأمراء، الذين عاصروه يعتمدونها، وكانت شعبيّته تزداد باطّرادٍ عجيبٍ في خطٍ متواز مع مقادير الضرائب التي كان يطلقها[2]. وهذا يؤكد بأن إجراءات نور الدين الضرائبية جاءت تعزيزاً لسياسته الدائبة من أجل تحقيق العدل الاجتماعي، وكان ينتهز الفرص المناسبة كفتح من الفتوح، أو انتصار من الانتصارات، أو حادثٍ من الأحداث، أو كلمة ذكرى تهز الفكر، وتستجيش عواطف التجرّد، والعطاء[3].

وأشارت المصادر إلى حدوث عدة حالات للإلغاء في عام 551هـ/1156م، فمن خلال نقش يرجع للعام المذكور وجد على باب الشاغور من أبواب دمشق تم إلغاء حق التسفير على التجار المسافرين إلى العراق، والعائدين إلى دمشق([4])، وتكرر الإلغاء في أعوام 554هـ/ 1159م([5])، وعام 558هـ/1163م([6])، وعام 563هـ/1167م([7])، وعام 566هـ/ 1170م([8])، وعام 567هـ/1171م ([9])، حتى بلغ مجموع ما ألغي من مكوس حتى العام الأخير 567هـ/1171م مقدار 586.460 ديناراً، أي ما يعادل نصف مليون دينار([10])، وهذا يدل على اتساع حجم التجارة كما سيأتي تفصيل ذلك.

---

(1) ابن جبير، تذكرة، ص55. مؤنس، نور الدين، ص 402.

(2) خليل، نور الدين، ص 95.

(3) المرجع نفسه ص 95.

(4) عوض، السياسة، ص46.

(5) ابن العديم، زبدة، ص308.

(6) المصدر نفسه، 315.

(7) المصدر نفسه، 325.

(8) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج1، ق8، ص282. ابن العماد، شذرات، ج4، ص221.

(9) ابن العديم، زبدة، ص334.

(10) المصدر نفسه.

ففي دمشق عام 549هـ/1154م، أصدر منشوراً بإسقاط المكوس، والضمانات، والضرائب ،والغرامات المفروضة على عددٍ من البضائع والأسواق: " دور البطيح، سوق الخيل، سوق البقل، ضمان الأنهار[1]، سوق الغنم، الكيالة، وغيرها، وقريء المنشور على المنبر: فاستبشر الناس بصلاح الحال، وأعلن الناس، والفلاحون، والحرم، والمتعيشون، برفع الدعاء إلى الله سبحانه بدوام أيامه"([2])، كما أزال عنهم ضريبة كانوا يدفعونها للصليبيين تسمى الفسة([3]).

وفي عام 552هـ/1157م، أصدر منشوره الشهير بإلغاء حشد كبير من المظالم، والمكوس شمل معظم أنحاء دولته، وجاوز المائة والخمسين ألف دينار، وقد جاء فيه : .. هذا ما تقرب به إلى الله تعالى صافحاً، وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعاية – رعاهم الله – لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكفار .. أبادهم الله تعالى ... ثم يعرض من المنشور بعد هذه المقدمة قائمة بالمواقع التي شملها الإلغاء، والمبالغ التي أعفيت من دفعها، وتشمل المناطق، والمصالح الآتية: " في كل سنة من العين مئة ألف، و ستة وخمسين ألف دينار جهة ذلك: حلب خمسون ألف دينار، عزاز عن مكس جددته الفرنج خذلهم الله على المسافرين عشرة آلاف دينار، تل باشر واحد وعشرون ألف دينار، المعرة ثلاثة آلاف دينار، حمص ستة وعشرون ألف دينار، حران خمسة آلاف دينار، سنجار ألف دينار، الرحبة عشرة آلاف دينار، عداد العرب عشرة آلاف دينار" كل ذلك بالإضافة إلى " ما وقفه، وتصدق به، و أجراه في سبل الخيرات، ووجوه البر، والصدقات تقدير ثمنه مئتا ألف دينار، و تقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار، من ذلك: ما وقفه على المدارس الحنفية، و الشافعية، والمالكية و الحنبلية، وأئمتها، ومدرسيها، وفقهائها، وما وقفه على آدر (دور) الصوفية، والربط، والجسور، و البيمارستانات، والجوامع، والمساجد، والأسوار، وما وقفه على السبيل في طريق الحجاز، وما وقفه على فكاك الأسرى، و تعليم الأيتام، ومقر الغرباء، وفقراء المسلمين، وما وقفه على الأشراف العلويين، والعباسيين، وما ملكه لجماعة من الأولياء، والغزاة، والمجاهدين؛ هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور حرسها الله تعالى من أملاكهم التي تقدم ذكرها، فإنه يضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه"([4]).

وبعد ضمه للموصل عام 566هـ/1170م، لم يشأ إلا أن يسقط عن أهليها ما كانوا يرزحون تحته من الغرامات، والضرائب، والمكوس، وشمل ذلك أيضاً عدداً من المدن الجزرية كابور ونصيبين وغيرهما، وأصدر بذلك عدة مناشير من إنشاء العماد الأصفهاني لكي يقرأ على الناس جاء فيه: " قد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال فسحقاً للسحت، وحقاً للحرام الحقيق بالمقت، وتقدمنا بإسقاط

---

(1) أي احتكار توزيع الماء للري، والشرب.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص306–307.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص70–71.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص71.

كل مكس، وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة، أو قريبة، وإزالة كل جهة مشتبهة، ومحو كل سنة سيئة شنيعة، وإحياء كل سنة حسنة، وانتهاز كل فرصة في الخير ممكنة، وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظورة خوفاً من عواقبها الرديئة المحظورة، فلا يبقى في جميع ولايتنا جور جائر جارياً، وهذا حق الله قضيناه وواجب علينا أديناه"[1].

وكذلك الحال بالنسبة لمصر فبعد ضمها للدولة النورية عام 567هـ/1171م رفع صلاح الدين – نائب نور الدين على مصر– " جميع المكوس صادرها، ووارداها جليلها، وحقيرها"[2].

وقد بين ابن الأثير كيف أن المكس في مصر كان يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً، فأطلقها نور الدين، وهذا لم تتسع له نفس غيره"[3]، ويؤكد الأصفهاني[4] أن عام 567هـ/1171م ،قد شهد حملة شاملة أخرى من حملات نور الدين، لإسقاط المظالم، والمكوس التي كانت تفرضها الدولة الفاطمية على أهل مصر، وزوارها.

ولقد أثنى ابن جبير([5]) الذي زار مصر، وبلاد الشام بعد عشر سنوات من وفاة نور الدين، على ما أحدثه صلاح الدين في هذا المجال، فقال: " ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله تعالى وآثاره التي أبقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا، إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين – يقصد الفاطميين– فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استيدائها عنتاً مجحفاً، ويسامون فيها خطة خسف باهظة، وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته أو لا نفقة عنده، فيلزم أداء الضريبة المعلومة، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية على كل رأس"، و كان الإدريسي([6]) الذي زار مصر قبل ابن جبير بحوإلى عقدين من الزمان، قد أكد على وجود مثل هذه المكوس التي تفرضها الدولة الفاطمية على الحجاج عند ميناء عيذاب على البحر الأحمر، وخاصة على المغاربة، ويبدو أنه كان مستاءً منها، والواقع انه لم يصرح بإلغائها، لأنه وصل مصر، ولما تكن مصر قد فتحت على يد صلاح الدين، ولم تكن الخلافة الفاطمية قد سقطت بعد.

وفي عام 569هـ السنة التي توفي فيها نور الدين قام بحملة تطهير أخرى للضرائب، فأسقط ما أطلق عليه " فريضة الأتبان "([7]) في بلاد الشام، وأصدر بذلك منشوراً من إنشاء العماد الأصفهاني.

---

(1)أبو شامة، الروضتين، ج2، ص171.

(2) ابن الأثير ، الباهر ص 166. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص138.

(3) ابن الأثير ، الباهر ص 166.

(4) البرق ص 143. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص233، وقد حفظ لنا وثيقة تتعلق بهذا الأمر.

(5) تذكرة، ص55.

(6) نزهة، ج1، ص135.

(7) ما كان يفرض على بقايا الحصاد بعد دراسة المحاصيل الزراعية سواء بالحصادات أو غيرها. انظر: ابن منظور، لسان، ج9، ص247.

وقد اطلع أبو شامة على نسخة المنشور، وعلامته بخط نور الدين "الحمد لله"، ومما جاء فيه: وبعـــد: " فإن من سنتنا العادلة، وعوائد دولتنا القاهرة، إشاعة المعروف، وإغاثة الملهوف، وإنصاف المظلـــوم، وإعفاء رسم ما سنه الظالمون من جائرات الرسوم، وما نزال نجدّد للرعية رسماً من الإحسان يرتعون في رياضة، ونستقرئ أعمال بلادنا المحروسة، ونصفّها من الشبهة والشوائب، ونلحق ما يعثر عليـــه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس، والضرائب تقرباً إلى الله تعالى"[1].

وعندما دخل شيزر عام 552هـ بعد أن خربتها الزلازل لم يكن لينسى أن هنالك مالاً كثيراً خلفه أميرها السابق، وأن عليه المطالبة به، والبحث عنه، لأنه أصبح جزءاً من أموال الأمة، ويـــذكر ابـــن العديم كيف أنه سأل زوجة الأمير عن هذا المال، وهددها، وكيف أنها ذكرت له أن الدار سقطت عليها ،وعليهم وأخرجت هي حية من دونهم، وأنها لا تعلم شيء، وإن كان ثمة شيء، فهو تحت الأنقاض[2]، ولا ندري إن كان المال قد عثر عليه أم لا ؟ ولكن الأهم من هذا هو دلالة الموقف نفسه[3].

لقد أظهر نور الدين محمود من خلال سياسته الاجتماعية، والمالية حرصه الكبير على الأموال العامة، وأموال الأمة التي هي حصيلة كدّها وعرقها، سواء كان هذا المال ملكية خاصة في أيدي الناس ،أم عامة في أيدي الدولة .

ومهما يكن من أمر فإن نور الدين ومع نهاية حكمه كان قد أسقط " كل ما يدخل فـــي شـــبهة الحرام فما أبقى سوى الجزية والخراج وما تحصل من قسمة الغلات "([4]).

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، 270. البرق ص 143.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، 331. 333. 356. ابن العديم، زبدة حلب، ج2، ص307.

(3) مؤنس، نور الدين محمود ص 105.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج2، 270.

ثانيا: النفقات:

إن حاجات مشروع نهوض الأمة متعددة تحتاج إلى أموال طائلة لتغطيتها، وقد جاء اهتمام نور الدين محمود بالقوة الاقتصادية، وجعلها في خدمة الأمة، والدعوة، وسياسة الدولة، وقادة الفكر، ودّعم بها مشروعه النهضوي.

1- الإنفاق على المصالح العامة:

سعى نور الدين محمود إلى تقديم أوسع الخدمات الاجتماعية لشعبه، وجعل مؤسسات الدولة أدوات صالحة في خدمة الجماهير، وسعت لتغطية شتى الحاجات: ابتداء من قضايا المسكن، والملبس ،والمأكل، وانتهاء بقضايا الروح، ومروراً بالحاجات الفكرية، والصحية، والعمرانية، والإنتاجية، وقد أخذت هذه الخدمات أساليباً، وأشكالاً مختلفة، فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال، وحيناً عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة، أو الفكاك من الأسر، وحيناً ثالثاً عن طريق إنشاء مؤسسات ومرافق: كالبيمارستانات، والملاجيء، ودور الأيتام، والمدارس، ودور الحديث، والخانات ،والربط، والجسور، والقناطر، والقنوات، والأسواق، والحمامات، والطرق العامة، والمخافر، والخنادق والأسوار، وحيناً رابعاً تجئ عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها، وتنظيمها، وازدهارها، وحيناً خامساً عن طريق عدد من الإجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الأمة[1].

وكان نور الدين يرى في الدولة جهاز خدمة وانجاز، لا أداة قسر واستنزاف، فزمانه كما يقول أبو شامة: " مصروف إلى مصالح الناس، والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهم"[2].

ثالثا: النظام الاقتصادي:

1- الزراعة وملكية الأراضي:

اعتمد نور الدين على سياسة زراعية سليمة كانت بمثابة المفتاح الذي أغفله كثير من الساسة لتنمية الدخل القومي تنمية طبيعية في عصرٍ كان النشاط الزراعي فيه يمثل الفاعلية المحورية في عالم الاقتصاد، فهو من جهة سعى إلى حماية المزارعين، والفلاحين من كافة صنوف الأذى، والتخريب ،والعدوان التي كان يمكن أن تلحق كدهم، وتعبهم من جراء حالة الحرب المستمرة، وتحرك الجيوش الدائم، وتحوّل الأرض الشامية إلى ساحة قتال لا تعرف طعم السلم إلا قليلاً .

وقد مّر بنا كيف أن نور الدين خلال هجماته المستمرة على دمشق طيلة الأربعينات كان يشدد على أصحابه، وجنده ألاّ يفسدوا المزارع، والضياع، والقرى، وألاّ يأخذوا شيئاً من مزارع ما بغير

(1) ابن عساكر، ج2، ص295، 308، 311، 318، 319، 378، 381، 384، 408، ج6، ص33، ج7، ص299، ج27، ص82، ج32، ص235، ج36، ص412. ج37، ص342، ج57، ص118-121. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص45-46. 71.
(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص62.

حق .. كما أنه أعلن نفسه حامياً للفلاحين، فيذكر ابن القلانسي أنه لما سمع نور الدين نبأ تحالف دمشق مع الصليبيين قال: " لا أنحرف عن جهادهم". وهو مع ذلك كافاً أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضياع، وإحسان الرأي في الفلاحين، والتخفيف عنهم.

وقد كتب إلى زعماء دمشق: إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران، والعربان بأن الفلاحين الذين أخذت أموالهم، وشتت نساؤهم، وأطفالهم بيد الفرنج، وعدم الناصر لهم، ولا يسعني مع ما أعطاني الله من الاقتدار على نصرة المسلمين، وجهاد المشركين، وكثرة المال، والرجال، ولا يحل لي القعود عنهم، والانتصار لهم[1].

وقد نجح نور الدين في كسب الفلاحين، ومثلوا دعماً حربياً متجدداً للجيش النوري([2])، وساعدتهم الدولة على الاستفادة من إمكاناتهم المتميزة في مجال الزراعة، فقد امتازت أقاليم الدولة النورية بخصوبة التربة بصفة عامة، وتوافر مصادر الري سواء من الأمطار([3])، أو الينابيع، والآبار والعيون([4])، أوالأنهار؛ وقد وصف ابن العديم([5]) نهر القويق في حلب، فذكر أن هذا النهر " يبقى حول المدينة كالساقية لأن أهل القرى يسقون من مائه، والذي يصل منه إلى حيلان([6]) يتقسمه أرباب البساتين الشمالية يسقونها منه ". أما نهر البردان فإنه " يسقي بساتين مرعش([7])، وضياعها "([8]). و أما أهل حماه، وحمص فإن "عامة سقي بساتينهم " من نهر العاصي([9]). وفي باعشيقا([10]) " نهر جار يسقي بساتينها، وتدار به عدة أرحاء "([11]).

---

(1) ابن القلانسي، ذيل، ص308. أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص239.

(2) ابن القلانسي، ذيل، ص ص304–305،340. ابن العديم، بغية الطلب،ج10، ص4419. أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص304،329،204، 341، ج2، ص243. ج3، ص171.

(3) ابن القلانسي، ذي، ص303. ياقوت، معجم، ج4، ص470. الإدريسي، نزهة، ج1، ص356. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص240–241. ج3، ص199. ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص133، 141، ص240،133.

(4) ياقوت، معجم، ج1، ص409. ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص389–390 . النويري، نهاية، ج8، ص257.

(5) بغية الطلب، ج1، ص355.

(6) حيلان: بالفتح من قرى حلب تخرج منها عين فوارة كثيرة الماء تسيح إلى حلب وتدخل إليها في قناة وتتفرق إلى الجامع وإلى جميع مدينة حلب. ياقوت، معجم البلدان، ج 2، ص 332.

(7) مرعش: مدينة من أعمال حلب عامرة ولها مياه وزروع وأشجار. ياقوت، معجم البلدان، ج 5، ص 107. ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص235

(8) ياقوت، معجم، ج1، ص 367.

(9) ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص390.

(10) باعشيقا: الشين معجمة مكسورة، وياء ساكنة، وقاف مقصورة من قرى الموصل، وهي مدينة من نواحي نينوى في شرقي دجلة. ياقوت، معجم، ج1، ص224.

(11) ياقوت، معجم، ج1، ص224.

وقد حرصت الدولة على تشييد شبكة محكمة من القنوات لإيصال مياه الأنهار إلى المناطق المزروعة، والآهلة بالسكان([1])، واهتمت كذلك بمشاريع الري، كإقامة الأرحاء([2])، والنواعير؛ نظراً لأهميتها في تنظيم إيصال المياه، فنهر العاصى بالنسبة لأهل حماة لا يمكن الانتفاع به " في السقي والزرع إلا بالنواعير، فإن عامة سقي بساتينهم منه بالنواعير، وكذلك الماء الذي يدخل إلى منازلهم "([3]).

ولقد اشتملت الدولة النورية على أراضٍ تعد من أخصب الأراضي في الدولة الإسلامية، فمدينة حلب، والعديد من المناطق السهلية التي خضعت للسيطرة النورية قد عرفت زراعة عددٍ من المحاصيل مثل: القطن، والسمسم، والبطيخ، والخيار، والدخن، والكروم، والذرة، والمشمش، والتين، والتفاح، وهي محاصيل بعلية تعتمد على مياه الأمطار([4])، وهي تتفوق على ما يزرع من المحاصيل التي تعتمد على مصادر المائية الأخرى غير مياه الأمطار([5])، وقد تتوقف زراعة هذه المحاصيل في حال انقطع هطول المطر مثلما حدث في شهر رجب سنة 543هـ/ الموافق لشهر نوفمبر 1148م، حيث أن" الغيث أمسك عن الأعمال الحورانية، والغوطية، والبقاعية بحيث امتنع الناس من الزراعة "([6])، وما أن هطل المطر في الشهر التالي حتى عاد الفلاحون لممارسة " الزراعة، فاستكثروا منها، وزادوا في الفلاحة "([7]).

وقد وصف ابن العديم([8]) تل باشر التابعة لحلب فقال: " بساتينها كثيرة، ومياهها غزيرة ،وأجاصها موصوف مذكور، وشرب بلدها جميعه من نهر الساجور، وهو نهر أصله من عين تاب تجتمع إليه عيون ببلد عين تاب، ويجري إلى قرية تعرف بالنفاخ، وتجتمع إليه عيون أخر من بلد تل باشر، ثم ينتهي إلى الفرات، ويصب فيه ". ووصفت مرعش، وهي: مدينة من أعمال حلب بأن لها مياه وزروع وأشجار([9])، والحدث كذلك " كثيرة الماء، والزرع، وحولها أنهار كثيرة "([10]).

---

(1) ابن عساكر، تاريخ، ج2، ص378. 381، 384. الإدريسي، نزهة، ج1، ص374. ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص390. ابن شداد، الأعلاق، ج1، ص50، 65.

(2) الإدريسي، نزهة، ج1، ص369. ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص390.

(3) ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص390.

(4) الإدريسي، نزهة، ج2، ص652. ياقوت، معجم، ج2، ص284. ج2، ص102. ج4، ص470. ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص134. 249. النويري، نهاية، ج8، ص257.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص285.

(6) ابن القلانسي، ذيل، ص303.

(7) المصدر نفسه.

(8) بغية الطلب، ج1، ص321.

(9) المصدر نفسه، ج1، ص235.

(10) المصدر نفسه، ج1، ص239.

و دلوك " حولها مياه كثيرة، وبساتين، وهي كثيرة الفواكه، والكروم "([1]).

وقد علل ابن العديم([2]) تسمية منطقة نهر الذهب من أعمال حلب بهذا الاسم بما نقله عن والده – والذي كان معاصراً لحكم نور الدين – لأنه ذهب كله باعتبار ما يؤول إليه فهو غزير الإنتاج من القطن، والبصل، والثوم، والكسفرة، والكراويا، والخشخاش، والحبة السوداء، والحبة ضراء، وبزر البقلة.

وتعتمد معرة مصرين من عمل حلب على الزراعة البعلية بشكلٍ كبيرٍ فيزرع " فيها البصل ،والثوم، والكسفرة، والحبة، فتأتي على أكمل ما يكون من غير سقي، ومن بلد معرة مصرين إلى جبل السماق بلد التين، والزبيب، والفستق، والسماق، وحبة ضراء "([3])، وصنفت الحاضر من أعمال حلب أيضاً على أنها " قرية كبيرة يسكنها الفلاحون، ويزرع فيها القصيل والأشنان، وغلات القطاني كلها مع ما ينضاف إليها من زيتون، وكمون، وبزر فجل، وبزر كتان، وسمسم، وترمس، وأرز"([4]).

ويشتمل جبل السماق من أعمال حلب الغربية على بساتين، ومزارع تنبت فيها جميع المحاصيل البعلية مثل: " أشجار الفواكه، وغيرها حتى المشمش، والقطن، والسمسم، وغير ذلك، وقيل إنه سمي بذلك لكثرة ما ينبت فيه من السماق "([5]). ويشتمل الجبل أيضا على قرية تدعى نواز علي، تشتهر بنوع ممتاز من التفاح الأحمر([6]).

وبالقرب من طرطوس على الساحل الشامي " حصن الجوزات، وفي جبل هذا الحصن شجر جوز مثمر مسافته ثلاثة أميال في عرض ميل، وفي فضاء من عمل الجوزات منبت للأشنان الزبطري فإذا تناهى إدراكه ضموه، وارتفقوا به من هدية وبيع "([7]).

أما معرة النعمان فيتم فيها زراعة الأشجار المثمرة كالزيتون، والكروم، والتين، كما تشتهر بزراعة الفستق، والجوز، وأنواع الفواكه المختلفة([8]).

ويؤكد الإدريسي([9]) أن دمشق " الحنطة فيها كثيرة جداً، وأنواع الفواكه " التي " لا يحيط بها تحصيل، ولا يأتي به تمثيل كثرةً، وخصباً، وطيباً "([10])، وتبعاً لذلك، فإن البلقاء التي هي من أعمال

---

(1)ابن العديم، بغية الطلب، ، ج1، ص261.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص273.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص133–134.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص181–182.

(5) ياقوت، معجم، ج2، ص102.

(6) المصدر نفسه، ج5، ص306.

(7) ياقوت، معجم، ج1، ص212.

(8) الإدريسي، نزهة، ج2، ص652. ابن جبير، ص180.

(9) نزهة، ج1، ص369.

(10) المصدر نفسه، ج1، ص366–367.

دمشق فيها قرى كثيرة، ومزارع واسعة، وتشتهر بأجود أنواع القمح الذي يضرب بجودته المثل([1])، وكذلك ذاع صيت صيديانا من أعمال دمشق في إنتاجها الغزير من الكروم([2]) إلى جانب قرية بيت رأس من نواحي حلب([3]).

وتمتاز أرك([4]) بأنها ذات نخلٍ وزيتونٍ([5])، أما جبل سمعان([6])، فإنه كثير الشجر من التين، والزيتون، والكرم، والكمثرى([7]).

وفي باعشيقا من قرى الموصل، ينتج القطاع الزراعي الزيتون، والنخل، والنارنج([8])، كما أن باصفرا وهي " قريةٌ كبيرةٌ في شرقي الموصل في لحف الجبل كثيرة البساتين والكروم يجيء عنبها في وسط الشتاء "([9]).

وبالنسبة لمصر، وهي الجزء الجنوبي من الدولة النورية، فقد أجمل الإدريسي([10]) الحديث عنها بقوله بأنها: " نافقة بضروب المطاعم، والمشارب، وحسن الملابس، ولها في جميع جوانبها بساتين، وجنات، وشجر، ونخل، وقصب سكر، وكل ذلك يسقى بماء النيل، ومزارعها ممتدة من أسوان إلى حد الإسكندرية، ويقيم الماء في أرضهم بالريف منذ ابتداء الحر إلى ريف، ثم ينضب فيزرع عليه ،ثم لا يسقى بعد ذلك ما زرع عليه، ولا يحتاج إلى سقي البتة ".

ومن مدن مصر الشهيرة مدينة الفيوم وهي: " ذات بساتين، وأشجار، وفواكه، وغلات "([11])، وتشتمل مدينة بياض القريبة من الفيوم " على ضروب من الفواكة "([12]). هي ، ومنطقة منية العسل([13]) ، وفي صحرشت الصغرى على الضفة الغربية من نهر النيل " من غلات السمسم، والقنب

---

(1) ياقوت، معجم، ج1، ص489.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص348.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص520.

(4) أرك: مدينة صغيرة في طرف برية حلب قرب تدمر. ياقوت، معجم، ج1، ص153.

(5) ياقوت، معجم، ج1، ص153.

(6) جبل سمعان: غربي مدينة حلب أوله شمالي جبل جوشن، ثم يمتد غربا ويتصل بجبال عدة محسوبة منه إلى كورة تيزين، وهو جبل نزه. ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص417.

(7) ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص417.

(8) ياقوت، معجم، ج1، ص325.

(9) ياقوت، معجم، ج1، ص324.

(10) نزهة، ج1، ص324.

(11) المصدر نفسه، ج1، ص327.

(12) المصدر نفسه، ج1، ص329.

(13) المصدر نفسه، ج1، ص333.

وأنواع الحبوب كل حسن "([1])، كما أن " منية الفيران في الجهة الغربية قرية يزرع بها غلات الكمون ،والبصل "([2]).

ويصف الإدريسي([3]) مدينة رشيد فيذكر بأن فيها " مزارع، وغلات حنطة، وشعير، وبها جمل وبقول حسنة كثيرة، ولها نخلٌ كثيرٌ، وأنواع من الفواكه الرطبة ".

وتنتج مدينة القيس على ضفة النيل، وبغربيه أنواع عديدة من التمور، وفي مدينة الأشموني " نخيل، وزروع، وضروب من الحبوب، والفواكه "([4]).

وفي الضفة الغربية من النيل، وفوق فم خليج المنهى مدينة تسمى زماخر، وهي " تحتوي على ضروب من الفواكه، وجمل من أنواع الحبوب "([5]). أما مدينة قفط على ضفة النيل من الجهة الشرقية فإن بها مزارع كثيرة للبقول، واللفت والخس "([6]).

ومدينة دماميل " كثيرة الزراعات ممكنة الحنطة، وسائر الحبوب "([7])، أما قرية قمولة، فيقول الإدريسي([8]): بأن " بها أنواعاً من الفواكه، وضروباً من الثمر من جملتها عنب ما توهمت أن على الأرض مثله طيباً، وحسناً، وكبراً، حتى إنه دعتني نفسي إلى أن وزنت منه حبة، فوجدت في زنتها اثني عشر درهماً "، كما أن فيها من " أنواع الموز ما يجل عن المقدار المعهود، وكذلك من الرمان، والسفرجل، والأجاص، وسائر الفواكه ما لايكون إلا بمثلها، وكل شيء من ذلك كثير يباع بأيسر الأثمان "([9]).

كما تنتج العديد من المدن المصرية كمياتٍ كبيرةً من قصب السكر، الذي تقوم عليه صناعة السكر([10]).

وتزدهر في قرية حانوت " زراعة الكتان، وهو غلتها، وعليها يعول أهلها، ونبات الكتان يجود فيها "([11]). وفي أسيوط " السفرجل تزيد في كثرته على كل بلد "([12]).

---

(1) نزهة المشتاق، ج1، ص333.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص334.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص343.

(4) المصدر نفسه. ج1، ص124.

(5) المصدر نفسه. ج1، ص127.

(6) المصدر نفسه. ج1، ص128.

(7) المصدر نفسه، ج1، ص 129.

(8) نزهة. ج1، ص 129.

(9) الإدريسي، نزهة، ج1، ص 129.

(10) المصدر نفسه. ج1، ص124–126، 131. 329–331، 335. ياقوت، معجم، ج1، ص193. 514. ج3، ص436.

(11) الإدريسي، نزهة، ج1، ص334.

(12) ياقوت، معجم، ج1، ص193.

وهكذا فإن أراضي الدولة النورية التي امتدت من الجزيرة الفراتية، وحلب شمالاً، وحتى مصر جنوباً، قد اشتملت على أراضٍ خصبةٍ تنوعت محاصيلها، مما مثل للدولة النورية ثروة اقتصادية هائلة لم تكن لتتوفر لأي دولةٍ في ذلك العصر، وساعد ذلك على ظهور دول مشابهة احتلت نفس المناطق النورية مع اتساع أكبر، وأقصد بذلك الدولة الأيوبية، ثم دولة المماليك بشقيها البحري والشركسي.

2- المجال الصناعي :

لقد امتازت الدولة النورية بتوفر المواد الخام اللازمة للتصنيع([1])، وكذلك العمال، والصناع المهرة([2])، ووسائل النقل على الدواب([3])، مما ساهم في تطور الجانب الصناعي في الدولة النورية؛ هذا الجانب الذي يعد من الجوانب الاقتصادية المهمة التي شهدتها الدولة النورية، وقد أشارت المصادر المختلفة إلى وجود ضروبٍ من الصناعات في مختلف المناطق التي سيطر عليها نور الدين، كصناعة المنسوجات القطنية، والصوفية، والحرير، خاصة ثياب الدمسك المنسوب لمدينة دمشق، والموسلين المصنوع في الموصل(4).

فقد أشار الإدريسي([5]) المعاصر لنور الدين إلى اشتمال مدينة دمشق على عددٍ من الصناعات، ويركز خلال عرضه لهذه الصناعات على صناعة الملابس مثل الخز، والديباج النفيس الذي أعجب بصناعته، مما جعله يؤكد على أنه "عديم المثال"([6])، فهو يتفوق على جميع أنواع الأقمشة في المدن الكبرى، وفي النهاية فإن الثياب الدمشقية لا تنافسها([7]).

وواقع الأمر فإن ما أورده الإدريسي وهو شاهد عيان يعكس بوضوح مدى التفوق الذي حققته صناعة الثياب الدمشقية في عهد السلطان الملك العادل نور الدين محمود، الذي ازدهر الإنتاج الصناعي عامة في عهده، وشهادة الإدريسي شهادة رجل قدم من سبته بالمغرب الأقصى، وطاف العديد من بقاع العالم المعمور آنذاك، وشمل ترحاله قارات العالم القديم، فهي فريدة في نوعها، وتعكس التفوق العالمي للثياب الدمشقية في ذلك العصر على غيرها من الثياب([8]).

ولعل براعة الصناعة الدمشقية هي التي جعلت الإدريسي يقرر بأن دمشق تجارتها رابحة([9]).

---

(1) الإدريسي، نزهة، ج1، ص371. ياقوت، معجم، ج1، 426. ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص223، 247.

(2) الإدريسي، نزهة، ج1، ص297. ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص412،182.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص175. ابن العديم، بغية الطلب، ج6، ص2746.

(4) عوض، السياسة ارجية ص 43. الحويري، الأوضاع، ص136.

(5) نزهة، ج1، ص369.، وانظر: على، أضواء، ص192. عوض، الجغرافيون، ص26، حاشية 41.

(6) الإدريسي، نزهة، ج1، ص369.

(7) المصدر نفسه.

(8) عوض، الجغرافيون، ص26.

(9) الإدريسي، نزهة، ج1، ص369.

وقد عكست عبارته مدى الثراء الكبير الذي حققته تلك المدينة من عوائد النشاط التجاري، حيث ذكر أن ديباجها يحمل منها ليصدر إلى كافة الأرجاء القريبة، والبعيدة([1]).

ومن الواضح أن الصناعة الدمشقية المتقدمة في ذلك العصر أوردت التجارة الدمشقية بزاد مهم للتصدير.

وقد دخل الديباج الدمشقي كسلعة مهمة في التجارة الدولية في العصور الوسطى، ومن ثم أتت رواية الإدريسي في هذا الشأن دالة على ذلك([2]).

ولم تكن الصناعة الحلبية بأقل أهمية من الصناعة الدمشقية، فقد ذاع صيت قماش البز الحلبي مما جعل ياقوت الحموي([3]) يجزم بأن " من عجائب حلب أن في قيسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون ألف ديناراً، ومستمر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن " أي إلى زمان ياقوت الحموي.

ولقد شاهد ابن جبير([4]) خلال زيارته لحلب المصانع التي قرر أنها " متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية وكلها مسقف بالخشب، فسكانها في ظلال وارفة، فكل سوق منها تقيد الأبصار حسنا، وستوقف المستوفز تعجبا ".

وإذا ما تحدثنا عن الشق الجنوبي من الدولة النورية، وما تنتجه من الصناعات، فإن الحديث يطول، وسنقتصر على ما أورده الإدريسي – المعاصر لنو الدين– من إشارات حول أهم الصناعات النسيجية التي كانت لاتزال مزدهرة حتى فترة زيارته التي قام بها، وهي نفس الفترة التي كان ينوب فيها صلاح الدين عن نور الدين في حكم مصر، ولنأخذ على سبيل المثال مدينة البهنسا حيث يقول الإدريسي: " وبهذه المدينة كانت وإلى الآن – زمان الإدريسي المعاصر لنور الدين– طرز ينسج بها للخاصة الستور المعروفة بالبهنسية والمقاطع السلطانية والمضارب الكبار والثياب المتخيرة، وبها طرز كثيرة للعامة يقيم بها التجار، وجدير ذكره أن الستور الثمينه طول الستر منها ثلاثون ذراعاً، وأزيد، وأنقص مما قيمة الزوج منها مائتا مثقال، وأكثر من ذلك، وأقل، ولا يصنع فيها شيء من الستور، والأكسية، وسائر الثياب المتخذة من الصوف والقطن إلا وفيها اسم الطرز المتخذة بها.

---

(1)الإدريسي، نزهة، ج1، ص369..

(2) عوض، الجغرافيون، ص27.

(3) معجم، ج2، ص284.

(4) تذكرة، ص178.

كانت من طرز الخاصة، أو من طرز العامة سمة مكتوبة فعلها الجيل المتقدم وتبعهم على ذلك من خلفهم من الصناع إلى حين وقتنا هذا وهذه الستور والفرش والأكسية مشهورة في جميع الأرض "([1]).

وفي مدينة الأشموني يتم صناعة الثياب الأشمونية المعروفة وبكميات كبيرة([2]). ويذكر الإدريسي أن في مدينة طحا وهي أسفل من مدينة الأشموني يعمل بها وفي طرزها ستور صوف وأكسية صوف منسوب إليها "([3]).

وكذلك الحال بالنسبة لدمياط التي يصنع فيها الثياب الديبقية الذي وصفه الإدريسي بأنه " غريب الصنع "([4]). ويذكر الإدريسي([5]) أن هذه الثياب تقارب تلك المنسوبة إلى تنيس المجاورة لدمياط ، والمصنوعة أصلا في دبيق([6]) وتنسب إليها الثياب الدبيقية([7]).

وفي مدينة دميرة عددٌ كبيرٌ من الصناع الذين يقومون بصناعة " ثياب حسنة يتجهز بها إلى كثير من البلاد "([8]). وفي " أسيوط من عمل مصر مناسج الأرمني والدبيقي المثلث "([9]).

وكان يتم صبغ الملابس بمواد طبيعية مستخلصة من النباتات، كالصبغة الحمراء التي كانت تستخلص من نبات الفوة([10])، والنيلة البرية التي كانت تزرع في الصعيد، والواحات([11])، وقد حذر المحتسب الصباغين الغش بصبغ الثياب بالحنة عوضا عن النيلة لأن الصبغ بالحناء إذا تعرض للشمس تغير لونه، وزال إشراقه([12]).

وإلى جانب الصناعات النسيجية كانت الصناعات الغذائية التي لم يكن للسكان غنى عنها، فنظراً لتوفر المادة الخام الزراعية من قصب السكر انتشرت معاصر القصب في العديد من المدن

---

(1) الإدريسي، نزهة، ج1، ص120.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص124.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص125.

(4) الإدريسي، نزهة ، ج1، ص338.

(5) المصدر نفسه.

(6) بليدة كانت بين الفرما وتنيس من أعمال مصر. ياقوت، معجم، ج2، ص438.

(7) ياقوت، معجم، ج2، ص438.

(8) الإدريسي، نزهة ، ج1، ص339.

(9) ياقوت، معجم، ج1، ص193.

(10) الشيزري، نهاية، ص72.

(11) الإدريسي، نزهة ، ج1، ص122.

(12) الشيزري، نهاية، ص72.

المصرية و شهدت رواجاً في صناعة السكر([1]). فأسيوط يوجد فيها أنواع عديدة من السكر " لا يخلو منه بلد إسلامي ولا جاهلي "([2]).

وجعل للسكر في مصر مؤسسة خاصة تسمى دار السكر يبدو أنها اختصت بتنظيم أمور محصول السكر الذي كان يتم عصره في معاصر خاصة كانت منتشرة في المدن المصرية كما أسلفنا.

ولقد أدى وجود السكر سواء في مصر، أو بلاد الشام إلى تطور صناعة الحلويات، فذاع صيت بلاد الشام في صناعة الزلابية التي عقد الشيزري (ت589هـ)([3]) لها باباً خاصاً في كيفية الحسبة على القائمين بصناعتها، وهي نوع من أنواع الحلويات التي يدخل في مكوناتها العسل، واللوز مع السميد، والدقيق الناعم، ويتم طهيها بالزيت([4])، كما ويدخل السكر في صناعة الدبس([5])، والأشربة المعدة لعلاج المرضى([6]).

وقد احتلت مدينة دمشق مكانة خاصة في مجال صناعة الحلويات بحيث صنعت فيها أصناف لم يشاهد الإدريسي مثيلاً لها في كافة البلدان التي زارها([7]). وفي مدينتي ترفة، وسمسطا المصريتين يصنع من قصب السكر نوع من أنواع الحلوى يسمى الفانيد([8]) يذكر ابن منظور([9]) أنه مصنوع من القند، وهو عصارة قصب السكر إذا جمد، وأدت جودة هذا النوع من الحلويات إلى رواجه في أنحاء مصر([10])

ومن الصناعات الغذائية التي كانت موجودة في الدولة النورية، صناعة الأطعمة المجففة كالزبيب نظراً لانتشار مزارع الكروم في مصر، وبلاد الشام، فقد اشتهرت مدينة أسنا غربي النيل في صناعة الزبيب الذي تذوقه الإدريسي([11])، وقرر أنه " بالغ في الطيب وجودة الحلاوة ".

ونظراً لتوفر الزيوت النباتية اللازمة للصناعة، فقد ازدهرت في مدينة فقط المصرية صناعة الصابون من زيت الخس، واللفت بعد عصر بذورهما.

---

(1) الإدريسي، نزهة، ج1، ص335، 339.

(2) ياقوت، معجم، ج1، ص193.

(3) الشيزري، نهاية، ص35.

(4) المصدر نفسه، 75-76.

(5) المصدر نفسه، ص59.

(6) المصدر نفسه، ص61.

(7) الإدريسي، نزهة، ج1، ص369.

(8) المصدر نفسه، ج1، 131. ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص508.

(9) لسان العرب، ج3، ص368، 508.

(10) الإدريسي، نزهة ، ج1، 131.

(11) المصدر نفسه، ج1، 129.

وقد شهدت رواجاً تجارياً في أنحاء مصر، وخارجها، حيث شهد الإدريسي بجودة هذا الصابون بقوله أنه " معروف النظافة "([1]).

وكذلك ازدهرت حينذاك صناعة العطور، والطيب، وماء الورد في حلب([2]).

ومن الصناعات التي كانت رائجة خلال مرحلة الدولة النورية وقبلها، صناعة الزجاج، فقد اشتهرت مدينة حلب بهذه الصناعة حيث توفرت الرمال اللازمة لذلك([3])، وكان لهذه الصناعة سوق خاص بها يسمى سوق الزجاج، وقد شاهده القزويني، وأعجب به([4])، ويرى أن المرء إذا اجتاز بها لا يريد أن يغادر ذلك السوق، وذلك لكثرة ما يشاهده من مصنوعات متقنة([5]).

وقد حمل عدد كبير من مشاهير حلب لقب الزجاج خلال التراجم التي ترجمها ابن العديم لأعلام حلب، مما يعنى انتشار صناعة الزجاج بشكل واسع([6]).

ومن المعروف أن صناعة المنتجات الزجاجية قد ازدهرت في مرحلة الصراع الصليبي الإسلامي في العديد من المدن الشامية([7]).

كما ازدهرت في كفر طاب صناعة دباغة الجلود، والقدور الخزفية، وكان يتم تصديرها([8]).

ومن الصناعات التي كانت في بلاد الشام في تلك المرحلة المهمة من مراحل التاريخ الإسلامي، صناعة الكاغد، أو الورق المستخدم للكتابة، ومن المدن التي شهدت رواجاً لهذه الصناعة: طرسوس([9])، وحلب([10])، كما كانت مدينة دمشق سوقاً رئيسياً لتجارة الورق، ومنها انتقلت هذه الصناعة المهمة إلى أوروبا خلال الحروب الفرنجية الصليبية، وأطلق على الورق المستورد من دمشق اسم الصحائف الدمشقية Charta damascene([11]). وبطبيعة الحال ارتبط بهذه الصناعة المهمة صناعة أخرى ألا وهي: صناعة التجليد الخاص بالمصاحف، والكتب.

وقد برع فيها الشاعر الفلسطيني موفق الدين خالد بن القيسراني الذي كان يجلد تجليداً حسناً، ويكتب خطاً جيداً وكان التجليد سبب تقدمه عند الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وذلك أنه

---

(1) الإدريسي، نزهة، ج1، ص127.

(2) ياقوت، معجم، ج2، ص284.

(3) المصدر نفسه، ج1، 426.

(4) القزويني، آثار، ص183-184.

(5) المصدر نفسه.

(6) ابن العديم، بغية الطلب، انظر على سبيل المثال: ج5، ص2265، وصفحات أخرى.

(7) عوض، الجغرافيون، ص122.

(8) ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص142.

(9) المصدر نفسه. ج1، ص181.

(10) المصدر نفسه. ج7، ص3099.

(11) الحويري، الأوضاع، ص136

وصف تجليده لنور الدين فأحضره ليجلد له كتباً، فوقف على خطه، فأعجبه وراق له، فطلب منه أن يكتب له شعب الإيمان للبيهقي "([1]). كما برز في صناعة التجليد أيضاً أبو بكر المجلد الفقيه الحنفي نقيب المدرسة الحلاوية بحلب، وكان يجلد الكتب في بيته بالمدرسة([2]). وفي مصر وصلت صناعة التجليد إلى درجةٍ كبيرةٍ من الإتقان، ويدل على ذلك الهدية التي أرسلها صلاح الدين إلى نور الدين بعد نجاحه في ضم مصر، وقد وصفها المقريزي بقوله: " خمس ختمات إحداها في ثلاثين جزءاً، مغشاة بأطلس أزرق، ومضببة بصفائح ذهب ، وعليها أقفال من ذهب مكتوبة بخط ذهب ، وأخرى في عشرة أجزاء، مغشاة بديباج فستقي، وأخرى في جلد بخط ابن البواب بقفل ذهب "([3]).

وهناك صناعات بسيطة أخرى انتشرت في مناطق السيطرة النورية، كصناعة الحبال في مدينتي حلب، وطرسوس([4])، وكانت تصنع من لحاء شجر الخزم([5]). واشتهرت سمسطيا في مصر بصناعة نوع من الحبال تسمى " الحزم السمسطية، وهي حزم من الحبل لا يفضل عليها شئ من جنسها ينسب إليها "([6]).

ويلاحظ أنه من خلال استعراض عدد من الصناعات في عهد الدولة النورية يمكن استنتاج عدة ملاحظات مهمة تدور حول معوقات التقدم حينذاك، وهي أن الآلات التي أمكن استخدامها لهم معقدة، ولم توجد المعدات التي يمكن أن تدار عن طريق المعادن، التي وجدت في بلاد الشام، والجزيرة، وظلت الطاقة الأساسية متمثلة في حركة الماء لإدارة الطواحين([7])، كذلك لم يتم استغلال مناجم الحديد والنحاس في بيروت([8])، والموصل، ومناطق أخرى في صناعات ثقيلة، بل إن استخدام الحديد انحصر في صناعة أدوات الطب[9]، والجراحة، وكذلك الأسلحة التي وجد لها سوق في بعض مدن الشام([10])، وأيضاً في بعض أدوات الصناعة البسيطة كالسروج([11])، و" الحديد المحزوز للكراسي الحديد، واللجم، والمهاميز، والعمد، والدبابيس "(12)، وأبواب الخانات المصنوعة من الحديد، والتي شاهدها ابن جبير

---

(1) ابن العديم، بغية الطلب. ج7، ص3099.

(2) المصدر نفسه. ج10، ص4367.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص54.

(4) المصدر نفسه. ج1، ص182، 428.

(5) ياقوت، معجم، ج2، ص367.

(6) المصدر نفسه، ج3، ص250.

(7) الإدريسي، نزهة، ج1، ص369. ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص390.

(8) الإدريسي، نزهة، ج1، ص371.

(9) إسماعيل، سوسيولوجيا، ص 159.

(10) ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص182.

(11) المصدر نفسه، ج1، ص155.

(12) المصدر نفسه، 156.

خلال رحلته في بلاد الشام([1])، وفي مدينة دلاص على الضفة الشرقية من النيل قامت كثير من الصناعات المعدنية، فكانت تصنع اللجم الدلاصية المنسوبة صنعتها إليها "([2]).

ونشطت أيضاً الصناعات الخشبية في الدولة النورية، فبرز عددٌ من النجارين، كان من أبرزهم: مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن الحارثي المهندس، المولود في دمشق، وكان يعرف بالمهندس، لجودة معرفته بالهندسة، وشهرته بها "، وكان نجاراً، وينحت الحجارة أيضاً، وكان تكسبه بصناعة النجارة، وله يدٌ طولى فيها، والناس كثيراً ما يرغبون إلى أعماله، وأكثر أبواب البيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل نور الدين بن زنكي رحمه الله من نجارته، وصنعته"([3]).

واشتملت دمشق على عددٍ كبير من الحرف، فكان هناك القصابين، والخياطين، وذكر ابن عساكر([4]) أنه وفي إحدي الجنازات اجتمع ما يزيد عن خمسين قصاباً وخياطاً للتشييع.

ومن جهة أخرى حرصت الطبقة الوسطى التجارية على استثمار رأس مالها في حركة التجارة الداخلية، والخارجية النشطة، ولم تشأ استثماره في المجال الصناعي[(5)]، حيث رغبت في توظيفه في المجال الذي توارثته، وسبرت أغواره، وهكذا فإن عدم حدوث تغير حقيقي في وسائل الإنتاج، وعدم التوصل إلى استخدام الطاقة، كذلك عدم توافر وعي صناعي للطبقة الوسطى التجارية، أدى إلى أن تكون بلاد الشام، والجزيرة في عهد نور الدين محمود معاصرة لنهضة صناعية لا ثورة، حيث استمرت أساليب الإنتاج التقليدية[(6)].

وهكذا واكبت الحركة الجهادية للدولة النورية، حركة اقتصادية صناعية لا تقل أهمية عن الحركة الجهادية، ولم يمنع الجهاد، والتحرير نور الدين من بناء دولته من جميع الجوانب، ومنها الجانب الصناعي.

---

(1) تذكرة، ص180.

(2) الإدريسي، نزهة، ج1، ص131.

(3) ابن أبي أصيبعة، عيون، ج1، ص669- 670.

(4) تاريخ دمشق، ج52، ص 420.

(5) إسماعيل، سوسيولوجيا، ص 43.

(6)عوض، السياسة ارجية، ص44.

3- المجال التجاري:

اتبعت الدولة النورية سياسة انطوت على الرعاية الكاملة للتجارة الداخلية، وكذلك الخارجية، واستطاعت التحكم في طرق التجارة في إقليم الجزيرة، وخاصة بعد استرداد الرها جعلها تتحكم في طرق التجارة التي تربط بين العراق، وآسيا الصغرى من ناحية، وبلاد الشام من ناحية ثانية. كما أن سيطرة نور الدين بعد ذلك على الأراضي المصرية، وضمها لمشروع الجبهة الإسلامية المتحدة بعد القضاء على الدولة الفاطمية في القاهرة سنة 567هـ/1171م، مكنه من الاتصال بتجارة الهند، والشرق عبر ممرين مائيين هما: الخليج العربي، والبحر الأحمر[1]. وكانت العشور يتم تحصيلها على التجارة التي تمر عبر حدود الدولة النورية سواء الداخلية، أو الخارجة منها، وهي أشبه ما تكون بالرسوم الجمركيّة في العصر الحاضر، ويقوم بتحصيلها موظف يقال له: (العاشر) أي: الذي يأخذ العشور[2] ، ولم يكن لهذه الضريبة وجود في عهد النبّي صلى الله عليه وسلم، وخليفته الأوّل أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – لأنَّ تلك الفترة كانت فترة دعوة إلى الإسلام، والجهاد في سبيل نشره، وبناء الدولة الإسلاميَّة، فلما اتسعت الدولة في عهد الخليفة عمر – رضي الله عنه – وامتَّدت حدودها شرقاً وغرباً وصار التبادل التجاري مع الدول المجاورة ضرورة تمليها المصلحة العامَّة، ورأى الخليفة عمر – رضي الله عنه – أن يفرض تلك الضَّريبة على الوارد إلى دار الإسلام، كما كان أهل الحرب يأخذونها من تجَّار المسلمين القادمين إلى بلادهم، معاملة بالمثل[3]، وقد أجمع المؤرِّخون على أن أوّل من وضع العشر في الإسلام عمر بن الخطاب[4] – رضي الله عنه.

وقد اهتمت الدولة النورية بالحركة التجارية، وإقامة العديد من المؤسسات التجارية مثل: الخانات[5]، والفنادق ، وأورد ابن عساكر[6] العديد منها في مدينة دمشق، وبعلبك(7)، ولم يخف ابن جبير إعجابه بحصانتها، وكثرتها، وقد بات في معظمها خلال ترحاله بين المدن الشامية(8)؛ كذلك شجعت الدولة التجار اليهود على المشاركة في النهضة التجارية التي شهدتها البلاد، وقد استقروا في

---

(1) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص 37.

(2) أبو يوسف، الخراج، ص 271.

(3) الصلابي، عمر بن الخطاب، ص 327.

(4) المرجع نفسه، ص 327.

(5) ابن عساكر، تاريخ، ج5، ص115. ج17، ص247. ج57، ص121. ابن جبير، تذكرة، ص179–180. عثمان، الحدود الإسلامية، ج1،ص234.

(6) ابن عساكر، تاريخ، ج2، ص378، 379. ج5، ص452. ج9، ص220. ج10، ص90. ج36، ص369. ج43، ص37. ج45، ص88.

(7) ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص88.

(8) ابن جبير، تذكرة، ص179–180.

مناطق خطوط التجارة العالمية المارة بمدن الشام، والجزيرة الكبرى مثل: دمشق، وحلب، وشيزر، ومعرة النعمان، والموصل، وغيرها، ففي دمشق مثلاً وجدوا بأعداد كبيرة، وعرفت حارة باسمهم[1].

وقد تزايدت أعدادهم بها حتى بلغوا الآلآف، ووصفوا بأن منهم " ذوو اليسار" [2]، أي أنهم اشتغلوا بالتجارة حيث كانت أكثر المجالات المحققة للثروة، وكذلك وجدوا مجالاً متسعاً في أعمال الصيارفة[3].

وقد تاجرت الدولة النورية مع العديد من الكيانات السياسية في عالم البحر المتوسط، فهناك الإمبراطورية البيزنطية، والقوى التجارية الإيطالية مثل: جنوة، والبندقية، وبيزا، وأمالفى، وتمكن الإيطاليون على نحوٍ خاص من زيادة حجم تجارتهم مع بلاد الشام، والجزيرة، وأقام قناصلهم في المدن الشامية، والجزرية مثل: حلب، ودمشق، والموصل، وغيرها، حيث عملوا على رعاية مصالح بلادهم الاقتصادية[4]، ولا مراء في أن ذلك العهد قد شهد صحوة للطبقة الوسطى التجارية، يدل على ذلك ما نلاحظه من تخصص التجار في العمليات التجارية، وانقسامهم إلى فئات تقوم بجانب من النشاط التجاري في العمليات التجارية، وانقسامهم إلى فئات تقوم بجانب من النشاط التجاري المتخصص، فهناك الخزانون، ثم الركاضون، والمجهزون[5]، ويكشف لنا الدمشقي[6] المزيد من التفاصيل عن كل نوعية منهم، كذلك ظهرت عدة أسرات تجارية كبيرة النفوذ مثل: أبناء الرحبي(ت632هـ/1234م)، الذي عاصر نور الدين محمود، فقد ترك أبناءٌ لهم اشتغالاً جيداً في هذا الفن، وذكر ابن جبير أنه كان " بدمشق رجلين من مياسر التجار، وكبرائهم، وأغنيائهم المنغمسين في الثراء، أحدهما يعرف بنصر بن قوام، والثاني بأبي الدر ياقوت مولى العطافي، وتجارتهما كلها بهذا الساحل الإفرنجي، ولا ذكر فيه لسواهما، ولهما الأمناء من المقارضين، فالقوافل صادرة، وواردة ببضائعهما، وشأنها في الغنى كبير وقدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير، وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما، وأموال ذوي الوصايا، لأنهما المقصودان بها لما قد اشتهر من أمانتهما، وثقتهما، وبذلهما أموالهما في هذه السبيل، فلا يكاد مغربي يخلص من الأسر إلا على أيديهما فهما طول الدهر بهذه السبيل ينفقان أموالهما، ويبذلان اجتهادها في تخليص عباد الله المسلمين من أيدي أعداء الله الكافرين، والله تعالى لايضيع اجر المحسنين "، كما ووجدت في حلب بيوتات قديمة معروفة بالثروة[7] يتوارثونها، وطبيعي أنها نجمت عن النشاط التجاري في مدينة اشتهرت بذلك الطابع. يضاف إلى ذلك

(1) ابن عساكر، تاريخ، ج23، ص111.

(2) التطيلي، رحلة، ص 117.

(3) عوض، السياسة، ص 45.

(4) المرجع نفسه ص 45.

(5) الإشارة، ص 74 ، 75.

(6) ابن العبري، تاريخ، ص 217.

(7) ابن العديم، بغية الطلب، ج6 ، ص2908. زبدة، ج2، ص308.

أن تجارة الشرق الأدنى خلال عصر الحروب الصليبية قد شهدت نهضة تجارية لم تكن موجودة من قبل[1] ، ودفعتها دفعة كبرى إلى الأمام[2]، وانطبق ذلك على بلاد الشام والجزيرة، حينذاك نظراً للموقع الجغرافي المتوسط ومرور العديد من الطرق التجارية العالمية، ويبدو أن الدولة النورية قد احتكرت تجارة بعض السلع الاستراتيجية ولم تنشأ أن تجعلها في أيدي بعض كبار التجار الأثرياء خوفاً من احتكارها، وتزايد ثرواتها على حساب احتياجاتها، واحتياج السوق الشامي واستقراره، ويبدو أنها احتكرت بعضها كتجارة الحديد والأخشاب والقار وهكذا فعندما توقفت في إحدى السنوات عن مطالبة أهل الشام بشب أشارت المصادر إلى ذلك كحدث مهم وجديد ولذا وجدنا ابن عساكر يمتدح نور الدين محمود لذلك ببعض الأشعار ووقع ذلك في عام 567هـ/1171م، فقال :

لما سمحت لأهل الشام بشب عوضت مصر فيها من النشب[3]

إن الدولة النورية من خلال توسعها الخارجي أكثر ما غنمت واستفادت بعد الفتوحات، ونصرت الإسلام من نشاطها التجاري، إذ أخضعت تجارة شمال الشمال، ومرت بها الطرق التجارية القادمة من شرق، ووسط آسيا في أوروبا، وكذلك الطرق المارة من شمال العراق إلى شمال الشام، وأيضاً القادمة من دمشق، فضلاً عن تلك المتجهة إلى الإمبراطورية البيزنطية عبر مناطق نفوذ سلاجقة الروم، أما دمشق فقد غدت من أهم المراكز التجارية الشامية، ومر بها طريق الحجاج الشاميين، وكذلك القوافل التجارية القادمة من غرب أوروبا إلى شمال إفريقيا إلى الشام، وكانت شبكة المواصلات في بلاد الشام على التالي: من مدينة دمشق إلى بعلبك، ومنها إلى حمص، ومن دمشق إلى طبرية، ومن دمشق إلى طرابلس، ومن دمشق إلى أقصى الغوطة، وهناك تتصل بطرف البادية، ومن دمشق إلى بيروت، ومن دمشق إلى صيدا، ومن دمشق إلى أذرعات وهي البثنية، ومن دمشق إلى الجولان([4])، ومن حلب إلى أنطاكية، ومن حلب إلى قنسرين، ومنها إلى المعرة إلى أنطاكية، ثم إلى الرقة، وإلى الأثارب، وإلى توزين، وإلى منبج، وإلى بالس، وإلى خناصرة، وإلى حماة، وإلى حمص، وإلى حران، وإلى اللاذقية، وإلى جبلة، وإلى طرابلس، ثم وإلى دمشق([5]).

واشتهرت الموصل بنشاطها التجاري، وقد مثلت حركة اتصال مؤثرة، وحيوية بين تجارة شمال العراق، وشمال الشام بصفة خاصة، وتجارة الإقليميين المتجاورين بصفة عامة[6].

---

(1) هايد، تاريخ التجارة ص 191.

(2) كولتون، عالم العصور، ص 202.

(3) ابن عساكر، تاريخ، المقدمة، ج1، ص9. الأصفهاني، خريدة، قسم الشام، ص276.

(4) الإدريسي، نزهة، ج1، ص377.

(5) ياقوت، معجم، ج2، ص284.

(6) عوض، السياسة الخارجية، ص 238.

ويلاحظ أن الدولة النورية من خلال توسعها الخارجي ساهمت في أحكام قبضتها على قسم حيوي من البحر المتوسط، ومن المؤكد تمكنت من إخضاع الساحل الممتد من قرب غزة إلى طرابلس الغرب، ولا نغفل أن الدولة النورية بإحكام قبضتها على برقة وجبل نفوسة، قد أخضعت قسماً مهماً من تجارة الشمال الإفريقي، خاصة تجارة الذهب، والرقيق، وهما عصب تجارة العالم الإسلامي في ذلك العهد، فإذا أضفنا إلى تلك المحطات التجارية البرية، والمحطات البحرية مثل: عيذاب على البحر الأحمر، ودمياط، والإسكندرية على البحر المتوسط أدركنا كم كان على كافة القوافل المارة عبر كافة تلك الطرق، والمحطات التجارية المذكورة، ولامراء في أن خزينتها ربحت أموالاً طائلة من وراء ذلك على نحو دعم مشاريعها التوسيعة [1]، وقد تمكنت الدولة النورية من فتح أسواق جديدة في كافة المناطق التي أخضعتها لسيطرتها السياسية [2].

وازدهرت الأسواق في مصر، وبلاد الشام، تلك المناطق التي خضعت للإدارة النورية، مما يعنى ازدهار التجارة، فكانت هناك الأسواق اليومية، والأسبوعية، والموسمية([3]).

وفي المجال التجاري أيضاً اشتهرت الدولة النورية بتصدير عدد كبير من المنتوجات والصناعات، فكانت معرة النعمان تصدر الزيت([4])، وكان يتم تجهيز التين، والفستق، والسماق، وحبة الخضراء، والزبيب من جبل السماق بثمن " يخرج عن الحد في الرخص، ويحمل إلى مدن العراق، ويجهز إلى كل بلد "([5]) .

وقد شهدت التجارة في عهد تلك الدولة تطوراً مهماً من جراء التوسع الخارجي، فبعد أن كانت العمليات التجارية مرتبطة بحلب – قلب تجارة شمال الشام – صار هناك مبدأ التخصص في التجارة الخارجية، وفي قطاعات إقليمية منسقة، وموزعة بين قسم من غربي قارة آسيا، والشمال الأفريقي، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال ثلاث محاور:

المحور الأول: المتاجرة مع الكيان الصليبي، فقد حتمتها الطبيعة الجغرافية للدولة النورية، إذ كانت دولة داخلية حبيسة ليست لها موانيء على الساحل الشامي، وحيث أن تلك الموانئ خضعت للسيطرة الصليبية، فإنها مثلت دور الوسيط التجاري بين تلك الدول، والأسواق التجارية الدولية التي استهلكت منتجاتها التجارية مثل: الإمبراطورية البيزنطية، وجنوب أوروبا، وغربها، ومن المعروف أن ميناء صيدا كان ميناءً تجارياً لدمشق، وكذلك كان ميناء طرابلس مجالاً لتصريف منتجات كل من حماه

---

(1)عوض، السياسة الخارجية، ص 238.

(2) المرجع نفسه، ص 239.

(3) الإدريسي، نزهة، ج1، ص128، 334–335، 339.

(4) ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص133.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص134.

وحمص، ولا نغفل هنا دور القوى التجارية الإيطالية مثل: مدن جنوة، والبندقية، وبيـــزا، وأمـــالفى، دورها في دعم النشاط التجاري الصليبي[1].

المحور الثاني: تجارة التوابل، فقد نهض بأمرها الكارمية، فقد احتلت أهمية كبيرة في ميزانية الدولة، ويلاحظ أن هيمنة الدولة النورية على تجارة التوابل الهندية قد تأتي لها بعد أن سيطرت على مـــصر، وقضت على النفوذ الفاطمي بها، واحتاج الأوروبيون على نطاق متسع لتلك التوابل التي حددها لوبيز بأنها كانت تشمل أصنافاً متعددة من السلع المستخدمة في الزينـــة والعطـــور، والعقـــاقير، والـــصيانة الكيماوية، والطهو[2] .

المحور الثالث: تجارة الرقيق، والذهب من بلاد السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى، فقـــد مثلـــت أهمية بالغة للدولة النورية، وقد تهيأ لها أن تشارك في تلك التجارة بصورة متزايـــدة بعـــد أن مـــدت سيطرتها السياسية إلى مصر، وأمنتها بالسيطرة على برقة، وجبل نفوسة[3] بطرابلس، وكذلك بإحكـــام قبضتها على النوبة، أما تجارة الرقيق، فكانت لها أهميةٌ خاصَةٌ[4] ، وازدهرت تجارة الذهب مع إفريقيا وعبر الصحراء الكبرى، وغنمت من وراء ذلك غنائم عظيمة، ولكن ينبغي أن نُدرك أن امتدادها إلـــى تلك الحدود جاء متأخراً، أي بعد سقوط الدولة الفاطمية في مصر عام 567هـ/1171م، وبالتحديد قبـــل ثلاث سنوات من وفاة نور الدين محمود نفسه[5].

ولم تقطع الدولة النورية مملكة بيت المقدس اقتصادياً لاسيما التجارة، بل إن القوافـــل اســـتمرت تتردد بين الجانبين، لذا فإن تلك المملكة أفادت من وراء المتاجرة مع عدوها الرئيسي، وذلك من خلال عائد المكوس المفروضة، ومن المرجح أن الازدهار التجاري الذي شهده ميناء عكا بالذات يرجـــع – في أحد أسبابه – إلى المتاجرة مع الدولة النورية إذا اعتبر أحد الموانئ الرئيسية الهامة لتصريف تلك الدولة، وقد أثرت سياسة التوسع النورية، والتداخل الذي جرى بين تلك الدولة، والكيان الصليبي على المستوى التجاري، أثرت على سياسة المملكة اللاتينية، وحتى تتاجر مع المسلمين كان عليها أن تتبـــع الموازين والمكاييل المستعملة في البلاد من قبل[6] ، كما كان الصليبيون في حاجة إلى استعمال نـــوع من العملات يقبلها التجار المسلمون، وفي الوقت الذي استعمل فيه الصليبيون نوع من العملات يقبلهـــا التجار المسلمون، وفي الوقت الذي استعمل فيه الصليبيون العملات النقدية الإغريقية وغيرها، عملـــت عملة خاصة عرفت بالدينار الصوري، وتم استخدامه في التجارة مع المسلمين على أوسع نطاق، وقد

---

(1) عوض، السياسة الخارجية، ص 240.

(2) المرجع نفسه، ص 241.

(3)عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص 69.

(4)عوض، السياسة الخارجية ، ص 241.

(5) المرجع نفسه ص 244.

(6) توفيق، مملكة بيت المقدس، ص 124.

شابه البيزنت البيزنطي، و نقشت عليه عادة بعض الآيات القرآنية، وبصورة تدريجية صارت الدنانير الصورية أكثر العملات المتداولة انتشاراً في كافة أنحاء بلاد الشام[1]، ويلاحظ أن الهدنات التي عقدتها الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس، كان لها أثرها الفعال على التبادل التجاري بين الجانبين، إذ توقفت عند ذلك المعارك، ووجد التجار فرصةً سانحةً لمرور قوافلهم التجارية دون التعرض لمخاطر الحروب [2]، وأما الإمارات الصليبية فقد أفادت – شأنها في ذلك شأن المملكة اللاتينية نفسها – من المتاجرة مع الدولة النورية [3].

وتجدر الإشارة أن الدولة النورية حرصت على إرضاء كبار التجار من أجل أن يستمر استثمارهم لأموالهم في عمليات تجارية على أرضها على نحو يدعم اقتصاديات الدولة، ويدر الأموال الطائلة على ميزانيتها من عوائد المكوس لا أن تذهب إلى خارجها، في وقت تصارعت فيه مع القوى الإسلامية، والصليبية المجاورة ولاسيما الأخيرة، ومما ساعد على التعاون بين التجار، ودولة نور الدين أن مصالحهما التقت مع بعضهما، فعندما سقطت دمشق في قبضة نور الدين محمود عام 549هـ/1154م، وبصورة غير دموية، ودون جهد عسكري ضخم، مثل دليلاً واضحاً على أن كبار التجار وجدوا في سلطان حلب قوة مهيئة لنشاطهم التجاري أكثر من ذي قبل، ومن الأمور ذات الدلالة: أن نور الدين عندما دخل المدينة، حرص أشد الحرص على الاجتماع مع كبار التجار الدماشقة، من أجل بعث الطمأنينة في نفوسهم، ولتوضيح معالم سياسته الاقتصادية المرتقبة[4] ، وقد استفاد التجار من هدن الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس الصليبية في صفقاتهم التجارية[5].

ولقد كان نور الدين حريصاً على حماية الرعية من أي مظالم قد تقع عليهم، ويوماً حضر إليه جماعة من التجار " وشكوا إليه أن القراطيس (أجزاء الدينار) كان كل ستين منها بدينار، فصار سبعةً وستين ديناراً، وأنها تتعرض باستمرار للزيادة، والنقصان، مما يلحق بهم الكثير من الخسائر، وأشاروا عليه أن يضرب الدينار باسمه، وتكون المعاملة بالدنانير بدلاً من القراطيس، فسكت وقتاً طويلاً ثم قال: إذا ضربت الدينار، وأبطلت المعاملة بالقراطيس، فكأني خربت بيوت الرعية، فإن كل واحد منهم عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس، إيش يعمل بها، فيكون ذلك سبباً لخراب بيته"[6] ورفض من ثم الاستجابة لمطالب التجار.

---

(1)عوض، السياسة الخارجية ، ص 247.

(2) المرجع نفسه، ص 247.

(3) المرجع نفسه ص 248.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 328 – 329.

(5)عوض، السياسة الخارجية ، ص 255.

(6) الأسدي، الكواكب ص 24.

هذه هي الخطوط العريضة في مصادر دخل دولة نور الدين وسياسته الاقتصادية الرشيدة، من نظام الإقطاع الحربي، والزكاة، والخراج، والجزية، والغنائم، وفداء الأسرى، والأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين زنكي([1])، والأمانة التي تميز بها، وحكومته الرشيدة، وأهمية سيادة الأمن، والاستقرار الداخلي في انتعاش الحركة الاقتصادية، ومساهمة الأثرياء، والمعاهدات والاتفاقات التي يترتب عليها امتيازات مالية، ودعم الخليفة العباسي للدولة الزنكية، وسياسة نور الدين الزراعية، والصناعية، والتجارية، وغير ذلك من سياسته الاقتصادية الحكيمة التي ساهمت في دعم دولة الجهاد وتحقيق أهدافها.

إن من أسباب النهوض التي أخذ بها نور الدين، الاهتمام بالجانب الاقتصادي، لأن القوة الاقتصادية هي عصب الحياة الدنيا وقوامها، والضعيف فيها يقهر، ولا يحسب له حساب إلا في ظل شرع الله حين يحكم، ولذلك ينبغي على القادة المهتمين بأمر نهوض الأمة أن يعتمدوا على الذات في موارد ثابتة، وهذا عامل مهم من عوامل النهوض.

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، 164.

الفصل الخامس

((المؤسسات العلمية والثقافية في عهد نور الدين محمود))

سعى نور الدين في تعامله مع أبناء أمته إلى تقديم أوسع الخدمات لهم، وإلى جعل الدولة صالحة لتنفيذ هذه الخدمات، ومدها إلى عظيم المرافق فيما يعد- بحق- قمة إجراءات نور الدين الاجتماعية، حيث امتدت هذه الخدمات إلى مساحات النشاط العلمي كافة، وسعت إلى تغطية شتى الحاجات المادية، والروحية، والفكرية، وغيرها، وقد أخذت هذه الخدمات أساليباً، وأشكالاً مختلفة، فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال، وحيناً عن طريق إنشاء المؤسسات، والمرافق، كالمساجد، والمدارس والبيمارستانات، والأربطة، والخوانق ودور الحديث([1]).

لقد كان نور الدين يرى في الدولة جهازاً متكاملاً للخدمة، وتحقيق الانجازات لكافة شرائح المجتمع، لا أداة قسر، واستنزاف، واستغلال، لأن وقت نور الدين كله "مصروف إلى مصالح الناس، والنظر في أمر الرعية والشفقة عليهم"([2]).

أولا: المؤسسات الدينية والتعليمية:

سنستعرض أهم المؤسسات العلمية والثقافية التي قام نور الدين بإنشائها وهي:-

1-المساجد:-

وهي تعد من المظاهر البارزة للحركة العلمية، والثقافية في عهد نور الدين، الذي أدرك ما للمسجد من أهمية، ودور محوري كأحد المؤسسات الدينية المركزية التي تجمع الناس للعبادة والعلم، فضلاً عن أنها توحد صفوف المسلمين، وتصقل خصالهم، وتزيد من فضائلهم، وتعمل على جمع كلمتهم، ومن أجل ذلك فقد عمل نور الدين على إقامة العديد من المساجد، وقد بلغت في مدينة دمشق لوحدها مائة مسجد([3])، و"عين لها وقوفاً "([4])، وكانت تعقد في هذه المساجد حلقات العلم، والذكر ومنها " حلقة الكوثرية، وقد وقفها نور الدين على صبيان صغار وأيتام، يقرؤون في كل ليلة بعد العصر، ثلاث مرات (قل هو الله أحد)، ويهدون ثوابها للواقف، ولهم على ذلك مرتب"([5]).

ومن المساجد التي أنشأها نور الدين محمود في دمشق المسجد الكبير المسمى جامع قلعة دمشق، وقد بنى فيه منارة وبركة، وعلى بابه سقاية، ووقف عليه الأوقاف العديدة، ورتب إمام ومؤذن([6])، ومسجد الكشك الذي "بنى له منارة، وجعل له إماماً، ومؤذناً ووقفاً"(7)، ومسجد في المدرسة

---

(1) ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص121.

(2) أبو شامة، الروضتين،ج1، ص34.

(3) ابن عساكر، تاريخ، ج2، ص289-. البنداري، سنا البرق، ص27. خالف ابن عساكر هذا العدد وهو معاصر لنور الدين وذكر أن عدد المساجد في دمشق يبلغ اثنان وأربعون مسجداً. تاريخ دمشق، ج2، ص308.

(4) المصدر نفسه.

(5) ابن شداد الحلبي، الأعلاق. النعيمي، الدارس، ج1، ص343.

(6) ابن عساكر، تاريخ، ج2، ص308. أبو شامة، الروضتين،ج1، ص72. النعيمي، الدارس، ج1، ص343.

(7) ابن عساكر، تاريخ، ج2، ص295-296.

النورية(1)، ومسجد نور الدين بسوق القمح(2). ومسجد في الدركاة، ووقف مسجد آخر عند الدركاة(3)، ومسجد عند المائدة، والحجر في طريق الغياض(4)، ومسجد عند عقب جسر باب الحديد(5)، ومسجد شمال نهر بردى(6)، ومسجد آخر غربي النهر بناه أحد رجالات نور الدين وهو أسد الدين شيركوه([7])، كما جدد عدد من المساجد منها: مسجد في سوق الغزل (8). وبنى سقاية لمسجد بيق(9). وفي عام 565هـ، أمر نور الدين بعمارة جامع داريا([10])، وكان الفرنج قد أحرقوه عندما استولوا على داريا "([11]) أثناء مهاجمتهم لمدينة دمشق خلال الحملة الثانية.

ولم يقتصر الأمر على بناء المساجد السابقة، بل أن نور الدين قام بالاهتمام بالمساجد القائمة أصلا في دمشق، وأوقف عليها الأوقاف الغزيرة، وقد أورد أبو شامة هذه المساجد، وكانت على النحو التالي: " مسجد ابن عطية داخل باب الجابية، مسجد ابن لبيد بالفسقار، مسجد سوق الرماحين، المسجد المعلق بسوق الصاغة، مسجد دار البطيخ المعلق، مسجد العباسي بسوق الأحد، مسجد جدده نور الدين جوار بيعة(كنيسة) اليهود ، جامع الصالحين بجبل قاسيون؛ يبتاع بذلك طيب وعود، و يفرق على هذه الأماكن النصف للجامع بدمشق، والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءاً، جزءان للمدرسة، وتسعة أجزاء لتسعة مساجد باقية، لكل مسجدٍ جزءٌ واحدٌ تطيب هذه الأماكن في الأوقات الشريفة، ومواسم الاجتماعات، وليالي شهر رمضان، والأعياد، وأيام الجمع وقت عقد الجمعة في الجوامع وليالي الجمعة و الخميس، والاثنين "([12]).

كما وبنى نور الدين في مدينة حلب عدد من المساجد، ومنها مسجد في درب مدرسة بني عُصْرون([13]).وعندما احترق جامع حلب على أيدي الإسماعيلية الباطنية([14])، واحترقت الأسواق التي حوله، " وقد احترقت جميع أعمدة الجامع وحجارته، ولم ينتفع شيء منها، فأمر الملك العادل نور الدين

---

(1)ابن عساكر، تاريخ، ج2، ص306-307.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص305.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص308.

(4) المصدر نفسه ، ج2، ص311.

(5) المصدر نفسه ، ج2، ص315.

(6) المصدر نفسه ، ج2، ص318.

(7) المصدر نفسه ، ج2، ص319.

(8) المصدر نفسه ، ج2، ص301.

(9) المصدر نفسه، ج2، ص302.

(10) أبو شامة، الروضتين،ج2، ص148.

(11) الأسدي، الكواكب، ص190.

(12) أبو شامة، الروضتين،ج1، ص72-73. ابن كثير، البداية، ج12، ص283.

(13) ابن شداد الحلبي، الأعلاق، ج1، ص25.

(14) الذهبي، سير، ج3، ص82.

بعمارة الجامع، وقطع له العواميد، والحجارة من قطع الرخام الأصفر"([1]). ونصب فيه المنبر الذي صنعه للمسجد الأقصى ليضعه فيه بعيد تحريره، ثم أمر النجار الذي صنع فيه منبر المسجد الأقصى بعمل محراب لجامع حلب مشابهاً المنبر في الرسم، حتى أصبح "مثال المنبر المقدسي"([2])، وبعد فتح صلاح الدين للقدس عام 538هـ/1187م، حمل المنبر من جامع حلب، ونصبه في المسجد الأقصى، ثم أمر صلاح فعمل لجامع حلب منبر شبه المحراب، والمنبر الذي في المسجد الأقصى، فكان كما أراد([3]). "وكان نور لا يأخذ من مال الجامع شيئاً، وكان يجمعه له ميسراً لذلك عمارته في زمانه"([4]). كما أمر بتجديد مسجد الغضا يرى في حلب، ووقف عليه وقفاً، وولاه الشيخ شعيب، فصار يعرف بمسجد شعيب([5]).

وفي مدينة الموصل بنى نور الدين الجامع النوري الذي يعد أهم المساجد في المدينة، وقد قام نور الدين في سنة 566هـ، باختيار موضع بناء المسجد بنفسه وسط المدينة، ووقع اختياره على خربة في وسط البلد، فابتاعها، وأنفق عليها أموالاً ـ وذلك على الرغم ما أشيع حول هذه الخربة من إشاعات صاغها العامة([6]).

ومهما يكن من أمر، فقد أمر نور الدين أن يضاف إلى قطعة الأرض التي اختارها ما يجاورها من البيوت، والحوانيت "على أن لا يؤخذ منها شيء بغير اختيار أصحابه، وأن يعوضوا عنه تعويضاً عادلاً "([7])، وبعد أقل من عامين تمت عمارة الجامع الكبير([8]) بعد أن أنفق عليه ما يزيد على ستين ألف ديناراً، وأوقف عليه ضيعة من ضياع الموصل " ووقف على تأسيسه بنفسه، وجعل له خطيباً، ودرساً للفقه "([9]).

وقد وصف ياقوت([10]) المسجد بقوله: " وهو في وسط السوق، وهو طريق للذاهب، والجائي مليح كبير، والآخر على نشز من الأرض في صقع من أصقاعها قديم ".

ويبلغ طول المسجد (65م)، أما عرضه فيبلغ (17م)، ويتوسط المدينة القديمة تقريباً حيث سميت المنطقة التي أنشئ فيها باسم محلة الجامع الكبير، وهو يحمل خصوصية في البناء، ويضم أعمدة

---

(1) ابن الفرات، تاريخ، مج4، ق1، ص49.

(2) ابن واصل، مفرج، ج2، ص228-229.

(3) المصدر نفسه. العليمي، الأنس،. ج2، ص13.

(4) ابن الفرات، تاريخ، مج4، ص49.

(5) ابن العديم، زبدة، ج2، ص294.

(6) أبو شامة، الروضتين،ج2، ص172. ابن الفرات، تاريخ، مج 4، ق1، ص104، 113-114.

(7) ابن الفرات، تاريخ، مج 4، ق1، ص104، 113-114.

(8) أبو شامة، الروضتين،ج2، ص169.

(9) المصدر نفسه،ج2، ص172.ابن كثير، البداية، ج12، ص263.

(10) معجم، ج5، ص224.

رخامية صنعت بأسلوب خاص ميز عمارة الموصل في العهد النوري، إلى جانب قبته التي تعد أقدم قبة قائمة في العراق، وهي هرمية الشكل ذات ست عشرة، وجهة بقبتين، داخلية مزخرفة تحفظها قبة خارجية، كما يشتمل الجامع أيضاً على مصلىً صيفي، وهذه ظاهرة معمارية تميزت بها جوامع الموصل، واستمرت إلى الوقت الحاضر، وربما كان للظروف المناخية دورها في هذا المنحى، كما أن محراب الجامع يمتاز بزخرفته البنائية، والهندسية المحاطة، بكتابات كوفية.

وعن المرافق التي اشتمل عليها الجامع فإن قسما منها اندثر بفعل عوامل الزمن والقسم الآخر بقي محافظاً على هيئته إلى يومنا هذا، ومن المرافق والملحقات التابعة للمسجد، المدرسة التي كان يدرس فيها أعلام رجال الدين، والأدب على مر العصور، هذا إلى جانب منبر، وشباكه المتميز بزخاف جبسية مجسمة تفنن بها صانعها([1]).

ومن مظاهر اهتمام نور الدين بجامع الموصل الكبير أنه بنى له المئذنة الحدباء التي تعد خير مثال للزخرفة الأجرية، كما صنع له محراب المصلى في منتصف جدار القبلة، ويعرف بمحراب الشافعية([2]).

وبني أيضاً بمدينة حماة مسجداً جامعاً "من أحسن الجوامع وأنزهها"([3])، وجدد فيها عدد من المساجد التي كانت قد تهدمت بفعل الزلازل، أو غيرها([4]).

وقد أبدى ابن جبير ارتياحه([5]) عندما شاهد جامع حماة على نهر العاصي خلال زيارته لبلاد الشام، وقدم لنا وصفاً مختصراً أثناء حديثه عن نهر العاصي حيث يقول: " وعلى شطه الثاني جامع صغير، قد فتح جداره الشرقي عليه طيقاناً تجتلي منها منظراً ترتاح النفس إليه، وتتقيد الأبصار لديه". وامتداداً لسياسته في بناء المساجد، فقد بنى نور الدين كذلك جامع الرها ومنبج([6]). كما جدد مسجداً في حران في الجزيرة الفراتية، وزاد من مساحته([7]).

وكما ذكرنا فإن هذه المساجد كانت بمثابة مراكز علمية، ودينية، يجتمع فيها الناس للصلاة والتعبد، وللتباحث في أمور الدين، والدنيا، وتلقى فيها طب في المناسبات المختلفة، ومنها الدينية، والسياسية، والاجتماعية، ومنها: ما هو للتحريض على الجهاد، والمقاومة ضد الصليبيين، وكان

---

(1) موقع كل العراق على شبكة المعلومات الدولية على الرابط:
www.kululiraq.com/modules.php?name=News&file

(2) ابن جبير، تذكرة، ص165. السرطاوي، نور الدين، ص35.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص21. الأسدي، الكواكب، ص36-37.

(4) المصدرين السابقين.

(5) تذكرة، ص207.

(6) الذهبي، سير، ج2، ص40.

(7) ابن شداد الحلبي، الأعلاق، ج1، ص119.

المدرسون يعقدون فيها حلقات للدرس في مختلف العلوم والمعارف، ولا سيما العلوم الدينية واللغوية، وكان العلماء يجتمعون فيها للمناقشة، والمناظرة في مختلف المسائل العلمية([1]).

2- المدارس:-

اتبع نور الدين سياسة داعمة للمذهب السني في مواجهة الأفكار الباطنية الإسماعيلية الهدامة، وحرص على دعم التوجه السني في كافة المناطق التي تم السيطرة عليها، وفي سبيل ذلك اهتم ببناء الكثير من المدارس([2]) لتدعيم سياسته المذهبية، بالإضافة إلى الدور العلمي البارز الذي تلعبه المدارس كواحدة من مؤسسات الدولة التربوية، والعلمية، والدينية، ومظهر من مظاهر الحياة العلمية، والثقافية في عهد نور الدين محمود زنكي.

وقد بناها للمدارس المختلفة، ولا سيما الحنفية، والشافعية([3])، وكانت هذه المدارس إما أن تبنى منفردة مستقلة البنيان، أو ضمن المسجد، ومن أمثلة ذلك المدرسة النورية الصغرى على المذهب الحنفي، وقد كانت تقع ضمن مسجد قلعة دمشق([4])، استقدم الشيخ العالم على بن جوش التغلبي([5]) للتدريس فيها، كما بنى نور الدين مدرسة داخل المسجد الجامع الذي بناه بالموصل([6]).

وكان لقدوم عدد من العلماء إلى بلاد الشام في عهد نور الدين دافعاً مهماً لتجديد، وبناء، وتفعيل عدد من المدارس، فعندما استكمل بناء المدرسة العصرونية الشافعية في حلب عام 550هـ، استدعى لها نور الدين من إحدى نواحي سنجار-غربي الموصل- الشيخ الإمام شرف الدين بن أبي عصرون، وأراد نور الدين أن يستفيد من كفاءة هذا الإمام إلى أبعد مدى، فبنى له مدارس عدة في منبج، وحماة، وحمص، وبعلبك، ودمشق ، وفوضه أن يولى التدريس فيها من يشاء([7]).

---

(1) السرطاوي، نور الدين، ص37.

(2) ابن الأثير، الباهر، ص170. البنداري، سنا، ص270. ابن خلكان، وفيات، ج5، ص185. وانظر: عوض، السياسة، ص274.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج11، ص404. ابن خلدون، العبر، ج5، ص253.

(4) ابن عساكر، تاريخ، ج41، ص295. النعيمي، الدارس، ج1، ص499.

(5) من قرية يقال لها استيب من قرى جبل عوف قدم دمشق صبيا ولازم التفقه على الفقيه أبي الحسن السلمي مدة ولزم المدرسة بعده، فصار فقيها، وسمع الحديث من الفقيه أبي الحسن السلمي، وأبي الفتح نصر الله بن محمد، وغيرهما، واستملي على مدة وكتب بخطه كثيراً من كتب الفقه، والحديث وكان يعلم الصبيان في المدرسة الأمينية، ثم انتقل إلى المدرسة النورية التي بقصر الثقفيين، واستنابه مدرسها الفقيه أبو البركات عبد رحمه الله في ذكر الدروس بها، مات في ذي القعدة سنة ستين وخمسمائة، ودفن بجبل قاسيون. ابن عساكر، تاريخ، ج41، ص295.

(6) السرطاوي، نور الدين، ص38.

(7) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، ج1، ص33. ابن العديم، زبدة، ج2، ص293-294. ابن كثير، البداية، ج12، ص333.

وفي عام 544هـ تم بناء المدرسة النفرية الشافعية في حلب لتدريس المذهب الشافعي، واستدعي للتدريس فيها الفقيه قطب الدين مسعود النيسابوري([1]).

كما أنشأ المدرسة الشُعَيْبيّة الشافعية، ويذكر ابن شداد([2]) أن هذه المدرسة كانت " مسجداً يُقال إنّه أوّل ما اختطّه المسلمون عند فتحها من المساجد، وعُرف بأبي الحسن على بن عبد الحميد الغضائريّ أحد الأولياء من أصحاب سريّ السقطيّ. فلمّا ملك نور الدين حلب، وأنشأ بها المدارس، ووصل الشيخ شُعَيْب بن أبي الحسن بن حسين بن أحمد الأندلسيّ الفقيه فصيّر له هذا المسجد مدرسةً، وجعله مدرّساً بها ".

كما أمر نور الدين ببناء المدرسة الحلاوية في حلب([3])، وكانت تعد "من أعظم المدارس صيتاً، وأكثرها طلبة، وأغزرها جامكية –مخصصات مالية–"([4])، وقد جعلها نور الدين لأتباع المذهب الحنفي([5])، ومن مظاهر اهتمام نور الدين بهذه المدرسة أنه كان يقدم في السابع والعشرين من كل رمضان طعاماً يجمع عليه المدرسة، وورد في شرط الواقف أن يحمل في كل شهر رمضان ثلاثة آلاف درهم لكبير المدرسين، يصنع بها للفقهاء طعاماً، إضافة إلى أن المدرسين كانوا يتسلمون مخصصات أخرى تمكنهم من شراء الملابس، والدواء، والفاكهة، هذا فضلاً عما كان يقدم لهم من علاوات تشمل: الطعام، والنقود في المناسبات([6])، وقد استدعى برهان الدين أبا الحسن على بن الحسن البلخي للتدريس بها([7])، وبعد عام من تجديد المدرسة الحلاوية في حلب أنشأ نور الدين في العام 545هـ المدرسة المقدمية، وقد أوقف عليها الأوقاف([8]).

وكان لمدينة دمشق نصيب الأسد في عدد المدارس التي بناها نور الدين، ويبدو أنه قد أولاها اهتماماً خاصاً فهي من المراكز الدينية، والعلمية الرئيسية في بلاد الشام، ففي عام 549هـ/1164م،

---

(1) ابن عساكر، تاريخ، ج58، ص13. ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، ج1،ص34. ابن العديم، زبدة ، ج2، ص294. ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج5، ص 196. السبكي، الطبقات الكبرى، ج 7، ص 298. الذهبي، سير، ج21، ص106.العبر، ج4، ص 235. النعيمي، الدارس، ج1، ص136. ابن العماد، شذرات الذهب، ج 4، ص263.

(2) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، ج1،ص34.

(3) كانت في أول أمرها كنيسة عظيمة، ثم صارت مسجداً عرف بمسجد السراجين، واستمرت على ذلك، إلى أن ملك نور الدين، فجدد فيها إيواناً وبيوتاً، وجعلها مدرسة. ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، ج1،ص38. ابن العديم، بغية، ج1، ص459،62.الغزي، نهر، ج2، ص220.

(4) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، ج1،ص38.

(5) ابن العديم، بغية، ج1، ص459.

(6) ابن جبير، تذكرة، ص248.

(7) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، ج1، ص38. ابن العديم، زبدة، ج2، ص293–295.

(8) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، ج1،ص41. الغزي، نهر، ج2، ص70.

أي عقب السيطرة عليها بنى المدرسة العمادية([1]) بناء على طلب من خطيب دمشق أبو البركات الخضر بن شبل، وهو أول من درس فيها([2]).

وفي عام 555هـ، تم بناء مدرسة الكلاسة([3])، كما بنيت المدرسة النورية الكبرى عام 568هـ/1168م([4])، وكذلك المدرسة العادلية الكبرى([5]) في نفس العام، ويذكر أن نور الدين قد شرع في بناء هذه المدرسة على المذهب الشافعي، تقديراً لقطب الدين النيسابوري الذي يعد أول وأشهر من درس فيها([6]).

وبحسب الوصف الذي قدمه لنا الرحالة ابن جبير([7]) والذي زار المنطقة عقب وفاة نور الدين بفترة وجيزة، فإن المدرسة العادلية الكبرى " من أحسن مدارس الدنيا منظراً، وقصر من القصور الأنيقة، يجرى الماء في وسطها في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير، فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين" تقديراً له، واحتراماً لانجازاته.

كما بنى نور الدين مدرسة لأصحاب المذهب الحنفي في حماة([8])، وسنجار([9]).

ومهما يكن من أمر فإنه من الواضح أن الدولة النورية ممثلة بسلطانها الملك العادل نور الدين قد اهتمت ببناء المدارس بحيث بلغ عددها في دمشق وحدها عشرين مدرسة([10]).

---

(1) تقع داخل بابي الفرج والفراديس، بجانب المدرسة الدفاعية من الجهة الجنوبية في مدينة دمشق، كانت تعرف بالمدرسة النورية، وبعد قدوم عماد الدين محمد الأصفهاني المعروف بالعماد الكاتب نزل فيها ودرس فصارت تعرف بالعمادية نسبة له. انظر: ابن كثير، البداية، 12، ص253. النعيمي، الدارس، ج1، ص136. ص308-309.

(2) ابن عساكر، تاريخ، ج16، ص436. السبكي، طبقات، ج7، ص83. ابن خلدون، العبر، ج4، ص177. النعيمي، الدارس، ج1، ص308-309.

(3) تقع بملاصقة الجامع الأموي من جهة الشمال، ولها باب يفتح في داخل المسجد، وسميت بهذا الاسم لأنها أقيمت مكان أحد معامل الكلس، وقد أضيفت إلى المسجد الجامع بعد أن ضاق بالناس. انظر: النعيمي، الدارس، ج1، ص340.

(4) أنشأها نو ر الدين في دمشق ودفن فيها، وقد بنيت على جزء من بيت ليفة الأموي هشام بن عبد الملك، عند باب واصين في القبابين. وأول من درس بها بهاء الدين بن العقاده. ابن عساكر، تاريخ، ج2، ص306. ابن كثير، البداية، 9، ص351. النعيمي، الدارس، ج1، ص466، 475.

(5) تقع إلى الشمال من الجامع الأموي، قرب انقاة الشهابية، والمدرسة الجاروخية، والمدرسة الظاهرية، لم تتم في حياة نور الدين، واستمرت كذلك إلى عهد الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن نجم الدين أيوب (ت 615هـ) الذي شرع بإكمال عمارتها بيد أن المنية وافته قبل إتمامها، فتممها ولده الملك المعظم عيسى، ودفن فيها والده ونسبها إليه، فعرفت بالعادلية الكبرى. انظر: ابن كثير، البداية، ج12، ص270. النعيمي، الدارس، ج1، ص271.

(6) ابن عساكر، تاريخ، ج58، ص13. النعيمي، الدارس ، ج1، ص271.

(7) تذكرة، ص231.

(8) ابن العديم، بغية، ج10، ص4581.

(9) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، ج1،ص139.

(10) ابن جبير، تذكرة، ص230.

وقد اتبع الولاة والقادة في عهد نور الدين نفس السياسة التي أوجدها نور الدين من حيث الاهتمام ببناء المؤسسات العلمية، فسعى العديد من القادة إلى إنشاء المدارس في كل المناطق التي يمتد إليها سلطان الدولة النورية، وكان نور الدين يخصهم على ذلك بقوله: " نحن ما أردنا ببناء المدراس إلا نشر العلم، ودحض البدع، وإظهار الدين "([1]).

ومن الواضح أن رجال نور الدين قد امتثلوا لهذا الأمر فراحوا يبنون المدارس السنية، وخير مثال على ذلك: المدرسة الناصرية التي بناها صلاح الدين الأيوبي–نائب نور الدين في مصر– مكان دار المعونة، وهي أول مدرسة يتم إنشاؤها في مصر عام 566هـ/1170م، وجعلها للشافعية([2])، ثم المدرسة القمحية، وقد أقيمت في نفس العام، وأنشأ في النصف من محرم سنة 566هـ/1170م أيضاً مدرسة للمالكية مكان دار الغزل عرفت بالقمحية([3])، وبعدها تم بناء المدرسة الصلاحية([4]).

وقد اشترى ابن أخيه تقي الدين عمر داراً تعرف بمنازل العز، وجعلها مدرسة للشافعية، ووقف عليها الروضة، وغيرها([5]).

كما بنى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين المدرسة الأسدية في دمشق، وحلب للشافعية والحنفية، ونفسها في ظاهر دمشق في منطقة الرحبة([6])؛ وبنى والي حلب جمال الدين شاذبخت– الخادم الهندي عتيق نور الدين– المدرسة الشاذبختية([7]).

وهكذا فإن نور الدين قد نجح في تسخير طاقته وطاقة رجال دولته من أجل نشر العلم، ورفع المستوى المعرفي عند المسلمين، واقترن ذلك مع تحقيق هدف مهم يتمثل في محاربة البدع، وتطبيق الشريعة الصحيحة في سياق العقيدة السليمة، لأنه كان يؤمن بأن بناء الدولة القوية التي تستطيع الوقوف في وجه الصليبيين لا بد، وأن تؤسس على قواعد راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص33.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 181. ابن كثير، البداية، ج12، ص263. المقريزي، اتعاظ، ج1، ص319. الأتابكي، النجوم، ج5، ص285.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 181. ابن كثير، البداية، ج12، ص263. الأتابكي، النجوم، ج5، ص285. المقريزي، طط، ص193. اتعاظ، ج3، ص319. عبد العاطي، التعلىم، ص68.

(4) بدوي، الحياة، ص42. عوض، السياسة، ص275.

(5) ابن خلكان، وفيات، ج3، ص356. ابن كثير، البداية، ج12، ص263.

(6) تقع بالشرف القبلي، وهي مطلة على الميدان الأخضر، وهي على المذهبين الشافعي والحنفي. انظر: ابن العديم، بغية، ج10، ص4581. أبو شامة، الروضتين. ج2، ص438. ابن خلكان، وفيات، ج3، ص422.ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، ج1،ص35. النعيمي، الدارس، ج1، ص114

(7) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، ج1،ص40. ابن العديم، زبدة، ج3، ص9.

3-البيمارستان:-

اهتم نور الدين محمود بإنشاء المستشفيات (البيمارستانات)، وجعلها تقدم الخدمة الطبية المجانية للشعب، وقد انتشرت في أغلب مدن الدولة الزنكية، وتعتبر البيمارستانات من مفاخر الحضارة الإسلامية التي سبقت غيرها من الحضارات، وإذا كان الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (86 – 96هـ/705 – 715م) هو أوّل من بنى البيمارستانات الثابتة في الإسلام، فإن الملك العادل نور الدين محمود، وخلفاؤه من البيت الأيوبي، هم أول من استكثر منها من الملوك والسلاطين، واهتموا بدراسة الطب، وممارسته اهتمامً بالغاً، وقاية لبلادهم من الأوبئة والأمراض[1].

وقد بنى نور الدين البيمارستانات في مختلف المناطق التي سيطر عليها([2])، و " وقف وقوفاً على المرضى، والمجانين، وأقام لهم الأطباء، والمعالجين "([3])، وكان البيمارستان النوري في حلب، ودمشق أشهر ما بناه نور الدين محمود من البيمارستانات.

أ- البيمارستان النوري في حلب:

فقد ذكر ابن الشحنة[4]أن نور الدين محمود هو الذي بنى هذا البيمارستان داخل باب أنطاكية بالقرب من سُوق الهراء، بالقرب من المدرسة البهرامِيّة من جنوبيها الشرقي بناه نور الدين محمود زنكي[5] ، وقد ذكر ابن الشحنة أن الملك نور الدين حينما أراد بناء هذه البيمارستان طلب من الأطباء أن يختاروا من حلب أفضل بقعة، صحيحة الهواء صالحة لإقامة البيمارستان بها، وذبحوا خروفاً، وقطعّوه أربعة أرباع، وعلّقوها بأرباع المدينة ليلاً، فلمّا أصبحوا وجدوا أحسنها رائحة الرّبع الذي كان في هذا الموقع، فبنوا البيمارستان[6] فيه، وهذه خطة حكيمة في اختيار المكان الصالح لبناء البيمارستان في وقت تنعدم فيه آلات قياس الأبعاد، ودرجات الحرارة، واختبارات الأجواء[7].

ويقع هذا البيمارستان حالياً في منطقة الجلوم الكبرى في الزقاق المعروف حالياً بزقاق البهراميّة[8]، وقد وجد مكتوباً عند باب البيمارستان: " بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمله المولى الملك العادل المجاهد المرابط الأعز الكامل صلاح الدنيا والدين قِسيم الدولة رضي الخلافة تاج الملوك، والسلاطين ناصر الحق بالبراهين محي العدل في العالمين قامع الملحدين قاتل الكفرة المشركين أبو

---

(1) المزيني، الحياة العلمية، ص 412.

(2) ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص121. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص45.

(3) ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص121.

(4) الدّر المنتخب، ص 230 المزيني، الحياة العلمية، ص 412.

(5) نهر الذهب، ج2، ص64. المزيني، الحياة العلمية، ص 412.

(6) المزيني، الحياة العلمية، ص 413.

(7) المرجع نفسه، ص 413.

(8)الأسدي، أخبار حلب، ص 167.

القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين أدام الله دولته"[1] ، وكان نور الدين قد أوقف على هذا البيمارستان: قرية معراشا، ونصف مزرعة وادي العسل، من جبل سمعان، وخمسة أفدنة من مزرعة كفرنايا، وثلث مزرعة الخالدي، وطاحونها من المُطخ، وثُمن طاحون غربيـــة طـــاهر بـــاب الجنان، وثمانية أفدنة من مزرعة أبو مَدَاياً من عزاز، وخمسة أفدنة بمزرعة الحميرة المُطـــخ، أثنـــي عشر فداناً من مزرعة الغرزل من المعرّة، وثلث قرية بيت راغِل من الغربيّات، وعشرة دكاكين بسوُق الهواء منها: ثلاثة تمام، والباقي شركة الجامع الكبير، وأحكار ظاهر باب أنطاكية، وباب الفرج، وباب الجِنان[2]، وكثرة هذه الأوقاف تدل على مقدار المال الوفير الذي تدرّه هذه الأوقاف لتأمين نفقات هـــذا البيمارستان الكبير[3]، وقد أشار محمد كرد[4] إلى وجود مكتبة متخصصة داخل البيمارســـتان تـــشمل على كثيرٍ من الكتب الطبية التي أوقفها الملك نور الدين محمود على هذا البيمارستان، مما يؤكد أثـــر هذا البيمارستان في النشاط العلمي في هذا العهد إلى جانب الوظيفة الطبية التي كان يقوم بها[5].

ب- البيمارستان النوري في دمشق:

يعد البيمارستانات النوري في مدينة دمشق من أهم البيمارستانات التي بناها نـــور الـــدين، و ومن أعظم مآثره في المنشآت المدنية التي زخر بها عهده في دمشق، وقد بناه ليكون مستـــشفى فـــي القرن الثاني عشر، وقد بناه بعد فتحه لدمشق وتسلمها من البوريين عام 549هـــ من مـــال أفـــاءه الله عليه([6])، واشترط في وقفه أن يكون مختصاً بالفقراء، والمساكين، وإذا لم توجد بعض الأدوية إلا فيه، فلا يمنع منه الأغنياء، ومن جاء إليه، لا يمنع من شرابه، كائناً من كان([7])، وقد حضر نور الدين إلى البيمارستانات، وأحضر له قدح شراب، فشربه وقال: هذا حلال علي، وعلى جميع المـــسلمين مثلـــي، وعلى أقل العالم، حرام على اليهود والنصارى، وعلى غلام، وجارية تحت الرق، فر يدخله إلا بن هو معتوق([8]).

---

(1) الغزي، نهر الذهب، ج2، ص65، ص66. المزيني، الحياة العلمية، ص 413.

(2) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص 231. المزيني، الحياة العلمية، ص 413.

(3) المزيني، الحياة العلمية، ص 414.

(4) خطط الشام، ج6، ص187. المزيني، الحياة العلمية، ص 414.

(5) المزيني، الحياة العلمية، ص 414.

(6) ذكر المؤرخون أن هذا المال قد حصل عليه نور الدين بعد أن افتدى به نفسه أحد أكابر الملوك الصليبيين وقدر بثلثمائة ألـــف دينار فداء الافرنجي في: أبو شامة، الروضتين، ج1، ص46. سبط ابن الجوزي، مرآة، ج1، ق(8)، ص311. الأسدي، الكواكب، ص37.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص45.ابن كثير، البداية، ج12، ص281. الأسدي، ص37.

(8) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص46. الأسدي، الكواكب، ص38.

أما نظام العمل في البيمارستانات، فأقدم ما وصلنا حول هذا الموضوع ما أورده القلقشندي([1]) من وصية للموكل بالبيمارستانات جاء فيها: " فليباشر ذلك قاضياً أموال هذه الجهة، متقدماً إلى الخدام، والقومة بحسن الخدمة للعاجز، والضعف، مؤكداً عليهم في أخذهم بالقول الذين دون الكلام العنيف، ليعلم أهل المكان أن –وراءهم من يقابلهم على التقصير، وليبذل جهده في ذلك ".

وقد طبق هذا المبدأ من اليوم الأول لبناء البيمارستان، وذلك أن أول أطبائه، الطبيب محمد بن عبد الله بن المظفر الباهلي (ت570هـ)، كان يدور على المرضى، ويلاحظ أحوالهم، وبين يديه المشرفون، وخدام المرضى، وكان يكتب لهم ما يناسبهم، فيؤتي إليهم به في الحال، فإذا فرغ من ذلك طلع إلى القلعة، وتفقد مرضى السلطان، فإذا فرغ من ذلك، جلس في الإيوان الكبير في البيمارستان يلقي دروس الطب على الأطباء، والصيادلة، ويقرأ الطلاب، وتطرح المسائل الطبية، ولا يزال معهم في ذلك مقدار ثلاث ساعات، ثم يركب، ويعود إلى داره([2])؛ وعندما زار ابن جبير البيمارستان([3]) عام 580هـ، وذكر أن له قومة بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى، وعلى النفقات التي يحتاجون إليها من الأدوية، والأغذية – الروشته في عصرنا– وغير ذلك، والأطباء يبكرون إليه كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم..".

أما أقسامه فقد كان مشتملا على أقسام مرتبة لكل منها أطباؤه المختصون المشرفون عليه منها: قسم الأمراض الباطنية، والجراحة، والكحالة أمراض العين، وقسم التجبير إضافة إلى قسم لعلاج الأمراض العقلية، وقسم ما يسمى اليوم بالعيادات الخارجية، فقد كان الطبيب رضي الدين الرحبي يجلس على دكة، ويكتب لمن يأتي إلى البيمارستان، ويستوصف منه للمرضى أوراقاً يعتمدون عليها، ويأخذون من البيمارستان الأشربة، والأدوية التي يصفها، وقسم الصيدلة يشتغل فيها الصيادلة بإعداد الأدوية من أشربة، ومعاجين، وأخيرا قسم المكتبة والتدريس.

ويماثل بيمارستان النوري القصور بترفه، ووسائل الراحة المتوفرة، وأنواع الطعام التي تقدم للمرضى، والمصابين كما أن العلاج كان مجاناً للفقراء، والأغنياء على حدٍ سواء، بل كانوا يمنحون لدى خروجهم من البيمارستان ثياباً ونقوداً تكفيهم للعيش دونما اضطرار للعمل مدة أسبوعين هي مدة فترة النقاهة.

ويتميز البيمارستان بجمال هندسته، وباحته الواسعة، ومقرنصاته الفريدة، والكتابات النسخية المنقوشة على بابه، والتي بدأ باستعمالها لأول مرة في عهد نور الدين بدلا من كتابات الخط الكوفي.

---

(1) صبح الأعشى، ج12، ص84.

(2) الكتبي، الوافي، ج4، ص24.

(3) تذكرة، ص255.

وقد كان بحق أول، وأعظم جامعة طبية في ذلك العصر، وفي الشرق كله، وكان بمثابة ما يسمى اليوم بالمستشفى المركزي، وبقي يقدم رسالته في أواخر القرن التاسع عشر ميلادي حيث بني مستشفى الغرباء، أو المستشفى الوطني بجانب التكية السليمانية.

وتقديراً لمكانة هذا البناء الفريد، ولدوره الكبير الذي لعبه في تطور العلوم الطبية، والصيدلانية وغيرها قامت المديرية العامة للآثار، والمتاحف بترميم بيمارستان النوري، وجهزته وأعدته ليكون مقراً لمتحف الطب، والعلوم عند العرب حيث تعرض فيه أهم المساهمات، والابتكارات، والأدوات، والكتب التي قدمها العلماء العرب في مجال الطب، والصيدلة، والفلك، والرياضيات، والجغرافيا والموسيقى، وتبرز دور الأجداد الريادي في حمل مشعل الحضارة الإنسانية، وتطور البشرية.

ويضم المتحف أربع قاعات رئيسية الأولى للعلوم، والثانية للطب، والثالثة للصيدلة، والرابعة للطيور والحيوانات المحنطة، إضافة إلى غرفة صغيرة تضم مكتبة علمية متخصصة، ولدى زيارة المتحف يلاحظ قاعة العلوم، وفيها نماذج، وأدوات عربية، ولوحات فنية تدل على تطور العلوم عند العرب مثل: علم الفلك، والضوء، والمعادن، والوزن النوعي، والميكانيك فقد عاشت الأمة العربية، والإسلامية في العصور الوسطى أعظم تجربة علمية على مر العصور.

والسمة الثقافية لهذه العصور كانت سمة عربية إسلامية بصرف النظر عن الانتماءات القومية أو العرقية أو الدينية للإعلام المساهمين الذين هم من ثمرات النهضة العلمية آنذاك، ويعرض في قاعة الطب مجموعة الأدوات، والنماذج الطبية العربية، ومخطوطات طبية قديمة بالإضافة إلى صور مأخوذة من مخطوطات قديمة تمثل عملية الفصد، وحساب كمية الدم المسحوبة من المريض، وتشريح العين، وجهاز الدوران، والهضم، والجهاز العصبي، ويوجد في وسط القاعة مشهد يمثل الفحص السريري في الطب العربي، وطبيب يجس نبض المريض بحضور طبيب متمرن، وممرض.

وقد كان الطب عند العرب في العصور الوسطى صناعة نبيلة لا يسمح بتعاطيها إلا لمن حصل على خبرة واسعة، عالماً بالتشريح، ملماً بعلم وظائف الأعضاء، خبيراً بالنبض محيطاً بجميع العلوم التي لها صلة قريبة، أو بعيدة بالطب، ويعرض بقاعة الصيدلة نماذج تمثل بعض الأدوات، والأجهزة التي كان يقوم العلماء العرب بواسطتها بمزج، ودق، وتركيب الأدوية المستخرجة من الأعشاب الطبية مثل: الواوين، والمدقات، والملاعق، والقوارير، إضافة إلى الميزان لتحديد العيارات الدقيقة للمزاد قبل مزجها، وإجراء التجارب عليها، وكذلك جهاز التقطير، ومن المعروف أن العرب هم المؤسسون الحقيقيون للصيدلة، وهم الذين انشأوا المدارس لتعليمها، والحوانيت لبيع الأدوية، وصرفها كما أنهم أول من وضعوا كتباً خاصة بتركيب الأدوية أطلقوا عليها الأقرباذين، واخضعوا هذه الصناعة لرقابة المحتسب.

ويلاحظ الزائر أن قاعة الطيور، والحيوانات المحنطة هي تعليمية أكثر من كونها تاريخية علماً أنها تشير إلى اهتمام العرب بعلم الحيوان، وفن البيطرة كذلك إتقانهم لفنون الصيد، والقنص،

والمؤلفات العربية الزاخرة بهذه المعارف وافرة، ومتعددة، ويكفي أن يذكر في هذا المجال الجاحظ، والقزويني، والدميري، وأضيف إلى المتحف بعض المشاهد الجديدة المعبرة، ومنها مشهد التعليم الطبي في البيمارستان في الإيوان الشرقي الكبير، ومشهد الفحص السريري في الطب العربي في قاعة الطب، ومشهد الاستشارة الطبية من المعاينة إلى وصف الدواء في قاعة الصيدلة.

4- الربط:-

الربط جمع رباط، وهو شبيه بالخانقاة، وكانت مأوى يلجأ إليه العلماء، والرحالة، وطلبة العلم، الذين يتنقلون بين حواضر العالم الإسلامي، ويتلقون تعليمهم على أيدي المشايخ، والعلماء([1]).

وكان العلماء يتخذون من الربط أماكن للمطالعة، والتاليف، وبخاصة في علم التصوف([2]).

ويظهر من حديث ابن جبير عن الرباطات في دمشق، أنها هي نفسها كانت تسمى الخوانق، وهي أماكن عبادة للصوفية، وقد وصف هذه الأماكن قائلاً: "وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة، وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة يطرد فيها الماء على أحسن منظر يبصر"([3]).

وكان نور الدين يعتني بهذه الأماكن، وخصصها للصوفية، فقد "بنى الربط والخوانق في جميع البلاد للصوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة، وأدر عليهم الإدارات الصالحة"([4]).

ويبدو أن المتصوفين كانوا يحتلون مكانة رفيعة في الدولة النورية فكان نور الدين"يحضر عنده مشايخهم، ويقربهم ويدنيهم، ويبسطهم، ويتواضع لهم"([5])، "وإذا أقبل إليه أحدهم، يقوم له فدتقع عينه عليه ويعتنقه، ويجلس على سجادته، ويقبل عليه بحديثه"([6])، وهذه المكانة الرفيعة للصوفية جعلت ابن جبير يقول عنهم بأنهم: "الملوك بهذه البلاد، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعايش، وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان"([7]). ومن أهم الربط في عهد الدولة النورية:

رباط أبي البيان (555هـ):-

يُنسب للشيخ " أبي البيان نبأ بن محمد بن محفوظ القرشي الشافعي الدمشقي المعروف بابن الحوراني"، كان رجلاً صالحاً ملازماً للعلم والمطالعة، كثير المراقبة، كبير الشأن، بعيد الصيب، صاحب أحوال وكرامات، له تأليف، ومجاميع، وردّ على المتكلمين، وله أذكار مسجوعة، وأصحاب ومريدون وفقراء، وكان ملازماً لصحبة الشيخ أرسلان، وكانا شيخي دمشق في عصرهما، لكن شهرة

---

(1) المقريزي، المواعظ، ج2، ص427. عبد الدائم، التربية، ص161. المدني، الحياة، ص181.

(2) عبد المهدي، الحركة، ص75. المدني، الحياة، ص181.

(3) ابن جبير، تذكرة، ص231.

(4) ابن الأثير، الباهر، ص171. الكامل، ج11، ص404. ابن خلدون، العبر، ج5، ص353، للأسدي، الكواكب، ص38.

(5) المصادر السابقة.

(6) ابن الأثير، الباهر، ص171.أبو شامة، الروضتين، . الأسدي، الكواكب، ص39.

(7) ابن جبير، بذكرة، ص231.

الشيخ أرسلان طغت فيما بعد حتى نسي الناس أبا البيان الذي توفي سنة 551هـ، ودفن في باب الصغير، وكان قبره بُزار ويُتبرك به، وبعد وفاته بأربع سنين، اجتمع أصحابه على بناء هذا الرباط، فعارضهم السلطان نور الدين، ثم وافق بعد ما تبين له مقام أبي البيان، وساعدهم بالمال والمواد، ووقف على الرباط مكاناً بجسدين، وكان الرباط مسجداً يتعبدُ الشيخ أرسلان، وأصحابه في قسمه الشرقي، والشيخ أبو البيان في القسم الغربي([1]).

5- الخوانق:

أما الخوانق، ومفردها خانقاة أو خانكاة، فهي كلمة فارسية الأصل معناها: البيت، وقيل أصلها خونقاة، أي الموقع الذي يأكل في الملك([2])، وقد احتوت على عدد من الغرف المخصصة لمبيت الفقراء والصوفية، كانت تؤدي فيها الصلوات، وتقام فيها الأوراء والأذكار، وكان يعقد فيها دروساً في الفقه والأدب، وكانت تشتمل على خزائن للمصاحف والكتب، وبعض الخوانق كانت توفر حاجات الطلاب: من المأكل والمشرب، والأدوية، والاحتياجات الأخرى([3])، ومن الواضح مما سبق أن مثل هذه الخوانق كانت بمثابة مراكز علم وعبادة، وكان لها دور ديني، واجتماعي كغيرها من المؤسسات الدينية([4]).

وقد أنشأ نور الدين ونوابه عدد من الخوانق وهي:-

أ- خانقاة القصر: بناها نور الدين تحت القلعة عام 553هـ ، وسميت بالقصر الذي كان هنالك من بناء شجاع الدين فاتك([5]).2-

ب- خانقاة الطاحون: ذكر ابن شداد([6]) أنها تقع خارج البلد، وهي منسوبة للسلطان نور الدين محمود زنكي.

ج- الخانقاة الأسدية: كانت تقع داخل باب الجابية بدرب الهاشميين- سوق القطن حالياً- في دمشق، وقد أنشأها أسد الدين شيركوه الساعد الأيمن لنور الدين محمود عام560هـ ([7]).

د- الخانقاة النجمية: بباب البريد، قرب المدرسة المعينية، في الدرب المتعامد مع الدرب الآخذ جنوباً إلى المدرسة العصرونية، واقفها نجم الدين أيوب الكبير، والد الملوك من بنى أيوب، فقد ذكر أن

---

(1) المقريزي، المواعظ، ج2، ص414. عبد الدائم، التربية، ص160. المدني، الحياة، ص182.

(2) السبكي، طبقات، ج7، ص318-120. الذهبي، سير، ج2، ص326. ابن كثير، البداية، ج12، ص235. وانظر: العلبي، خطط، ص409.

(3) عبد الدائم، التربية، ص160. إبراهيم، الحياة، ص74. عبد المهدي، الحركة، ص78.

(4) المدني، الحياة، ص182.

(5) الأعلاق، قسم حلب،ج1، ص30. على، خطط، ج6، ص44.

(6) الأعلاق، قسم حلب،ج1، ص192.

(7) العلبي، خطط، ص394.

نجم الدين أيوب، عندما أراد الالتحاق بولده يوسف في مصر، شرع في تفريق أملاكه في دمشق، وبنى رباطاً–المقصود به الخانقاة– داخل الدرب بزقاق العونية بباب البريد عام560هـ([1]).

هـ– خانقاه أنشأها مجد الدين أبو بكر محمّد بن محمّد بن نوْشتَكين المعروف بابن الداية قرب عرصة الفراتّي في حلب([2]).

و– خانقاة أنشأها سعد الدين كُمُشْتَكين الخادم مولى بنت الأتابك عماد الدين قرب دور بني العديم في حلب([3]).

ز– خانقاة خاصة بالنساء أنشأها نور الدين محمود في حلب([4]).

ح– خانقاة في حران([5]).

ط– خانقاة في الرقة([6]).

ي– خانقاة في داخل مدينة سنجار([7])، وأخرى في خارجها مخصصة للواردين الغرباء([8]).

6– الزوايا:

ينقل العلبي([9]) عن المستشرق بروفنسال، قوله بأن " كلمة زاوية، كانت تطلق على صومعة الراهب المسيحي، ثم أطلقت على المسجد الصغير، أو المصلى، حيث يتحلق المريدون حول شيخهم إن كان حياً، أو حول قبره "، ويقول دوفاس:" إن الزاوية مدرسة دينية ودار للضيافة المجانية "([10])، وهي شبيهة بالرباط والخانقاة إلا أنها أصغر، وهي أبنية صغيرة منفصلة في جهات مختلفة، في شكل دور، أو مساجد صغيرة، يقيم فيها المسلمون الصلوات الخمس، ويتعبدون فيها، ويعقدون بها حلقات دراسية في علوم الدين، كما يعقد فيها مشايخ الطرق الصوفية حلقات الذكر، وقد تكون الزواية في ناحية من نواحي المساجد الكبرى([11]).

ومما سبق نستنتج أن الزوايا هي أماكن كانت تجمع بين العبادة والعلم، وهي إما جزء من المسجد، أو منفصلة عنه، هذا بالإضافة إلى كونها مأوى، وملجأ للغرباء، وهذا ما نستنتجه من قول ابن

---

(1) ابن خلكان، وفيات، ج1، ص257. المصدر نفسه، العلبي، خطط، ص406.

(2) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، ج1، ص31.

(3) المصدر نفسه.

(4) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، ج1، ص31.

(5) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، ج1، ص119.

(6) المصدر نفسه، ج1، ص124.

(7) المصدر نفسه، ج1، ص139.

(8) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، ج1، ص140.

(9) العلبي، خطط، ص390.

(10) المرجع السابق.

(11) حسن، تاريخ، ج4، ص423. عبد الدائم، التربية، ص161. المدني، الحياة، ص183.

جبير وهو يعدد مناقب نور الدين محمود حيث يقول:"ومن مناقب نور الدين–رحمه الله– أنه كان عين للمغاربة للغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافاً كثيرة، منهـا: طاحونتـان، وسبعة بساتين، وأرض بيضاء، وحمام ودكان بالعطارين، وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه، أن هذا الوقف المغربي يغل إذا كان النظر فيه جيداً خمسمائة دينار في العام"([1])، وقد مـدح ابـن جبير الصوفيين المشرفين على الزوايا، وغيرها من المؤسسات الدينية والتعليمية قـائلاً:"وهـم علـى طريقة شريفة، وسنة في المعاشرة عجيبة، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة، وعوائـدهم مـن الاجتماع للسماع المشوق جميلة، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحـالات المنفعـل رقـة وتـشوقاً. وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة، وهم يرجون عيشاً طيباً هنيئاً"([2])، وفي مقابل هذا المـديح، والوصـف الواضح لأحوال الصوفية في الزوايا، فإننا نجد في المقابل مـن يعيـب ويـذم هـؤلاء المتـصوفيين وشيوخهم، فقد قال أحد الفقهاء، وهو إبراهيم بن نصر الشافعي يذم شيخ إحدى الزوايا ومريديه، بعد أن أقاموا حلقات الذكر والسماع، قال:

متى سمـــع الناس في دينهم بأن الغنا سنـــة تتبـــع
وأن يأكل المـرء أكل البعير ويرقص في الجمع حتى يقع
وقالـــوا: سكرنا بحب الإله وما أسكـر القوم إلا القصع
كـــذاك الحمير إذا أخصيب يهجيها ريها والشبـــع([3])

وهناك إشارة أخرى يورها ابن شداد([4]) تدلل على أن نور الدين قد بنى الزوايا ومنهـا زاويـة المالكية، وأخرى للحنابلة في جامع حلب.

ومن الغريب ما ذكره العلبي([5]) حين قال: بأنه" لم يرد ذكر شيء من الزوايا بدمشق قبل القرن السابع، وأقدم الزوايا التي وجدت في أوائل القرن الـسابع هـي الزاويـة اليونـسية "([6])، والزاويـة القلندرية([7])".

---

(1) ابن جبير، تذكرة، ص232.

(2) المصدر نفسه، ص231.

(3) ابن خلكان، وفيات، ج1، ص38.

(4) ابن شداد، الأعلاق، ج1، ص43.

(5) خطط، ص393.

(6) الزاوية اليونسية: تنسب للشيخ يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني المخارقي القنيي، وقد بنيت عام 615هـ. العلبي، خطط، ص429.

(7) الزاوية القلندرية: الدركزينية: تنسب إلى عدد من الشيوخ، أولهم وأصلهم الشيخ محمد بن يونس جمـا ل الـدين الـساوجي، ومعنى القلندرية "المحلقون"، وسميت بالدركزينية نسبة لجلال الدين الدركزيني–نسبة إلى دركـزين بلـدة مـن همـذان–مـساعد الساوجي، وقد بنيت بعد اليونسية سنة 616هـ. العلبي، خطط، ص426.

وكأن العلبي هنا يغفل إشارة ابن جبير، وابن شداد، واللتان تفيدان فيما لا يدع للشك وجود عدد من الزوايا في العهد النوري، وخاصة أن الصوفيين قد ازداد عددهم في عهد نور الدين نظراً للدعم الذي تلقوه منه.

7- دور الحديث:-

وإلى جانب اهتمام نور الدين بإنشاء المدارس والخوانق، والأربطة، والزوايا، فقد بنى دار الحديث، وبنى مكاتب الأيتام في كثير من البلاد، وأجرى عليهم وعلى معلميهم الخيرات الوافرة"([1]).

وقد بنيت دار الحديث في مدينة دمشق عام 566هـ، في منتصف الطريق الواصل بين باب البريد، وقلعة دمشق، وعرفت فيما بعد باسم العصرونية، نسبة للمدرسة العصرونية التي بنيت شرقي دار الحديث النورية([2])، وكان بناء المدرسة للإمام الحافظ ثقة الدين ابن عساكر، فهو أول من تولى مشيختها([3]) لأنه كان إمام أهل الحديث في عصره([4]).

ثانيا: تشجيع نور الدين محمود للعلم والعلماء :-

شهدت بلاد الشام والجزيرة وكافة المناطق التي خضعت لسلطان نور الدين محمود نشاطاً علمياً واسع النطاق، وقد ذكرنا كيف انتشرت المؤسسات العلمية من مساجد ومدارس وأربطة وخانقاوات وبيمارستانات([5])، وإلى جانب هذا كله شهدت البلاد تدفق عدد كبير من العلماء والفقهاء والأدباء-إلى جانب العلماء والأدباء من المنطقة- من المشرق والمغرب.

ولم يكن لهذا الأمر أن يتم لولا حب نور الدين للعلم وتشجيعه للعلماء، وليس هذا إلا لتصميم من نور الدين هدف منه على ما يبدو إحداث نوع من التأصيل الحضاري من خلال نشاط ثقافي وتربوي يرتبط به الفكر بالسلوك والعلم والعمل([6]).

وأمام الخطرين الإسماعيلي، والصليبي كان لزاماً على نور الدين أن يعد الأمة لمواجهة هذين الخطرين، وهذا لا يتسنى إلا من خلال وجود نهضة علمية واسعة.

وقد قاد هذه النهضة العلمية نور الدين نفسه الذي لم يكن سلطاناً وقائداً عسكرياً فحسب، بل أنه كان عالماً " كثير المطالعة للعلوم الدينية متبع للآثار النبوية روى حديث المصطفى (صلى الله عليه وسلم) وأسمعه وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه حرصا منه على الخير في نشر السنة والتحديث ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حدثيا كما جاء في الحديث "([7])، وممن أجاز له: أبو

---

(1) ابن الأثير، الباهر، ص172. الكامل، ج11، ص403. أبو شامة، الروضتين، ج1ن ص47. الأسدي، الكواكب، ص39.

(2) العلبي، خطط، ص91.

(3) النعيمي، الدارس، ج1، ص99-100.

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج10، ص531.

(5) ابن الأثير، الباهر، ص171.

(6) ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص122-123.

(7) المصدر نفسه، ج57، ص123. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص312. النعيمي، الدارس، ج1، ص467.

محمد عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري([1])، وروى عنه جماعة من شيوخ أبو شامة صاحب كتاب الروضتين مثل: أبي الفضل أحمد و أبي البركات الحسن و أبي منصور عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعي([2]). وكان يسعى دائماً " إلى التشبه بالعلماء والصالحين، والاقتداء بسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم والإتباع لهم في حفظ حالهم"([3]).

وقد حظى العلماء في عهد نور الدين بمكانة رفيعة واحتلوا الصدارة فكانوا في المنزلة الأولى والمحل العظيم([4])، فكان يحضرهم إلى مجلسه " فيدنيهم..ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له فدتقع عينه عليه، ويعتنقه ويجلس معه على سجادته، ويقبل عليه بجديته، كأنه أقرب الناس إليه، تعظيماً وتوقيراً واحتراما ً"([5])، وقد شبه ابن الأثير([6]) مجلس العلم بحضرة نور الدين بمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم "مجلس حلم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم، ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا".

وهذا جعل الأمراء يحسدون العلماء "وكانوا يقعون فيهم عنده فينهاهم"، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يقول:" من المعصوم؟ وإنما الكامل من تعد ذنوبه"([7]).

فقد روى ابن الأثير([8])" أن بعض الأكابر من الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري، فنال أحدهم فيه يوماً عند نور الدين فقال له: يا هذا، إن صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها، وهي العلم والدين، وأنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها، ولا عقلت لشغلك عيبك عن غيرك، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عد حسناتكم، أفلا أحتمل سيئة هذا – إن صحت– مع وجود حسنته؟ على أنني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لاوذينك!! فكف عنه "؛ وهذا النص يظهر مدى الاحترام الكبير الذي كان يكنه نور الدين للعلماء، فهو يدافع عنهم ويقف في وجه حسادهم، و يرجح كفة الميزان لصالح العلماء.

---

(1) عبد الله بن رفاعة بن غدير بن على بن أبي عمر الذيال بن ثابت بن نعيم أبو محمد السعدي القاضي المصري: ولد في ذي القعدة سنة سبع وستين وأربعمائة ولزم القاضي الخلعي، فتفقه عليه، وسمع منه الكثير، وهو آخر من أخذ عنه بسيرة ابن هشام، وكان فقيها فرضيا حيسوبا دينا ورعا ولى القضاء بمصر بالجيزة مدة ثم استعفى فأعفي واشتغل بالعبادة إلى أن توفي في ذي القعدة سنة إحدى وستين وخمسمائة. السبكي، طبقات، ج7، ص124. الذهبي، سير، ج20، ص435.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص57.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص312. النعيمي، الدارس، ج1، ص467.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص47.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص47.

(6) ابن الأثير، الباهر، ص173. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج1، ص48.

(7) ابن الأثير، الباهر، ص173. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص47.

(8) ابن الأثير ، الباهر، ص171. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص47.

وكان لنور الدين محمود منصفاً للعلماء يحميهم ويدافع عن قضاياهم؛ فخلال إقامة آل قدامة([1]) في مسجد أبي صالح([2]) حدث نزاع بينهم وبين بني الحنبلي([3]) القائمين على المسجد، إذ خافوا أن يستولى آل قدامة على وقف المسجد، فقالوا لهم: "ما نخليكم في المسجد حتى تكتبوا خطوطكم، أنكم من تحت أيدينا، وأنكم نزلتم علىنا " ففعلوا ذلك، ولم يكتف بنو الحنبلي بذلك، بل كانوا يضربون من يتردد على آل قدامة في المسجد، فاشتكوا إلى السلطان نور الدين محمود، فاستمع إليهم في مجلس حضرة القاضي ابن أبي عصرون، الذين بين لنور الدين بأن آل قدامة أهل علم وصلاح وتقوى وحفظ للقرآن، فأمر نور الدين بنزع الوقف من بني الحنبلي وتسليمه لبني قدامة([4]).

ولم يقف نور الدين عند هذا الحد في تعالمه مع العلماء وتشجيعه لهم، ولكنه تجاوز هذا، إلى البذل والعطاء، فكان يمنحهم بسخاء، مقدراً أن هذه الفئة يجب أن تظل عزيزة الجانب، وألا تلجئها الظروف القاسية إلى التخلي عن مبادئها الحرة فتتملق وتداهن وتغشى وتكذب طلباً للمال وسد الحاجة، ويدرك في الوقت نفسه، عظم الجهود التي يبذلها هؤلاء العلماء([5]) وعندما يعطيهم يقول: " إن هؤلاء لهم في بيت المال حق، فإذا اقنعوا منا ببعضه فلهم المنة علىنا "([6]).

ولقد أغضبه أحد الأمراء عندما اقترح عليه اقتطاع جزء من الإرادات الكثيرة والصلات العظيمة التي كانت مخصصة للفقهاء والقراء ليستعين بها على فتح حصن الأكراد الفرنجي، وقال للأمير" والله إني لأرجو النصر إلا بأولئك، ..كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تخطئ وتصيب، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم"([7]).

وكانت معظم مخصصات العلماء والفقهاء ونفقاتهم يتم صرفها من خلال الأوقاف الكثيرة التي كان يجريها لهم نور الدين محمود، فقد بنى في كثير من بلاد الشام والجزيرة الكثير من المؤسسات التعلىمية الوقفية، فكانت للأيتام لتعلىمهم، وأجرى عليهم على معلميهم الجرايات الوافرة، ووقف على

---

(1) آل قدامة: من قبيلة قضاعة، وهم قدامة بن جرم بن ربَان، كانت مواطنهم في بلاد جماعيل من أعمال نابلس، ولهذه العائلة فضل كبير في نشر المذهب الحنبلي، وبعد العدوان الصليبي على فلسطين، نزلوا دمشق واستقروا فيها. انظر: المقريزي، البيان، ص5. الدباغ، الموجز، ص 317–318. المدني، الحياة، ص79–82.

(2) مسجد أبي صالح: كان يلزمه أبو بكر بن سند بن حمدويه الزاهدة وخلفه فيه صاحبه، أبو صالح مفلح بن عبد الله الحنبلي (ت 530هـ/1135م) فنسب إليه، ووقف مسجده على الحنابلة. انظر: النعيمي، الدارس، ج2، ص79. المنجد، اللاجئون، ص715.

(3) بنو الحنبلي: أسرة دمشقية شهيرة، كانت على المذهب الحنبلي. انظر: المنجد، اللاجئون، ص715.

(4) ابن طولون، القلائد، ص79. الحافظ، المدرسة، ص14. المنجد، اللاجئون، ص716. صفوري، علماء علماء، ص89. المدني، الحياة، ص83.

(5) ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص123. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص48. خليل، النشاط، ص101.

(6) ابن الأثير، ابن الأثير ، الباهر، ص173. ابن كثير، البداية، ج12، ص281.

(7) ابن الأثير، ابن الأثير ، الباهر، ص118. الكامل، ج11، ص296. ابن العديم، زبدة، ج2، ص314. ابن خلكان، وفيات، ج5، ص187.

قراء القرآن في المساجد أوقاف كثيرة بحيث كان هذا الفعل مما لم يسبق إليه أحد من قبل على حد قول ابن الأثير([1]).

كما وقف وقوفاً أخرى على معلمي ط والقرآن([2])، وفي الجامع الأموي شاهد ابن جبير والذي زار دمشق بعد عشر سنوات من وفاة نور الدين، حلقات عديدة لتدريس الطلبة، وكان مدرسوهم يتقاضون على مهمتهم أعطيات ومخصصات كبيرة، وفي الجانب الغربي من الجامع، أقام نور الدين للمالكية زاوية للتدريس، يجتمع إليها طلبة المغرب (المغاربة) ولهم إجراء معلوم من أوقاف كثيرة أوقفها نور الدين على تلك الزاوية بلغت مسمائة دينار في العام الواحد، وقد خصص لكل سارية من سواري الجامع وقف معلوم يأخذ منه المدرس الذي يستند إليها وهو يجتمع بحلقته للمذاكرة والتدريس، وثمة وقف كبير للأيتام من الصبيان يتسلم منه معلمهم ما يسد حاجته وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم ويكسونهم "وهذا من أغرب ما يحدث به من مفاخر المدرسين، وورد في شرط الواقف أن يحصل في كل هذه البلاد"([3]).

ويختتم ابن جبير حديثه عن هذا الجانب المهم في دمشق فيقول: " ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذه الإحصاء، ولا سيما لحفاظ كتاب الله والمنتمين لطلب العلم فالشأن بهذه لهم عجيب جداً وهذه البلاد المشرقية سجلها على هذا الرسم لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أوجد، فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة وهو أكبر الأعوان وأهمها "([4]).

وابن جبير في النص السابق يقدم نصيحة مهمة لطلبة العلم والعلماء الباحثين عن الأرضية صبة التي تساعدهم في تحقيق طموحاتهم، وتلبية متطلباتهم، وهذا لا يتسنى إلا في بلاد الشام حيث التشجيع والحفاوة التي لا مثيل لها بالعلم والعلماء والتي وضع أسسها نور الدين محمود.

فعلى الرغم من أن زيارة ابن جبير لبلاد الشام كانت بعد وفاة نور الدين بنحو عشر سنوات فإن كلامه ينسحب بشكل لا يدع مجال للشك على فترة حكم نور الدين محمود، كما أن الأمور التي أشار إليها ابن جبير لا يمكن أن تكون وليدة الساعة التي زار فيها ابن جبير المنطقة، ومن غير المتوقع أن تكون حديثة العهد لأن مثل هذه التنظيمات اصة بالوقف تأخذ سنوات عديدة.

والحقيقة أن نصيحة ابن جبير المقدمة للعلماء قد تم العمل بها قبل رحلة ابن جبير بسنوات عديدة– أي في عهد نور الدين– فنظر للمخصصات الكثيرة، والأعطيات الجليلة، والتشجيع اللامحدود للعلماء في عصر نور الدين فقد شهدت الدولة النورية نشاطاً لم تشهد له مثيلاً من قبل إلا لماماً، وتدفق

---

(1) ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص121. ابن الأثير ، الباهر، ص172. ابن كثير، البداية، ج12، ص278.

(2) ابن عساكر، تاريخ، ج57، ص121. ابن كثير، البداية، ج12، ص278.

(3) ابن جبير، تذكرة، ص245، 257.

(4) المصدر نفسه، ص258.

العلماء على حواضر الدولة وبخاصة دمشق وحلب من المشرق والمغرب، وقصدوا نور الدين "من البلاد الشاسعة"([1])، وبعد أن كانت بلاد الشام " خإلية من العلم وأهله، في زمانه صارت مقر للعلماء والفقهاء والصوفية "([2]).

وقد أدرك نور الدين أهمية هذه فعمل بنفسه على توسيع نطاقها، وراح يكاتب العلماء من شتى البقاع ومختلف البلاد البعيدة والقريبة، ويستقدمهم إليه، ويبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم([3])، ومن بين هؤلاء العلماء الفقيه الإمام برهان الدين أبا الحسن على بن الحسن البلخي الحنفي، من دمشق، حال استكمال المدرسة الحلاوية في حلب، لغرض التدريس فيها، وكان قد تفقه في بلاد ما وراء النهر، وبغداد، والحجاز، ثم قدم دمشق عام 519هـ ولم يكن نور الدين قد ضمها إلى دولته بعد وجلس للوعظ، وكان يتميز بصدق كلماته فلقيت قبولاً حسناً في قلوب الناس، وكان حسن الاعتقاد زاهداً في الدنيا، وقفت عليه الأوقاف الكثيرة، وكثرت الأعطيات فلم يلتفت إليها([4]).

وقد قام البلخي باستدعاء الفقيه برهان أبا العباس أحمد السلفي –من دمشق أيضا– ليكون نائباً عنه في المدرسة الحلاوية، فاعتذر عن القدوم فسير إليه البلخي كتاباً ثانياً يستدعيه فيه ويشدد عليه في الطلب، فقدم البرهان السلفي وصار نائباً للبلخي حتى وفاته، وظل البلخي مدرساً في الحلاوية ولكنه تخلى عن التدريس فيها وعاد إلى دمشق بسبب خلاف حدث بينه وبين ابن الداية، وقد وافته المنية في دمشق قبل أن يضمها نور الدين إلى دولته بعام واحد أي في عام 548هـ([5]).

ومن العلماء الذين استدعاهم نور الدين إلى دولته للإفادة من كفاءته الفقيه قطب الدين مسعود النيسابوري مصنف كتاب "الهادي" في الفقه([6])، وكان قد بدأ ممارسة نشاطه العلمي في مدينتي نيسابور ومرو، وسمع الحديث على عدد من الشيوخ، وقرأ القرآن والأدب على والده، والتقى بأبي نصر القشيري، ودرس بالمدرسة النظامية في نيسابور نيابة عن ابن الجويني، ثم سافر إلى بغداد حيث مارس الوعظ والكلام في المسائل، فلقي هناك قبولاً حسناً، وغادر إلى دمشق عام 540هـ، فدرس في مدارسها ووعظ في مساجدها، فأقبل الناس عليه، ومن هناك استدعى إلى حلب، وكان من العلم والدين

---

(1) ابن الأثير، ابن الأثير ، الباهر، ص171،–172.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص62.

(3) ابن العديم، زبدة، ج2، ص293–294. ابن واصل، مفرج، ج1، ص283.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ق1، ج8، ص219–220. ابن عساكر، تاريخ، ج41، ص339.

(5) ابن عساكر، تاريخ، ج41، ص340–341. ابن العديم، زبدة، ج2، ص293.

(6) ابن العديم، زبدة، ج2، ص293–294. النعيمي، الدارس، ج1، ص136.

والصلاح والورع بمكان كبير([1])، ذكره ابن عساكر([2]) بقوله بأنه " كان حسن النظر مرابطا على التدريس ووصفه العماد الأصفهاني بأنه " فقيه عصره ونسيج وحده"([3]).

وقد أرسله نور الدين إلى دمشق ثانية بعد ضمها إلى الدولة النورية ليعلم الناس في مدارسها ومساجدها، وحيث أقبل عليه طلبة العلم، وظل يدرس هناك حتى وفاته عام 578هـ([4]).

ومن العلماء أيضاً سعيد بن سهل أبو المظفر المعروف بالفلكي النيسابوري المتوفي سنة 560هـ، والذي درس الحديث وأقام في خوارزم وزيراً لأميرها ورحل إلى بغداد مراراً وحدث بها عند جماعة من الشيوخ ثم سافر إلى حلب وحدث بها ثم رحل إلى دمشق وحدث بها وأقبل عليه نور الدين محمود وأنزله خانقاه السميساطي، وقد طلب أبو المظفر زيارة بيت المقدس فأخذ له نور الدين إذناً من الصليبيين فزاره وعاد إلى دمشق وأمسك به نور الدين وجعله شيخ انقاة السيمساطية فأثر آثاراً جميلة، وأقام بها مدة لا يتناول من وقفها شيئاً ونصيبه من انقاة يجمعه عنده ليسبفيد منه في تعمير ما يلزم للخانقاة، وظل هناك حتى وفاته، وقد روى عنه جماعة بدمشق والقدس ومصر وحلب([5]).

كما قدم على نور الدين عالم آخر ولكن هذه المرة في النحو وهو الحسن بن أبي الحسن صافي مولى حسين بن الأرموي التاجر أبو نزار البغدادي، ويعرف بملك النحاة، فقيه، نحوي، لغوي شاعر ناثر، حسن الشعر والرسائل وله مصنفات في كل فن منها، وله مسائل في علم النحو، ولد ونشأ في بغداد سنة 489هـ، واشتغل بالفقه على الشيخ أحمد الأشنهي، وعلى أبي الفتح بن برهان وأسعد الميهني، وسمع الحديث من الرينبي، وقرأ النحو على أبي الحسن على بن أبي زيد الفصيحي ومهر فيه ولقب نفسه بملك النحاة، وسافر من بغداد إلى خراسان وكرمان وغزته ثم قدم حلب وأقام بها مدة وكن يقرئ بها الأدب بالمسجد الجامع وقد اتصل بالملك العادل نور الدين وكان يكرمه ويحسن إليه ثم انتقل إلى دمشق وروي عنه عدد من شيوخها منهم أبو القاسم على بن عساكر، وأبو بكر عبد الله بن منصور

---

(1) ابن عساكر، تاريخ، ج58، ص13-14. ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج5، ص 196. السبكي، الطبقات الكبرى، ج 7، ص 298. الذهبي، سير، ج21، ص106. العبر، ج4، ص 235. النعيمي، الدارس، ج1، ص136. ابن العماد، شذرات الذهب، ج 4، ص263.

(2) ابن عساكر، تاريخ، ج58، ص13.

(3) المصدر نفسه، ص134-135.

(4) البنداري، سنا، ص135. أبو شامة، الروضتين. سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق1، ص294.

(5) ابن عساكر، تاريخ، ج21، ص101-102. الذهبي، العبر، ج 4، ص170، سير، ج20، ص422. ابن العديم، بغية الطلب، ج8، ص3861، ج9 ، ص4304. الصفدي، لوافي بالوفيات، ج 15، ص224. الأتابكي، النجوم، ج5، ص 370. النعيمي، الدارس، ج2، ص153. ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص 188. وتحرفت نسبته " الفلكي " إلى " العلكي ". وانظر: عباس، فصول، ص78.

بن عمران الباقلاني([1])، ويصفه ابن العديم بأنه كان " شريف النفس صحيح العقيدة، عفيفاً نزهاً عن الدنيا"([2]).

وقد خلع عليه نور الدين خلعة سنية تقديراً لجهوده النحوية وكان بينهما لقاءات عدة([3])، وقد توفي سنة 569هـ([4]).

وغير ملك النحاة ترد أسماء كثيرة أخرى في شتى حقول المعرفة منهم أبو الفتح بنجير بن أبي الحسن الأشتري الفقيه.. كان معيداً بالمدرسة النظامية، ثم سافر إلى دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة أفاد منها عدد من المؤرخين وبخاصة أبي شامة في كتاب الروضتين([5])، وأبو عثمان المنتجب بن أبي محمد البحتري الواسطي الواعظ وفد أربل ووعظ بها، وكان له قبول عظيم لدى الناس.. سافر إلى نور الدين في الشام طلب للجهاد، وانفق له نور الدين جملة من المال، لم يقبلها وردها عليه([6]).

ومحمد بن أبي القاسم البلخي من أئمة الفقه في بلخ فيما وراء النهر، قدم دمشق عام 522هـ، ووعظ في جامعها عدة أيام والناس يستحسنون وعظه ويستظرفون فنه وسلاطة لسانه وسرعة جوابه وحدة خاطره وصفاء حسه([7]).

ومن أصفهان قد الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقاني الشافعي، كان من أكابر علماء الإسلام، من أصحاب محمد بن يحيي النيسابوري الشافعي رئيس الشافعية في أصفهان في عصره، وفد النوقاني إلى الشام عام 566هـ وهي السنة التي افتتح فيها المسجد الجامع في الموصل فسأله نور الدين أن يتولى التدريس في المسجد وكتب منشوراً بذلك([8]). ومن الأندلس الفقيه على بن سليمان القرطبي، غادر الأندلس سنة 520هـ ورحل إلى بغداد وخراسان وتفقه على الإمام محمد بن يحي صاحب الغزإلى، وجماعة آخرين، كما روى عنه عدد من العلماء المشهورين، قد إلى دمشق والتقى بابن عساكر وزامله هناك، وحدث بالصحيحين، ندب للتدريس في حماة ثم انتقل إلى حلب ودرس بها المذهب بمدرسة ابن العجمي، وكان ثبتاً صلب في السنة، توفي في حلب أواخر سنة 544هـ([9]).

---

(1) ابن عساكر، تاريخ، ج13، ص71-76.ابن العديم، بغية، ج5، ص2390-2399. سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق1، ص295-297. السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص504. وانباه الرواة، ج1، ص340 . ياقوت،إرشاد، ج8، ص122

(2) ابن العديم، بغية، ج5، ص2390-2391. وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق1، ص295-297.

(3) ابن العديم، زبدة، ج5، ص399.

(4) المصدر نفسه، ج5، ص2400.

(5) أبو شامة، الروضتين. ج1، ص62، 377.

(6) المصدر نفسه، ج1، ص55.

(7) ابن القلانسي، ذيل، ص347-348.

(8) المصدر نفسه،ج2، ص172. ابن كثير، البداية، ج12، ص263. البنداري، سنا، ص98.

(9) ابن عساكر، تاريخ، ج41، ص515-516.

وإلى جانب العدد الكبير من العلماء الذين قدموا إلى بلاد الشام شهدت الدولة النورية بروز عدد كبير من العلماء الذين ولدوا وترعرعوا في حواضر الدولة النورية وبرعوا في مجال العلوم النقلية والعقلية، ولم يتسن لهم ذلك لولا ما لقوه من التشجيع والحفاوة البالغين اللذين أنعم بهما نور الدين عليهم.

ثالثاً: ميادين العلوم في عهد نور الدين محمود:

شملت النهضة العلّمية في العهد النوري مختلف العلوم، فلم يقتصر الاهتمام على العلوم الشرعية واللغوية والأدبية دون غيرها وإن كانت الصيغة العامة للمدارس في ذلك العهد، هي الاهتمام بدراسة مذهب أو أكثر من المذاهب السُنّية، لكون هذا جزءاً من الأهداف التي أنشئت من أجلها هذه المدارس وتلك الدور التي ركزت اهتمامها على نشر المذهب السني ومقاومة المذهب الشيعي الذي كان منتشراً في بعض المناطق في مدة سابقة على حكم الزنكيين للمنطقة، وبخاصة في بلاد الشام، وبعض مناطق الجزيرة إبان مرحلة خضوعها للفاطميين الشيعة في مصر[1].

ولكن هذا لا يعني بكل الأحوال اقتصار التعلىم في ذلك العهد على تدريس الفقه أو غيره من فروع العلوم الشرعية وما يتصل بها من العلوم اللغوية والأدبية، وإنما كانت هناك مدارس علمية تُدرّس فيها مختلف التخصصات العلمية إلى جانب ذلك التخصص الموجه من الدولة، الذي يتوافق مع مصالح الأمة وعقيدتها، فقد نالت ميادين علمية كثيرة نصيباً من اهتمامات الدارسين والباحثين، وقدمت فيها دراسات علمية رائدة، وصنفت فيها كتب مهمة، اعتمد عليها كثير ممن جاء بعدهم حيث ظهرت دراسات متخصصة في العلوم التاريخية والجغرافية وعلوم الرياضيات والفلك، إضافة إلى تدريس الطب في كثير من البيمارستانات المنتشرة في الدولة النورية، وظهر من بين المشتغلين بهذه التخصصات علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصة التي ظلت رافداً للعلوم الإسلامية حتى الوقت الحاضر[2]ومن هذه العلوم:

أولا: العلوم الشرعيّة:

وكانت الغلبة لها، وحازت على نصيب وافر من الاهتمام؛ وهي تشمل القراءات والتفسير والحديث والفقه وأصوله، ثم علوم اللغة العربية وآدابها؛ وهذا الأمر يتفق مع ترتيب العلماء للعلوم حسب أهميتها، فقد رتبوها إلى علوم شرعية وعلوم أخرى تخدمها وتوضحها، وفي هذا المجال ذهب الإمام الماوردي[3] المتوفى 405هـ/1058م إلى أن أفضل العلوم هي علوم الدين إذ قال: إنه " لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام إلى معرفة أهمها، والعناية بأولها، وأفضلها، وأولى العلوم وأفضلها علم الدين، لئن الناس بمعرفته يرشدون وبجعله يضلون، إذا لا يصلح أداء

(1) المزيني، الحياة العلمية، ص 237.

(2) المزيني، الحياة العلمية، ص 237.

(3) أدب الدنيا والدين، ص 44.

عبادة جهل فاعلها صفات أدائها، ولم يعلم شروط أجزائها "، وهذا رأى ابن جماعة[1] أيضاً عندما قال: بأنه " إذا تعددت الدروس قِدُم الأشرف فالأشرف، والأهم فالأهم، فيقدم تفسير القرآن، ثم الحديث، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم المذاهب ثم لاف، أو النحو أو الجدل "، وتشتمل العلوم الشرعية على فروع عديدة من أهمها:

أ- **علم القرآن:** وقد نشط علم القراءات في العهد النوري، وكان من العلوم التي تُدرّس في دور التعلىم المختلفة، كما ظهر عديد من علماء القراءات الذين كانت لهم مصنفات مهمة في القراءات في العهد النوري:

1- ابن الطحان (498 - نحو 560 هـ / 1105 - نحو 1165م):

عبد العزيز بن على بن محمد، أبو الأصبغ الاشبيلي: قارئ مجود، له شعر حسن، ولد باشبيلية، ورحل إلى مصر والشام وحلب والعراق، وانتهى إليه التفوق بالقرآآت في عصره، وتوفي بحلب.

من كتبه " نظام الأداء في الوقف والابتداء " و " مقدمة في مخارج الحروف - خ " في الظاهرية، و " مقدمة في أصول القرآآت " و " كتاب الدعاء " و " مرشد القاري إلى تحقيق معالم المقاري "(2).

2- يحيى بن سعدون (486 - 567 هـ/ 1093 - 1172م) يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي، أبو بكر: عالم القرآآت والحديث واللغة، وله شعر، ولد بقرطبة، وتعلم بمصر وببغداد، وأقام بدمشق، ثم استوطن الموصل وتوفي بها وصنف " القرطبية - خ " في القرآآت.

قال عنه ياقوت(3): بأنه كان " شيخ فاضل عارف بالنحو ووجوه القراءات". وقال الذهبي[4]: بأنه قد " برع في القراءات وتصدر فيهما مدة ".

3- أبو بكر عبد الرحمن المقرئ بن الأسعد الغياثي الفقيه الحنبلي ويعرف بالأعز البغدادي المتوفي في مصر سنة 569هـ، سافر إلى الشام وسكن دمشق مدة، وأم بالحنابلة في جامعها ثم توجه إلى ديار مصر فاستوطنها إلى كان يقرأ القرآن، قارئا طيب النغمة؛ وكان ذكيا جدا يحفظ في يوم واحد مالا يحفظ غيره في شهر، وكان قويا في دين الله متمسكا بالآثار، لا يرى منكرا أو يسمع به إلا غيره لا يحابي في قول الحق أحد([5]).

---

(1) تذكرة السامع والمتكلم ص 35 ، 36.

(2) ابن الجزري، غاية النهاية ، ج1، ص395. المقري، نفح الطيب، ج2، ص15.

(3) إرشاد، ج7، ص278. وانظر: ابن خلكان، وفيات، ج2، ص226. السيوطي، بغية، ص412. ابن الجزري، غاية النهاية، ج2، ص372. إىافعي، مرآة الجنان، ج3، ص380، 383. ابن سعيد، المغرب، ج1، ص135.

(4) سير، ج20، ص14.

(5) ابن العماد، شذرات، ج2، ص233-234.

4- أبو طالب ضر بن هبة الله بن أحمد بن طاووس الدمشقي المقرئ المتوفي سنة 578هـ، آخر من قرأ على أبي الوحش سبع وآخر من سمع على الشريف النسيب توفي في شوال وله ست وثمانون سنة([1]).

5- أحمد بن الحسين بن أحمد بن محمد البغدادي المقرئ الحنبلي أبو العباس المعروف بالعراقي المتوفي سنة 588هـ، نزيل دمشق عام 540هـ حتى وفاته، قرأ القرآن على أبي محمد سبط ياط، ومهر في علم القراءات، كان يجلس للإقراء تحت قبة النسر، قال عنه الشيخ موفق الدين المقدسي: " كان إماما في السنة داعيا إليها إماما في القراءة وكان دينا يقول الشعر الحسن "([2]).

6- أبو الجود الإمام المحقق شيخ المقرئين أبو الجود غياث بن فارس بن مكي اللخمي المنذري المصري الضرير: مولده في سنة ثماني عشرة وخمس مئة، تلا بالروايات على الشريف طيب أبي الفتوح الزيدي وسمع منه ومن عبد الله بن رفاعة، وتلا أيضا على إلىسع بن حزم الغافقي بما في التيسير عن أبيه وغيره عن أبي داود بن نجاح، وتصدر للإقراء دهرا وانتشر أصحابه منهم الشيخ علم الدين السخاوي وعبد الظاهر بن نشوان والفقيه زيادة وأبو عمرو بن الحاجب والمنتجب الهمذاني وغيرهم كثيرين([3])؛ قال عنه الذهبي: " أقرأ الناس دهرا ورحل إليه وأكثر المتصدرين للإقراء بمصر أصحابه وأصحاب أصحابه، كان دينا فاضلا بارعا في الأدب حسن الأداء لفاظا متواضعا كثير المروءة لا يطلب منه قصد أحد في حاجة إلا يجيب وربما إعتذر إليه المشفوع إليه ولم يجبه ثم يطلب منه العودة إليه فيعود إليه تصدر بالجامع العتيق بمصر وبمسجد الأمير موسك وبالفاضلية إلى أن توفي في تاسع رمضان سنة خمس وست مئة رحمه الله "([4]).

ب- علم التفسير : كانت حركة التفسير نشطة في العهد الزنكي حيث كان التفسير مادة أساسية في بعض دور التعلىم في هذه العهد، وبرز فيه علماء أجلاء تركوا أثراً زاخراً في هذا العلم كان من أبرزهم.

1- ابن ظفر (497 - 565 هـ / 1104 - 1170م) محمد بن عبد الله أبي محمد بن محمد بن ظفر الصقلي المكي، أبو عبد الله، حجة الدين: أديب رحالة مفسر، ولد في صقلية، ونشأ بمكة، وتنقل في البلاد، فدخل المغرب وجال في إفريقية والأندلس، وعاد إلى الشام فاستوطن (حماة) وتوفي بها. له تصانيف، منها (ينبوع الحياة - خ) في تفسير القرآن، اثنا عشر مجلدا(5).

---

(1)ابن العماد، شذرات ، ج2، ص261.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص 292.

(3) الذهبي، سير، ج21، ص 474.

(4) الذهبي، سير، ج21، ص 474.

(5) الذهبي، العبر، ج3، ص53. الصفدي، الوافي، ج3، ص 330 و 340. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص368.

2- على بن إبراهيم الغزنويّ المتوفى في حلب سنة 582هـ (1186م) وكان قد تلقى تعلىمه في بغداد على إمام التفسير في عصره محمود بن عمر بن محمد الزمخشري المتوفى سنة 538هـ/114م صاحب الكشاف في التفسير، فلما عاد إلى حلب تولى التدريس فيها وألف فيها مصنفات عديدة في التفسيرة والفقه واللغة والأصول، وكان أشهر ما ألفه في التفسير كتاب " تقشير التفسير " [1] وقد فرغ من تصنيفه في حلب سنة 572هـ 1176م[2] .

ج- علم الحديث : ازدهر علم الحديث في العهد الزنكي حتى أنه يمكن أن يعد هذا العهد من العصور الذهبية لدراسات الحديث والتاليف، ففيه أنشئت أول دار للحديث في الإسلام وهي دار الحديث النورية بدمشق ولعل من أبرز عوامل الاهتمام بعلم الحديث ودراسته والتاليف فيه في هذا العهد اهتمام الملك العادل نور الدين محمود نفسه بهذا العلم فقد أثر عنه أنه كان مهتماً بدراسة الحديث الشريف وفهمه [3]، كما كان له إجازات عديدة في هذا العلم من عدة شيوخ [4] ، وبلغ من حرصه على هذا العلم أن صنّف كتاباً في فضائل الجهاد وأحاديثه وهو بدمشق، كما كان الاهتمام بعلم الحديث لوناً من ألوان التوجيه الذي فرضه الوجود الصليبي على الدراسات في تلك الفترة، فقد شارك الحافظ بن عساكر المتوفى سنة 571هـ 1176م في هذا المجال بجمع أربعين حديثاً في فضائل الجهاد في جزء واحد وأهداه إلى الملك نور الدين محمود[5] ، كما أن طاهر بن نصر الله بن جهبل المتوفى سنة 596هـ/1199م ألف بدوره لنور الدين محمود زنكي كتابا في فضل الجهاد[6]، ولشغف نور الدين نفسه بالجهاد وضع فيه كتاباً بقلمه[7] كما سبق أن ذكرنا. وقد زاد الاهتمام بهذا العلم، حيث ظهر في العهد الزنكي عدد كبير عن رجال الحديث الذين أفنوا أعمارهم في جمعه وتصنيفه وضبطه وتنقيحه، ومنهم علماء جمعوا تالخراجم مُستفيضة لرجال الحديث في جميع العصور، وكان لهؤلاء العلماء فضل لا ينكر في كتابة التصنيف في هذا الفرع من العلوم فضل لا ينكر في الكتابة والتصنيف في هذا الفرع من العلوم الشرعية [8] ومن أبرز علماء الحديث في العهد النوري:

---

(1) كشف الظنون، ج1، ص466.

(2) السيوطي، بغية الوعاة، ج2، ص140.

(3) ابن الأثير، ابن الأثير ، الباهر ص 165.

(4) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج8، ص17. ج17، ص102.

(5) ابن عساكر، تاريخ، المقدمة ج1، ص8. وانظر: الذهبي ، تذكرة الحفاظ ،ج4،ص109. خليفة، كشف، ج2، 1275. الفراني، المقاومة، ص152.

(6) ابن الصلاح، طبقات الشافعية، ج2، ص762. الذهبي، العبر، ج3، ص115. إلىافعي، مرآة الجنان، ج3، ص485. خليفة، كشف، ج2، 1275. الفراني، المقاومة، ص152.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص313. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص57. وانظر: البحيري، عالمية الحضارة، ص96، هامش 75. على، الإسلام، ج2، ص292. بدوي، الحياة العقلية، ص130. وانظر: الفراني، المقاومة، ص152.

(8) المزيني، الحياة العلمية ص 249.

1- على بن عساكر(499 - 571 هـ / 1105 - 1176م) على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي، الشافعي، المعروف بابن عساكر (أبو القاسم، ثقة الدين) محدث، حافظ، فقيه، مؤرخ. ولد في المحرم، ورحل إلى العراق ومكة والمدينة والكوفة وأصبهان ومرو ونيسابور وهراة وسرخس وأبيورد وطوس والري وزنجان وغيرها من البلدان، وسمع فيها عدة من الشيوخ والنساء، وحدث ببغداد ومكة ونيسابور واصبهان ، وسمع منه جماعة من الحفاظ من هو أسن منه([1]).

2- هبة الله البوصيري (506 - 598 هـ / 1112 - 1201م) هبة الله بن على بن مسعود بن ثابت ابن هاشم بن غالب بن ثابت الأنصاري ، زرجي ، المنستيري الأصل ، المصري ، المعروف بالبوصيري (أبو القاسم، أبو الكرم) أديب، كاتب، محدث. ولد بمصر، وسمع من أبي صادق المدني ومحمد بن بركات السعيدي، ورحل إليه الطلبة وحدث بالقاهرة والإسكندرية، وتوفي بمصر في 2 صفر. من آثاره : مختصر في الناسخ والمنسوخ([2]).

2- ابن الأثير (544 - 606 هـ / 1150 - 1210م) المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري، أبو السعادات، مجد الدين: المحدث اللغوي الاصولي.

ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر، وانتقل إلى الموصل، فاتصل بصاحبها، فكان من أخصائه. وأصيب بالنقرس فبطلت حركة يديه ورجليه، ولازمه هذا المرض إلى أن توفى في إحدى قرى الموصل، قيل: إن تصانيفه كلها ألفها في زمن مرضه، إملاء على طلبته، وهم يعينونه بالنسخ والمالخراجعة.

من كتبه " النهاية - ط " في غريب الحديث، أربعة أجزاء، و " جامع الأصول في أحاديث الرسول - ط " عشرة أجزاء، جمع فيه بين الكتب الستة، و " الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف " في التفسير، و " المرصع في الآباء والأمهات والبنات - ط " و " الرسائل - خ " من إنشائه، و " الشافي في شرح مسند الشافعي - خ " في الحديث، و " المختار في مناقب الأخيار - خ " و " تجريد أسماء الصحابة - خ " و " منال الطالب، في شرح طوال الغرائب - خ " في مجلد، جمع فيه من الأحاديث الطوال والأوساط ما أكثر ألفاظه غريب، وصنفه بعد انتهائه من كتابه " النهاية "([3]).

---

(1) الأصفهاني، ريدة، ج1، ص274.ابن الجوزي، المنتظم، ج10، ص261. ياقوت، إرشاد، ج13، ص 73 - 78. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص242 - 243. أبو الفداء، المختصر، ج3، ص62.السبكي، طبقات، ج7، ص70. ابن كثير، البداية، ج12، ص294.الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج4، ص 118 - 123. إلىافعي، مرآة الجنان، ج3، ص 393 - 396. الأتابكي، النجوم الزاهرة، ج6، ص77. النعيمي، الدارس، ج1، ص100-101. ابن العماد، شذرات، ج4، ص239-240.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص251 -252. الذهبي، سير، ج21، ص390-392. الصفدي، الوافي، ج27، ص126. ابن العماد، شذرات، ج4، ص 328.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج 12، ص 113. ياقوت، إرشاد الأريب، ج 6، ص238 - 241. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص441. السبكي، طبقات الشافعية، ج5، ص153. السيوطي، بغية الوعاة 385.

وقد اشتهر مجد الدين بن الأثير في علوم عديدة كان منها علم الحديث، حيث صنف فيه مصنفات مهمة كان من أبرزها جامع الأصول في أحاديث الرسول[1]. ذكر ياقوت أنه جمع فيه بين البخاري ومسلم والموطأ وسنن أبي داود وسنن النسائي والترمذي، عمله على حروف المعجم، وشرح غريب الحديث ومعانيها وأحكامها، ووصف رجالها ونبّه على جميع ما يحُتاج إليها منها ثم قال : أقطع قطعاً أنه لم يُصنّف مثله قط ولا يصنف[2] وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة في القاهرة سنة 1368هـ/1949م في اثني عشر جزءاً بعناية عبد المجيد سَليم، وحامد الفقي، وهي طبعة ناقصة، ثم أعيد نشره كاملاً بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط وطبع في دمشق 1394هـ/1974م في إحدى عشر جزءاً وهي طبعة جديدة مشتملة على مقدمة وفهارس[3] وقد قام صاحب كتاب السنة النبوية الشريفة في القرن السادس الهجري بدراسة موسعة عن الحديث في هذا العهد.

د- الفقه وأصوله: عمل العلماء في العهد النوري على جمع آثار من سبقهم كلّ بحسب مذهبه الذي ينتمي إليه من المذاهب السنية الأربعة الحنفي، والشافعي، والحنبلي، والمالكي ورجحوا بين الروايات وخرّجُوا على الأحكام، وبنوا فتاويهم على شتى المسائل والفروع من أصول أئمتهم وقواعدهم وفتاويهم[4]، وكانت الدولة النورية تدعم المذاهب السنية الأربعة واستطاعت تلك المذاهب السنية أن تضيق ناق على الفكر الشيعي الرافضي في الدولة الزنكية، وأصبح الفكر السني هو المذهب السائد في بلاد الشام.

وقد برز خلال العهد النوري علماء أجلاء في الفقه وأصوله كان لبعضهم أبحاث رائعة ودراسات جليلة، ونظرات صائبة في دراسة الفقه الإسلامي وأصوله، ومن أشهر أولئك العلماء.

1- المذهب الشافعي: وممن برز في هذا المذهب:

أ- الإمام القاضي أبو الفضل كمال الدين محمد بن أبي عبد الله بن أبي المظفر القاسم الشهرزوري المتوفى سنة 572هـ/1176م، وقد وصف بأنه كان: فقيهاً أديباً شاعراً كاتباً فكِه المجالسة، يتكلم في لاف والأصول[5]. هذا بالإضافة إلى شهرته في السياسة وأصول الحكم والكرم، كما كان كثير الصدقات والمعروف، وأوقف أوقافاً كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق على أعمال بر وطلب العلم، وقد اشتهرت مدرسته بالموصل " الكمالية القضوية " وكان رأس المدرسين فيها، حيث خصصها لتدريس الفقه الشافعي[6] .

---

(1) ياقوت، إرشاد، ج17، ص76.

(2) المصدر نفسه.

(3) المزيني، الحياة العلمية ص 252.

(4) المرجع نفسه ص 254.

(5) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص242.

(6) السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص117 – 121.

ب- الإمام قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري المتوفي سنة 578هـ/1182م[1] ، وقد تحدثنا عنه فيما سبق من هذا المبحث.

ج- الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون المتوفى سنة 585هـ (1189م) وكان من أعيان الفقهاء في ذلك العهد، شارك في تدريس الفقه الشافعي في العديد من المدارس الزنكية، وصنّف كُتباً كثيرة منها: صفوة المذهب من نهاية المطلب " وهو في سبع مجلدات وكتاب " الانتصار" لمذهب الشافعي في أربع مجلدات وكتاب المرشد في مجلدين، وكتاب " الذريعة في معرفة الشريعة في مجلد واحد وكتاب " مآخذ النظر" وكتاب " الإرشاد المُغرَب في نصرة المذهب " ولم يكمله، وذهب فيما ذهب له بحلب[2].

د- طيب العراقي (510 - 596 هـ / 1116 - 1200م) إبراهيم بن منصور بن المسلم المصري، أبو إسحاق، المعروف بطيب العراقي: شيخ الشافعية بمصر، مولده ووفاته فيها، رحل إلى بغداد فأقام مدة كان يعرف فيها بالمصري، ولما عاد إلى مصر قيل له العراقي.

له تصانيف منها (شرح المهذب للشيرازي) عشرة أجزاء([3]).

2- المذهب الحنفي : وممن برز في هذا المذهب:

أ- الشيخ عبد الغفار بن لقمان بن محمد أبو المفاخر الكُردي الملقب تاج الدين المتوفى سنة 562هـ/1166م[4]، إمام الحنفية في حلب، كان على غاية من الزهد والورع، تولى قضاء حلب للملك نور الدين محمود بن زنكي، وخلَّف آثاراً جمة في الفقه وأصوله، ففي الفقه شرح الجامع الصغير في الفروع للإمام المجتهد محمد بن الحسن الشيباني الحنفي المتوفى سنة (187هـ /803م)، وكان يذكر لكل باب أصلاً ثم يخّرج عليه المسائل[5]، وجمع المسائل التي يتحير في حلها العلماء في كتاب سمّاه (حِيرة الفقهاء[6])، وفي أصول الفقه شرح كتاب أستاذه ركن الدين عبد الرحمن ابن محمد الكرماني الحنفي المتوفى سنة 543هـ/1148م الموسوم بالتجريد في كتاب سّماه (المفيد والمزيد)[7].

---

(1) ابن عساكر، تاريخ، ج58، ص13-14. ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج5، ص 196. السبكي، الطبقات الكبرى، ج 7، ص 298. الذهبي، سير، ج21، ص106. العبر، ج4، ص 235. النعيمي، الدارس، ج1، ص136. ابن العماد، شذرات الذهب، ج 4، ص263.

(2) ابن خلكان، وفيات، ج1، ص319 -321، السبكي، طبقات الشافعية، ج4، 237 -241، ابن الجزري، طبقات القراء، ج1، ص455. ابن كثير، البداية، ج12، ص333-334. ابن طولون، قضاة مصر، ص 49 -51. الأتابكي، النجوم، ج6، ص109-110. ابن العماد، شذرات، ج4، ص283-284. النعيمي، الدارس، ج1 ، ص399-403. حاجي خليفة، كشف، ص 67، 174، 493، 520، 883، 1455، 1573، 1654، 1913، 1990. البغدادي، إيضاح المكنون، ج1، ص 542، البغدادي، هدية العارفين، ج1، ص457، 458.

(3) ابن خلكان، وفيات، ج1، ص5. إلىافعي، مرآة الجنان، ج 3، ص 484. ابن العماد، شذرات الذهب، ج 4، ص 323.

(3) ابن أبي الوفاء، الجواهر المضيئة، ج2، ص443، 444.

(5) خليفة، كشف الظنون، ج1، ص561.

(6) المزيني، الحياة العلمية ص 258.

(7) ابن أبي الوفاء، الجواهر المضيئة، ج1، ص262. خليفة، كشف الظنون، ج1، ص1778.

ب- السرخسي (..- 571 ه =..- 1175 م) محمد بن محمد، رضي الدين السرخسي: فقيه من أكابر الحنفية.

قدم حلب في عصر نور الدين محمود ودرَّس بالمدرسة النورية والحلاويّة بعد الإمام علاء الدين الغزنوي المتوفى سنة 564هـ/1169م، وتعصب عليه بعض أهلها فسار إلى دمشق، وتوفي فيها. له (المحيط الرضوي - خ) أجزاء منه، في الفقه، وهو كبير في زهاء أربعين مجلدة، وثلاثة كتب أخرى باسم (المحيط) أحدها في عشر مجلدات، والثاني في أربع، والثالث في جزئين، و (الطريقة الرضوية - خ) فقه، و (الوسيط - خ) و (الوجيز - خ) في اسطنبول[1].

ج- الإمام أبو بكر علاء الدين بن مسعود بن أحمد الكاساني ملك العلماء المتوفى بحلب سنة 587هـ/1191م قدِم إلى نور الدين محمود بحلب رسولاً من ملك الروم فولاه نور الدين التدريس بالمدرسة الحلاّوية بعد أن عُزل منها الإمام رضي الدين السّرخسي المتوفى سنة 571هـ/1175م، وقد استمر علاء الدين الكاساني مدرساً في الحلاوية حتى وفاته، تفقه علاء الدين على أبي منصور محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي صاحب " تحفة الفقهاء" وزوجّه شيخه ابنته فاطمة الفقيهة، وجعل مهرها شرح كتاب التحفة في كتاب أسماه البدائع فقال الفقهاء في عصره " شرح تُحفته وزوّجه ابنته"، واشتهر علاء الدين الكاساني وزوجته فاطمة الفقيهة في مذهب أبي حنيفة في بلاد الشام وكانت تحفظ مصنّف والدها " التحُفة"[2] وكان كتاب "البدائع" أشهر مصنفات الإمام علاء الدين الكاساني وهو من الكتب المعتبرة في الفقه الحنفي وسُمي " بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع"[3].

3- المذهب الحنبلي: وممن برز في المذهب في العهد النوري:

أ- ابن عبدوس (510 - 559 هـ / 1116 - 1164م) على بن عمر بن أحمد بن عمار، أبو الحسن، بابن عبدوس: فقيه حنبلي مفسر، من أهل حران (بالجزيرة الفراتية) له " تفسير القرآن " كبير، و " المذهب في المذهب " فقه، و " مجالس وعظية ". توفي بحرّان(4) .

ب- أبو العلاء نجم الدين بن عبد الوهاب بن شرف الإسلام عبد الواحد بن محمد بن على الشيرازي الأصل الدمشقي، شيخ الحنابلة بالشام في وقته، والمتوفى عام 586هـ/1190م ولد سنة 498هـ/1104م سمع وأفتى ودرّس وهو ابن عشرين سنة إلى أن مات[5].

لقد ظهر في هذا العهد كبير من علماء الفقه والأصول، وبخاصة على المذهب الشافعي، والحنفي والحنبلي[6].

ولا عجب في ذلك- الاهتمام الكبير بالفقه والفقهاء- فقد كان الفقه مصدر التشريع، وعليه يعتمد الحكّام فيما يصدرونه من أحكام، وكان الملك قبل أن يصدر حكماً مهماً يحرص بأن يظفر أولاً بموافقة

---

(1)أبي الوفاء، الجواهر المضيئة، ج1، ص262. خليفة، كشف الظنون ، ج4، ص25 - 28.

(2) خليفة، كشف الظنون، ج1، ص371.

(3) ابن أبي الوفاء، الجواهر المضيئة، ج2، ص244. شذرات الذهب، ج4، ص134.

(4) ابن أفلح، المقصد الأرشد، ج2، ص 242.

(5) ابن العماد، شذرات، ج2، ص379..

(6) المزيني، الحياة العلمية، ص 263

الفقهاء، بمختلف مذاهبهم على هذا الحكم كما جرى في دمشق حينما عقد الملك العادل نور الدين محمود مجلساً مع الفقهاء للتشاور فيما ينوي اتخاذه في أمر الأوقاف والمصالح المتعلقة بالمساجد، والمدارس و... ومصارف الأوقاف وجواز نقلها إلى مصالح أخرى أهم من الأولى، ولم يتخذ نور الدين حكماً إلا بعد أن استمع لمشورة جميع الفقهاء وحظي بموافقتهم، وناقشهم فيما ينوي القيام به، وكُتِب في ذلك محضر في صورة ما جرى في ذلك المجلس، ووقّع عليه جميع الحاضرين[1].

وقد اهتم العلماء بفروع أخرى من العلوم، وركزوا فيه دراساتهم وكان أشهر هذه الفروع "الفرائض" الذي يُعد باباً من أبواب الفقه نال اهتماماً خاصاً من العلماء في هذا العهد لأهميته وكثرة الاحتياج إليه، حتى أصبح علماً قائماً بذاته، وموضوعه : البحث عن أحوال قسمة التركة بين مستحقيها على فروض مقّدرة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهذا الباب من أصعب أبواب الفقه[2]، وممن برز في علم الفرائض في العهد النوري:

أ- الإمام الحافظ حجة الله أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر المكي الصِقلّى المتوفى سنة 565هـ/1169م وكان قد صنف تصانيف كثيرة في علوم عديدة كان منها أرجوزة في الفرائض' وقد سبق ذكره في علم التفسير(3).

كما خصّ كثير من العلماء جهودهم في العهد النوري بعلمي لاف والجدل وصنّفوا فيها المؤلفات الحسنة[4].

ثانيا: علوم اللغة العربية:

وقد جّد العلماء في العهد النوري في دراسة وتحصيل علوم العربية وآدابها فلا يكاد يوجد عالم من المشتغلين بالعلوم الشرعية إلا وقد عني بدراسة هذا العلوم باعتبارها أساساً من أهم الأسس التي تقوم عليها العلوم الشرعية، وقد حظيت العلوم العربية وآدابها بعناية فائقة من الزنكيين حيث حرص الحكام وأمراء هذه الأسرة على اختيار العلماء الأفذاذ في هذا المجال لتولي مناصب الكتابة والإنشاء، وكانوا يستقدمون لهذه الوظائف من ذاع صيته وشأنه في هذه العلوم واجتمع في المدن الزنكية خلال تلك الفترة طائفة كبيرة من اللغويين والنحاة والأدباء وبرز منهم علماء أجلاء خلفوا تراثاً مهماً في علوم العربية وآدابها على اختلاف فروعها والتي من أهمها: اللغة والنحو والصرف والبلاغة والنقد الأدبي، والأدب والعروض والقافية؛ ومن أبرز هؤلاء الشعراء:

1- ابن منير الطرابلسي (473 - 548 هـ = 1080 - 1153م) أحمد بن منير بن أحمد ، أبو الحسين مهذب الدين: شاعر مشهور من أهل طرابلس الشام، ولد بها، وسكن دمشق، ومدح السلطان الملك

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص75.

(2) المزيني، الحياة العلمية ص 264.

(3) الذهبي، العبر، ج3، ص53. الصفدي، الوافي، ج3، ص 330 و 340. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص368.

(4) الحياة العلمية ص 265.

العادل (محمود بن زنكي) بأبلغ قصائده. وكان هجاءا مرا حبسه صاحب دمشق على الهجاء، وهم بقطع لسانه، ثم اكتفى بنفيه منها، فرحل إلى حلب وتوفي بها([1]).

2- المنبجي (486 - 554 هـ / 1093 - 1159م) يحيى بن نزار بن سعيد المنبجي، أبو الفضل: شاعر من أهل منبج (من أعمال حلب) ولد بها، وزار بغداد، ثم انتقل إلى دمشق فاتصل بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ، ومدحه بقصائد أجاد فيها، ثم رحل إلى بغداد فتوطنها وتوفي بها([2]).

3- ابن النقار (479 - 567 هـ / 1086 - 1171م) عبد الله بن أحمد بن الحسين بن إسحاق ، أبو محمد ، المعروف بابن النقار : شاعر ، من الكتاب . ولد وتعلم في طرابلس الشام . ولما استولى عليها الفرنج انتقل إلى دمشق ، فاستكتبه ملوكها ، وكتب لنور الدين محمود بن زنكي، وشعره رقيق، توفي بدمشق([3]).

4- احمد القطرسي (533 - 603 هـ / 1139 - 1206م) أحمد بن عبد الغني بن احمد بن عبد الرحمن ابن خلف بن مسلم اللخمي، المصري ، المالكي الفطرسي المنعوت بالنفيس (أبو العباس) أديب ، شاعر ، مشارك في الفقه وعلوم الفلاسفة . توفي بقوص في 24 ربيع الأول وقد ناهز السبعين. من آثاره: ديوان شعر ، وضوء البدر على النيل([4]).

5- ابن الدهان (522 - 581 هـ/ 1128 - 1185م) عبد الله بن أسعد بن على، أبو الفرج، مهذب الدين الحمصي، ابن الدهان: شاعر، من الكتاب الفقهاء، ولد في الموصل، وأقام مدة بمصر، وانتقل إلى الشام، فولي التدريس بحمص، وتوفي بها. له " ديوان شعر - ط " وكتاب " شرح الدروس - خ "([5]).

6- ابن الأشيري عبد الله بن محمد بن عبد الله أبو الصنماجي المغربي: كهل فاضل سمع بالأندلس، وحصلت له كتب حسان، توجه إلى الشام، وقدم دمشق وأقام بها مدىدة وحدث بالموطأ وغيره، وسمع من ابن عساكر وكتب عنه، وكان أديبا وله شعر جيد، ثم توجه إلى حلب فنقله الملك العادل إلى ثغر حلب وقرر له كفايته وأقام يروي حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، اجتمع بالملك العادل بحلب

---

(1) ابن عساكر، تاريخ، ج6، ص32-33. ابن خلكان، وفيات، ج1، ص156. ابن العديم، بغية، ج3، ص1154. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص299. ابن العماد، شذرات، ج2، ص146.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج10، ص191. ياقوت، إرشاد، ج7، ص293. ابن خلكان، وفيات، ج6، ص249.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ص289.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص65-66. الذهبي، سير، ج21، ص، 479-480. خليفة، كشف الظنون، ص 806، 1088.

(5) ابن عساكر، تاريخ، ج27، ص82. ابن خلكان، وفيات، ج3، ص57. السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص120. الذهبي، سير، ج21 ، ص176. ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص100. الصفدي، الوافي، ج17، ص 67. ابن العماد، شذرات الذهب، ج4 ، ص270.

وسار بسيره إلى حمص وتخلف بها لمرض ناله ثم تبعه فثقل في مرضه وتوفي يوم الأربعاء خامس وعشرين شوال سنة 561هـ(1).

7- عبد الوهاب بن عيسى بن محمد أبو محمد إلىشكري المغربي الفقية المالكي: قدم دمشق وهو شاب سنة خمس وثلاثين وكان يختلف إلى مدرسة الفقية أبي البركات بن عبد، ثم رزق عناية من الأمير معين الدين أنر،واجتمع إليه جماعة من المغاربة ودرسهم مذهب مالك، ثم شرع في الوعظ، فلما استشهد الفندلاوي(2) رحمه الله جلس في حلقة المالكية، فلما مات أنر خرج إلى بعلبك فأحسن إليه أميرها عطاء بن حفاظ السلمي الحمصي، فلما جاء عطاء إلى دمشق أعاده إلى الحلقة، فلما ملك الملك العادل دمشق تعصب الفقية أبو سعد بن أبي عصرون، وعزل عنها عبد الوهاب، ثم عاد إلى الحلقة، وكانت طريقته حسنه، وفتح له الإجادة في أكثر فتاويه، مات عبد الوهاب ليلة ميس ودفن يوم ميس السادس من رجب سنة أربع وخمسين وخمسمائة بجبل(3).

ثالثا: العلوم التاريخية والجغرافية:

ازداد الاهتمام بالدراسات الاجتماعية في العهد الزنكي، وبخاصة في ميداني الدراسات التاريخية والجغرافية، وحيث برز في هذا العهد عدد كبير من المؤرخين الذين تنوعت اهتماماتهم في مختلف صور الكتابات التاريخية، كما اشتهر عدد من علماء الجغرافيا والرحالة الذين أثروا هذا الجانب بتإلىف جديدة مهمة وإذا كان التاليف في فضائل الجهاد والاهتمام بالدراسات الشرعية والأدبية المتعلقة به يجد تفسيره في الوجود الصليبي في المنطقة، فإن الاهتمام بالدراسات التاريخية والجغرافية يرجع للسبب نفسه، وقد تمثل هذا الأثر في ظهور دراسات متخصصة لها طابع الجهاد الإسلامي ضد العدوان الصليبي في المنطقة حيث وجد المتخصصون – بهذا الفرع من العلوم – في الجهاد مادة زخرت بها مؤلفاتهم سواء عن طريق الكتابات التاريخية التي تؤرخ للمعارك بين المسلمين والصليبيين أو في الكتابة في فضائل المدن، وتالخراجم الشخصيات البارزة في مجال الجهاد، كما ظهر ذلك الأثر في

---

(1) ابن عساكر، تاريخ، ج32، ص235. القفطي، إنباء الرواة، ج2، ص137. الذهبي، سير الأعلام، ج20، ص466. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج17، ص536. ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص198.

(2) الفندلاوي: يوسف ابن درناس، أو دوناس المغربي أبو الحجاج، فقيه على المذهب المالكي، أصله من المغرب قدم من دمشق ليحج منها، فسكن بانياس مدة، وكان خطيباً لها، انتقل إلى دمشق فاستوطنها ودرّس بها المذهب المالكي وحدث بالموطأ، وكتاب التلخيص لأبي الحسن القابسي، وقد علق عنه ابن عساكر أحاديث يسيرة، وصفه المؤرخون بأنه= =كان إماماً عالماً، ديناً بارعاً في فنونه وصالحاً فكهاً، حلو المجالسة، شديد التعصب للأشعرية، صاحب تحزق على الحنابلة، له أي مؤلفات نشرها (جواد المرابط) بعنوان " فتوى الفندلاوي " في بيروت، سنة 1966. انظر ترجمته في: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج14، ص49، ج37، ص342. ابن القلانسي، ذيل، ص298. السمعاني، الأنساب، ج4، ص402. ابن منقذ، الاعتبار، ص94. ابن الأثير،الكامل، ج9، ص353. ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص277.. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص186، 191. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص452. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص204،= 209-210. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص224. الدارس، ج2، ص269. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص282. الحريري، الإعلام، ص76. ابن العماد، شذرات، ج2، ص136.

(3) ابن عساكر، تاريخ، ج37، ص342.

كتابات الرحالة الذين زاروا المنطقة ووصفوا الأوضاع العامة التي كان يعيشها المسلمون إلى جانب الصليبيين فيها، كما اهتموا بتحديد البلدان وخططها وقد أصبحت المنطقة الزنكية بسبب الوجود الصليبي فيها مركز الاهتمام السياسي والاقتصادي والفكري في العالم الإسلامي، حيث كانت تلك الدولة تمثل مركز إيقظة الإسلامية في مواجهة العدوان الصليبي في المنطقة، إضافة إلى استقطاب قادة هذه الدولة العديد من العلماء الأعلام من كافة المناطق الإسلامية مما كان له أثر في تطور العلوم ونشاطها[1] ، وكانت أبرز الجهود التي بُذلت في ميداني الدراسات التاريخية والجغرافية في هذا العهد تتمثل فيما يأتي:

1- **التاريخ:**

أ- **التراجم والطبقات:** يُعد هذا النوع من أهم أنواع الكتابة التاريخية في هذا العهد، فقد عنى به المؤرخون عناية فائقة فما أن يظهر أحد من المتخصصين في أي فرع من فروع العلم والمعرفة إلا وتناولته كتب التالخراجم بالكتابة عن تفصيلات حياته ودراسته وتنقلاته وشيوخه وتلامذته وإسهاماته العلمية في مجال التاليف والتدريس وتعد هذه المؤلفات من المصادر المهمّة للتاريخ الإسلامي، إذ أنها تزود الباحث في التاريخ بمادة تاريخية خصبة[2].

ويعُد الحافظ على بن الحسن بن هبة الله الدمشقي المعروف بابن عساكر من أبرز العلماء الذين اهتموا بالكتابة على هذا المنهج في هذا العهد، إذ كان اهتمامه منصباً على الحديث، وتالخراجم العلماء وبخاصة رجال الحديث طوال حياته، ومع أن كتابه "تاريخ دمشق" قد شمل التاريخ العلمي والثقافي لمدينة دمشق، فإنه يُعد واحداً من أشهر كتب التالخراجم بعد كتاب " تاريخ بغداد " للحافظ أبي بكر أحمد بن على المعروف بطيب البغدادي المتوفي 463هـ/1070م وكان ابن عساكر قد سار على نهجه[3].وممن برز في الكتاب التاريخية على هذا المنهج في العهد الزنكي:

1- أبو عبد الله عماد الدين محمد بن صفي الدين أبو الفرج المعروف بالعماد الأصفهاني الكاتب المتوفى سنة 597هـ/1201م الذي صنف الموسوعة المشهورة عن أدباء وشعراء العصر أي كتاب "خريدة القصر وجريدة العصر" والذي أرّخ فيه لشعراء وأدباء زمانه في كافة الأقطار الإسلامية[4].

2- عز الدين أبو الحسن بن على بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير المتوفى سنة 630هـ/1233م ، فقد كان ابن الأثير مؤلفاً نشيطاً بارعاً، استطاع أن يخلد اسمه بين كبار المؤرخين عن طريق مصنفاته التي من أشهرها : كتاب الكامل في التاريخ، وكتاب " اللباب في تهذيب الأنساب " وكتاب "التاريخ الباهر في الدولة الزنكية" وكتاب " أسد الغابة في معرفة الصحابة"، الذي أورد فيه ما

---

(1) المزيني، الحياة العلمية، ص 317.

(2) المزيني، الحياة العلمية، ص 319.

(3) المرجع نفسه ص 320.

(4) المرجع نفسه ص 322. سعداوي، المؤرخون، ص19-28.

يربو على سبعة آلاف وخمس مئة ترجمة، واستدرك على مافاته ممن تقدمه من مؤلفي التالخراجم وبيّن أوهامهم[1].

ب- التاريخ المحلي (الخاص) : تخصص فريق آخر من المؤرخين بالتاليف المحلي والذي يُعد تعبيراً صادقاً عن ارتباط المؤرخ بإقليمه، واعتزازه بوطنه. وقد لقي هذا الاتجاه إقبالاً كبيراً من المؤرخين في العهد الزنكي[2] وقد ظهر في هذا العهد عدد من المؤلفات المهمة في هذا الإطار ومن أبرز ممن كتب في هذا المنهج خلال العهد الزنكي :

1- ابن القلانسي: أبو يعلى حمزة بن أسد بن على بن محمد التميمي المتوفى سنة 555هـ/1160م، العميد الأديب الشاعر المؤرخ، كان من أعيان دمشق، ومن فضلائها المبرزين، وكانت له عناية بالحديث، وكان أديباً له خط حسن ونظم ونثر ولي رئاسة ديوان الإنشاء بدمشق مرتين، عُمّر بضعاً وثمانين سنة، وتوفي سنة 555هـ/1160م وقد استفاد ابن القلانسي من عمله في ديوان الإنشاء بدمشق، فاطّلع على الوثائق الرسمية بمختلف أنواعها مما أكسب تاريخه أهمية خاصة بالنسبة لأحداث عصره، ولابن القلانسي: كتاب " تاريخ دمشق " بدأ به سنة 360هـ/971م وانتهى إلى سنة وفاته 555(1160م)، وهو أول تاريخ لدمشق صنف حسب الحوادث والحوليات، ثم هو المصدر الأساسي لتاريخ الشام أيام الفاطميين والسلاجقة فيه أقدم سيرة لدمشق وأهلها من النواحي العمرانية والاجتماعية والعقدية والسياسية وذلك خلال قرنين حاسمين، ولم يقتصر به هذا الكتاب على تاريخ دمشق بل عاجل فيه مؤلفه كثيراً من الحوادث السياسية التي وقعت في الشام، والعراق والجزيرة، ومصر، ولكنها بصورة مقتضبة، فضلاً عن اهتمامه بأحوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام وما كان يدور بينها وبين القوى الإسلامية في المنطقة من نزاع مستمر[3].

2- عز الدين أبو الحسن على بن أبي الكرم بن الأثير الجزري المتوفى سنة 630هـ(1233م) وقد صنف كتاب "تاريخ الموصل" وهو الموسوم " بالتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية"، وهو تاريخ للدولة الزنكية بالموصل عرض فيه ابن الأثير بالإضافة إلى الأخبار السياسية تفاصيل منوعة اقتصادية واجتماعية وثقافية عن الموصل من مطلع عماد الدين زنكي سنة 521هـ/1127م حتى وفاة الملك نور الدين أرسلان شاه سنة 607هـ/1210م[4].

ج- التاريخ العالمي (العام): وهو الكتابة التاريخية التي يتناول فيها المؤرخ الأحداث منُذ بدء ليفة حتى عصره دون الارتباط بإقليم واحد، وأهم كتاب في ذلك العصر الكامل في التاريخ لعز الدين على بن محمد الجزري المتوفى 630هـ 1233م، فلقد نال ابن الأثير شهرته بين مؤرخي القرن السادس

---

(1) الذهبي، سير، ج22، ص353 – 356. المزيني، الحياة العلمية، ص 324.

(2) المصدر نفسه ص 325.

(3) الذهبي، سير، ج20، ص388 – 389. المزيني، الحياة العلمية ص 326.

(4) المزيني، الحياة العلمية ص 328.

الهجري بسبب تإلىفه لهذا الكتاب وكان قد ألفه على طريقة الحوليات، ابتدأ فيه بأول الزمان حتى وصل به إلى سنة 628ه 1231م وقد تحرى ابن الأثير الحقيقة والدّقة فيما كتب، وحاول الابتعاد عن الإسهاب وتكرير الروايات، ثم إنه راعى التوازن في كتابه لتاريخه بين أقاليم العالم الإسلامي، فلم تصرفه الأحداث التي ألّمت بالمشرق عما كان يجري بالمغرب من تطورات [1]، وقد تابع ابن الأثير في كتابه الكامل المعلومات التاريخية التي أوردها الإمام محمد بن جرير الطبريّ في تاريخه متابعة دقيقة إلى حد بعيد فلخّصها ثم أضاف إليها الكثير من المعلومات، وبخاصة تلك التي تتعلق بالفترة التالية لتوقف الطبري عن الكتابة وبذلك احتل ابن الأثير مكانة مرموقة بين المؤرخين المسلمين، واتخذ كتابه طابع التاريخ العام أكثر من أي تاريخ عام غيره[2].

د- التاريخ المعاصر (المذكرات): وممن عاصر الأحداث في عهد الدولة الزنكية وكتب عنها بأسلوب المذكرات:

1- أبو المظفر مؤيد الّدولة أسامة بن مرشد بن على بن مقلد الشيزري المتوفي سنة 584ه/1180م، وله كتاب " الاعتبار " وهذا الكتاب قلّ أن يوجد ما يشابهه من كتب التاريخ في ذلك العهد إذ يضعنا أسامة بن منقذ في هذا الكتاب أمام مذكرات في الأدب التاريخي تتضمن خلاصة تجارب أسامة وما صادفه أسامة في حياته من حوادث، وتعكس صور الحياة في العصر من حروب وفروسية، وملامح من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية على الصعيدين الإسلامي والصليبي[3].

2- وممن كتب بأسلوب المذكرات العماد الأصفهاني الكاتب المؤرخ المتوفى سنة 597ه/1201م ومن أهم ما كتب في هذا المجال، البرق الشامي؛ وهو أشبه بالمذكرات الشخصية لأنه بدأه بذكر نفسه وحياته وانتقاله من العراق إلى الشام وأخباره مع نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وتاريخ دولتهما مع ذكر بعض الفتوح بالشام [4].

---

(1) المرجع نفسه، ص 328.

(2) المرجع نفسه، ص 329.

(3) الأصفهاني، خريدة القصر، (قسم شعراء العراق)ج1، ص498- 547. و (قسم شعراء الشام) ج1، ص 499. البرق الشامي، ج3،ص 104. .ياقوت، إرشاد، ج5، ص188- 193. ابن الأثير، ابن الأثير ، الباهر، ص 112-116. الكامل، ج9، ص 389، 394، 413-415، 457. البنداري، سنا البرق، ص227. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8 ق1، ص 241. ابن العديم، بغية الطلب، ج3، ص 1358- 1370. أبو شامة، الروضتين، ص335- 338، ص 352-255، 369، ج2، ص 435، ص374-375، ج4،ص 59. الذيل على الروضتين، ص 93. ابن خلكان، وفيات، ج1،ص 195- 198. ج2، ص 526. ج 5، ص 303. ج7، ص 142، 144. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج40، ص 170- 177. العبر، ج4،ص 252. سير أعلام النبلاء، ج21،ص 165- 167 اليافعي، مرآة الجنان، ج3، ص323- 333. ابن كثير، البداية، ج12، ص313. الصفدي، الوافي، ج8، ص378. الغساني، العسجد، ج2، ص205-206. الأتابكي، ج6، ص 107. المقريزي، المقفى، ج2، ص41-49. النعيمي، الدارس، ج1، ص 291. الحنبلي، شذرات، ج2، ص279. الزركلي، الأعلام، ج1، ص291. كحالة، معجم، ج2، ص184. عوض، الجغرافيون، 245-247. المزيني، الحياة العلمية، ص 330.

(4) المزيني، الحياة العلمية، ص 330.

2- الجغرافيا والرحلات:

تعد الرحلات وزيارة الأقطار المختلفة من أهم وسائل المعرفة الجغرافية، وقد اشتهر كثير من الجغرافيين المسلمين مثل ابن حوقل، والمسعودي، والمقدسي، والإدريسي، وابن جُبير، وابن بطوطة برحلاتهم الطويلة، حيث فاق المسلمون في ميدان الرّحلة والكشف الجغرافي وغيرهم من الشعوب، وساعد على الرّحلات الإسلامية أمور عديدة منها : اتساع رقعة الدولة الإسلامية بعد الفتوحات، وانطلاق المسلمين إلى مراكز العلم المنتشرة في سائر أقطار العالم الإسلامي، كذلك رحل الناس للتجارة بين الأقطار الإسلامية في المشرق والمغرب أو لأداء فريضة الحج إلى بيت الله، أو القيام بمهمة كأن يكون الرّحالة سفيراً للخليفة أو السلطان(1)، وكان معظم الرحالة المسلمين يحرصون على تدوين مشاهداتهم، وتسجيل أخبارهم، والمسالك والطرق التي ساروا فيها والمسافات التي قطعوها في تنقلاتهم، كما كانوا يصفون المدن التي يمرّون بها ويذكرون الصعوبات التي واجهتهم في رحلاتهم، ويصفون ما عاينوه من مظاهر الحضارة في كل بلد طرقوه، كالمنتجات الزراعية والصناعات والتجارة، كما أن بعضهم كان يصف بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الأقطار المختلفة التي يمُّر بها[2]؛ فكانت تلك الرحلات وما تقدمه من معلومات مبنية على المشاهدة والإطلاع من أبرز عوامل تقدم وتطور المعارف الجغرافية عند المسلمين[3].

ولقد كان لعدد من علماء العهد الزنكي أثر في الدراسات الجغرافية، وبخاصة ماله صلة بالرحلات الجغرافية من أشهرهم:

أ- الهروي (000 - 611 هـ/ 000 - 1215م) على بن أبي بكر بن على الهروي، أبو الحسن: رحالة، مؤرخ، أصله من هراة، ومولده بالموصل، طاف البلاد، وتوفي بحلب، وكان له فيها رباط. وقلما يخلو موضع مشهور من مدينة أو غيرها إلا وفيه خطه، حتى ذكر بعض رؤسا الغزاة البحرية أنهم دخلوا في البحر الملح إلى موضع وجدوا في بره حائطا وعليه خطه.

قضى معظم حياته بالتجوال والرحلات حتى لقب بالسائح، انطلق برحلاته إلى الشام، والعراق، وإلىمن والحجاز، ومصر، وبلاد الروم وبعض جزر البحر المتوسط مثل صقليّة، وقد تنقل خلال رحلاته في أرجاء المدن المختلفة وتكلّم عن مشاهدها ومساجدها وخالط أهلها، والتقى بالعلماء وأخذ عنهم، ولم يكن في تجواله مقتصراً على طلب العلم فقط، بل إنه وثّق علاقاته مع عدد من الجغرافيين المعروفين في عصره، قال عنه ابن خلكان: طاف البلاد وأكثر من الزيارات، وكاد يطبق الأرض بالدوران، فإنه لم يترك براً ولا بحراً، ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه ولقد شاهدت ذلك في البلاد التي رأيتها مع

(1) شاكر، التاريخ، ص 211. المزيني، الحياة العلمية ص 331.

(2) شاكر، التاريخ، ص 213 – 214.

(3) المزيني، الحياة العلمية، ص 332.

كثرتها(1)، من كتبه " الإشارات إلى معرفة الزيارات – ط " و " طب الهروية – خ " مواعظ، و " والتذكرة الهروية في الحيل الحربية – ط " وكتاب " رحلته – خ"(2).

رابعا: علوم الرياضيات والفلك : اهتم المسلمون في ذلك العهد بشتى فنون العلوم المختلفة، ومن ذلك علوم الرياضيات والفلك حيث نالت تلك التخصصات قدراً كبيراً من اهتماماتهم، فبرعوا في علم الحساب وصنّفوا فيه المصنفات، بحثوا فيها الأعداد وأنواعها وخواصها وتوصلوا إلى إضافات ونتائج أثارت إعجاب علماء الغرب ودهشتهم فاعترفوا بفضلهم وأسبقيتهم في هذا المجال، وترجموا كثيراً من كتب المسلمين مما كان له أثر كبير في تقدم هذا العلم، كما اشتغل عدد من العلماء بعلم الجبر وأتوا فيه بالعجب العجاب، حتى قيل: إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب في الجبر[3]. وقد نبع في العهد الزنكي عدد من علماء الرياضيات والفلك مما كان لدراساتهم ومصنفاتهم أثر واضح في إثراء الدراسات الرياضية والفلكية وقد تمثلت أبرز الجهود في الآتي:

1- الرياضيات: كانت العلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة من العلوم التي كانت تدرس في بعض المدارس الزنكية، كما أن هناك تنقلات ورحلات بين المناطق الزنكية لتحصيل هذه العلوم من العلماء البارعين في هذا المجال، ومما ساعد على تشجيع هذا الفرع من العلوم حاجة الفقهاء الماسة إلى علمي الحساب والجبر في تقسيم المواريث أو ما يسمى بعلم الفرائض، وكذلك الحاجة إلى هذه العلوم في معرفة المواقيت واتجاه البلدان لإقامة الصلاة، كما ظهرت الحاجة إليها في حسابات الدواوين، وفي بعض الأمور الإدارية الأخرى ومن علماء العهد الزنكي البارزين في ميدان الرياضيات:

أ- كمال الدين أبو الفتح موسى بن أبي الفضل يونس بن محمد بن منعة الموصلي المتوفى 639هـ/1242م ولما ذاع صيته في علم الرياضيات أخذت الرسائل تنهال عليه من علماء الرياضيات المعاصرين له، يقول ابن خلكان[4]: " كنت بدمشق سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وبها رجل فاضل في علوم الرياضة، فأشكلت عليه مواضع في مسائل الحساب الجبر والمقابلة والمساحة وإقليدس، فكتب جميعها في درج وسيّرها إلى الموصل، ثم بعد أشهر عاد جوابه، وقد كشف عن خفيها وأوضح غامضها، وذكر ما يعجز الإنسان عن وصفه"، ولكمال الدين بن منعة مصنفات جليلة في الرياضيات ذكر منها بروكلمان[5]: شرح الأعمال الهندسية، وهو محفوظ في مكتبة أيا صوفيا بأسطنبول رقم 2753 ، وله رسالة في البرهان على المقدمة التي أهملها أرخميدس في كتابه تسبيع الدائرة وكيفية اتخاذ ذلك وهو محفوظ في مكتبة بودليانا برقم (987/8).

---

(1) ابن خلكان، وفيات، ج3، ص346.

(2) ابن خلكان، وفيات، 3، ص346 – 348. الزركلي، الأعلام، ج4، ص266. المزيني، الحياة العلمية ص 333.

(3) الدفاع، تراث العرب، ص 61.

(4) وفيات، ج5، ص315.

(5) تاريخ الأدب العربي، ج4، ص222 – 223. المزيني، الحياة العلمية ص 337.

2-الفلك: يعرف قديماً بعلم الهيئة وموضوع الأجرام السماوية من النجوم والكواكب وأحوالها وأبعادها وحركاتها وحساب الأيام والشهور والسنين والفصول على أساس تلك الحركات، وتحويل السنين من القمرية إلى الشمسية وبالعكس وأطوال البلاد وعروضها، والرياح والأمطار، وكسوف الشمس، وخسوف القمر وما إلى ذلك من مباحث كثيرة منها نظرية وأخرى عملية، وبعض هذه المباحث تدخل الآن في علم الفضاء[1]، وكانت أبرز الجهود التي بذلت في العهد الزنكي قد تركزت في الموصل، وكان الشيخ كمال الدين موسى بن يونس بن منعة في مقدمة العلماء الذين نشطوا في هذا الميدان، فقد قام بتدريس أصول هذا العلم لطلابه في المدارس التي درّس بها، وصنف في هذا العلم ووردت إليه – أيضاً – مسائل في مشكلات هذا العلم قام بتفسيرها، وحلّ رموزها، ونبّه على براهينها بعضها من بغداد وأخرى وردت إليه من بعض ملوك أوروبا [2]، ومما ينسب إلى كمال الدين في هذا العلم، أنه قد عرف أشياء كثيرة في قوانين تذبذب الرقاص[3] ، ويذكر طوقان[4] أن كمال الدين قد سبق العالم الإيطإلى غإلىليو المتوفى سنة 1052هـ/1624م في هذا المجال . وقد كانت الموصل مركزاً له أهمية خاصة في علوم الرياضيات والفلك في العهد النوري[5].

خامساً: علوم الطب والصيدلة :

أ- **الطب:** علم الطب يبحث فيه عن بدن الإنسان، من جهة يصح ويمرض لحفظ الصحة، وإزالة المرض، وفائدته : بيّنة لا تخفى وكفى بهذا العلم شرفاً وفخراً : قول الإمام الشافعي – رحمه الله – : العلم عِلمان : علم الطب للأبدان، وعلم الفقه للأديان [6] . وقد تقدم وارتفع شأن الطبّ في العهد الزنكي وتقدمت وسائل دراسته ولعل من انتشار البيمارستانات في المدن الزنكية واهتمام الحكام والأمراء بإنشائها ووقف الكتب الطبية في ذلك العهد والتي كانت من نتائجها بروز عدد كبير من الأطباء الذين أثروا المكتبة الإسلامية بالكثير من المؤلفات الطبية التي كان لها مع ما سبقها من دراسات أثر كبير في إثراء الدراسات الطبية في العصور التي تلتها، استمراراً حتى العصر الحاضر وممن اشتهر بالطب في هذا العهد:

1- أفضل الدولة أبو المجد محمد بن أبي الحكم المتوفى سنة 570هـ/1174م، الذي اشتهر بالتدريس بالبيمارستان النوري بدمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود، وكان نور الدين قد أوكل إليه مهمة التطبيب في ذلك البيمارستان بعد إنشائه، وقد وصف لنا ابن أبي أصيبعة كيف كان ابن أبي الحكم يتفقد

---

(1) الحياة العلمية، ص 339.

(2) الحياة العلمية، ص 339.

(3) الرقّاص : أو رقّاص الساعة، يسمى باسم البندول.

(4) تراث العرب العلمي، ص 398.

(5) المزيني، الحياة العلمية ص 341.

(6) زاده، مفتاح السعادة، ج1، ص303. المزيني، الحياة العلمية، ص 342.

المرضى بنفسه، وطريقته في تدريس الطب في ذلك البيمارستان، ومناقشاته مع طلابه، ولكنه لم ينسب إليه أي كتاب ألّفه في الطب [1]،

2- أبو جعفر عمر بن على بن البذوخ القلعي المغربي المتوفي سنة خمس أو ست وسبعين وخمس مئة (1179 – 1180م)، وكان فاضلاً خبيراً بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة، وله حسن نظر في الإطلاع على الأمراض ومداواتها، أقام بدمشق سنين كثيرة، وكانت له دكّان عطر بدمشق يجلس فيها ويعالج من يأتي إليه، أو يستوصف منه، وكان له عناية بالكتب الطبية والنظر فيها، وتحقيق ما ذكره المتقدمون من صفة الأمراض ومداواتها، وكانت له مع ذلك عناية بعلم الحديث وله شعر كثير إلا أن أكثر شعره ضعيف منحول وعُمرّ بن البذوخ عمراً طويلاً، وضعف عن الحركة حتى إنه كان لا يأتي إلى دكانه إلا محمولاً، وعمي في آخر عمره حتى توفي، ولابن البذوخ من الكتب الطبية " شرح كتاب الفصول لأبقراط " وشرح كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط أيضاً، وله كتاب " ذخيرة الألباء" والمفرد في التاليف عن الأشياء " وله حواشي وضعها على كتاب " القانون لابن سينا "[2].

3- أبو الفضل بن أبي الوقار: هو الشيخ الأجل العالم أبو الفضل إسماعيل بن أبي الوقار أصله من المعرة وأقام بدمشق وسافر إلى بغداد وقرأ على أفاضل الأطباء من أهلها واجتمع بجماعة من العلماء بها وأخذ عنهم ثم عاد إلى دمشق وكان متميزا في صناعة الطب علمها وعملها كثير بر محمود الطريقة حسن السيرة وافر الذكاء، وكان في خدمة السلطان نور الدين محمود بن زنكي ويعتمد عليه في صناعة الطب وكان لا يفارقه في السفر والحضر وله الحظ الوافر والإنعام الكثير، وتوفي وهو في حلب في العشر الأول من شهر ربيع الأول سنة أربع وخمسين وخمسمائة([3]).

4- مهذب الدين بن النقاش: هو الشيخ الإمام العالم أبو الحسن على بن أبي عبد الله عيسى بن هبة الله النقاش مولده ومنشؤه ببغداد، اشتغل بصناعة الطب على الأجل أمين الدولة هبة الله بن صاعد بن التلميذ ولازمه، ثم توجه إلى الديار المصرية وأقام بالقاهرة مدة، ثم رجع إلى دمشق ولم يزل مقيما إلى حين وفاته، وخدم بصناعة الطب الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وخدم أيضا في البيمارستان الكبير الذي أنشأه بدمشق وبقي به سنين، وكان مهذب كثير الإحسان محبا للجميل يؤثر التخصص، وكانت وفاته رحمه الله بدمشق في يوم السبت ثاني عشر محرم سنة أربع وسبعين وخمسمائة ودفن بها في جبل قاسيون([4]).

5- السديد شرف الدين أبو المنصور عبد الله بن على بن داود بن مبارك، أخذ الفن عن أبيه الشيخ السديد وعدلان بن عين زربي، وصار رئيس الأطباء بمصر وخدم ملوكها وأخذ عنه الأطباء وأقبلت

---

(1) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص628.

(2) المصدر نفسه، ص628- 630.

(3) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص635.

(4)ابن أبي أصيبعة، عيون ، ص 635-637.

عليه الدنيا وخدم العاضد صاحب مصر وطال عمره أخذ عنه شيخ الأطباء النفيس بن الزبير فروى عنه أنه دخل مع أبيه على الآمر العبيدي، وحكى ابن أبي أصيبعة عن أسعد الدين أن السديد حصل له في نهار ثلاثون ألف دينار ،ونقل عنه بن الزبير أنه ختن ولدي الحافظ لدين الله فحصل له من ذلك نحو خمسين ألف دينار وكان السلطان صلاح الدين يحترمه ويعتمد على طبه، مات سنة اثنتين وتسعين وخمس مئة([1]).

6- مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن الحارثي المهندس، المولود في دمشق، وكان يعرف بالمهندس لجودة معرفته بالهندسة وشهرته بها قبل أن يتحلى بمعرفة صناعة الطب، " وكان نجارا وينحت الحجارة أيضا وكان تكسبه بصناعة النجارة وله يد طولى فيها والناس كثيرا ما يرغبون إلى أعماله وأكثر أبواب البيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل نور الدين بن زنكي رحمه الله من نجارته وصنعته، وقرأ صناعة الطب على أبي المجد محمد بن أبي الحكم ولازمه حق الملازمة ونسخ بخطه كتبا كثيرة في العلوم الحكمية وفي صناعة الطب، وبقي سنينا كثيرة يطب في البيمارستان إلى حين وفاته، وكان فاضلا في صناعة الطب جيد المباشرة لأعمالها محمود الطريقة، وتوفي رحمه الله في سنة تسع وتسعين وخمسمائة بدمشق "([2]).

7- رضي الدين الرحبي: هو الشيخ الحكيم الإمام العالم رضي الدين أبو الحجاج يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي من الأكابر في صناعة الطب والمتعينين من أهلها وله القدم والاشتهار والذكر الشائع عند واص والعوام، ولم يزل مبجلا عند الملوك وغيرهم كثيري الاحترام له ، وكان كبير النفس عالي الهمة كثير التحقيق حسن السيرة محبا للخير وأهله شديد الاجتهاد في مداواة المرضى رؤوفا بلق طاهر اللسان، ما عرف منه في سائر عمره أنه آذى أحدا ولا تكلم في عرض غيره بسوء، وكان والده من بلد الرحبة وله أيضا نظر في صناعة الطب إلا أن صناعة الكحل كانت أغلب عليه وعرف بها، وكان مولد الشيخ رضي الدين بجزيرة ابن عمر ونشأ بها وأقام أيضا بنصيبين وبالرحبة سنين، وسافر أيضا إلى بغداد وإلى غيرها، واشتغل بصناعة الطب وتمهر فيها، واجتمع أيضا في مصر بالشيخ المعروف بابن جميع المصري وانتفع به، وكان وصوله مع أبيه إلى دمشق في سنة خمس وخمسين وخمسمائة زمن السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وأقام رضي الدين ووالده بدمشق سنين وتوفي والده بها ودفن بجبل قاسيون، وبقي رضي الدين قاطنا بدمشق وملازما للدكان لمعالجة المرضى ونسخ بها كتبا كثيرة وبقي على تلك الحال مدة، واشتغل على مهذب الدين بن النقاش الطبيب ولازمه، واشتغل عليه بصناعة الطب خلق كثير ونبغ منهم جماعة عدة وأقرأوا لغيرهم وصاروا من المشايخ المذكورين في صناعة الطب، ولو اعتبر أحد جمهور الأطباء بالشام لوجد إما أن يكون منهم من قد قرأ على الرحبي أو من قرأ على من قرأ عليه وكان من جملة من قد قرأ عليه أيضا في أول أمره الشيخ مهذب

(1) الذهبي، سير، ج21، ص389- 390.

(2) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص669- 670.

الدين عبد الرحيم بن على قبل ملازمته لابن المطران، وكان مولد الشيخ رضي الدين الرحبي في شهر جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة بجزيرة ابن عمر وكان أول مرضه في يوم عيد الأضحى من سنة ثلاثين وستمائة ووفاته رحمه الله بكرة يوم الأحد العاشر من المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة بدمشق ودفن بجبل قاسيون فعاش نحو المائة سنة ولم يتبين تغير شيء من سمعه ولا بصره([1]).

ب-الصيدلة: ويقصد بها علم الأدوية وتركيباتها وهي متصلة بعلم الأعشاب " النبات" وبعلمي الحيوان والمعادن وبالكيمياء، فإن الأدوية نباتية وحيوانية ومعدنية، ثم هي تحتاج إلى معالجة وإلى نسب في التركيب تقتضي المعرفة بالكيمياء[2]، ونظراً لعدم توفر المعرفة التامّة بطرق التحإلىل الكيميائية في تلك العصور، فقد نظم المسلمون مهنة الصيدلة، فجعلوا على الصيادلة نقيباً يسمى رئيس العشّابين، وأخضعوا تلك المهنة لرقابة عريف الحسبة حتى يحولوا دون غش الدواء[3].

وقد برع الأطباء المسلمون في تركيب الأدوية بنسب معينة، وبرز خلال العهد الزنكي عدد من المتخصصين في تركيب الأدوية "الصيدلة" كانوا في الأصل أطباء فقد ذكر ابن أبي أصيبعة بأن الطبيب بن البُذوخ المغربي المتوفى سنة 575هـ أو 576هـ (1179م -1180م)[4]، كان خبيراً بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة، وكانت له دكان عطر بدمشق يجلس فيها، ويعالج من يأتي إليه أو يستوصف منه، وأنه كان يهيئ عنده أدوية كثيرة مركبة يصنعها من سائر المعاجين والأقراص والسفوفات وغير ذلك، يبيع منها وينتفع الناس بها [5] ، كما ذكر أبو الحسن على بن أحمد البغدادي (المتوفى سنة 610هـ/1213م) في كتابه المختارات في الطب كثيراً من أنواع المأكولات وأثرها على الصحة وأنواع العلاجات والأدوية وكيفية استخراجها[6].

لقد ركزت السلطة النورية على إحياء العلوم الشرعية والعناية بها بالدرجة الأولى لأسباب كثيرة من أبرزها الحرص على الدفاع عن العقيدة الإسلامية أمام الحركات الفكرية والسّرية، والتي كانت تستهدف تشكيك المسلمين في عقيدتهم الصحيحة توطئة للسيطرة عليهم، وعلى رأس هؤلاء فرقة الباطنية لذا تقلصت الدراسات الفلسفية ودراسة المنطق التي تخدم الفكر الشيعي الباطني، وتحقّق لعلماء الشريعة فرصة الوصول إلى مراكز التوجيه الفكري والثقافي في هذا العهد كما صاحب هذا النشاط في ميدان العلوم الشرعية نشاط آخر في ميدان الدراسات اللغوية والأدبية، والتاريخية والجغرافيا كما

---

(1)ابن أبي أصيبعة، عيون ، ص672- 675.

(2) تاريخ العلوم عند العرب ص 294 الحياة العلمية ص 345.

(3) الشيرزي نهاية الرتبة ص 42.

(4) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص628..

(5) المصدر نفسه.

(6) المختارات، ج2، ص210 – 336.

قُدمت دراسات علمية راقية في ميدان الرياضيات بفروعها المختلفة، وفي علم الفلك والميقات، إضـــافة إلى الاهتمام بالدراسات الطبية والصيدلة والتي كان مجالهما داخل البيمارستانات المنتشرة في المـــدن اضعة للحكم النوري، وبرز من بين العلماء المشتغلين بتلك العلوم علماء كان لهم أثر كبير في إثـــراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصّة والتي ظلت مرجعاً للبحوث العلمية حتـــى الوقـــت الحاضر[1].

(1) الحياة العلمية ص 346.

الخاتمة

كان لتربية نور الدين محمود تربية اسلامية الاثر الاكبر في ظهوره كعالم وقائد محنك وعادل بين الناس .

- حدد نور الدين محمود ان سبب ضعف الامة هو سبب تمزقها فعمل لوحدتها بالقوة تارة وبالسياسة تارة اخرى .
- خبرة نور الدين محمود السياسية والعسكرية هي التي جعلته يحارب الاعداء في معظم الاحيان ويهادن في البعض الاخر .
- أدار نور الدين محمود الدولة بذكاء واختار لها اهل الخبرة والورع والتقوى .
- عمل نور الدين محمود على بناء جيش قوي مزود بالعدد والعتاد ومزود بالاساليب القتالية .
- التزم نور الدين محمود النواحي الشرعية في جمع الاموال وابتعد عن أي شبهة مادية .
- اهتم نور الدين محمود بالجانب الصناعي والتجاري كروافد لانتعاش الاقتصاد في البلاد .
- بالرغم من الحروب والدمار والزلازل في الشام الا ان نور الدين محمود اهتم بأعمار البلاد .
- اهتم نور الدين محمود بانشاء المساجد والمؤسسات العلمية بأقامة جيل صالح متعلم مجاهد ينفع البلاد والعباد .
- اهتم نور الدين محمود بانشاء المستشفيات للاخذ بالاسباب في علاج الجيش والسكان .
- عمل نور الدين محمود علي تشجيع العلم والعلماء لان العلماء اذا صلحوا صلحت البلاد .

ملحق (1) الشرق الإسلامي زمن دولة نور الدين محمود

المصدر : بلاد الجزيرة أواخر العصر العباسي، ص172.

((المصادر والمراجع))

أولاً : المصادر العربية.

ثانياً : المصادر الأجنبية.

ثالثاً: المصادر الأجنبية المترجمة.

رابعاً: المراجع العربية.

خامساً: المراجع الأجنبية.

سادساُ : المراجع الأجنبية المترجمة

سابعاً : الدوريات العربية.

ثامناً : الدوريات الأجنبية المترجمة.

تاسعاً: الموسوعات والمجموعات اصة.

أولاً. المصادر العربية:

1. ابن الأثير، أبو الحسن على بن أبي الكرم الشيباني الجزري الملقب بعز الدين(ت 630هـ/1232م):

-"الكامل في التاريخ"، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت 1995م.

-"التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل"، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط2، 1995م.

2. ابن الأخوة: محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت729هـ/ 1338م):

-"معالم القربة في أحكام الحسبة"، تحقيق: محمد شعبان و صديق المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976م.

3. الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، (ت 560هـ/1164م):

"المشتاق في اختراق الآفاق"، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1415هـ/1994م.

ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم السعدي ررجي، (ت 668هـ/1269م):"عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، ضبطه وصححه ووضع فهارسه محمد باسل عيون السود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 14هـ/1998م.

4. ابن إياس، محمد بن أحمد (ت930هـ/ 1524هـ):

-"بدائع الزهور في وقائع الدهور"، تحقيق: محمد مصطفى، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1982م.

5. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي(ت779هـ/1377م):

"الرحلة المسماه تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، تحقيق على المنتصر الكتاني، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984م.

6. البغدادي، صفي الدين، عبد المؤمن بن عبد الحق(739هـ/1339م):

"مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع"، تحقيق على محمد إلىحاوي، دار المعرفة الجامعية، بيروت، د.ط، د.ت.

7. البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد (ت 487هـ/1094م):

"معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع"، تحقيق مصطفى السقا، ط3، عالم الكتب، بيروت، 1982م.

8. البنداري، الفتح بن على بن محمد (ت 622هـ/1225م):
-"تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصفهاني"، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، ط3، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980م.
-"سنا البرق الشامي"، مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني، تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة انجي، القاهرة، 1979م.
9. البيهقي، أبو الفضل محمد بن حسين (ت 470هـ/1077م):
-" تاريخ البيهقي"، ترجمة: يحيى شاب، صادق نشأت، مكتبة الانجلو المصرية، 1956 م.
10. ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت 874هـ/1469م):
"النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، المؤسسة المصرية العامة للتإلىف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.د.ط.
11. ابن جبير، محمد بن أحمد (ت 614هـ/1217م):
"الرحلة المسماة تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار"، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب، المصري، بيروت-مصر.
12. الجزري، شمس الدين أبو ير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (ت 833هـ/1429م):
- "غاية النهاية في طبقات القراء "، 4 أجزاء، نشره: ج. برجستراسر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1932م.
13. ابن جماعه
تذكره السامع والمتكلم فى ادب العالم والمتعلم / حققه وعلق عليه محمد هاشم الندوى بيروت : دار المعالي، 1998 ابن جماعه، ابو عبدالله بدرالدين محمد بن ابراهيم 733ه ط3
14. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن على(ت 597هـ/1200م):
"المنتظم في تاريخ الأمم والملوك"، 17جزء، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط1، بيروت، 1413هـ/1992م.
15. الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله: (ت626هـ/1228م):
-"معجم الأدباء" المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، 7 أجزاء، حققه وضبط نصوصه وقدم له: عمر فاروق الطباع، ط1، مؤسسة المعارف، بيروت، 1420هـ/1999م.
-"معجم البلدان"، 7أجزاء، ط2، دار صادر، بيروت، 1416هـ/1995م.
16. ابن حوقل، أبي القاسم:
-" المسالك والممالك"، ط1، ليدن، 1873م.
17. خسرو، ناصر(ت480هـ/1087م):

"سفر نامة"، ترجمة يحيى شاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1414هـ/ 1993م

18. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت 808هـ/1405م):
"العبر وديوان المبتدأ وبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.

19. ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681هـ/1282):
"وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1968س م.

20. خليفة، حاجي مصطفى بن عبد الله القسطنطيني(ت 1067هـ/1656م):
"كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون"، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.

21. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ/1347م):
-"تذكرة الحفاظ"، 4أجزاء، وضع حواشيه الشيخ زكريا عميرات، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1419هـ/1998م.
-"سير أعلام النبلاء"،17جزء، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، ط1، دار الفكر، بيروت، 1418هـ/1997م.
-"تذكرة الحفاظ"، طبعة 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م."العبر في خبر من غبر"، 4أجزاء، حققه وضبطه أب هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- " تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام"، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري.ط1، دار الكتاب العربي، لبنان/ بيروت، 1407هـ - 1987م.

22. الراوندي، محمد بن على سليمان (ت599هـ/1019م):
-" راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية"، نشر وتصحيح محمد ساقبال، ترجمة: إبراهيم الشواربي، عبد النعيم حسانين، فؤاد الصياد، دار العلم، القاهرة، 1960م.

23. سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر، يوسف بن قزاوغلي (ت 654هـ/1256م):
-"مرآة الزمان في تاريخ الأعيان"، تحقيق ودراسة مسفر ابن سالم الغامدى، الجزء الأول،لمملكة العربية السعودية جامعة أم القرى معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة، 1987م.
-"مرآة الزمان في تاريخ الأعيان"، تحقيق حيدر آباد، الدكن، الهند، 1952م الجزء الثامن.

24. السبكي، أبي نصر عبد الوهاب بن على (771هـ/1369م):
-"طبقات الشافعية الكبرى"، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود الطناحي، ط2، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة، القاهرة، 1992م.

25. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ):

- " تاريخ لفاء"، ط1، تحقيق: محمد محي عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1952م.
26. أبو شامة، شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، (ت665هـ/ 1266م):
-"الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" ط1، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م.
-"تراجم رجال القرنيين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين"، ط2، دار الجيل، بيروت، 1394هـ/1974م.
27. ابن شداد، بهاء الدين يوسف (ت 632هـ/1234م):
"النوادر السلطانية والمحاسن إلىوسفية"، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت.
28. ابن شاهنشاه، محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي"ت 617هـ/1220م):
"مضمار الحقائق وسر لائق"، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، د.ط، د.ت..
29. ابن الشحنة، أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد، (ت 815هـ/1412م):
-"الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب"، وقف على طبعه وعلق حواشيه يوسف بن إلىان سركيس الدمشقي، المطبعة الكاثوليكية للآباء إلىسوعيين، بيروت، 1909م.
- " روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر"، بهامش الجزء الثامن من كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، ط القاهرة، 1290هـ/1873م.
30. ابن شداد الحلبي، عز الدين أبي عبد الله محمد بن على بن إبراهيم(ت 684هـ/1258م):
"الأعلاق طيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة"، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه سامي الدهان، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1992م.
31. الشيزري: عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله العدوي الشيزري الطبري (ت:: نحو 590هـ):
- " نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة"، تحقيق: السيد الباز العريني، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر، 1946م.
32. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ/1362م):
-"الوفي بالوفيات"، تحقيق مجموعة من الأساتذة، فرانز شتاينر بفيسبادن، بيروت، (1962-1963م).
33. ابن الصلاح، تقي الدين أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، (ت643هـ/1245م):
"طبقات الفقهاء الشافعية" جزءان تحقيق محي الدين على نجيب، ط1، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،1413هـ/ 1992م.

34. الطبري، محمد بن جرير (ت 310هـ/922م):
"تاريخ الأمم الملوك"، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ/1982م.
35. ابن طولون، محمد بن على الصالحي (ت 953هـ/1546م):
"القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية"، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق، 1949م.
36. ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرح بن أهرون(660هـ/1286م):
سس"تاريخ مختصر الدول"، بيروت، د.ط، د.ت، د.ن.
37. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله (ت 660هـ/1261م):
-"بغية الطلب في تاريخ حلب"، تحقيق سهيل زكار، ط1، دار الفكر، بيروت، 1988م.
-"زبدة الحلب من تاريخ حلب"، تحقيق سامي الدهان، دمشق، 1968م.
38. عرقلة، حسان بن نمير الكلبي (ن 567هـ):
-" ديوان عرقلة الكلبي"، تحقيق: أحمد الجندي، دار مكتبة الحياة، دمشق، 1970م.
39. ابن عساكر، أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله،(ت571هـ/1175م):
" تاريخ دمشق "، دراسة وتحقيق: على شيري، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، والتوزيع، بيروت، 1998م.
40. العليمي، مجير الدين الحنبلي، (ت927هـ/1520م):
"الأنس الجليل بتاريخ القدس وليل"، جزءان، الجزء الأول تحقيق عدنان يونس أبو تبانة، والجزء الثاني تحقيق محمود الكعابنة، ط1، مكتبة دنيس، عمان، 1420هـ/1999م.
41. العماد الأصفهاني عماد الدين بن عبد الله محمد بن محمد الكاتب (ت 597هـ/ 1201م):
-"البرق الشامي"، تحقيق فالح حسين، ط1، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، الأردن، 1987م.
-"خريدة القصر وجريدة العصر"، قسم شعراء الشام، ط1، تحقيق شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، نشره مجمع اللغة العربية بدمشق، 1968م، قسم شعراء مصر، تحقيق أحمد أمين وآخرون، نشر لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة، د.ت، د.ط.
42. ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي العكري الدمشقي (ت 1089هـ/1678م):
"شذرات الذهب في أخبار من ذهب"،8أجزاء، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
43. العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله، (ت749هـ/1349م):
-" مسالك الأبصار"، نشره احمد زكي باشا، القاهرة، 1924.
44. عوفي، سديد الدين محمد بن محمد (ت635هـ/ 1260م):

-" لباب الألباب، نشر براون، ليدنن 1903م.
45. أبو الفداء، إسماعيل بن على بن محمود، (ت 732هـ/1331م):
-"المختصر في أخبار البشر"، جزءان، علق عليه ووضع حواشيه محمود ديوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ/1997م.
-"تقويم البلدان"، اعتنى بتصحيحه مطبعة رينود، والبارون ماك كوكين ريسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1840م.
46. ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت 807 هـ/1404م):
"تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات"،المجلد الر ابع في قسمين تحقيق حسن محمد الشماع، البصرة، 1967م/1979م، د.ط، المجلد السابع والثامن، تحقيق قسطنطين زريق، ونجلاء عز الدين، بيروت، 1939م.
47. ابن قاضي شهبة، بدر الدين (ت 874هـ/1469م):
"الكواكب الدرية في السيرة النورية"، تحقيق محمود زايد، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971م.
48. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت 682هـ/1283م):
-"أخبار البلاد وأخبار العباد"، دار صادر، بيروت، 1969م، د.ط.
-"عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات"، ط1، مكتبة الإيمان، المنصورة، 2003م.
49. ابن القلانسي، أبي يعلى حمزة (تـ 555هـ/1160م):
"ذيل تاريخ دمشق"، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908م.
50. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله (ت 821هـ/1418م):
"صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، دار الكتب المصرية، 1963م.
"مآثر الأناقة في معالم لافة، تحقيق عبد الستار أحمد فالخراج، ط2. مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1985م.
51. الكتبي، محمد بن شاكر، (ت 764هـ/1362م):
"فوات الوفيات"، 5أجزاء، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1393هـ/1973م.
52. ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل بن عمر (ت774هـ/1372م):
"البداية والنهاية"، مكتبة المعارف بيروت، د.ط، د.ت.
53. الماوردي \ أبو الحسن، علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي
لكتاب: أدب الدنيا والدين- 450هـ الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة الأولى 1407 هـ - 1978 م، أبي الحسن الماوردي الأحكام السلطانية ، الناشر: دار الكتب العلمية تاريخ النشر: 2000/12/01

54. مسكويه/أحمد بن محمد تجارب الأمم وتعاقب الهمم 6/1 المؤلف: ابن الناشر: دار الكتب العلمية سنة النشر: 2003
55. ابن مفلح، برهان الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد (ت884هـ/1479م):
"المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد"، 3أجزاء، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ط1، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، 1411هـ/ 1990م.
56. المقدسي، محمد بن أحمد(ت 390هـ/999م):
"أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق، غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1980م.
57. المقريزي، تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر، (ت 845هـ/1441م):
-"السلوك لمعرفة دول الملوك"، تحقيق محمد على بيضون، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
-" كتاب المقفى الكبير"، 8أجزاء، تحقيق محمد إلىعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1412هـ/1991م.
-"المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية"، جزءان، ط2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1408هـ/1987م.
-"اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا"، جزءان، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، 1971م، د.ط.
58. ابن مماتي، الأسعد بن مماتي (ت606هـ/1209م):
"قوانين الدواوين"، تحقيق عزيز سوريان عطية، القاهرة، 1973م.
59. ابن منظور، محمد بن مكرم (ت 711هـ/1311م):
"لسان العرب"، ط 1، دار صادر، بيروت، د.ت.
60. ابن منقذ، مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن على الكناني الشيرزي (ت 584هـ/1188م): "كتاب الإعتبار"، حرره فيليب حتى ،مطبعة جامعة برستون، الولايات المتحدة، 1930، والدار المتحدة، 1986م،
61. ابن منير، أحمد بن منير بن أحمد (548 هـ/1153م):
-" شعر ابن منير"، جمع وتحقيق: سعود محمود عبد الجابر، ط1، دار القلم، الكويت 1981م.
62. ابن ميسر، تاج الدين محمد على (ت 677هـ/ 1278):
-" المنتقى من أخبار مصر"، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1981، د.ط.
63. النعيمي، عبد القادر بن محمد، (ت978هـ/1570م):

– "الدارس في تاريخ المدارس"، جزءان، أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ/1990م.

64. نظام الملك، الحسن بن اسحاق بن العباس الطوسي،(ت 485هـ/ 1092م):

– " سياسة نامه، ترجمة محمود العزاوي، ط القاهرة 1975م، وترجمة: يوسف بكار، دار الثقافة، الدوحة، قطر، 1987م.

65. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت 733هـ/1332م):

"نهاية الأرب في فنون الأدب"، 31جزء، مركز تحقيق التراث، القاهرة، 1412هـ/1992م.

66. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت697هـ/1298م):

"مفرج الكروب في أخبار بني أيوب"، ج1–3، تحقيق جمال الدين الشيال، مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1953/ 1957م.

67. ابن الوردي زين الدين عمر ابن المظفر بن أبي الفوارس (749هـ/1348م):

"تتمة المختصر في أخبار البشر"، المعروف بتاريخ ابن الوردي، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، ط1، دار المعرفة بيروت، 1970م.

68. اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان، (ت 768هـ/1366م):

"مرآة الجنان وعبرة إلىقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان"، بيروت، 1974م، د.ن، د.ط.

69. ابن يحيي، صالح بن يحيي بن الحسين(ت840هـ/1439م):

"تاريخ بيروت"، تحقيق فرنسيس هورس و آخرون، بيروت، 1967.

ثالثاً. المصادر الأجنبية المترجمة:

1. التطيلي الأندلسي، بنيامين بن يونه(ت 569هـ/1173م):
"رحلة بنيامين"، ترجمة عزرا حداد المدرسة الوطنية، بغداد، 1365ه/1945م.
2. دويل، أودو أوف: "رحلة لويس السابع إلى الشرق من خلال كتاب سهيل زكار الحروب الصليبية"، ط1، دار حسان، دمشق 1984م.
3. الصوري، وليم "الأعمال المنجزة فيما وراء البحار"، ترجمة: سهيل زكار ط1، دار الفكر 1990م.
4. **المؤرخ المجهول:**
"أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي"، القاهرة دار الفكر العربي، د.ط 1958م.
5. **تأليف : العبدة محمد**

الموضوع: أيعيد التاريخ نفسه اللغة: بنغالي ، ترجمة : الحافظ نثار الدين مراجعة : عبد الله بن شهيد عبد الرحمن الناشر : المكتب التعاوني للدعوة وتوعية الجاليات بالربوة بمدينة الرياض

رابعاً. المراجع العربية:

1. **أحمد، أحمد رمضان:**

"المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية" د. ط ، د. القـــاهرة 1977.

"شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى"، د.ط، د.ن، القاهرة 1977م.

2. **اسماعيل محمود:**

سوسيولوجيا الفكر الاسلامى : محاوله تنظير / ط 1 الدار البيضاء : دار الثقافه، 1980 ج 1: طور التكوين. ج 2: طور الازدهار: القسم الاول: الخلفيه السوسيو – تاريخيه الفلسفه الاسلاميه

3. **أمين،حسين:**

تاريخ العراق في العصر السلجوقي، المكتبة الأهلية، بغداد، 1965م.

4. **الباشا، حسن:**

"الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار"، القاهرة، 1978م.

5. **بدوي، أحمد أحمد:**

"الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام"، دار نهضة مصر للطبوالنـــــشر، القاهرة، د.ط، د.ت.

6. **البيشاوي، سعيد عبد الله:**

–"نابلس، الأوضاع السياسية والإجتماعيـــة والثقافيـــة والإقتـــصادية فـــي عـــصر الحـــروب الصليبية"492–690هـــ/1099–1291م" د.ن عمان، الأردن، ط1، 1991م.

7. **توفيق، عمر كمال:**

–"مملكة بيت المقدس الصليبية"، ط، الإسكندرية، 1958م.

8. **الجميلي:**

–" السفن الإسلامية على حروف المعجم"، دار المعارف بمصر، 1979،

9. **الجنزوري، علية:**

–" إمارة الرها الصليبية"، ط القاهرة، 1974م.

10. **جوزيف نسيم يوسف:**

–"الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي"، الإسكندرية، 1966م.

–" العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولي"، القاهرة، مؤسسة شـــباب الجامعـــة، ط1983م.

11. **حسن، إبراهيم،حسن:**

–"" الفاطميون في مصر"، ط القاهرة 1932م.

-" تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي" ،ط1، 4أجزاء، النهضة المصرية، 1962م.

12. **الحويري، محمود محمد:**

- "الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر م المـــــــــيلاد" دار المعارف، القاهرة،1400هـ/ 1979م.

13. **الخالدي، فاضل:**

-" الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق خلال القرن امس الهجري"، دار الأديب، بغداد، 1969م.

14. **خليل عماد الدين:**

-" نور الدين محمود وتجربته الإسلامية"، دار القلم، دمشق، ط 2، 1407هـ/1987م.

-" عماد الدين زنكي"، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1402ه - 1982م.

15. **سالم، السيد عبد العزيز:**

-" تاريخ مدينة طرابلس في العصر الاسلامي"، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1967م، د.ط.

-"طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي"، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1386هـ/1966م.

-"التاريخ والمؤرخون العرب" مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1981م، د.ط.

16. **زكي، عبد الرحمن:**

-"السيف في العالم الإسلامي". ط القاهرة، 1957م.

17. **السرطاوي، محمود فايز إبراهيم:**

-" نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية"، عمان، دار البشير، ط1، 1990م.

18. **سرور، محمد جمال الدين:**

-"الدولة الفاطمية في مصر"، ط القاهرة، 1960م.

- "تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن امس الهجري . القاهرة، دار الفكر العربي 1965م.

19. **سعداوي، نظير حسان:**

-"المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - 1962م.

20. **الصلابي، على محمد:**

-" فقه التمكين في القرآن الكريم"، دار المعرفة للطباعة والنشر، 2005م.

21. **تأليف : العبدة محمد**

الموضوع: أيعيد التاريخ نفسه اللغة: بنغالي ، ترجمة : الحافظ نثار الدين مراجعة : عبد الله بن شهيد عبد الرحمن الناشر : المكتب التعاوني للدعوة وتوعية الجاليات بالربوة بمدينة الرياض

22. **عاشور، سعيد عبد الفتاح:**

-" الحركة الصليبية"، الجزء الثاني:ط7، مكتبة الأنجلو1418هـ/1978م.-- "أوروبا في العصور الوسطى"، مكتبة الأنجلو المصرية، ط8، 1985م.

23. **عاشور، فايد حماد:**

-"جهاد المسلمين في الحروب الصليبية"، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م، د.ط.

24. **عبد القادر، دريد:**

-" "سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام والجزيرة 570-589هـ/1174- 1193م"، بغداد، 1979م، د.ط، د.ت.

25. **عبد المهدي، عبد الجليل حسن:**

"الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي"، ط1 مكتبة الأقصى، عمان، 1980م، د.ن.

26. **عثمان، فتحي:**

"الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري"، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1966م، د.ط.

27. **العريني، السيد الباز:**

"الشرق الأدنى في العصور الإسلامية، الأيوبية"، دار النهضة العربية القاهرة.

28. **عطية، محمد حسين:**

"إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون "1171- 1268م/567-666هـ"، دار المعرفة، الجامعة الأسكندرية، ط1، 1989م.

29. **العقلا عبدالله بن فريح**

معوقات الجهاد في العصر الحاضر تحليلاً وتقويماً - تحقيق: بدون لناشر: مكتبة الرشد - الرياض - الطبعة: الأولى - سنة الطبع: 1423هـ تصنيف خاص: الدعوة والتربية - تصنيف رئيس: سياسة شرعية تصنيف

30. **عمار، جمال فوزي محمد:**
"التاريخ والمؤرخون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (531-660هـ)، ط1، مكتبة القاهرة للكتاب، 2001م.

31. **عنان، محمد عبد الله:**
"مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري"، القاهرة 1969م، د.ط، د.ن.

32. **عوض، محمد مؤنس:**
-" الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية"، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1995م.
-" السياسة ارجية للدولة النورية"، 541-569هـ/1146-1174م. ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1998م.

33. **الغامدى، على محمد على:**
"بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي 463-491هـ/1070-1098م"، المكتبة الفيصلية، الرياض، 1984م، د.ط.

34. **كرد، على، محمد:**
-"خطط الشام"، بيروت، 1971م. -" الإسلام والحضارة العربية"، دار الكتب المصرية، 1934م، د.ط.

35. **مؤنس، حسن:**
"نور الدين بن زنكي فجر الحروب الصليبية"، ط2، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، 1984م.

36. **مصطفى، شاكر:**
" التاريخ العربي والمؤرخون"، دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجال في الإسلام، د.ط، بيروت، 1979م. "المدن في الإسلام حتى العصر العثماني"، ط1، مطبعة ذات السلاسل، الكويت، 1988م.

37. **ابن موسى، تيسير:**
"نظرة عربية على غزوات الإفرنج منذ بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين"، الدار العربية للكتاب، ب.ت.ط.

38. **النبراوي، فتحية:**
" النظم والحضارة الإسلامية، ط 7، القاهرة: دار الفكر العربي، 1994م.

39. **36. النجار، محمد رجب:**

-" حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي"، سلسلة عالم المعرفة، العـــدد 45، الكويـــت 1981م.

40. نقاش، زكي:

"العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية"، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت،1378هـــ/ 1958م.

خامساً. المراجع الأجنبية:

1. Archer,T.H, and Kingsford C.L:The Crusades.
"The story of the latin Kingdom of Jerusalems" London 1914.

2. Gibb; H.A.R:
"The Damascus Chronicle of the Crusades", London, 1932.

3. Marino Santo:
"Secrets for true crusaders to help them to recover the holy land" , Trans
. by A. Stewart, P.P T.S., London 1896.

4.Stevenson, W.B:
"The Crusaders in the East", Lebanon, Beirut, 1968.

سادساً. المراجع الأجنبية المترجمة:

1. **باركر، آرنست:**

"الحروب الصليبية"، ترجمة السيد الباز العريني، ط2، دار النهضة العربية، بيروت 1967م.

2. **بردج، انتوني:**

"تاريخ الحروب"، ترجمة أحمد غسان سبانو، و نبيل الجيرودى، مالخراجعة: سهيل زكـــار، د.ط، دار قتيبة، 1985م.

3. **بروكلمان، كارل:**

"تاريخ الأدب العربي"، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة، 1977م، د.ط، د.ن.

4- تاريخ بيروت تأليف: صالح بن يحـــي ترجمـــة، تحقيـــق: اليـــسوعي-الـــصليبي الطبعة: 1 مجلدات: 1 الناشر: دار المشرق

4. **رنسيمان، ستيفن:**

-"تاريخ الحروب الصليبية"، ترجمة السيد الباز العريني،دار الثقافة، بيروت، 1969م.

-"الحضارة البيزنطية"، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997م.

5. **زابوروف، ميخائيل:** "الصليبيون في الشرق"، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم -موســـكو-، 1986م.

6. **زامباور:**

"معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي"، أخرجه، زكي محمد حـــسن، د.ط، د.ن، القاهرة 1951م.

7. **سميل، ريلي:**

"الحروب الصليبية"، ترجمة سامي هاشم، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيـــــروت، 1982م.

8. **كاهن، كلود:**

"الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية"، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر، بيروت، 1995م، د.ط.

9. **لي سترانج:**

"فلسطين في العهد الإسلامي"، ترجمة محمود عما يرى، ط1، جمعية المطابع التعاونية، عمان، 1970.

10- **متز، آدم:**

- " الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: عبد الهادي أبو ريـــدة، ط القـــاهرة، 1940-1941م، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، 1967م، مكتبة الخانجي.

سابعاً. الرسائل الجامعية:

1- أبو صيني، عبد القادر أحمد:

" دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة"، " رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، بغداد.

2- **الفراني، عبد الحميد جمال:**

" المقاومة الشعبية للاحتلال الصليبي في بلاد الشام"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، الجامعة الإسلامية بغزة، مايو 2005م.

3- **المدني، رشاد محمد:**

"الحياة العلمية في فلسطين" رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، الجامعة الإسلامية بغزة، 2005م.

4- المزيني إبراهيم محمد حمد الحياة العلمية في العهد الزنكي (رسالة جامعية) 1990

5- نقاش، زكي:

"الحشاشون وأثرهم في السياسة والاجتماع"، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام 1950م.

ثامناً. الدوريات العربية:

1- الشامي، صناعة السفن، بحث نشر بمجلة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، 1994م.

2- خصباك، جعفر حسين، القضاء في العراق في العهد السلجوقي، بحث مستخرج من المجلة التاريخية العراقية، العدد الثالث، (بغداد 1974م)،

3- طرخان، إبراهيم على:

"الإقطاع الإسلامي أصوله وتطوره- دراسة مقارنة"، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد (6) 1957م.

4- **عاشور، سعيد عبد الفتاح:**

-" شخصية الدولة الفاطمية في الحركية الصليبية"، المجلة التاريخية المصرية، (م 16) عام 1969م.

5- **عنان، عبد الله:**

" قلاع المسلمين والصليبيين في سوريا ولبنان"، مجلة الهلال السنة (42) ج(5) عام 1933.

6- **العوفي، محمد سالم بن شداد:**

"الحركة الصليبية وأثرها في تطور العلاقات بين مصر والشام" في الفترة (490-554هـ/1096-1156م) مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد (8) 1044هـ/1984م.

7- المنجد، صلاح الدين:

"اللاجئون المقادسة إلى دمشق بعد الغزو الفرنجي ونتائج هجرتهم"، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام-فلسطين، ط1، المجلد الثالث، الجامعة الأردنية، عمان، جامعة اليرموك، اربد، 1983م/1404هـ.

Abstract

This is a study on the internal politics of the State of Nur al-Din Mahmud bin Zangi. It deals with the personality of Nour Eddin Mahmoud, his up bringing, jihad, and culture, and his continuous efforts to consolidate the nation. He conducted all this with skill and interest. He maintained the dissemination of justice among the people. He was concerned with the development of his army with all necessary equipment, materiel, and defeated the Crusaders in the various battles.

He focused on improving economic and financial systems in commercial, industrial, agricultural and educational spheres. He took good care of scientific, cultural, and health aspects. He built mosques, hospitals, and built special bases for the mujahideen in the country.

The study was divided into five chapters. The researchers tackled the following areas of research:

Chapter I: The Life of Nur al-Din Mahmoud, and his jihad.

Chapter II: Nur al-Din approach in the management of the State.

Chapter III: Alnuri Army and its military structure. He worked on a ranking system, functions, procurement, training, and methods of preparation. He also provided the army with all needed supplies, weapons, and equipment. He distributed benefits the leaders of the army.

Chapter IV: financial and economic system of the State.

First: the financial system:

1 - financial resources which includes funds from main resources such as Zakat, ransom, and spoils.

2 - Sub-resources such as: taxes, tolls, and investment in many of the economic zones that he took control of. Second: Economic System: Including agriculture, industry, trades, and handcrafts, and all its revenues.

Chapter V: the researcher addressed and analyzed the scientific and cultural institutions during time of Nur al-Din, including mosques, schools, emmarstanat, unions, Gorges, and the houses of Hadith. He study ended by a conclusion which the researchers collected all his findings. The researcher hopes that through this detailed study that has fulfilled Nur al-Din Mahmud bin Zangi right, and that took the subject in all its aspects in an objective mannar, and gave a clear idea of the efforts of Nur al-Din Mahmud the consolidation of the Islamic State in Egypt and the Levant and northern Iraq, and building a young nation was able to gain many military achievements against the crusaders. This study should be the beginning of further studies on Islamic figures have had a role in building the Islamic state, and jihad against the enemies of the nation.

Islamic University - Gaza
High Education Studies
History & Archeology
Department

The Internal Policy of The State of Nur Al-Din Mahmud Bin Zangi

“1174 – 1146 = 569 – 541”

Submitted By:
Mohammed/Najeeb Abed El Wahab Mohammed Hamad

Supervised By:
Dr. Riyadh Mustafa Shaheen

"A Thesis Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Master in Islamic History”

2009 - 1429